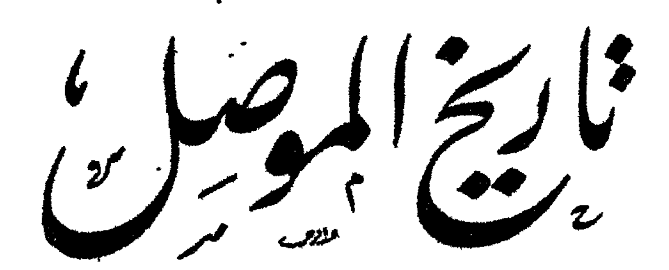


لمؤلفه

القس سليمان صائغ

الجزء الاول

HISTOIRE DE MOSSOUL

PAR

SULEIMAN SAIGH

Prêtre Chaldéen

١٣٤٢ - ١٩٢٣

المطبعة السلفية - بمصر

لصاحبها : محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان



لمؤلفه

القس سليمان صائغ الموصلي

الجزء الاول

HISTOIRE DE MOSSOUL

PAR

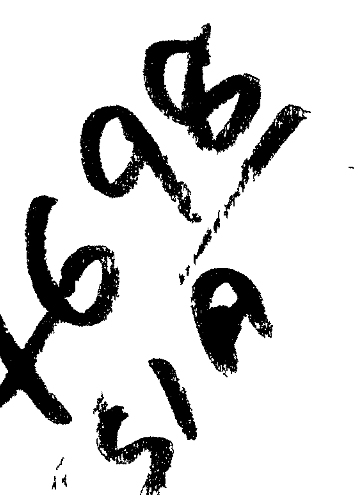
SULEIMAN SAIGH

Piêtro Chaldéen

١٣٤٢ — ١٩٢٣

المطبعة السلفية - بمصر

لصاحبيها محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان





جلالة ملك العراق

فيصل الأوّل

خلد الله ملكه بالنصر والسعد

تقديم الكتاب

الى أعتاب إكليل هام المعالى والسيادة ، ودرّة تاج
مفرِق الاقبال والسعادة * فرع الدّوحة
الهاشمية ، ورافع الاعلام العربية *
جلالة مليكنا المفدّى فيصل الاول
اطال الله بقاءه ، وخلد ملء
الدهر سناءه *
آمين

يا صاحب الجلالة ،

لا غروَ اذا كان العرب عموماً ، وابناء العراق خصوصاً ، يعطّرون الفضاء ، بنشر فعالكم الغراء ، وذكر اياديكم البيضاء . كيف لا وقد رتعوا تحت ظل عدلكم مرتع الامن والهناء . وبلغوا بمساعيكم شأواً من الرقي لم يبلغه النظراء . فالبستموهم من السعد والعز ابهى ثوب قشيب ، واحرزتم لهم من الفلاح أوفر نصيب ورفعتم فى ظهرانيهم للعلم مناراً ، وشدتم في ربوعهم للمعارف فخاراً

يا صاحب الجلالة الهاشمية ،

ان القلم حاسر ، واللسان قاصر . فكأني بالقلم ينادي : ألا أقصر فلن تحصي أو تحصى النجوم ،

وقل ما شئت فيه من مقال   تجده فوق ما نطق المديحُ

فحقيق بابناء العراق ان يردوا الاماني من بحر كرمكم ، ويزدحموا على عذب مناهلكم ؛ وألسنتهم تلهج ثناء ، وقلوبهم تختلج حباً وولاء ، وتروم ان تكتب على صحف الاجيال كلمة شكران ذهبية

فيرفع الخادم الامين الى اعتابكم كتابه — وهو أول تاريخ لام الربيعين — ويسترحم نشره هدفاً للنقد في عصركم الفيصلي ، المستمد نوره من المقام الحسيني الهاشمي الجليل ، استمداد القمر من الشمس . فقد تذكرت عهد الرشيد و المامون ، ووقع في ساحتي الطائر الميمون . وتقدمت بكتابي مستمطراً وابل فضلكم ، لينتعش روضه ، وتتفتح ازهاره ، لنفع امتي ، وبني نزعتي . لازلتم ترسلون على رياض العلوم من هواطل اياديكم وابلا وطلاّ ، وتبسطون الامن واليمن على العراق ظلاّ . آمين

القس سليمان صائغ





صاحب السمو الملكي

الامير زيد بن جلالة الملك حسين

مقدمة

حمداً لمن جلّ عن التحديد والتبيان . وعجز عن حصر أسمائه وصفاته القلمُ واللسان . الموجود الكامل الذي بالنسبة اليه أطلق الوجود على الملأ الأعلى والحيوان . الأزلي الذي لايعينهُ تاريخ وزمان . العظيم الذي لايحده وضع ومكان * اللهم انا نحمدك حمد مقرّين بفيوض شآبيب النعماء والاحسان . ومستعجمين عن ابداء مكنونات الثناء ونجاوى الشكران

أما بعد فلما كان التاريخ من العلوم الجليلة الفائدة ومن الفنون الجزيلة العائدة لطبقات الهيئة الاجتماعية جمعاء . من علماء اعلام . وسوقة طغام . سعى أرباب العلم في تدوين حوادث الأمم الغابرة . والدول السالفة تدويناً اجمالياً . وتوسيعاً لنطاقه فرزوا لكل أمة أو مدينة تاريخاً خصوصياً مدوناً قصد أن يقتدي الاخلاف بالاسلاف . فتكون أخبارهم مشكاة يهتدي المستنيرون بها الى مناهج الصواب وحسن العمل . أو منجاة للخاصة والعامة من مواطن الزلل . وذلك اقتفاء أو اعتباراً بالماضين الأول

وعلى هذا نجد اليوم تواريخ مسطرة لكل مدينة اشتهرت بآثارها . وأخبار دولها ومشاهير رجالها . الا اننا لسوء الحظ لم نجد للموصل الخضراء تاريخاً خاصاً بها يوقفنا على قدميتها . وينطوي على أخبارها قبيل الفتوحات الاسلامية وبعدها . مع أن الموصل لم تكن أقل رقياً من أخواتها بعض المدن الشرقية ، بل قد تباريها مجداً وتكاد تناطحها رقياً . بأدوار حكوماتها ودولها المهمة وسير مشاهير رجالها ، وتضارعها بآثارها العريقة في القدمية الصاعدة الى الأعصر الآثورية الشهيرة بمدنيتها بين شعوب العمل في تلك الازمنة كالبابليين والمصريين والفينيقيين

وقد عنى المتقدمون من فحول علماء الموصل في تدوين تاريخها و استيعاب الطارف والتالد من أخبارها « كتاريخ الموصل » لقاضيها أبي زكريا الازدي الذي عاش في أواخر القرن الثالث الهجري و « كتاب الباهر » في أخبار ملوك الموصل الاتابكيين للمؤرخ الشهير عز الدين بن الاثير في أواخر القرن السادس الهجري . هذه وغيرها من الكتب النفيسة التى لم أقف لها على أثر وربما اغتالتها يد الضياع فلم يتبق لنا من أخبار دول الموصل وسير مشاهير رجالها الا النزر الذي نراه في خلال أسطر صحف المؤرخين

فحملتني رغبتي في خدمة ابناء وطني من العامة الذين لا يستطيعون مطالعة مجلدات ضخمة للوقوف على بعض أحوال الموصل أن أجمع شتات هذه الأخبار والانقلابات وأحبر تاريخاً لأم الربيعين . فسمت التصنيف وأنا المفلس وتعنيت أمراً ليس من شأني ولا أنا من رجاله . رجاء نفع العامة ونيل رضى الخاصة . والمرء ايها الكرام ممدوح أو مقدوح بنيته اذ انما الأعمال بالنيات . وما قصدي في هذا العمل الا امحاض الخدمة لوطني . وبعد مثابرة متواصلة على المطالعة مدة سنة ونيف توفقت بعونه تعالى الى وضع هذا الكتاب وقد سعيت جهدي في احكام الرصيف ونقل الحقايق التاريخية الممحصة من مواردها ومآخذها معتمداً على أشهر المؤرخين الذين هم النبراس المهتدى والعمدة المنتدب اليهم ، كالطبري وابن الأثير وابن خلدون وابي الفداء وابن خلكان وشهاب الدين المقدسي وغيرهم من المؤرخين الحداث ، وطنيير وغرباء. هذا عدا ماتلقيته من أقوال مأثورة ونقلته من أوراق خطية قديمة . وقد وطأت هذا الجزأ الاول بتوطئة وجيزة تلخص للقاريء اللبيب أخبار الدول التي حكمت بلاد الموصل قبيل الفتح الاسلامي تمهيداً لمعرفة مبدأ تأسيس الموصل

ثم قسمت الكتاب أبواباً وفصلته فصولا تشتمل على جل أخبار الدول الناشئة في الموصل بعد الاسلام وتطرقت زيادة في الايضاح الى ذكر بعض

حوادث عمومية كما اقتضاه الحال في ايراد ما يهمنا منها وفرزت لكل دور انقلابي كلاماً موجزاً عن تقدم العلوم أو تأخرها وعن الآثار الباقية والعافية التي لم أجمعها في فصل خصوصي وانما ذكرتها في الفصول على سبيل الاستطراد

فأقدمه الى ساداتي الكرام لا كبناء رصيف مستوفى الهندام بل كأساس مرصوص خالص المادة يستطاع التعويل عليه . فأتقدم الى أنصار العلم وأرباب الفضل راجياً أن يسبلوا عليّ ذيل السماح كرماً في ما يجدونه في كتابي هذا من النقص والخطأ سيما وأن تاريخ الموصل عسر المنال لقلة منابعه ومصادره . وسلفاً أشكر لهم عما اذا وقفوا فيه على بعض النقص والسهو وأطلعوني عليه لأنه أول مؤلف في تاريخ الموصل

وفي الختام أشكر للكرام الذين وازروني بتشجيعهم وتفضلوا عليّ بالكتب والمعلومات سيما أسدي امتناني وشكراني لسادتي الأفاضل سيادة نقيب الأشراف مولاي عبد الغني أفندي وصاحب السعادة الحاج أمين بك الجليلي الذي أفادني معلومات جليلة وحضرة عبد الله بك آل سليمان بك الذي دلني على موارد تاريخية مهمة وحضرة أمجد افندي آل العمري الذي تكرم علي بأوراق خطية قديمة جزيلة الفائدة والشكر لله أولا وآخراً وهو حسبنا ونعم الوكيل



﴿ أخص الكتب التاريخية ﴾

« التي اعتمدت عليها في هذا التأليف »

١ تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (طبري)
٢ كتاب الأغاني للامام ابي الفرج الأصبهاني (أغاني)
٣ تاريخ الكامل لأبي الحسن عز الدين بن الأثير (ابن الاثير)
٤ وفيات الأعيان لأبي العباس شمس الدين أحمد المعروف بابن خلكان (ابن خلكان)
٥ التاريخ اليانع لابي الحسن علي بن الحسين المسعودي (المسعودي)
٦ تاريخ الملك المؤيد ابي الفدا (أبو الفدا)
٧ كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر لعبدالرحمن بن خلدون (ابن خلدون)
٨ مختصر الدول لغريغوريوس أبي الفرج المعروف بابن العبري (أبو الفرج)
٩ التاريخ السرياني لابن العبري (ابن العبري . س)
١٠ النوادر السلطانية للقاضي بهاء الدين ابن شداد (شداد)
١١ كتاب الروضتين لشهاب الدين المقدسي (المقدسي)
١٢ نخبة التواريخ والاخبار (نخبة)
١٣ يتيمة الدهر لأبي منصور عبد الملك النيسابوري الثعالبي (الثعالبي)
١٤ فوات الوفيات لمحمد بن شاكر (شاكر)
١٥ مقدمة ابن خلدون (مقدمة)
١٦ الفتوحات الاسلامية للسيد أحمد دحلان (دحلان)
١٧ معجم البلدان لياقوت الحموي (ياقوت)
١٨ تاريخ روضة المناظر لأبي الوليد محمد بن الشحنة في هامش تاريخ الكامل (ك . ابن الشحنة)

١٩ تاريخ اخبار الدول لابي العباس أحمد المعروف بالقرماني في هامش الكامل (ك . قرماني)

٢٠ رحلة أبي الحسن محمد بن جبير الاندلسى (ابن جبير)

٢١ رحلة أبي عبد الله محمد الطنجي المعروف بابن بطوطة (ابن بطوطة)

٢٢ كتاب الرؤساء لتوما المرجي طبعة بيجان (المرجي)

٢٣ كتاب المجدل لعمر بن متى الطيرهانى طبعة رومية (الطيرهانى)

٢٤ المكتبة الشرقية المجلد الثالث للسمعانى طبعة رومية (سمعانى)

٢٥ تاريخ كلدو وآثور للمطران ادي شير (شير)

٢٦ تاريخ يوسيفوس اليهودي

٢٧ تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان الجزء الثانى (زيدان)

٢٨ قاموس الاعلام ش . سامي (سامي)

٢٩ تاريخ المشرق لكايمن

٣٠ تواريخ الشعوب الشرقية القديمة تأليف لنورمان

٣١ التواريخ العمومية لبودريار

٣٢ كتاب خطي في الطومار الجليلي (طومار)

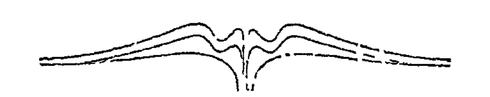
٣٣ منهل الأولياء تاريخ خطي للموصل لمؤلفه محمد أمين أفندي العمرى

٣٤ سالنامة الموصل سنة ١٣٠٨ لكاتبها توفيق فكرت افندي

٣٥ تاريخ أحمد جودت

٣٦ بعض اوراق خطية قديمة (او . خط)

وقد أضربنا عن ذكر عدة مؤلفين في هذا الجدول من الذين نقلنا عنهم تحاشياً عن الاطالة وسترد الاشارة اليهم في محله



توطئة

في الحكومات التي نشأت في بلاد ما بين النهرين
حتى استيلاء العرب عليها بعد الاسلام

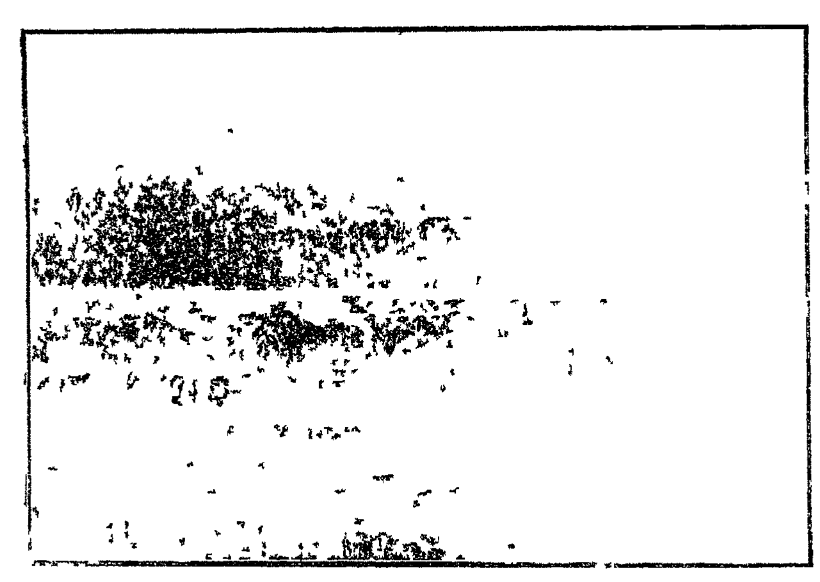
الفصل الاول

١ ـ المملكة الاثورية * ٢ ـ المملكة الكلدانية * ٣ ـ كورس الفارسي *
٤ ـ اسكندر المقدوني . ثم المملكة السلوقية

ان أرض ما بين النهرين هي بقعة واسعة يكتنفها نهرا دجلة والفرات . وينشأ هذان النهران في أرمينيا من أعلى سلسلة جبال نيفات المعروفة بجبال قلشين ويسيران متماوجين الفرات متجها الى الغرب ودجلة الى الشرق . ثم ينعطف الفرات الى الشرق ويجري محاذياً دجلة على التقريب . ولا يزالان يقتربان طوراً وطوراً يتباعدان . حتى يجتمعا في مجرى واحد يسمى شط العرب ، ثم يصبان في الخليج الفارسي فالأرض التي يحيطها نهرا الفرات ودجلة دعي قسمها الاعلى ما بين النهرين وقسمها الجنوبي بلاد الكلدان والقسم الواقع منها على شواطيء دجلة العليا بلاد آثور وكان يحدها شمالاً أرمينيا وشرقاً بلاد مادي

وكانت بلاد كلدو وآثور واسعة كثيرة الريع والخصب غزيرة المياه والجداول وكان الآثوريون قد انصرفوا الى تعمير القنوات وحفر مخازن المياه والى اليوم تُرى آثارها فان السير ولكوكس بسياحته الاخيرة سنة ١٩٠٥ في بلاد الكلدان تبين له الأمر بما لقيه من آثار احواضهم وخزائنهم المائية حتى قال ان تلك البلاد كانت سابقاً كجنة غناء تزينها الخضرة والمزروعات الأمر الذي يدل على مبلغ الكلدان في حسن ابنيتهم لجمع المياه وتوزيعها على انحاء بلادهم

(١) لم يدون المؤرخون القدماء عن الآثوريين الا بعض حكايات غير مسندة هي أقرب الى التصورات الخيالية منها الى الحقائق التاريخية غير ان العلماء المتأخرين من ارباب العاديات وقفوا أخيراً على حقيقة التاريخ الآثوري بواسطة الحفريات التي اجراها الاثريون في مواقع المدن الآثورية القديمة. وعُني بهذه الحفريات العلماء الانكليزيون والفرنساويون. وبدأ بذلك الموسيو بوتا (Botta) سنة ١٨٤٢ في تل قويحق وهو من نينوى القديمة الآثورية وموقعها قبالة الموصل شرقي دجلة. ثم المستر لايارد (Layard)



تل قويحق

واكتشف على الهيكل والبلاط الملوكي الذي رممه سنحاريب بن أسرحدون وعلى شيء كثير من الخطوط المكتوبة على الآجر بخط مسماري. ثم عقبهما الموسيو لفتوس (Loftus) والعلامة المستر رسام الموصلي واكتشفا على قصرين فخيمين قصر أسرحدون وقصر اتوربانابال حيث وُجدت كتابات آثورية على الآجر في ٢٠٠٠٠ قطعة وكان اثوربانابال قد صرف همته لجمع

في مكتبة قصره عدداً عظيماً من هذه الكتابات ودوّن فيها اخبار اسلافه من الملوك الآثوريين وما جرى في زمانه . واليوم يوجد في المتحف البريطاني من هذه القطع الاجرية نحو مائة متر مكعب تخمن بخمسمائة مجلد على تقدير ان كل مجلد يشتمل على خمسمائة صحيفة . ولما توفق المستشرقون الى حل لغز الكتابة الاثورية انفتح امام العلماء عالم جديد وعرفوا من اخبار قدماء الأمم الراقية الى مهد البشرية ما كانت طمسته كوارث الحدثان وبقي دفيناً في قلب الارض فوقفوا على ديانة الآثوريين وعلى حياتهم الاجتماعية والعلمية والسياسية.

قد ورد عن الآثوريين في روايات غير مسندة ان نينوس أسس مملكته في البقعة الموجودة بين الهند والبحر المتوسط ثم خط نينوى وأتقن بناءها وزخرفها وبعد الفراغ منها أخذ يشنّ الغارات على القبائل المجاورة له . وفي احدى غزواته التقى بسميراميس الشهيرة بالجمال والحكمة والعمل والاقدام فاتخذها زوجة وهي بعد موته خلفته على سرير الملك وشيدت بابل وأحسنت بناءها حتى جعلتها أعظم وأجمل من نينوى . أما الملوك الذين جلسوا بعدها على سرير الملك فقد أساءوا السيرة وأهملوا أمور الملك حتى تضعضعت أركان الدولة الآثورية . ولما ملك سردنا بل وهو آخر ملوكها استولى الماديون على نينوى فاضرم سردنا بال النار في قصره فالتهمته وتلف كل ما كان فيه من الكنوز الثمينة

أما الحقيقة التاريخية التي وقف عليها العلماء من الآثار القديمة المكتشفة حديثاً فهي ان المدن في القطر الآثوري كانت في منشأها عبارة عن بلاد مستقلة في ادارتها الواحدة عن الاخرى . ثم أحرز آثور الاسبقية على غيره من الملوك فملك في نينوى وأربيل . وبعد ذلك استعرت نيران العداوة بين المملكة الآثورية والمملكة الكلدانية ودام الحال هكذا حتى نالت المملكة الآثورية كمال استقلالها الشعبي والاداري ولم تقتصر على ذلك بل حملت على أعدائها واصلتهم حروباً حامية ألجأتهم على الهزيمة وأخضعت تحت أمرها بلاد

مابين النهرين والبلاد الكلدانية وقد بلغت المملكة الآثورية الى أوج المجد على عهد ملكها تقلتفلسر الاول فدانت لها الشعوب المجاورة وامتد ملكها من خليج العجم الى البحر المتوسط والى لبنان . وما زالت تسير في مراقي الفلاح حتى قلب لها الزمان ظهر المجن ، فسقطت من عزها وانحطت عن مجدها مدة غير يسيرة . ثم نهضت من سقطتها في القرن التاسع قبيل التاريخ الميلادي على عهد تقلتفلسر الثالث فاسترد هذا بلاده وأعاد حدود مملكته كما كانت قديماً ثم انصرف الى سن الشرائع الضامنة بالنجاح وعنهم أخذها الفرس فقسم المملكة الى ولايات وأقام في كل ولاية والياً لجمع الجباية وتجييش العساكر وتعبية الجنود . وعقب هذا العصر عصر مجيد على المملكة الآثورية وهو عصر السرجونيين الذي بدأ سنة ٧٢٢ ق م في تملك سرجون أو شركينا وكان هذا شجاعاً يحب الحروب والغزوات ويرافقه النصر أين سار لحارب بني اسرائيل والمملكة المصرية وقهر جيوشهم واستولى على بلادهم .

ثم اسور بانابال (٦٦٧ ــ ٦٢٥) وهذا كان آخر ملك آثوري رفع قدر مملكته وشيد صروح مجدها حتى انه فاق اسلافه من الملوك بعلو الهمة وثبات العزيمة وشدة الباس فاخضع مصر واستولى على سوس عاصمة مملكة عيلام وتوفي اسور بانابال سنة ٦٢٧ أو ٦٢٨

يقول العلامة السيد ادي شير « ان تاريخ الدولة الآثورية بعد وفاة اسور بانابال غامس في الظلمة . وقال البعض انه بعد اسور بانابال ملك ابنه سركوس أو سينشار شكين فكان واهي العزيمة وبأيامه خربت نينوى وانقرضت دولة آثور . وذلك ان نابوبولاسار الوالي على بابل من قبل ملك آثور نادى بنفسه ملكاً على بابل وتحالف مع كواصار ملك المادبين فحملا على الآثوريين الذين أضعفتهم الحروب الكثيرة وشددا الحصار على نينوى مدة سنين ثم افتتحاها وأخرباها فاصبحت تلك المدينة العظيمة أرضاً بلقعاً . وبعد مضي جيلين على خرابها لم يشاهد من قصورها وهياكلها وبيوتها

العظيمة الا بعض الحجارة على اطلال خربة لم يزل بعضها ماثلاً الى اليوم . فان سركوس لما تحصن في قصره ورأى سوء مصيره وانه سيقع بيد أعدائه أضرم الدار في قصره وباد فيه بمن معه (٦٠٨ ق م)

بعد خراب نينوى انقسمت المملكة الآثورية أي بلادها الى مملكتين جديدتين الأولى المملكة الكلدانية الجديدة ، والثانية المملكة المادية .

(٢) أما المملكة الكلدانية فكانت تشتمل على ما بين النهرين وسوريا وفلسطين . ثم بعد وفاة نابوبولاسار ملك بعده ابنه نبوكدناصر والعرب يسمونه بختنصر . واشتهر هذا بحروبه الكثيرة مع القبائل المختلفة كمملكة يهوذا وسوريا ومصر وبلاد العرب وساق منهم أسرى كثيرين الى بلاده وتوفي نبوكدناصر (٥٦٢ق م) وخلفه ابنه اميلمردوخ وكانت الفتن والقلاقل قد عمت المملكة حتى أصبحت على جرف هار لوهن قوتها وزادت أحوالها وخامة بتملك نبونهيد الواهي العزيمة .

(٣) وكان آنئذ قد ظهر أمر كورش الفارسي (٥٥٢ ق م) وتغلب فحمل على بلدان الكلدان (٥٣٨ ق م) وخرج عليه بلطشاصر بن نبونهيد ليدافع عن المملكة بعسكره . فهوى قتيلاً في معركة وتفرق جنده وافتتح كورش الفارسي بابل (٥٣٨ ق م) ومن ثم انقرضت المملكة الكلدانية باستيلاء الفرس على بلادها . فاحسن كورش الى الرعية وأرجع الاسرى من اليهود ومن غيرهم الى أوطانهم [١] . وهكذا آل أمر هاتين المملكتين العظيمتين لكورش الفارسي ولأخلافه . وقام منهم احد عشر ملكاً آخرهم كان أرسيس الذي قتله باغو أحد ثقاته وعنده اندثرت العائلة الملوكية الفارسية ثم ان باغو أقام على سرير المملكة أحد أصدقائه دارياوش (٣٣٦ ق م) وكان دارياوش حازماً نشيطاً جديراً بادارة الملك غير ان تلك المملكة الجائرة دارت عليها الدوائر وحكم عليها بان تسقط امام اقدام اسكندر المقدوني المعروف

(١) ودريار ص ٣٦

بالكبير . وأسباب سقوطها كثيرة أخصها اتساع حدودها واختلاف شعوبها ونحلها ولغاتها . ونقص انتظامها . وسوء ادارتهـا . وقبح اخلاق ملوكها الغشومين .

(٤) كانت الشعوب اليونانيـة تتوق الى محاربة الفرس اثاراً منهم عن حروب سالفة فلما ملك اسكندر الكبير (٣٣٦ ق م) وحد كلمة اليونان وحمل على الفرس بعدة ثلاثين ألف راجل وبعد وقائع كثيرة أشهرها واقعة اربيل (٣٣١ ق م) انهزم الفرس ودخل اسكندر مدينة اربيل مظفراً . ثم افتتح كركوك وشوشان وبابل وكان دارياوش قد قتـل سنة ٣٣٠ . ولما استقر الامر لاسكندر سار الى اخضاع الشعوب الهندية . ثم عاد من حروبه الى بابل وقد كلله الظفر فوفدت اليـه السفراء في بابل من جميع الانحاء والشعوب ليقدموا هدايهم ويبرموا المعاهدات الصلحية مع فاتح أسيا وسيد العالم. وبعد ان نظم اسكندر شؤون ملكه الواسع سعى أولا بمزج اخـلاق تلك الامم المتباينة مع الشعوب اليونانية فزوّج عشرة آلاف مقدوني ببنات فارسيات. وهو نفسه اتخـذ له امرأة احدى بنات دارياوش . وانصرف جهده ليوحد هذه الممالك فيجعلها مملكة واحدة عاصمتها بابل . غير ان الموت اختطفه وله من العمر ثلاث وثلاثون سنة . وسئل اسكندر قبـل موته ببضع دقائق لمن يترك التاج الملوكي . فاجاب للاقوى . على اني أرى أعواني سيحتفلون لي بجنازة حربية مهولة . وهكذا كان . فان قواده تنازعوا الملك بعـد موته وثارت بينهم حرب ضروس اسفرت نتيجتها عن تقسيم مملكة اسكندر الى أربعة أقسام فأعطيت سوريا وجميع بلاد ما بين النهرين الى سلوقوس أحـد قواده . وجرى ذلك (٣١١ ق م) وهي بدء التاريخ اليوناني . فانصرف سلوقوس الى اصـلاح أحوال المملكه وكان هماماً شجاعاً ابتنى مدناً كثيرة أشهرها انطـاكية وساليق على دجلة . ثم سعى في محو التمدن البابلي وانشر تمدن اليونان وعلومهم في جميع انحاء مملكته . ولم يمض زمن يسير على ملكه

حتى أصبحت اللغــة اليونانية عمومية في أسيا قاطبة . وملك بعد سلوقوس اثنان آخران هما سلوقوس انطيوخوس الاول وانطيوخوس الثاني . وكانت مدة ملكهم من (٣١١ ق م) الى (٢٤٥ ق م) وبينما كان سلوقوس ثاءوس ابن انطيوخوس الثـاني يحارب ملك مصر ثار الفرثيون ـــفي أسيا العليا ، فتحصنوا في بلادهم وطردوا المقدونيين ومن ثم أسسوا حكومة مستقلة هي دولة الارشاقيين الفرثيين

الفصل الثاني

في المملكة الارشاقية أو الفرثية وإماراتها

ان أصل الفرثيين هو من الشعب الاسقوثي أو الاشكوزي وهم ساكنو البلاد الجبلية التي في شرقي بحر قزبين وجنوبيه. وخضعوا لحكومات مختلفة : للاثوريين ومن بعدهم للماديين ثم للفرس وأخيراً خضعوا لاسكندر الكبير . فملك عليهم رجلاً من ثقاته اسمه استاسانور . ثم على أثر النزاعات التي جرت بين خلفاء الفاتح الـكبير بعد موته ـ كما أسلفنا ذكره صار أمر الفرثيـين الى سلوقوس وخلفائه .

كان موقع البـلاد الفرثية منيعاً محصناً وبلادهم سيئة المناخ قليلة الريع لقحولة أراضيها فكان سكانها يعيشون عيشة بدوية شظفة متنقلين في الجبال الواقعة بين هرقانيا ومرجيانا . وكانوا يحسنون ركوب الخيل ورمي السهام . فثاروا على السلوقيين الذين كانوا متسيطرين عليهم وجاهروا بالعصيان معلنين استقلاليتهم. وحاول انطيوخوس ثاءوس عبثاً تسكين هذه الثورة فان ارشاق أحد زعماء الفرثيين هجم بمن معه على الوالي السلوقي واسمه اغاثوكليس فقتله وجلس مكانه (سنة ٢٥٠ ق م) وحمل على هرقانيا واستولى عليها . ثم جمع جيشاً عظيماً وسار به الى محاربة السلوقيين والبختريانيين فهادته أهل بخترياية

وانضموا اليه وانتصر ارشاق على السلوقيين فطردهم عن بلاد فارس ومادي وكلدو وآثور ، واستولى عليها . ومنه بدأت مملكة الارشاقيين أو الفرثيين. وقام بعده ثلاثون ملكاً كانوا يسمون باسمه ارشاق وكانت عاصمتهم ساليق ثم بنى الفرثيون ازاءها مدينة أخرى دعوها قطيسفون ويسمي العرب هاتين المدينتين « المدائن » .

ان الرومانيين بعد استيلائهم على سوريا حاولوا ان يستولوا أيضاً على المملكة الفرثية ولم يفلحوا . فان افراتيوس قائد بومبيوس أغار عليها سنة ٦٥ ق م ورجع عنها خائباً وبعده كراسوس حمل على البلاد الفرثية . وذلك على عهد أورود ارشاق الرابع عشر . وكانت العساكر الفرثية على أهبة تامة. فاطبقت عليه وانتشبت الحرب بين الفريقين فانكسر كراسوس وقيل انه قتل خدعة سنة ٥٤ ق م . ثم ان مرقوس انطونيوس عزم على الانتقام من الفرثيين فأغار عليهم سنة ٣٦ ق م بمقدمة ست عشرة كتيبة . وانضم اليه ارتفاسد ملك الارمن . وبعد عراك شديد عاد مرقوس انطونيوس خائباً . ولما كانت سنة ٢٠ ق م سعى افراهاط ملك الفرثيين بمصالحة الرومانيين . فأطلق أسراهم الذين اعتقلهم الفرثيون في محاربتي كراسوس ومرقوس انطونيوس ووثق ارطبان الثالث أي ارشاق التاسع عشر العلاقات الصلحية مع الرومانيين والتفت الى اخضاع الشعوب المجاورة له فحاربهم وقهرهم . ثم تكبر واستخف بقوة الامبراطور طيبريوس وعجزه وتقاعده عن الحروب لكبر سنه. فحمل ارطبان على ارمينيا وكانت حينئذ خاضعة للرومانيين ففتح بلادها واستولى عليها . وحدثته نفسه ان يستولى على مملكتي فارس واليونان جاعلاً نفسه وريثاً لكورش الفارسي واسكندر المقدوني . ومن ثم باتت المملكة الفرثية والمملكة الرومانية عدوتين متباينتين

ولما تملك خسرو أي ارشاق الرابع والعشرون تمكنت الحزازات العدائية بين الفرثيين والرومانيين فحمل طرايانوس الامبراطور الروماني (سنة ١١٤ مسيحية) حملة زعزعت اركان المملكة الفرثية وتوغل في بلادها فقتل ونهب وسبى . ثم استولى على سواحل دجلة من جبال أرمينيا الى الخليج

الفارسي وجعل ما بين النهرين وأرمينيا قطعة واحدة خاضعة للرومانيين . لكن هذا الانتصار العجيب لم يدم زمناً طويلاً فان خسرو عبى جيوشه وحارب الرومانيين فكسرهم واستعاد بلاده .

ومن ذلك الحين (أي سنة ١٩٧ مسيحية) أخذت المملكة الفرثية بالانحطاط لسبب الفتن والقلاقل الداخلية الكثيرة التي كان الشعب يثيرها على ملوكه المستبدين أو كانت تنشأ في العائلة الملوكية لتنازعهم الملك

ولما جاس أولغاش الرابع أي ارشاق الثلاثون وارطبان الرابع أي ارشاق الواحد والثلاثون كثرت القلاقل والمشاغب في العائلة الملوكية فانتهز الفرصة قراقلا الامبراطور الروماني وحمل على مابين النهرين (٢١٦ مسيحية) وفي السنة التالية أبرم مرقيانوس خليفة قراقلا صلحاً مع الفرثيين غير ان المملكة الفرثية ما زالت في انحطاط واضطراب حتى استعرت نيران الثورة التي قلبت المملكة الفرثية وقامت مكانها المملكة الفارسية المعروفة بالساسانية (٢٢٦ م) كما سنراه .

كانت المملكة الفرثية تنقسم الى مقاطعات أو ممالك صغيرة مستقلة الواحدة عن الاخرى ولكل منها ملك يحكم عليها ويخضع للارشاق . لهذا سمي ملوك الفرثيين بملوك الطوائف لتوزع أراضيهم بين ملوكيات صغيرة [١] .

وقد نشأت هذه الملوكيات الصغيرة من عهد تملك اليونان على هذه البلاد . وذلك ان الاسكندر المقدوني الفاتح لما غلب على الفرس وأسر ملوكهم وكبارهم ملك عدة منهم على الفرس قصد ان يقع بينهم التشاحن والتباغض فيأمن اليونانيون غائلتهم . وأقام على الفرس نحو عشرين ملكا وهم المسمون بملوك الطوائف [٢] وأشهر هذه الممالك هي مملكة الرها (أورفا) ومملكة تدمر وكانت في بر الشام وامارات حطارا . وكانت قريباً من تكريت وامارة ميشان وكانت في موقع البصرة . وامارةسيخار وامارة حدياب وكانت في أرض الموصل وما يجاورها . وعلى ما يؤيده السيد ادي شير ان هذه الممالك

(١) المسعودي ج ١ ص ١٠١
(٢) ابو الفدا ج ١ ص ٤٨

كانت كلدانية ارامية فكانت تارة تستقل وأخرى تخضع للفرثيين أو للرومانيين . لسوء الحظ لم تحفظ لنا التواريخ الا النزر القليل من أخبار هذه الدول التي تشكلت قبل المسيح بزمن قليل ودامت الى بعد المسيح باجيال قليلة وكانت هذه الامارات الارامية واهنة القوة ضعيفة اراء أعدائها ، لانقسامها على بعضها وعدم اتفاقها الملي الذي حال دون مرامها من تشكيل حكومة مركزية قوية ، فقال عنها المسيو ساشو : كان لها لسان واحد وديانة واحدة ولم يكن لها أبداً حكومة واحدة لصون كيانها وانتشارها

أما حدياب فعلى ما قال السمعاني [١] كانت القطعة الاشرف موقعاً والاهم سياسة في جميع بلاد آثور واسمها يشمل جميع الاصقاع الآثورية وسماها العرب حزة وذكرها بهذا الاسم بعض كتبة الكلدان القدماء فان عمر بن متى قال عن يشوعياب الحزي مانصه : كان يشوعياب من بلدة حزة المعروفة الآن باربل : والأصح لم تكن اربيل عين حزة بل كانت أهم بلادها

ان امارة حدياب كانت بين الزابين تمتد الى آثور (شرقات) والى نصيبين وقاعدتها مدينة أربيل . ولا يعرف التاريخ اسماء الملوك الذين تبوأوا عرش امارتها وحوادثهم مفصلا . الا أن يوسيفوس المؤرخ اليهودي ذكر اسم أحد ملوك حدياب وهو ايزاط الذي ملك في الجيل الأول للمسيح وعلى عهده ضم ارطبان الثالث ملك الفرثيين نصيبين الى قطعة حدياب وجعلها تحت حكم ايزاط [٢] ثم ورد في تاريخ مشيحزخا [٣] اسماء بعض ملوك حدياب منهم شهراط ونرساي وملك نرساي الى أوائل الجيل الثالث بعد المسيح وبوقته انتشبت حرب بين أولغاش الرابع ملك الفرثيين وبين الفرس عند خراسان فانكسر الفرثيون ولاذوا بالهزيمة فعقبهم الفرس واثخنوا فيهم الجراح ثم أن أولغاش جمع قوته واستأنف الكرّ على الاعداء فوهبه الله اكتافهم وهزمهم الى بحيرة قزوين وقتل منهم خلقاً كثيراً . أما نرساي ملك حدياب فلم يرافق

(١) السمعاني مجلد ٣ ج ٢
(٢) دوفال تاريخ الرها ص ٤
(٣) ص ٢٥ و٢٨

القرثيين في هذه الحملة وأغضبهم ذلك منه ولما رجعوا منصورين هجموا على بلاده وأخربوا مدنه ونهبوها وأغرقوه في الزاب الأكبر

وربما دامت هذه الامارة على استقلالها الاداري الى ما بعد تملك الساسانيين اذ يذكر عن أحد ملوكها وهو سنحاريب وما جرى له من قتل ولديه (١) بهنام وساره لأنهما كفرا بعبادة الاوثان واعتنقا عبادة الاله الحق على يد الشيخ متى الناسك في جبل القاف فقتلهما مع من ذهب مذهبهما من أصحابه في جحد آلهة الاوثان وكان مقتلهما قريباً من الجبل المذكور سنة ٣٥٢ م ثم ندم سنحاريب على ما فعل فنبذ عبادة الاوثان وعمر هيكلا على جبل القاف للشيخ متى ورهبانه وشيد على اسم ولديه الشهيدين هيكلاً آخر في محل قتلهما حيث وضع جثتيهما في جرنين ودفنهما فيه باكرام عظيم . ثم كمل بنيان الهيكل المذكور رجل من أشرف الأسرات الفارسية اسمه اسحق وبنى حول ذلك الهيكل غرفاً للزائرين وهذا الهيكل المكنوزة فيه بقايا ماربهنام ورفقائه الشهداء هو في غربي قرهقوش على مسافة اربع ساعات ويسمى دير ماربهنام وهو الآن بيد السريان الكاثوليك . اما دير مارمتى فهو في جبل القاف أو المقلوب ويعرف بجبل الشيخ متى في شرقي الموصل على مسافة ثماني ساعات بيد السريان القديم وكان سكان حدياب من الجنس الأرامي على ما يثبته دوفال (٢) بقوله : ان الأراميين (وهم النبط) كانوا يقطنون سوريا وما بين النهرين والولايات الشرقية كحدياب وبيت كرماي وغيرها وبينهم شعوب أخرى كان الأراميون قد تغلبوا عليها بانتشار لغتهم الارامية التي كانت حينئذ اللغة الدارجة في قسم عظيم من آسيا أي بلاد الشام والجزيرة والعراق وآثور وما يجاور هذه البلاد فان المملكة الآثورية وبعدها المملكة الكلدانية نشرتا لغتهما الارامية في جميع البلاد التي دوّخها ملوكها . ولم تفقد هذه اللغة رونقها بعد سقوط هاتين المملكتين واستيلاء الفرس عليهما بل لبثت هي اللغة السائدة

(١) قصص الشهداء طالع بيجان جلد ٢ ص ٣٩٧
(٢) آداب اللغة السريانية ص ٤

في جميع انحاء البلاد التي خضعت لهما كمصر وآسيا الصغري وسوريا وانتشرت أيضاً في شمالي جزيرة العرب الى حدود الحجاز وذلك في القرون الأولى من التاريخ الميلادي ، فقد وجدت في شبه جزيرة سينا كتابات آرامية لا تحصى أبقاها لنا عرب تلك الجهات (١) وأيد دوفال أن اللسان الآرامي كان عاماً ومنتشراً من سواحل البحر المتوسط الى طورس فالخليج الفارسي فحدياب على أن أهالي حدياب كانوا من الاراميين جنساً ولغة وكان العرب يسمونهم النبط وقد أطلق بعض مؤرخيهم هذه التسمية أي النبط على الفرثيين من الفرس (٢)

قال السيد اقليمس داود في مقدمة كتاب اللمعة الشهية : ومنذ القرن السابع بدأت اللغة العربية تقرض اللغة الارامية شيئاً فشيئاً حتى الغتها في القرن الخامس عشر للميلاد وسادت مكانها . ولم تمت هذه اللغة تماماً بل ما زالت باقية الى اليوم عند بعض الشعوب النصرانية ، الموجودة في العراق وكردستان وسوريا وبلاد العجم . وهي وان كانت قد تغيرت عما كانت عليه في وقت الكلدان القدماء الا أنها منذ بدء التاريخ المسيحي لم يطرأ عليها شيء من التغيير والذين يتكلمون بها اليوم منهم بجوار مدينة دمشق تبعد عنها ثماني ساعات حيث يوجد قرى صغيرة أكبرها قرية «معلولة» يتكلم أهلها السورث وهي الارامية . ثم من نصارى كردستان اربيل وسليمانية وكويسنجق ومن بلاد فارس سنا وأورمية . ومن بلاد آثور قرى النصارى التي في شمالي الموصل ومن هذه القرى ما يصعد الى زمن الاثوريين . فان في قرية باقوفا ويسميها الكتبة الأقدمون بيت قوبي أي بيت الأخشاب تلاً صغيراً قد وجد فيه أهالي هذه القرية بعض الآثار المخطوطة القديمة العهد وشوهد فيه آثار أبنية على شكل هياكل وبقيت هذه القرية مع ما يجاورها من القرى أشبه بمدن الى الأعصار المتأخرة بعد المسيح حيث دمرتها غارات التركمان

(١) المشرق سنة ١٩٠٣ ص ٧٠٥
(٢) طالع المسعودي ص ٩٠ و٩٣ و١٠٠

والفرس ويقال أيضاً عن قرية تللسق أو تلازقيبا (التل المنتصب) أنه وُجد في بعض حفرياتها شيء من الخطوط وعن بعد ثلاث ساعات منها قرية القوش المبنية في لحف جبل بيت عذري من سلسلة جبال قردو ويرجح أن تكون هذه القرية موجودة من زمن الآثوريين وفقاً للتقاليد الجارية عن ناحوم النبي أنه توفي فيها والى اليوم يعرف فيها ضريحه وفي هذا رأي معارض بأن القوش التي ينتمي اليها ناحوم النبي كانت احدى مدن الجليل في اليهودية

اما التقليد الحالي فمخالف لهذا حيث ان اليهود باجماع الرأي متفقون على ان ناحوم النبي توفي في القوش الاثورية وعليه فيحجون من البلاد الشاسعة الى ضريح النبي المذكور الموجود فيها وهذا هو الارجح . فان ناحوم النبي على ما يظن كان معاصراً لحزقيا ملك يهوذا وتنبأ في أواخر ملكه ومن المعلوم ان سنحاريب الملك الاثوري بعد اغارته على سوريا (سنة ٧٠٢ ق م) اغار على حزقيا ملك يهوذا واستولى على ست وأربعين مدينة محصنة من مدنه وعلى عدد كبير من قراه ونهبها كلها وأسر منها ٢٠٠١٥٠ أسيراً استاقهم الى بلاده [١] أفلا يمكن ان يكون ناحوم النبي من جملة هؤلاء الاسرى ومات في القوش الاثورية ؟ أولا يمكن ان ناحوم النبي وُلد في القوش الاثورية من الاسرى الذين استاقهم الملك الاثوري تقلا تپلاسر الثالث من بلاد يهوذا واسرائيل في حملته (سنة ٨٣٨ق م [٢]) . ويزيد هذا الرأي تأييداً نبوة ناحوم نفسها فانها تقتصر في البحث عن نينوى وتبدأ بهذه الآية : وحي على نينوى . سفر رؤيا ناحوم الالقوشي . وفي فصوله يتنبأ هذا النبي الجليل على خراب نينوى فيصف قبح اخلاق أهلها ووفرة غناها وتجارها كمن قد عاش فيها

---

(١) شير ب ٤ ف ٥

(٢) شير باب ٤ ف ١

الفصل الثالث

دولة الفرس الساسانيين

ذكرنا آنفاً ان المملكة الفرثية انقرضت بثورة أهلية أحدثها اردشير ابن بابك من آل ساسان وقيل انه من سلسلة ملوك الفرس القدماء

وأورد سترابون انه كان للفرس ملك خصوصي خاضع للفرثيين . ثم ان اردشير عقد النية ان ينقذ وطنه من ربقة استبداد الفرثيين الذين تسيطروا عليهم مدة خمسة اجيال . فاستجاش الجند وهاج الماديين على الفرثيين واجتذب اليه ملوك الطوائف ومن جملة الذين تحزبوا له كان شهراط ملك حدياب ودوميطيانا ملك بيت كرماي فحمل عليهم ارطبان الرابع الفرثي ودارت بينهم رحى حروب سجال كانت دوائرها على الفرثيين فعادوا مقهورين خائبين ومن ثم أعلن اردشير ملوكيته المستقلة في مجلس انعقد في باخترا مسمياً نفسه ملك الملوك . وكان اردشير حازماً نشيطاً سمى بتقويم أود المملكة واصلاح شؤونها . ثم حول انظاره الى ضبط البلاد التي كانت تحت حوزة كورش الفارسي فانفذ رسولا الى الكسندر سويروس امبراطور الرومانيين وطلب منه ان يخلي آسيا وعلى هذا ثارت بينهما حروب اسفرت عن انكسار الرومانيين فاستولى اردشير على بيت كرماي وحدياب وسائر بلاد ما بين النهرين . ولما جلس على سرير الملك شابور الاول بن اردشير (٢٤١_٢٧٢) زحف على ارمينيا واستولى عليها . وانتصر عليه غورديان وضبط منه كل بلاد ما بين النهرين غير ان فيلبس قيصر هادنه وحالفه ورد اليه هذه البلاد . ثم ان والريانوس قيصر حمل على ما بين النهرين فناجزه شابور القتال وغلبه وأسره وذهب بفتوحاته الى انطاكية وقيليقية وقيصرية عاصمة قبادوقية

وخلف شابور هرمزد الاول (٢٧٢_٢٧٣) الا ان المنية اختطفته بعد

عام من ملكه ولم يتيسر له ان يباشر حرباً . ثم ملك بعده بهرام أو وارهاران (٢٧٣-٢٧٦) وكان هذا جباناً متقاعداً عن مهام الملك فاغار عليه الرومانيون وأخربوا بلاداً كثيرة في ما بين النهرين واستولوا على المداين وهي ساليق وقطيسفون ثم ساروا الى الجهة الاخرى من دجلة واستولوا عليها ولبثت مابين النهرين التي على الضفة الاخرى من دجلة خاضعة للرومانيين حتى ارتقى شابور الثاني بن هرمزد عرش المملكة الفارسية . وبعد بهرام أو وارهاران الأول ملك وارهاران الثاني (٢٧٦-٢٩٣) وفي زمانه أي سنة ٢٨٣ استولى كاروس قيصر على سائر بلاد ما بين النهرين ، وجلس بعده على سرير الملك وارهاران الثالث ولم يملك سوى أربعة أشهر ثم خلفه على عرش المملكة نرسا (٢٩٣-٣٠٢) وفي وقته قرر الرومانيون ان تكون ما بين النهرين في حوزتهم وجعلوا حداً بين المملكتين نهر الخابور

وقام بعد نرسا ابنه هرمزد الثاني (٣٠٢-٣٠٩) ثم خلفه ابنه شابور الثاني (٣٠٩-٣٧٩) [1] وكان هذا الملك حدث السن فساءت بزمانه احوال المملكة وكثرت فيها المشاغب وانتهز عرب اليمن ان يهجموا على عاصمة مملكته ولما بلغ شابور أشده اغار على بلادهم ثم حمل على الرومانيين ليسترد منهم الخمس الولايات. ونصيبين فمشى بعساكره على نصيبين لكنه عاد عنها بصفقة خائب ثم حاصر آمد وضبطها من الامبراطور قسطنس وخرب حصوناً كثيرة في ما بين النهرين. وسنجار وبازبدا

ولما تبوأ يوليانوس عرش المملكة الرومانية حمل على الفرس بشدة. فضعضع قواتهم وهزمهم لكنه هوى قتيلا (سنة ٣٦٣ م) بسم أصابه من السماء لكفره ولهذا سمي يوليانوس الكافر فألقى موته الفشل في جنده وتغلب الفرس عليهم فهزموهم شر هزيمة . ثم خلفه على عرش المملكة الرومانية يوفنيانيوس وهذا انقاد قسراً أن يبرم الصلح مع الفرس فأعاد لهم

(١) راجع الطبري ج ٢ ص ١٧٤ و ١٨٠

الخمس الولايات ونصيبين وسنجاراً وقصر الموز وكان من أعظم حصون ما بين النهرين وانصرف شابور الى تحصين البلاد التي استردها من ما بين النهرين ثم استولى على أرمينيا وألحقها بالبلاد الفارسية وحمل على ايبريا واستولى عليها ومات شابور سنة ٣٧٩ م بعد أن ملك سبعين سنة وكانت أيامه ملوثة بدم الأبرياء الذين قتلهم في انحاء ملكه من النصارى لسبب دينهم وعددهم يربو على الآلاف المؤلفة

ثم خلفه على سرير الملك ارداشير الثاني (٣٧٩ ـ ٣٨٣) ثم شابور الثالث (٣٨٣ ـ ٣٨٨) ثم بهرام الرابع (٣٨٨ ـ ٣٩٩) وبوقته هجم الهونيون على ما بين النهرين ونهبوا وسلبوا حتى بلغوا المداين فحمل عليهم بهرام وكسرهم واسترد منهم السبايا سنة (٣٩٩ م) وكانت القلاقل في أيام هؤلاء الملوك الثلاثة قد عثا شرها فانتهز الأرمن والايبريانيون وأعلنوا استقلالهم . ولما ملك يزدجرد الأول (٣٩٩ ـ ٤٢٠) وثق رباطات المودة بينه وبين الامبراطور أرقاديوس ومن ثم بات الشرق في أيامهما بصلح وسلام ، غير أنه في السنة الأخيرة من ملكه شرب كأسلافه سلافة الظلم حتى نمل من الدماء التي اراقها عفواً . وذلك أن كهنة النار حملوه على اضطهاد النصارى فقتل منهم خلقاً كثيراً ولجأ بعضهم الى مملكة الرومانيين ولما استولى بهرام الخامس على عرش المملكة (٤٢٠ ـ ٤٣٨) أرسل يطالب الرومانيين بالملتجئين اليهم من النصارى فأبى الرومانيون تسليمهم وعلى هذا شبت نيران الحروب وامتلأت جبال ارمينيا وسهول ما بين النهرين من الجيوش الرومانية وقاتلوا الفرس قتالاً شديداً الا أنهم لم يظفروا منهم بشيء فعادوا من حيث أتوا . وحارب بهرام الأتراك وقهرهم وقتل ملكهم الخان بحد السيف ثم توفي سنة (٤٣٨) وملك بعده ابنه يزدجرد الثاني وتوفي سنة (٤٥٧) فخلفه ابنه الأصغر هرمزدا ونازعه على الملك أخوه الأكبر پيروز واستنصر الهونيين فنصروه على هرمزدا وتولى الملك بعد أن قتل أخاه سنة (٤٦٠) . وحارب پيروز

الرومانيين وقتل في الحرب فخلفه ابنه بلاش و نازعه أخوه قباذ على الملك وعلى أثر ذلك توفي بلاش فملك بعده أخوه قباذ (سنة ٤٨٨) الا أن الفرس خلعوه لسوء سيرته وملكوا مكانه أخاه زماسب (٤٩٦) أما قباذ فالتجأ الى البرابرة حيث جمع له جيشاً زحف به على زماسب فقهره واستولى على عرش المملكة (٤٩٨ ـ ٥٣١) ثم ملك بعده ابنه كسرى الأول (٥٣١ ـ ٥٧٩) ودُعي انوشيروان أي ذا النفس الكريمة ، وهذا قام باصلاح المملكة وتنظيم الجيوش فانتخب من أعوانه أربعة وزراء عهد اليهم تدبير الولايات الكبيرة وهي آثور ومادي والفرس وبختريانه . ثم التفت الى تعديل الشرائع التي وضعها ارداشير الأول والى توسيع نطاق المعارف وتنشيط الزراعة وسعى أيضاً بتربية الأولاد الفقراء واليتامي وركب القنوات لجلب المياه وأسس مدرسة في سوس اشتهرت بالفلسفة والشعر والخطابة وأمر بتدوين تاريخ الحكومات الفارسية وترجمة كتب حكماء اليونان والهند وقرب اليه الممتازين بعلومهم ومعارفهم وأحسن اليهم . وقد اشتهر أيضاً انوشيروان بحروبه فاستولى على البلاد وخافته الملوك فصالحوه على الجزية وملك ٤٨ سنة ثم توفي سنة (٥٧٩)

وخلفه ابنه هرمزدا الرابع (٥٧٩ ـ ٥٩٠) وكان فظاً قاسياً فكرهته الرعية وخلعوه عن الملك (سنة ٥٩٠) وألقوه في السجن ثم ملكوا مكانه ابنه كسرى الثاني ابرويز (٥٩٠ ـ ٦٢٨) وذبح ابرويز أباه وهو في السجن وصالح الرومانيين الا أن الصلح لم يدم طويلا حتى استعرت بينهما نارالحروب وأحرز كسرى ابرويز انتصارات باهرة على الرومانيين ثم دارت عليه الدوائر بانحياز قواد جيشه الى هرقل بغضاً له فحمل هرقل حملة عظيمة وافتتح الروم وأرمينيا وحدياب وبيت كرماي وهي كركوك وما يجاورها واستولى عليها (١)

(١) طالع ابن خلدون ج ٢ ص ٢٢٣ . وشير ج ٢ ص ٢٣٨

ثم اغتصب ابنه شيروي الملك منه والقاه في السجن الذي ألقي فيه هرمزدا وذبح اخوته السبعة عشر وكان شيروي يرسل كل يوم المعذبين الى أبيه وهو في السجن ليذلوه ويعذبوه بنخز النصل وأخيراً قتله شرقتلة والظالم يصاع له بصاع طافح ظلماً . فكانت هذه الفتن والمشاغب علامة بينة على خراب هذه المملكة الجائرة وما زادت الاحوال الا وخامة حتى تولى الملك يزدجر الثالث سنة ٦٣٣ فسلط الله العرب على بلاده واصلوه حرباً حامية كانت خاتمتها الحرب الشهيرة المعروفة بالقادسية (سنة ٦٣٦) وهي كانت الضربة القاضية على حياة المملكة الساسانية . ومن ثم دخل الشرق في تاريخ جديد واشتهر في آسيا شعب كان منزوياً في زاوية صغيرة منها ، وهم العرب ، وكانوا قد رفضوا الاسلام برهة من الزمان ثم اقبلوا اليه فلم شعثهم وجمع كلمتهم وهاك ما قاله ابن الاثير [1] : « لما افتتح الرسول (صلعم) مكة وأسلمت ثقيف وفرغ من تبوك ضربت اليه وفود العرب عن كل وجه » ويذكر المؤرخ اعياص القبائل التي أسلمت . فلما تناصر العرب حملوا على البلاد حملة تزعزعت لها اركان الممالك العظيمة في تلك الاعصر . وناهيك العرب هم شعب اتصفوا باحسن الاخلاق وامتازوا بكرم الطباع والوفاء وعلمتهم حياتهم البدوية الاقدام والشجاعة فكان دأبهم الغزو ومناوأة من عاداهم . هذه مجمل صفات ذاك الشعب الذي سطع سيفه من القطعة العربية وظهر للعالم بمظهر الغلبة والانتصار العجيب . فان السيف العربي الذي لم يشهر الا في غزوة أو على قبيلة صغيرة أشهر على الامم التي عرفت ببأسها وصولتها في الحروب فسقطت امامه الدولة الساسانية ، ونكصت من بريقه الجيوش الرومانية ، فحل في البلاد على الرحب والسعة



(١) ج ١ : ص ١١٩

الفصل الرابع

العرب في بقعة العراق واثور

كان سكان البقعة العراقية والاثورية بعد العرب البائدة من العنصر الكلداني والآثوري البحت ولم تمتزج به العناصر الغريبة الا لما بلغ أشدّه ووجد من نفسه المقدرة على شنّ الغارات على الشعوب الدانيـة والقاصية . فاستاق الاسرى المتباينين في النحل وأسكنهم فى بلاده ليستخدمهم في صوالحه كجاري عادة الأمم في تلك الاعصر القديمة

فان نبوكد ناصر أو بختنصر الملك الكلداني (٦٠٤ـ٥٦٢ ق م) كان قد اشتهر بحملاته واغار على بلاد كثيرة فاخضعها وسبى منها السبايا واستاق اسراها وحمل أيضاً على بلاد العرب فاسر منهم خلقاً كثيراً وأتى بهم الى بلاده وأسكنهم في الحيرة والانبار

يقول العلامة السيدادي شير « ومما ساعد نبوكد ناصر على تشييد الابنية الأسرى الكثيرون الذين ساقهم من آثور ويهوذا وسوريا ومصر وبلاد العرب وغيرها ، فصارت بابل فى ايامه من أجمل مدن العالم »

وجاءنا مصداقاً في ذلك ما أورده الحموي ان بختنصر غزا العرب وأتى بهم فانزلهم الحيرة وبقوا فيها حتى مات ففارقوها الى الانبار (وهي اليوم فلوجه) وانضموا الى أهلها وبقيت الحيرة خراباً دهراً طويلا . ولما استولى اسكندر المقدوني على بابل عمر الحيرة أو بالاحرى جددها لسكنى العرب ودعاها باسمه . ثم ضربت الحيرة دفعة ثانية فغادرها أهلها من العرب وتفرقوا في عرض العراق . وكان العرب قد كثروا في انحائه وذلك لما ازداد اولاد معد بن عدنان ومن كان معهم من قبائل العرب ومزقتهم الحروب الكثيرة خرجوا يطلبون الريف فيما يليهم من اليمن ومشارف الشام وأفلت منهم قبائل حتى نزلوا بالبحرين في غربي ساحل الخليج الفارسي حيث كانت شرذمة من قبيلة أزد وكان الذين

أقبلوا من تهامة مالك وعمرو ابناؤهم من بني قضاعة ومالك بن زهير في جماعة من قومهم والحيقاد بن معد في قبيلته ولحق بهم غطفان بن عمرو بن معد وغيره من اياد فاجتمعوا بالبحرين وتحالفوا على التنوخ وهو المقام وتعاقدوا على التناصر فصاروا يداً واحدة وضمهم اسم تنوخ فاجمعوا على المسير الى العراق ونزلت تنوخ من الانبار الى الحيرة في الاخبية لا يسكنون بيوت المدر. ومنهم تشكلت مملكة الحيرة العربية (١)

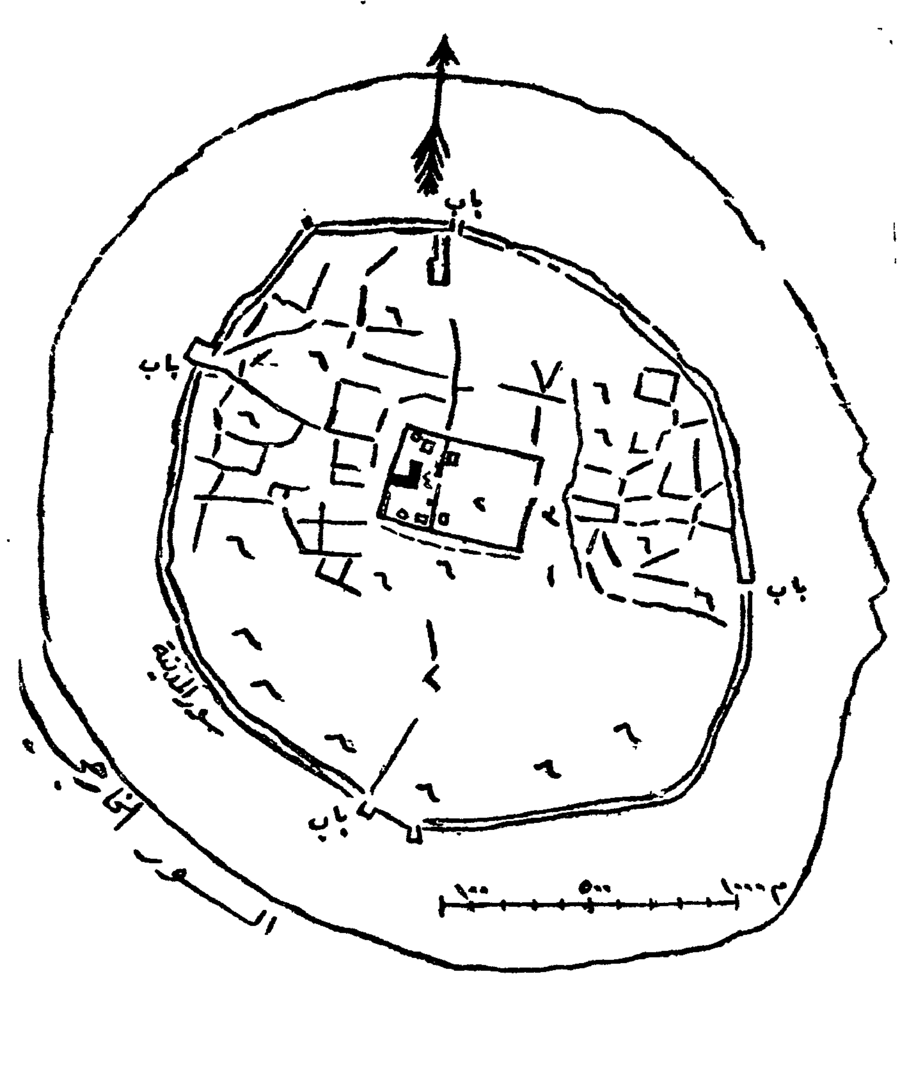
ثم لما صارت بقعة العراق وأنور الى الملوك الفرثيين وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس جمعوا شتات العرب المتفرقة في انحاء مملكتهم وأسكنوهم في الحيرة والانبار ليستعينوا بهم علي بعضهم وذلك لما نشاحن افراد الاسرة المالكة وأخذ الواحد ينازع صاحبه على العرش . وهاك ما أورده الحموي في ذلك « ان اردوان ملك النبط شاغبه ملك آخر من ملوك النبط يقال له بابا فاستعان كل واحد منهما بما يليه من العرب ليقاتل بهم الآخر وبنى الاردوان الحيرة وأنزلها من أعانه من العرب وأنزل بابا من أعانه من العرب الانبار » فقد يكون اردوان آخر الملوك الفرثيين أي ارطبان الرابع وبابا هو ملك الارمانيين وهم انباط الشام أي التدمريون(٢). فلما اجتمعت كلمة العرب ولموا شعثهم تقووا وتمكنوا من نفسهم . ولم تنكسف شمس المملكة الفرثية الا وكان للعرب في بقعة العراق مملكة صغيرة في الحيرة أسسها عمرو بن عدي . وقد تضاربت الآراء في تعيين منشأها . والاصوب أسسها سنة ٢٦٨ ميلادية (٣). وكانت هذه المملكة الصغيرة تخضع لسيطرة الفرس. وقام فيها نحو سبعة عشر ملكاً وهم عمرو بن عدي (٢٦٨) . امرؤ القيس الاول المعروف بالاعور (٢٨٨) . ابنه عمرو (٣٣٨) . أوس بن العمليقي وقتل سنة (٣٦٨) . ثم امرؤ القيس الثاني ويعرف بالمنذر (٣٦٨) . وملك بعده ابنه النعمان باني الخورنق

(١) ابن الاثير ج ١ ص ٣٥
(٢) ابن خلدون ج ٢ ص ١٧٠
(٣) المشرق : ١٩١١ ص ٩٧

والسدير . وهذا تنصر وزهد فترك الملك وتردى المسوح . ثم تولى بعده ابنه المنذر الاول (٤٢٠) ثم نعمان الثاني (٤٦٢) ثم أخوه الاسود ومات سنة (٤٩١) وخلفه أخوه المنذر الثاني . ثم نعمان الثالث (٤٩٨) ثم امرؤ القيس الثالث (٥٠٥) . وبعده ملك المنذر الثالث . وامرأته هند شيدت ديراً جليلاً في الحيرة . ثم عمرو (٥٥٤) . وملك بعده أخوه قابوس أربع سنين . ثم المنذر الرابع سنة واحدة . وخلفه نعمان الرابع . وهؤلاء الملوك هم من بني لخم . ويسمون المناذرة أو النعامنة . وكان مقر ملكهم في الحيرة . وموقعها على الضفة اليمنى من الفرات في موقع النجف أو مشهد علي بالقرب من عاقولا وهي الكوفة ودامت هذه المملكة الى ظهور الاسلام . ثم دمرها خالد بن الوليد . وسكن العرب أيضاً قبل الاسلام في الحضر . وكانت الحضر مدينة عظيمة عن يمين نهر الثرثار [1] بازاء تكريت في جنوبي الموصل تبعد عنها ٨٥ كيلو متراً . وربما هي مدينة حطرا الآثورية التي أصبحت في زمن الدولة الفرثية امارة مستقلة ارامية وسميت امارة حطارا . واشتهر من ملوكها (برشميا) في أواخر القرن الثاني للميلاد . ثم حرّفها العرب ودعوها الحضر . نقل الحموي عن الشرقي بن القطامي : ان بني قضاعة لما افترقوا سارت قبيلة منهم الى أرض الجزيرة وعليهم ملك يقال له الضيزن بن جلهمة أحد الاحلاف فنزلوا مدينة الحضر [2] . وبقيت انقاض هذه المدينة وآثارها بينة الى عصر الحموي . فانه يصف بنايتها بالحجارة المهندمة بيوتها وسقوفها وأبوابها . وينقل عن الاقوال المأثورة انه كان فيها ستون برجاً كباراً . وبين البرج والبرج تسعة ابراج صغار وبازاء كل برج قصر . والى جانبه حمام نهر الثرثار . وكان الثرثار حينئذ نهراً كبيراً تجري فيه السفن . وعلى سواحله قرى وجنان . وفي هذه السنين الاخيرة توفقت بعثة المانية ان تكشف في الحضر على آثار

(١) نهر الثرثار ينبع من جبل سنجار ويجري نحو الجنوب الشرقي فالجنوب باستقامة واذا هطلت الامطار يصب فى نهر الفرات والا فماؤه راكد

(٢) طالع أيضاً ابن خلدون ج ٢ ص ١٧١



﴿ مدينة الحَضْر ﴾

١ ـــ قصر مدينة الحضر
٢ ـــ ساحة القصر
٣ ـــ المذبح
٤ ـــ البلاط الكبير
٥ ـــ البلاط الصيفي
٦ ـــ شوارع المدينة

جليلة [١] وهي ما زالت الى اليوم تمدّ بين طيات أرضها نفائس الآثار

وهاجر قبل الاسلام شطر الجزيرة من قبائل الشمال قبيلتا ربيعة ومضر. ثم بنو أسد وهم من عدنان. ويتصل بنو وائل نسباً الى ربيعة وهذا وائل هو ابن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة. ثم انقسموا على أثر الحروب التي ثار ثائرها بعد مقتل كليب الى قسمين عظيمين فذهبوا الى انحاء الجزيرة واحتل بنو بكر شماليها وهبط بنو تغلب جنوبيها. وعلى هذا قسم العرب بلاد ما بين النهرين أي الجزيرة (ميسوپوتاميا) الى ديار مضر، وكانت في سهل من شرقي الفرات، وأخص بلادها حرّان والرقة [٢] وشميشاط وسروج وتل موزن [٣]. ثم الى ديار بكر بن وائل وهي غربي دجلة الى نصيبين، ومنها حصن كيفا وآمد وميافرقين وسعرت. والى ديار ربيعة وهي بين الموصل وراس العين وماردين ودنيسر [٤] والخابور جميعه، وربما جمعت ديار بكر وديار ربيعة وسميت كلها ربيعة [٥]. وقد خضع العرب في هذه البلاد للدولة الساسانية حتى ظهر الاسلام. وكانت الرقة على الفرات أشهر ديار مضر. وآمد أشهر ديار بكر في أعلى مجرى دجلة. والموصل على دجلة أشهر بلاد ربيعة.

(١) المشرق ١٩١٢ ص ٥٠٩

(٢) وهي ليست الرقة الحالية الواقعة على الساحل الشرقي من الفرات في موقع « الرافقة » القديمة. أما الرقة التي يذكره المؤرخون فكانت على الساحل الغربي من الفرات. وقيل ان إسكندر المقدوني أسسها، ولهذا فكان اليونان يسمونها « نيكفوريون ». وقال ابن العبرى: بل سموها « قالونيقوس ». وقد تم فتحها بعد الاسلام على يد سعد بن أبي وقاص سنة ٦٣٨ م ثم سكنها الخليفة هارون الرشيد العباسي وشاد له بها قصراً منيماً ترى اطلاله في موقعها القديم

(٣) تل موزن كانت مدينة عظيمة بين رأس العين وسروج

(٤) دنيسر في جنوب غربي ماردين على مسافة ١٢ كيلو متر وكانت مدينة مهمة وهي اليوم قصبة صغيرة تدعى قوجحصار

(٥) ياقوت

الباب الاول

موقع الموصل وقدميتها ثم دخول العرب فيها بعد الاسلام

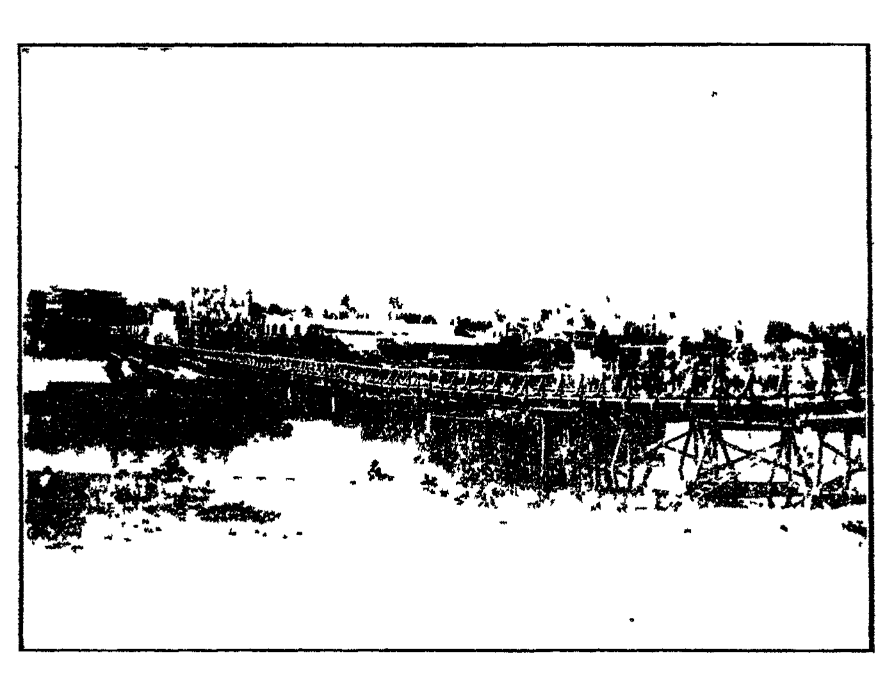
الفصل الاول

موقع الموصل الجغرافي وثروتها الطبيعية

ندعو قارئنا اللبيب ان يسير في صباح يوم من أيام الربيع الى شرقي مدينة الموصل ويجتاز جسرها الى ضفاف دجلة حيث يقف ليلقي نظرة على مياه النهر المنكسرة المتلألئة تلألأ اللجين اللامع في أشعة الشمس الطالعة وقد انعكس بريقها على جدر القهاوي وبعض الابنية الشاهقة فكأنها ألعاب سحرية تقدم للناظرين مشهداً طبيعياً بديعاً يسلب القلوب ويهيج الانظار. وما أشبه دجلة بهلال عسجدي يطوق جيد المدينة فينساب من الشمال ببطء كالمتلصص حتى يحاذي المدينة من شرقيها متوسطاً بينها وبين نينوى القديمة فينصب محيياً مدينة الاحياء. ثم يعج بهديره باكياً تجاه خربات مدن الاموات الآثورية. ويعدو مهرولاً الى الجنوب كمن يتملص من مشهد مؤلم يعيد على ذاكرته سابق مجد اثيل وعز باذخ ودور مهم كان قد لعبه على سطح تلك الاراضي المريعة في الاعصر المتوغلة.

هناك يرى القاريء المدينة على نشز من الارض لا تعلو فوق سطح مياه البحر الا ١٠٦ امتار وهي مطلة على مياه دجلة. ورغماً عن قدم ابنيتها العتيقة تظهر للمشاهد بمظهر الجلال والجمال الطبيعي. فكأنه بها ملكة تلك البقاع. تشرأبّ بعنقها لتمعن النظر في سهول نينوى القديمة، ودور شركينا وغيرها من الاراضي الآثورية وربات الزراعة المشتهرة بمرافقها وزكاء منابتها وحسن تربتها، واعتدال هوائها. تلك كانت في العصور الخالية جنة غناء بمزارعها

الخصيبة . وبساتينها المعلقة العجيبة . وهي الى اليوم مع قصر يد الصناعة لاتزال موضوع اعجاب المشاهد فتستلفت انظاره ليرى سهولاً كانت قديماً



منظر الموصل على ضفاف دجلة

مطمع اليونانيين ومطمح الرومانيين . تمتد على سواحل دجلة شمالا وجنوباً ذات مرافق واسعة فسيحة لابسة من الخضرة حلة زمردية تزينها ورود وأزهار تعطر ذاك الفضاء . وتمتد هذه السهول في شرقي قضا الموصل الى الزيبار والعقره فتشتمل على ناحيتي الشيخان والعشاير السبعة . ويبلغ عدد قراها ٤٣٦ قرية تسقيها مياه دجلة والزاب الكبير . ونهر غادر من غربيها . ونهر الخوصر النابع من اطراف بريفكان ويصب في دجلة . ثم نهر الخازر النازل من جبال المزوري ـ والاصل المضري ـ الذي يسقي أراضي العشاير السبعة . ثم يختلط بالزاب الكبير عند موقع تل اللبن. والاصل تابند . وعدا ما ذكرناه يوجد غيرها من المياه الصغيرة . ويتخلل تلك السهول الواسعة

٥

بعض عوارض جبلية تتعلق بسلسلة جبال قردو أو جبال هكارى الممتدة الى وان . وتكثر في هذه الجبال الاثمار الجنية . والمعادن الغنية

ولو تحول المشاهد الى القسم الغربي من قضا الموصل غربي المدينة في وقت الشمس الطافلة لوقف وقفة المعجب بنفاسة الهواء النسيم ، وحسن تلك السهول المتسعة ، المفتقرة أشد الافتقار الى الري ، تلك هي أراضي آثور وكالاح المدينتين الشهيرتين بالصناعة والزراعة . وكانت تسقيها قديماً أحواض ومخازن مائية عديدة وقنوات ومسارب كانت تجلب اليها مياه الانهر. واليوم لم يبق من صناعة الري فيها الا آثار دارسة فباتت تلك الاراضي تحت رحمة الامطار لتلبسها رداء من الخضرة لا يقل نفاسة عما رآه المشاهد في شرقي مدينتنا .

تمتد هذه السهول جنوباً الى شرقات (آثور) وغرباً الى صحراء سنجار التي كانت في عهد خلافة المأمون العباسي مركزاً لقوس دائرة نصف النهار . ويشتمل هذا القسم الغربي على ناحيتي شرقات وزمار وعدد قراه يبلغ تقريباً ١٦٦ قرية .

فمن هذه الرحلة الصغيرة يلخص المشاهد ان الموصل مدينة زراعية أكثر منها تجارية أو صناعيه ؛ لسعة أراضيها الوافرة الريع والخصب . اذ ينبت في صحرائها أنواع الحبوب والبقول والخضروات التي تفيض على ما يجاورها من البلاد . وترى في مفاوزها سائمة المواشي التي يرعاها الاكراد والعربان . وأكثرهم من طي وسنبس التي هي بطن من طي . والصايح والجبور . وشمر والصليب والكوجر . ويصدر منها الالوف المؤلفة الى البلاد الاجنبية وتتخذ جلودها وأصوافها فتدبغ وتصبغ ويستحضر منها ضروب الاكسية

ان الموصل واقعة في شمال شرقي الجزيرة عن يمين دجلة وتبعد عن شمال غربي بغداد ٣٣٢ كيلو متراً . ومنقلبها الصيفي هو انتقال الشمس الى الدرجة الأولى من برج السرطان . فاطول أيام صيفها أربع عشرة ساعة وثماني عشرة

دقيقة . وهى تعتبر من المناطق المعتدلة اذ يبلغ حرها في المقياس المئوي ٣٥ درجة ، حتى اذا اشتد الحر وذلك نادراً لا يتجاوز ٤٠ درجة . وفي موسم الشتاء ينزل تحت الصفر الى ١٢ درجة. أما طقسها فهادىء وسماؤها في الغالب صافية لا زوردية وقد كان مناخها في الاعصر القديمة الطف مما هو الآن ، لاهمال الفلاحة والسقي مما نشف تربتها وجعلها قفراء تحمى شمس الصيف صخورها ورمالها فتزيد حرارة على مناخها الطبيعي

أما معادنها فهى وافرة وكان يستخرج منها الذهب والفضة والنحاس ، لكنها أهملت بعد ذلك لقلة الوسائط . وهناك أيضاً مناجم من الفحم الحجري والكبريت ومنابع القير والنفط والملح المعدني . وكلها كثيرة الجدوى طائلة الارباح . فقريباً من زاخو نفط معدني اذا صفى كان منه الزيت (البترول) وفي قرية (هربول) ـ الواقعة بين زاخو وجزيرة ابن عمر [١] ـ منجم للفحم الحجري . قيل انه من نحو ثمانين سنة استخرج منه شيء كثير . وأرسل الى بغداد وحلب ويوجد منه أيضاً في قرية « سپكي » التابعة لقضا دهوك . ويوجد معدن موميا في « كلى رمان » التابعة لناحية مزوري (محرفة عن مضري) .

كذا تكثر المعادن المختلفة في « بسلى » الواقعة قريباً من الموصل . وفي غربي الموصل وشماليها مملحتان : الابوارة ـ أو عديد ـ والاشقر . ويوجد مما لح أخرى صغيرة وهي شويسة ، ومحا ، وأم العقارب ، والشلبية وفيها أيضاً المياه المعدنية وهى جزيلة الفائدة . ففى شماليها عن بعد نصف ساعة تقريباً عين كبريتية تنبع في لحف تل صغير يشرف على دجلة [٢] واليوم قد تمددت

(١) قال أبو الفدا وسميت جزيرة ابن عمر باسم رجل من أهالي برقعيد من اعمال الموصل اسمه عبد العزيز بن عمر بنى هذه المدينة فأضيفت اليه (ج ٣ ص ١٣٩)

(٢) قال الحموي : في سنة ٣٠١ (٩١٣ م) ظهر تحت الدير الاعلى (عند باشطابيه) عدة معادن كبريتيه ومرقشيشا وقلقطار

المنابع حتى أصبحت غزيرة المياه يقصدها للاستحمام أصحاب الامراض الجلدية والداخلية وماؤها جار يصب في دجلة وهو شديد الرائحة الكبريتية التي تنبعث منه احياناً الى جميع اطراف المدينة

وفي جنوبيها عن بعد ساعة عين الدير وسميت بذلك لقربها من دير سعيد وهو دير مار ايليا الحيري وماؤها راكد يتلوّن بتغيير الفصول الاربعة ففي الصيف يتشرب حمرة خفيفة وفي الخريف يميل الى اللون الكبريتي الضارب الى السواد وفي الشتاء يأخذ لوناً أبيض وفي الربيع لوناً أخضر وهو جزيل المنفعة خصوصاً لتصفية الدم وتنقيته ويقصدها الاهالي للاستحمام ايام الربيع وفي فجر أيام الصيف . ثم في غربيها أيضاً الماء الابيض وسمي كذلك لكثرة كبريته الأبيض ، وموقعه يبعد عن الموصل نحو ساعة ونصف بين « البوسيف » و« العذبة » وبه سمي باب المدينة الغربي بباب البيض . فعلى ما قيل ان بعض الاهالي كانوا قد سعوا في بناء طاحونة على الماء الابيض وكانت العملة تجتمع عند الباب الغربي ومن ذلك أطلق عليه اسم باب الماء الابيض ثم حرف وسمي باب البيض الى اليوم . وفي جنوبيها أيضاً « عين القيارة » المعروفة بحمام العليل وتبعد عنها نحو الاربع ساعات وفيها ثلاث عيون « عين زهرا » و« عين فصوصة » والعين الكبيرة وماؤها كبريتي شديد الرائحة . ومن منابع هذه العيون يستخرج القير. فينتقل اليها بعض أهالي الموصل في أيام الصيف ويقيمون في بيوت يبتنونها من القصب أشبه باكواخ الفلاحين لقضاء أيام الاستحمام وهي أربعون يوماً ويقصدها أيضاً الكثيرون من البلاد والقرى المجاورة وهناك تجري عين من النفط يجتمع من مخزن قريب منها لا يملأ ينترحه الملتزمون وعن بعد ساعة من عين القيارة كبريت معدني .ثم في شرقي الموصل عن بعد ساعة تقريباً حوض نابع يسمى « طاملماجه » وماؤه بارد راكد يشرب منه العابرون ويقال انه نافع لوجع الرأس

وفي شرقيها أيضاً عن بعد خمس ساعات توجد « العين الصفراء » ويجري

منها ماء اصفر اللون يقول عنه ذوو الخبرة انه جزيل المنفعة لمرض الصفراء واليرقان

والموصل أيضاً غنية في الآثار القديمة فانها كانت مع ما يجاورها من القرى والأراضي في الازمنه القديمة معدن المدنية ومركز العمران وكانت بقعتها مدناً عامرة لارقى الشعوب حضارة ، ولهذا فكانت لم تزل الى اليوم موضوع بحث الباحثين الاثريين من العلماء الذين قصدوها من البلاد الشاسعة ليستطلعوا خفايا تلك الأمم الغابرة المطمورة في أراضيها . وأشهر مواقعها الاثرية قلعة « شرقات » في غربي الموصل تبعد عنها ثماني عشرة ساعة وهي قديماً مدينة « آشور » و « خورصا باد » في شمالي نينوى تبعد عنها أربع ساعات وهي قديماً مدينة « دور شركينا » واليوم في موقعها قرية صغيرة . ثم النمرود في شرقي الموصل على مسافة ثماني ساعات وهي قديماً مدينة (كالاح) واليوم في موقعها قرية صغيرة . وفي تل العبطة الواقع على مسافة ١٥ ساعة من الموصل وُجدت خطوط مسمارية أكبرها قطعة ذات ثلاثين سطراً تتكلم عن (بل هارران بل اوجور) وزير الملك تقلاثيلاسر الآثوري

الفصل الثاني

١ ـ تأسيس نينوى الجديدة وخرابها * ٢ ـ أصل منشأ مدينة الموصل

(١) ان نينوي الآثورية بعد ان استأصلها الماديون والبابليون (سنة ٦٠٨ ق م) وجعلوها ردماً ينعق البوم فوق اطلالها لبثت الى اليوم مطمورة تحت انقاضها . غير ان المؤرخين الاراميين والعرب يذكرون نينوى التي تشيدت على سواحل دجلة في موقع مجاور لنينوى القديمة . ويورد صاحب المكتبة الشرقية [١] « ان نينوى بعد ان أخربها الماديون تجددت ودُعيت

(١) مجلد ٣ ج ٢ ص ٧٦٧

باسم المدينة القديمة وهي مبنية قبالة الموصل على الضفة الشرقية من دجلة » الا اننا لا نعلم متى وكيف تأسست اذ لا يوجد بين المؤرخين الغرباء أو الوطنيين من يؤكد لنا عن عهد بنائها . وكل ما نعلمه ان الآثوريين بعد ان تقوضت اركان مملكتهم وسيقوا سبياً الى بابل اقاموا في السبي حتى قرض كورش الفارسي مملكة الكلدان واستولى عليها ففك ثمة عقال الاسرى الآثوريين واجاز لهم بالعودة الى اوطانهم (سنة ٥٣٥ ق م) فرجعوا وعمروا آثور ومنها مدينة كاني والعرب يسمونها الحديثة وموقعها عند حمام العليل . ثم ان طرايانوس القيصر الروماني (سنة ٩٨ــ١١٧) كان قد زحف بجيوشه على آسيا واستولى على فلسطين وعمر مدينة القدس [١] ثم حمل على بلاد الفرثيين فاستولى على حدياب ومدّ على دجلة جسراً واورد المؤرخون انه اقام بناء أو ابنية جسيمة على سواحل دجلة [٢] . فيمكننا ان نقول عن تأسيس نينوى الجديدة اما انه كان في عهد استيلاء هذا القيصر الروماني على حدياب واما أسسها الآثوريون عند رجوعهم من السبي البابلي اذ انهم وجدوا ولا ريب قسما من اخوانهم الفقراء مقيمين بجوار خربات عاصمتهم أي في موقع نينوى الجديدة للزراعة وهذا هو الارجح . ثم بتوالي السنين سكنها النصارى من الآراميين طمعاً بموقعها الزراعي وحسن هوائها ورغبة بمجاورة دير يونان النبي وهو موجود منذ القرن الرابع الميلادي . وينقل السمعاني عن أبي الفرج ان أغلب سكان أراضي نينوى كانوا نصارى

وكانت نينوى من مدن حدياب كثيرة العمران تحيط بها الاسوار فان عمر بن متى الطيرهاني يقول : ودير يونان النبي على جانب سور نينوى الغربي المقابل لابواب الموصل الشرقيــة ونهر دجلة يفصل بين المدينتين المذكورتين . وما زالت نينوى عامرة كثيرة السكان حتى توالت هجمات التاتار والتركمان على

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٠٤

(٢) طالع قاموس الاعلام ش سامي · والقاموس التاريخي لمؤلفه F X Feller

الموصل واطرافها فهجرها أهلها شيئاً فشيئاً فانه في تملك علاء الدين بن السلطان لؤلوء على الموصل سنة ١٢٥٩ ميلادية نزح كثير من أهالي نينوى الى اربل ومنها انتقلوا الى الموصل ومن بقى فيها هجم عليهم الاكراد فنهبوهم وفرقوهم وقتلوا منهم . ثم في سنة ١٢٨٨ هجم قوم من الاكراد والتركمان ومن العبيد المصريين على الموصل واطرافها فنهبوا وخربوا وما زالت الاحوال هكذا الى مجيء تيمورلنك فاضطرّ أهلها الى هجرانها تماماً ولما أقبل طهماسب نادرشاه الى الموصل كانت نينوى الجديدة مهجورة اذ لا يذكر مؤرخو تلك الحادثة شيئاً عنها . واليوم هى قرية صغيرة تدعى « نبي يونس » باسم جامع هناك هو دير يونان النبي القديم



جامع النبي يونس

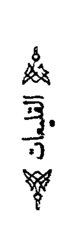
(٢) أما مدينة الموصل فلم يؤسسها الرومانيون ولا اليونان الذين دوخوا هذه الأقطار واستولوا عليها ولا الفرس الارشاقيون الفرثيون أو الساسانيون بل هي مدينه عربية بحتة شيدها العرب ولكن ليس كما شيدوا البصرة

والكوفة وبغداد التي خطوها وأقاموها من أسسها . على أن الموصل قبل أن تدخل تحت حكم العرب كانت مدينة صغيرة أو قصبة يسميها الكتبة الاراميون الحصن العبوري (حسنا عبرايا) ومعناه القلعة التي على الضفة الأخرى من دجلة قبالة نينوى . وهذا الاسم عريق في القدم على ما يستبان وربما يصعد الى الأعصر الأثورية ، اذ أن موقع الموصل كان قديماً قلعة آثورية كما يظهر مما أورده كزينيفون المؤرخ اليوناني (١) : « ان جيشاً يونانياً أتى من جهة بغداد (٢) وعبر الزاب الأكبر عن بعد بضع كيلو مترات من ملتقى الزاب بدجلة ثم توجه الى شواطيء دجلة حيث وجد مدينة عظيمة تدعى (لاريسا) وقريباً منها هرم جسيم . . . . ثم مشى اليونان من لاريسا مسافة ستة فراسخ (٣٠ كيلو مترا تقريباً) في يوم واحد فبلغوا قلعة جسيمة متهدمة قريبة من مدينة تسمى (مصيلا) كان الماديون يسكنونها » والأصح كان الأثوريون يسكنونها قديماً

فعلى ما يعين كزينيفون المواقع يستدل أن لاريسا كانت واقعة في النمرود حيث ترى الى اليوم ردم ذلك الهرم . أما مصيلا فلا نرتاب أن تكون نينوى القديمة والقلعة التي يذكرها قد تكون موقع الموصل الحالي . على اننا اذا درسنا موقع نينوى القديمة نستدل ولا ريب أنه كان قبالتها على الضفة الأخرى من النهر أي في موقع الموصل الحالي حصن أو جملة من الحصون الاستحكامية ملحقة بالمدينة الآثورية لتدرأ عنها غارات العدو من الجهة الغربية أي من الاصقاع البابلية والجزرية (ميسوبوتاميا) والى اليوم يرى في الموصل موقع يسمى « القليعات » وهي نشز من الأرض في شرقي المدينة قبالة نينوي تشرف على دجلة فقد تكون القليعات موقع ذلك الحصن القديم ولهذا سمى الكتبة الاراميون الموصل « الحصن العبوري » لاشراف هذا الحصن على دجلة وهو ولا ريب أقدم عمران في مدينة الموصل

(١) اناباز ك ٣ ف ٣

(٢) بغداد الاثورية وكانت اما في موقع بغداد الحالية أو قريباً منها



القلبات

أما عن أصل تأسيسها فقد وجدنا في تاريخ وضعه مؤلفه المجهول الاسم في حوالي الجيل الثالث عشر (١) ما نصه « انه في سنة ٣٢٩ من التاريخ السلوقي (سنة ١٨ ميلادية) وهي السنة التي ملك فيها على الرها وما بين النهرين ابجر بن معنو (أبجر الخامس المعروف بالأسود) قام في فارس ومادي ملك آخر اسمه اطوران واشتهر بالبطش ومضاء العزيمة ففاق سائر الملوك المتاخمين له صولة ونفوذاً. وتمكن من توسيع نطاق مملكته فصارت تشمل نهر دجلة أيضاً المبنية على جانبه مدينة نينوى العظيمة التي شاد اساساتها نمرود الجبار وحكم عليها بالدمار والخراب بعد مضي أربعين سنة على توبتها بانذار يونان النبي. فعنّ لهذا الملك أن يقيم بناءها ثانية ويرجع اليها عمارتها وحضارتها بيد أن قوماً من فقهاء مملكته خالفوا رأيه وأشاروا عليه أن الأولى به أن يبني مدينة جديدة من أن يقيم مدينة شادها غيره وأدركها الانقلاب قصاصاً أما الملك فاتعظ وركن الى مشورتهم واجتاز الى ضفة النهر الغربية وأقام هناك مدينة شهيرة عامرة سماها باسمه فصار من جرائها يناطح الجوزاء تيهاً وافتخاراً. وأخذ من ذلك الحين يفتك بابجر الملك ويوقع الأذى بمملكته » اه

من المحتمل أن تكون هذه الحكاية صحيحة مسندة الى أساس تاريخي. فاطوران قد يكون أرطبان الثالث الملك الفرثي (١١ ـ ٤١ ميلادية) الذي ألقى رعبه في قلوب الرومانيين وضبط منهم أرمينيا ثم استولى على الرها كما يورد كايئن المؤرخ الفرنسي ويصف دعوة هذا الملك الفرثي بنفسه وريثاً لمملكتي كورش الفارسي واسكندر المقدوني

ومما يزيد ذلك تأييداً المؤرخون العرب اذ ينسبون باجماع الرأي أصل منشأ الموصل الى الفرس فذكر الحموي أن الموصل كانت تدعى في أيام الفرس نواردشير. وورد أيضاً في المشرق (٢) : ان الموصل هي من المدن المنشأة في عهد

(١) كتاب خطي باللغة السريانية نشره العلامة غبطة البطريرك أفرام رحماني السكي الطوبى

(٢) عدد ١٢ سنة ١٩١٢

الدولة الاشكانية ، والدولة الاشكانية هي الطبقة الثالثة من ملوك الفرس وهم أعظم ملوك الطوائف ويسمون عند الافرنج بالفرثيين . ثم انهدمت نواردشير لما اغاراولغاش الرابع (١٩١ـ٢٠٨ ميلادية) على بلاد حديابأي بلاد الموصل فنهبها ودمرها انتقاماً من نرساي ملكها لانه لم يصحبه في حملته على الفرس كما أسلفنا ذكره . وبقيت نواردشير خراباً ليس فيها الا النزر من السكان . فلما استولى الساسانيون على هذهالبلاد عمروها وقد وقفنا علىذلك في كتاب خطي [١] : ان يشوعياب القسري وكان معاصراً لكسرى انوشيروان (٥٣١ـ٥٧٩) بعد ان تعلم على أيوب الشهير تلميذ ابراهيمالنتفراني [٢] رجع الى بلدته نينوى وكان في الناحية الغربية من دجلة الواقعة قبالة نينوى جنينة رائقة لم يكن حولها الا قليل من البيوت والعمران فاختار يشوعياب هذا الموقع وبنى فيه ديراً وهيكلاً كبيراً ثم انضوى اليه الرهبان يتعلمون منه السيرة النسكية (وموقع هذا الدير الذي بناه يشوعياب علىدجلة هو في موقع الكنيسة المعروفة اليوم بعار اشعيا) وكانت نينوى يومئذ عامرة وأهلها يدينون بالنصرانية فشرع النأس يتقاطرون الى ذلك الدير . . . ولما ملك كسرى ابرويز بن هرمزد بنى حول تلك الجنينة دوراً كثيرة وأتى بخلق من بلاده واعطاهم تلك الدور مجاناً ليسكنوا فيها ويزيدوا في عمرانها وبنيانها حتى أصبحت مدينة صغيرة أو قصبة كانت تدعى الحصنالعبوري ولما استولىعليها العرب بعد الاسلام زادوا في توسيعها على ما اقامه كسرى الثاني وسموها الموصل : اه

وكذا جاء في كتاب يشوعدناح البصري (القرن الثامن الميلادي) ان ابن القسري لما أتى الى الحصن العبوري (وموقعه القليعات) لم تكن الموصل حينئذ قد بُنيت [٣] ومفاد ذلك أن الساسانيين لما ملكوا سواحل دجلة أي بلاد حدياب كانت نواردشير خراباً وقد أصبحت قرية صغيرة كان يسكنها

(١) ج٢ : ١٢ من التاريخ البيعيالمحفوظ في مكتبة كنيسة ماربثيون للكلدان في دياربكر
(٢) نسبة الى نتفرا اسم احدى مدن حدياب بجوار اربل
(٣) كتاب العفة عدد ٥٠

بعض الفلاحين من الفرس ومن النصارى الاثوريين كما نرى اليوم بعض القرى الصغيرة التي تدل آثارها الباقية على أنها كانت في قديم الزمان مدناً عامرة وعواصم كبيرة . وكان الفرس يسمونها « نواردشير » والنصارى الاثوريون يسمونها (الحصن العبوري)[١] اخذاً عن اجدادهم ولبثت كذلك حتى ملك كسرى الثاني ابرويز الساساني (٥٩٠ ـ ٦٢٨) فمصرها ونقل اليها الخلق من البلاد . ولما افتتحها العرب اسكنوا فيها القبائل العربية كما سنبينه في الفصل الآتي ووسعوها حتى أصبحت من اشهر المدن الجزرية اذ كانت تعد يومئذ من مدن الجزيرة[٢] (ميسوپوتاميا)

اما ما جاء عن مدينة الموصل وقدمها في الاعصر الأثورية فهذا خطأ تناقله بعض المؤرخين فلا صحة لما رواه صاحب تاريخ اليانع : ان أول ملك بنى نينوى هو سينوس بن يالوس وكان يعاصره ملك على الموصل اسمه سابق ابن مالك من اليمن»[٣] اه . اذ ان التواريخ القديمة لاتقدم لنا برهاناً وضعياً على تملك العرب في بقعة آثور في الاعصر المتوغلة أي في نشوء الدولة الآثورية .

وجاء ايضا انه « قبل بناء مدينة نينوى الاثورية كان الجرامقة وهم أبناء جرموق بن اشوذ بن سام يملكون في الموصل »[٤] اه . وهذا أيضاً بعيد عن الصحة التاريخية اذ لا يذكر احد المؤرخين المحققين انه ملكت في البقعة الاثورية دولة اخرى سبقت الدولة الاثورية وانما الجرامقة كانوا في الموصل في عهد الدولة الفرثية وبعدها .

---

(١) كتاب العفة طبعة بيجان عدد ٥٠
(٢) زيدان ج ٢ ص ٣٧
(٣) المسعودي ج ١ ص ٩٢
(٤) ابن خلدون ج ٢ ص ٦٨

ملحق

في أصل الجرامقة

اختلف المؤرخون في أصل الجرامقة : فقال بعضهم أنهم من الفرس ، وذهب آخرون الى انهم من أصل آرامي ، وهاك اقوالهم في ذلك :

أتى في كتاب تاج العروس : ان الجرامقة قوم من العجم صاروا بالموصل في اوائل الاسلام . اه . وذكر غريغوريوس ابو الفرج : والجرامقة قوم بالموصل ، اصلهم من الفرس [1] اه . وقال الاصبهاني : بنوالاحرار هم الفرس الذين قدموا مع سيف بن ذي يزن (في أول الاسلام) وكان سيف بن ذى يزن الحميري قد قصد كسرى واستنصره على الحبشة فامدّه بقوم كانوا في السجون لموجدة عليهم . فحمل بهم الملك الحميري على الحبشة وظفر بهم وعاد بالفرس الى دياره فقال فيه امية بن ابي الصلت الثقفي :

ثم انتحى [2] نحو كسرى بعد عاشرة من السنين يهين النفس والمالا
حتى اتى ببنى الاحرار يقدمهم تخالهم فوق متن الارض اجبالا
بيض مرازبة ، غلب اساورة اسد يربين في الغيضات اشبالا

فبنو الاحرار الذين عناهم امية في شعره هم الفرس الذين قدموا مع سيف ابن ذي يزن وهم الآن يسمون بني الاحرار بصنعاء ، ويسمون باليمن الابناء ، وبالكوفة الاحامرة ، وبالبصرة الاساورة ، وبالشام الجراجمة ، وبالجزيرة الخضارمة » [3] اه . وروى صاحب تاج العروس في مادة خضرم : الخضارمة قوم من العجم خرجوا في بدء الاسلام فسكنوا الشام . وفي الصحاح : فتفرقوا في بلاد العرب فمن اقام منهم في البصرة فهم الاساورة ومن اقام منهم

---

(١) مختصر الدول ص ١٣١
(٢) أي سيف بن ذي يزن
(٣) كتاب الاغاني ج ١٦ ص ٧٤ و ٧٥ و ٧٦

بالكوفة فهم الاحامرة ، ومن اقام منهم بالشام فهم الخضارمة ، ومن اقام منهم بالجزيرة فهم الجراجمة ، ومن اقام منهم باليمن فهم الابناء ، ومن اقام منهم بالموصل فهم الجرامقة . اه

فاذا سلمنا بان الجرامقة هم من الفرس الذين اقبلوا مع سيف بن ذي يزن وتفرقوا في بلاد العرب والعراق والجزيرة فما هو ياترى سبب تسميتهم بالجرامقة ما لم يكونوا من « جرمق » وهي بلدة بقرب اصبهان [١] أو من جرم التي بنواحي بدخشان [٢] في شرق شمالي افغانستان وكان اهلها ايرانيين يتكلمون الفارسية الفصيحة . على ان التاريخ لا يصرح بان القوم الذين نصر بهم كسرى سيف بن ذي يزن الحميري كانوا من احدى هاتين المدينتين بل كانوا من المسجونين في حبوس العاصمة الكسروية .

وزد على ذلك ان وجود الجرامقة في الجزيرة كان يسبق سيف بن ذي يزن وحملته على الحبشة في بدء الاسلام أي في مباديء القرن السابع الميلادى . فان غريغوريوس ابا الفرج يؤكد وجود الجرامقة في الموصل منذ أواخر القرن الثالث الميلادي حيث انه يذكر عن الحرب التي انتشبت بين جرامقة الموصل وبين قارينوس بن قاروس قيصر ومقتله فيها [٣]

أما الأدلة على أن الجرامقة هم من الأصل الآرامي أو النبطي فهي أجلى بيانًا وهذه هي . قال ابن خلدون : لما هلك فالغ قام بأمره بعده ابنه ملكان فغلبه سوريان على الجزيرة وملكها هؤلاء الجرامقة اخوانه في النسب بنو جرموق بن أشوذ بن سام . ووافقه القلقشندي فقال : جرموق بن أشوذ ابن سام . وقال أيضًا ابن خلدون : ان الجرامقة وهم أهل نينوى غلبوا على بابل وملكها منهم سنجاريف (سنحاريب) [٤] وقال المسعودي في كتاب

(١) ياقوت .
(٢) ياقوت .
(٣) مختصر الدول ص ١٣١
(٤) ج ٢ ص ٦٨ و٦٩

التنبيه والاشراف : وكان الكلدانيون شعوباً وقبائل منهم النينويون والأثوريون والأرمان والاردوان والجرامقة ونبط العراق وأهل السواد[١]
وذكر صاحب لسان العرب عن الجرامقة انهم انباط الشام واحدهم جرمقاني

وكان العلماء المستشرقون قد ذهبوا أولاً الى أن الجرامقة من الفرس وذلك استناداً على ما قاله أئمة المؤرخين وفقاً لمبدأ فحول اللغة : أن القاف والجيم لاتجتمعان في كلمة عربية الا أن تكون معربة [٢] فلما ظهر المستشرق الشهير العلامة نيلدكي أثبت مخالفاً من سبقه فقال : ان الجرامقة هم من الأصل الارامي أوالنبطي فتأثره في ذلك بقية العلماء وعليه اتفقت آراؤهم[٣]

نقل ياقوت الحموي [٤] عن محمد بن احمد أبي ريحان البيروني قال : « الأقليم هو الرستاق بلغة الجرامقة وهم سكان الجزيرة والشام » اه . وثابت من معاجم اللغة الارامية أن الرستاق أو الرزداق معربة عن أصلها الارامي (روستاقا) ومعناها السواد والقرى

زد على ذلك أن لغة الجرامقة كانت لغة السريان الشرقيين وهم المعروفون بالكلدان كما يثبت مما ذكره سويرس في كتاب له في النحو عن اللغتين الآثورية والجرمقية قال « انهما تبدلان الباء والفاء واواً » اه ، وهذا مختص بلغة السريان الشرقيين دون غيرهم فانهم يقلبون الباء واواً في التركيخ [٥] والفاء واواً في بعض الكلمات . ومن هذا يستفاد أن لغة الجرامقة كانت السريانية الشرقية وهي المعروفة بالكلدانية . اضف الى هذا ما أورده احمد

(١) ص ٦٨
(٢) مختار الصحاح
(٣) طالع محنة لغة العرب لصاحبها العلامة الأب أنستاس الكرملي ص ١٧٢ من السنة الثالثة سنة ١٩١٣ ـ ١٩١٤
(٤) ١ : ٢٦
(٥) التركيخ عند النحاة السريان الشرقيين هو قلب بعض الحروف عن لفظها الوضعي مثلا قلب الباء الى واو والدال الى ذال والكاف الى خاء الخ وذلك في بعض المواضع

ابن الفقيه الهمداني قال : [1] الروم ملكانية يقرأون الانجيل بالجرمقانية ويقصد المؤلف بالروم الملكانية الملكيين الخاضعين للكرسي الانطاكي .
ومن الأكيد أن اللغة السريانية كانت شائعة بين الملكيين الانطاكيين حتى أواسط القرن السابع عشر ، كما يؤيده ملاطيوس الحلبي في ذكره الاناشين والصلوات العربية والسريانية التى ضبطها وصححها ، وكما يتضح من الكتب الطقسية العائدة للملكيين الانطاكيين وهي مخطوطة بالسريانية الا أن حرفها السرياني مختلف عن حروف السريان الغربيين فهو الخط الاسطرنجيلي الذي كان ولم يزل مستعملاً عند السريان الشرقيين وهم الكلدان [2]

ومما يزيدنا ايضاحاً التسمية نفسها فان كلمة الجرمقاني (مفرد الجرامقة) معربة عن أصلها الارامى (جرمقايا) وقد أورد العلامة الانكليزي « باين سميث » في معجمه السرياني اللاتيني : [3] (أن جرمقايا) هو الجرمقى أو الجرمقاني أي من كان أهله من (بيث كرماي) . فأتى هذا مصدقاً لما أورده بعض مؤرخي العرب أن الساطرون الجرمقى كان من أهل باجرمى [4] وكانت بقعة بيت كرماي أو باجرمى كما يسميها العرب واقعة فى شرقي دجلة بين دجلة والزاب الصغير وجبال حمرين ونهر ديالي [5]

وقد ذكر المؤرخون الكلدان انه كان لاسقفية الجرامقة المقام الرابع بين المطرنات النسطورية وكان مطرانها يلقب أحياناً بمطران كرخ سلوخ وهي كركوك . فيتضح مما أوردناه أن الآراميين كانوا يسمون سكان هذه الناحية بالجرامقة نسبة الى اسم ناحيتهم بيت كرماي (باجرمى) كما يسمى أهالي الموصل موصليين وأهالي البصرة بصريين وقد اشتهر بهذه التسمية

(١) مختصر كتاب البلدان ص ٧٧ و١٣٦
(٢) المشرق ٥ : ١٠٤ و١٠٥
(٣) ج ١ : ٥٨٥
(٤) كتاب الأغاني ج ٢ ص ٣٨
(٥) طالع شير ج ٢ - توطئة ص ١٣

بعض الكتبة الذين نبتوا في هذا الصقع ، منهم شمعون الجرمقاني وكان من ماحوزـ أريون (البوازيخ) من بيث كرماي ويوحنا الذي سماه الصوباوي في قائمته يوحنا الجرمقاني سماه توما المرجي (١) يوحنا من بيث كرماي اذ يقول « يوحنا الشيخ العامل كان من ناحية بيث كرماي » فقوله يوحنا من بيث كرماي يقابل تسمية الصوباوي له يوحنا الجرمقاني

فلا غرو اذا قلنا انه يبعد أن يكون أصل الجرامقة من العرب على ماقاله بعض المحققين ودعموا قولهم بما رواه الاصبهانى عن بني الاجرام الذين أقبل الضيزن بهم وبسائر قبائل قضاعة وأنزلهم الحضر(٢) ثم دعى الأجرام «جرمق» وسميت منازلهم بيث جرماي تحريفاً من الآراميين لانتشار اللغة الارامية يومئذ في تلك الديار وهكذا سمى أهلها الجرامقة . فان الاجرام الذين يذكرهم الاصبهاني في الجزء الثانى يسميهم هو نفسه العباد من قضاعة اذ يقول : أن العباد من قضاعة وهم نصارى العرب نزلوا الحيرة هزمهم شابور فصار معظمهم ومن فيه نهوض الى الحضر من الجزيرة يقودهم الضيزن بن معاوية التنوخى فمضى حتى نزل الحضر وهو بناء الساطرون الجرمقانى فأقاموا به (٣)

كذا نقل الحموي عن الشرقى بن القطامى قال : (٤) لما افترقت قضاعة سارت فرقة منهم الى أرض الجزيرة وعليهم الضيزن بن جاهمة من الاحلاف ... ويقال ان الحضر هي بناء الساطرون بن اسطيرون الجرمقانى

ونقل ابن خلدون عن ابن سعيد : أنه كان لبنى العبيد بن الأبرص بن عمران بن أشجع بن سليح ملك يتوارثونه بالحضر آثاره باقية في برية سنجار وكان آخرهم الضيزن بن العبيد المعروف عند الجرامقة بالساطرون (٥)

فترى من أدلة المدعين بعربية الجرامقة دليلا بيناً على نقيض هذا المدعى

(١) باب ١ فصل ٣١
(٢) أغاني ج ٢ ص ٣٧
(٣) أغاني ج ١١ ص ١٦٢
(٤) مادة الحضر
(٥) ج ٢ ص ٢٤٩

فان الاصبهاني يقول كان الساطرون صاحب الحضر رجلا من باجرمى . ويقوله أيضاً ان الضيزن أقبل ببنى الاجرام الى الحضر وهى بناء الساطرون الجرمقانى . وقال ابن خلدون عن الضيزن هو المعروف عند الجرامقة بالساطرون . ومن هذا يتضح جلياً أن الجرامقة هم غير القبائل العربية التي نزلت بالحضر بل يظهر واضحاً أن الجرامقة كانوا قبل أن يسكن بنو جرم وبقية القبائل القضاعية مدينة الحضر ومنهم الساطرون الجرمقاني بانى هذه المدينة

عدا هذا ان اسم بيث كرماي الذي نسبته الجر مقاني والجرامقة كما بيناه هو عريق في القدم على ان مشيحزخا (مبادي القرن السادس الميلادي) يذكر اسم بيث كرماي .[١] وربما صعدت هذه التسمية الى الاعصر الآثورية كما رأيناه في كتاب اخبار الشهداء : انه في حياة سرجون الملك الاثوري كان على صقع بيث كرماي مليك أو هو عامل الملك الاثوري اسمه كرماي . . . ثم لما آل امر هذه البلاد الى اسكندر الكبير ومن بعده لسلوقوس ، بنى سلوقوس في بيث كرماي ابنية فخيمة فسميت حينئذ كرخ سلوخ وربما الاصل كرخ سلوقوس أي حصن سلوقوس [٢] فيستفاد من هذا ان تسمية تلك الديار ببيث كرماي كانت قبيل هجرة بني الاجرام الى الحضر اذ ان هجرتهم اليها كانت في عهد شابور كما يوردها الاصبهاني [٣] . ولا يذكر المورخ هل كان شابور الأول (٢٤١ ـ ٢٧٢) أم كان شابور الثاني (٣٠٩ ـ ٣٧٩) ، ويغلب ان يكون شابور الثانى المقلب بذي الاكتاف

---

(١) ص ٦٧

(٢) طالع طبعة بيجان ج ٢ ص ٥٠٧ وما يلي

(٣) اغاني ج ١١ ص ١٦٢

الفصل الثالث

في سكان الموصل قبل الفتح الاسلامي وفي من سكنها بعده من العرب

كانت الموصل قبل الفتح الاسلامي قليلة العمران ليس فيها الا محلتان يسكن احداها المجوس من الفرس والاخرى يسكنها الجرامقة النصارى [1] ثم زاد عمران الموصل بعد الاسلام بالقبائل العربية المختلفة وأولها قبيلة خزرج وأصل الخزرجيين من يثرب اسلموا قبيل الهجرة وهم من الانصار وأظهروا في الفتوحات الاسلامية بسالة عجيبة . ولما أقبل خالد بن الوليد الى الموصل بالجيوش العربية وافتتحها سنة ٦٤٠ (٢٠ هـ) أسكن فيها من القبائل التي كانت تصحبه ومنها الخزرجيون فعمروا لهم مسجداً وهو أول مسجد في الاسلام بني في الموصل ويعرف الى اليوم بجامع خزرج ثم شيدت فيها بقية المساجد على شكله وهندامه ودور بني خزرج باقية في المحلة المعروفة باسمهم « المحلة الخزرجية »

ثم بنو أزد الذين منهم الانصار وبنو تميم وقدموا الموصل مع جيوش الفتح واستوطنوا فيها والى اليوم يتكلم أهالي الموصل بلغة بني تميم وكانت تختلف لغتهم عن لغة غيرهم من القبائل وأخص هذا الاختلاف انهم يكسرون أول الفعل المضارع فيقولون عوضاً عن نَعمل ونجعل الى آخره نِعمل ونِجعل ويهملون أيضاً اعلال اسم المفعول المشتق من الاجوف فيقولون عوضاً عن مبيع ومعيب مبيوع ومعيوب وكانوا يزيدون الشين بعد الكاف المكسورة فيقولون في لكِ وعليكِ لكش وعليكش كما يقال اليوم فيها (ما كش) أي مالك وهذه هي الكشكشة كما يسميها العرب الناقدون

وسكن الموصل أيضاً قبيلة تغلب من بني وائل وكان بنو وائل قد انقسموا قسمين هما بكر وتغلب وجرت الحرب بينهما بعد مقتل كليب فآلت تلك الحرب على القبيلتين بواراً ومن ثم رحلتا مع بنى نمر الى الاصقاع الجزرية

(١) طالع سالنامة الموصل سنة ١٣٠٨ ص ١٥٩ وابن خلدون ج ٢ ص ٦٨

فاحتل بنو بكر شماليها وهي ديار بكر . وهبط بنو تغلب جنوبيها في اطراف الموصل ثم انتقلوا اليها وسكنوا فيها ومحلتهم تعرف اليوم بمحلة التغالبة وتسمى أيضاً محلة البارودجية وهي بجوار باب الجديد في جنوبي المدينة . وسكنها بعدهم بنو قيس وهم من قبائل مضر وكانوا يقيمون في غربي ديار نجد . ولما كثروا وضاقت بهم ديارهم أكرهوا على المهاجرة فهاجروا ولعلهم أقبلوا الى الموصل قبيل هجرتهم . ثم قبيلة همدان من الاحياء اليمانية من شرقي الحجاز وكانت لهم اليد الطولى في فتح العراق في خلافـة عمر بن الخطاب وسكنوا المدر مع بني قيس خارج الموصل ثم انتقلوا اليها وذلك لما كثر عمرانهـا . ثم قوم من القبيلة القريشية كما يستفاد من ابن الأثير في ذكره المقبرة القريشية في الموصل ، وهي في انبوب الشوافع بالنبي جرجيس واطرافه . وسكنتها أيضاً قبائل من ربيعة وغيرها من القبائل الصغيرة وهم بنو سامة وبنو ثعلبة وبنو خزاعة وهم من ازد وبنو برجم وقبيلة الشهوان وهي فرع من تغلب . وقد وقفنا على أسماء هـذه القبائل التي سكنت الموصل بعد الفتح من سياق الحوادث التي جرت فيهـا بين قبيلة وأخرى كما يذكرها تاريخ الكامل لابن الأثير . الا اننا لم نقف على زمن وكيفية نزوحهم الى الموصل مفصلاً . فكثر عمران الموصل في عهد الخلفاء الراشدين حتى أصبحت مدينـة كبيرة لا تقل اتساعاً عما هي عليه الآن وفيها الصوائح أي الابنية المنفردة كمحلة النعل بكي وكانت في موقع قضيب البان وسبعة الحدادين وكانت هذه الصوائح خارج الاسوار وبعض السور الحالي هو على اساس الاسوار التي اقامها الخلفاء الراشدون

وبتوالي السنين سكن الموصل أيضاً قوم من القبيلة الحيالية النازلة في تل حيال بجوار قرية سكينية من قرى سنجار وهم قاطنون في محلة من الموصل تعرف بمحلة باب البيض أي باب الأبيض . وقدم اليها أيضاً من قبيلة أبي نجمة من تغلب الى بجوار تلعفر وتعرف محلتهم بالموصل بالبونجمة والى اليوم تربط اواصر القرابة سكان هاتين المحلتين بقبيلتيهما كالاشتراك في دفع الدية والاستثار وتبادل الهدايا الى غير ذلك

ثم قبيلة الشفادحـة من بنى جحيش من ازد وهم سكان المحلة المنقوشة وهناك أيضاً محلة أخرى تعرف بالخاتونية ويغلب ان يكون أهلها من قرية الخاتونية التي في غربي سنجار تبعد عنه نحو ثماني ساعات بجوار جبل كوك ويدّعي الخواتنة انهم من بني تغلب

وفي الاعصر المتأخرة سكن الموصل قوم من التركمان (قره قويونلي) ومحلتهم فيها تعرف برأس التركمان ومنهم سكان القاضيـة والشريخاني وكبة . ويؤكد ان ثلثي أهالي الموصل هم من بقايا القبائل العربية القديمة والثلث الآخر هم من بقايا الأمم والطوائف الارامية الذين انتقلوا اليها تدريجياً بعد خراب مدنهم وقراهم كحصن كيفا ونينوى وما يجاورها من القرى وكانت كثيرة سيما على شواطىء دجلة حتى انه كان يوجد على دجلة بين الموصل واسوار نينوى رغماً عن قلة الفسحة قرية عامرة تدعى باجبارى [1] الامر الذي يدل على وفرة سكان هذه البقعة وعمرانها الذى كان يملأ هذا الفراغ الذي نراه اليوم

أما العشاير التي استوطنت نواحي الموصـل فاشهرها قبيلة « شمر » وقد أقبلوا اليها من نجد سنة ١٢٠٠ هـ وهم من عدة قبائل اهمها « خرصة » وهي قبيـلة شمر الحقيقية ومن خرصة « بريج » و « عليان » و « الهضبة » و « الشيوخ » وهم نخـذ من الهضبة . ومن اخوان خرصـة « العامود » و « الصايح » وهؤلاء كلهم من قبيلة « قضاعة » . ومن شمر أيضاً عشيرة « سنجارة » وفروعها « ثابت » و « فداغة » و « تومان » وهؤلاء أصلهم من طي . ومن شمر أيضاً عبد القيس ويقال لهم « عبده » وهذا عبد القيس هو ابن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان. ومنهم أيضاً « بنو اسلم » وهم فرقة من خزاعة وخزاعة من الازد . هـذه هي عشاير شمر . وجلهم من العرب الرحل الذين يسكنون بيوت الشـعر ويتنقلون بين ديار بكر وبلاد العراق

ومن عشاير الموصل « طى » ويقيمون وراء الزاب الكبير أي في أراضي

(١) كتاب المجدل ص ٦٦

شمامك فيسكن بعضهم القرى وبعضهم بيوت الشعر. ومنهم استوطنوا نواحي نصيبين . وطى أشهر من أن تذكر

ومن عشاير الموصل « العبيد » ونسبتهم الى قضاعة . ومنهم كان الضيزن الذي عمر الحضر واليوم بيوتهم اطراف كركوك . ومن العبيد أيضاً «الجبور» ومعظم قراهم غربي الموصل على شواطىء دجلة من الخابور الى الخرنينة . ومن العبيد أيضاً « البوحمد » وهؤلاء يتنقلون بخيامهم في نواحي الموصل

ومن عشايرها أيضاً « الجحيش » وهذه العشيرة تنتسب الى قبيلة «ازد» وتقيم غالباً في القرى المجاورة لتلعفر وسنجار

ثم عشيرة « العقيدات » (العكيدات) وهى غربي الموصل على ضفة نهر الخابور قيل انها تنتسب الى بجيلة من « كهلان » ومنها سكان جوبة العكيدات بجوار باب البيض أو باب الابيض . وعشيرة « لبوبدران » ويقال انهم هاشميون . ثم عشيرة « الحديديين » ولا ندري لمن ينتسبون . ثم « تغلب » ويقال لها « الغرير » وفروعها « لبوحمدان » و « بنو حسين » و « بنو دوله » و « بنو عياش » و « الشهوان » و « لبو نجمه » ثم عشيرة « الالهيب » وتنتسب الى قضاعة ويخيمون في الغالب شرقى الزاب الكبير

اما الاكراد الذين يسكنون نواحي الموصل فمن أشهرهم « البوط » ويسكنون القرى التي على الخازر ثم « النافكر » أو الجفرة كما يسميهم العرب ثم العشاير السبعة وهي في شرقي الموصل . ومن الاكراد أيضاً الصارلية وقراهم في جنوبي الموصل على شواطي الزاب الكبير . ومنهم أيضاً « الكوجر » وعشايرهم هي « زيدك »و« مهمدان » و « شرقان » و « هاجان » وهؤلاء يقيمون شتاءً اطراف سميل ودهوك وزاخو وفي الصيف يرحلون الى جبل زوزان . ومن الكوجر أيضاً هم الميران وهؤلاء يخيمون شتاءً في اطراف السويدية التي في شمالى الموصل على شواطي دجلة وصيفاً يرحلون الى جبال زوزان . ثم عشيرة « الكركرية » وقراهم غربي دجلة ومنهم « السليفانية » في شرقي دجلة وقراهم بجوار زاخو ثم « الدزدي » وراء الزاب . ثم العشيرة

اليزيدية وقراهم في الشيخان ومنها (باعدرا) وهي قديماً (بيث عدرا أي باعدرا) وفي سنجار وسيأتي الكلام عنهم وعن معتقدهم وعوائدهم في آخر هذا الكتاب

ومن عشائر الموصل الاعجمية هم التركمان وأصلهم من قبيلتي « آققويونلي » و « قره قويونلي » وقد اقبلوا الى الموصل في حملة أوزون حسن فاستوطن بعضهم تلعفر وفيها أيضاً من تغلب وبعضهم اقاموا في شرقي دجلة على الشواطي .

ثم شبك وباجوان (باجوران) وهؤلاء أقبلوا من بلاد الفرس الا اننا نجهل تاريخ مجيئهم الى الموصل ولغتهم خليط من الكردية والفارسية والتركية . وقرى الباجوان هي عمركان وتيراخ زيارة وتليعقوب وبشبيثا . اما قرى الشبك فهي عليرش ويذيجا وخزنة وتلاره وقرى أخرى عديدة اطراف سنجار

الفصل الرابع

في اسم الموصل

ذهب بعض المؤرخين الى ان الموصل دُعيت باسم الملك الذي شيدها وكان يسمى الموصل وهذا بعيد عن الصحة اذ لا نجد له وجهاً من الحقيقة التاريخية على ان لفظة « الموصل » عربية الاشتقاق تدل صيغتها على اسم المكان فتعني الملتقي أي الموقع الذي يصل محلاً بآخر فاننا لم نجد بين المؤرخين الاراميين من يسميها بهذا الاسم الا في أواخر القرن الثامن للميلاد أي بعد ما سكنتها القبائل العربيـة وقبل ذلك كانت تدعى « الحصن العبوري » وقـد أورد يشوعدناح البصري (أواخر القرن الثامن للميلاد) في كلامه عن ابن القوسري (القرن السادس للميلاد) انه لما قدم الى الحصن العبوري وهو اليوم الموصل وشيد ديره المعروف باسمه لم تكن الموصل حينئذ قد بنيت بل كانت حصناً صغيراً . [1] ويلاحظ بين هاتين التسميتين القديمة والحديثة وحدة المعنى كأن

---

(١) طبعة بيجان ص ٤٧٤

الثانية أخذت عن الأولى : فالحصن العبوري ومعناه الموقع الذي يجتاز به الى مكان آخر يساوق ويناسب معنى الموصل أي نقطة الملتقى التي تصل محلاً بآخر ، وعلى هذا قد أجمع المؤرخون العرب . روى أحمد بن حمزة : ان الموصل كانت تدعى في زمن تملك الفرس « نواردشير » ثم ان مروان بن محمد من بني أمية (أواسط القرن الثامن للميلاد) أحب صفاء هوائها وموقعها الجميل وكانت حينئذ خراباً فبنى له على شاطيء دجلة قصراً منيفاً ومدّ جسراً على النهر فدعيت الموصل لان جسرها كان يصل الضفة الغربيـة بالضفة الشرقية حيث كانت نينوى . وخالفه الحموي في اعطاء سبب ذلك لكنه اتفق معه في معنى الاسم فقال : من الموصل يقصد الى جميع البلدان فهي باب العراق ومفتاح خراسان . ومنها يقصد الى أذربيجان وكثيراً ما سمعت ان بلاد الدنيا العظام ثلاثة نيسابور لانها باب الشرق ودمشق لانها باب الغرب . والموصل لان القاصد الى الجهتين قلما لا يمر بها . وقالوا سميت الموصل لانها وصلت بين دجلة والعراق وقيل لانها وصلت بين الجزيرة والعراق (أي قطعة ميسوبوتاميا) بقطعة العراق وقيل لانها وصلت بين الحديثة وبلد [1] ، وتدعى اليوم « بلط » تبعد عن الموصـل نحو سبع ساعات . ومفاد ذلك ان اسم الموصل عربي الاشتقاق ومعناه الموقع الذي يصل محلاً بآخر أو بلدةً ببلدة أخرى . وقد أيد هـذا بعض المستشرقين مثل « لاسترنج الانكليزي » في كتابه تاريخ ما بين النهرين

أما سبب تلقيبها بالحدباء فقد نسـبه الحموي الى احتداب في دجلتها واعوجاج في جريانها . وعزاه ابن بطوطة الى قلعتها الحدباء [2] وأتى في تاريخ منهال الأولياء أنها سميت بذلك لانحداب أرضها لأن البيوت والمحال فيها لم تقع على مستوى أرضها بل بعضها على نشز وقلاع وبعضها في منخفض

(١) ياقوت

(٢) ج ١ ص ١٧٥

من الأرض . وقد يكون هذا التعليل أقرب الى الصواب اذ يرى اليوم حدب المدينة في جهتها الشرقية أى في محلة القلعة وهي على نشز مرتفع من أرضها . ولقبت أيضاً الموصل الخضراء لاخضرار بقاعها وجدرانها وقت مجيء المطر حينما تهطل فيها الأمطار بغزارة في موسم الشتاء وتنبسط في جميع ضواحيها خضرة تنعش قلوب الناظرين . ولقبت أيضاً بأم الربيعين . والربيعان أحدهما في الكانونين عند مجيء الوسمي والثاني في آذار وهو الربيع الحقيقي اذ في تشرين الثاني والكانونين تنبت الزروع فتلبث صحراؤها ثوباً زمردياً وفي حلول شهر آذار تستوفي الصحراء حقها من الطبيعة ، فتكمل زروعها وتنبت فيها أنواع الورود والزهور وتصبح بقاعها أشبه بجنان غناء ، وقد قال فيها السرى بن احمد الرفا الشاعر الموصلي يتشوقها :

سقى رها الموصل الفيحاء من بلد   جود من المزن يحكى جود أهليها
أرض يحن اليها من يفارقها   ويحمد العيش فيها من يدانيها

الفصل الخامس

فتح الموصل في عهد الخلفاء الراشدين

لم نقف على تاريخ الموصل وتقلبات أحوالها قبيل الفتح الاسلامي اذ لم يقع بيدنا مؤرخ من الاقدمين بحث عنها بحثاً مستوفياً . فا كتفينا بما أوردناه في الفصول السابقة وهو جلّ ما وقفنا عليه من استقراء الحوادث . ولهذا ففي الفصول التالية يدور بحثنا على الموصل بعد الفتح الاسلامي اذ انه من ذلك العهد أخذ المؤرخون العرب يعدونها بين المدن المهمة والعواصم العربية

لما كانت سنة ٦٣٤ (١٣ هـ) أرسل الخليفة أبو بكر خالد بن الوليد الى العراق . فاقبل خالد وحمل على الحيرة . فصالحه أميرها اياس بن قبيصة الطائي على تأدية الجزية . وافتتح خالد ما جاورها من البلاد . وكتب أبو بكر الى عياض بن غنم يأمره ان يقصد العراق من أعلاه ويسير حتى يلقى ابن الوليد . فطوقت الجيوش الاسلامية بلاد العراق وقهروا الفرس وأجبروهم على تأدية

الجزية . ثم لما استقام أمر الفرس وظهروا على العرب بالعصيان حمل العرب عليهم بقوة عظيمة وبذلك شبت نيران حرب القادسية فانتصر سعد بن أبي وقاص قائد الجيوش الاسلامية على رسطام قائد جيوش الفرس وقتله سنة ٦٣٧ (١٦ هـ) ولحق العرب بالفرس يثخنون فيهم الجراح ويفتتحون البلاد حتى وصلوا خراسان ووجدوا هناك يزدجرد الثالث آخر الملوك الساسانيين مختفياً في احدى قراها فقتلوه . ومن ثم استولى العرب على كافة بلاد الدولة الساسانية

وبينما كان سعد بن أبي وقاص يطارد عساكر الفرس في تخوم العراقين كان عبد الله بن المعتم مع القائدين ربعي بن الافكل وعرفجة بن هرثمة يناجزون الروم على سواحل دجلة ويصلونهم حرباً طاحنة . وكانت ديار الموصل يومئذ تخضع للروم وذلك من سنة ٦٢٥ (٤ هـ) وهي السنة التي زحف فيها هرقل على بلاد الفرس واستولى على حدياب وهي بلاد الموصل وبيث كرماي (باجرما) وهي ديار كركوك وشهر زور وهي ديار سليمانية .[١]

ان الخليفة عمر بن الخطاب كتب سنة ٦٣٧ (١٦ هـ)[٢] الى سعد بن أبي وقاص ان يرسل الى تكريت عبد الله بن المعتم وعلى مقدمته ربعي بن الافكل وعلى ميمنته الحارث بن حسان الذهلي وعلى ميسرته فرات بن حيان العجلي وعلى ساقته هانيء بن قيس وعلى الخيل عرفجة بن هرثمة . فلما زحفت عساكر العرب وبلغ خبرهم الانطاق سار بعساكر الروم من الموصل الى تكريت ليحمي أرضه وانتشب القتال بين الفريقين ودام مدة أربعين يوماً . ثم ان القبائل العربية وهي تغلب ونمر واياد ومعهم الشهارجة الذين كانوا منضوين الى الاروام يحاربون تحت رايتهم انحازوا عنهم الى اخوانهم العرب بدافع نزعتهم العربية . فاعمل الاسلام والربيعيون السيف في الاروام وقتلوا منهم

---

(١) طالع ابن العبري . س ص ٩٦ و١٠٢ وتاريخ السيد ادي سير ج ٢ ص ٢٣٨

(٢) ابن الاثير ج ٢ ص ٢٢١

خلقاً كثيراً [١] . ومن بقي منهم لاذ بالهزيمة فسار العرب الى الحصنين وهما الموصل ونينوى . وافتتحوهما وصالحهم أهلهما على الجزية [٢]

وذكر الواقدي في ذلك : ان عياض بن غنم أقبل بجيوش الفتح حتى نزل بالاسماعيليات وبعث عمرو بن جند ليغير على الموصل وعلى أعمالها فمضى وأغار وأخذ الغنائم ووقع الصايح فخرجوا عليه وقاتلوه وانتزعوا منه الغنيمة فقاتل حتى قتل ودفن بالجانب الغربي . فلما بلغ عياضاً ذلك ارتحل من الاسماعيليات ونزل على الموصل فخرج اليه أهلها بالعدد والسلاح فكرّ عليهم خالد بجيش الزحف فجعلهم حطاماً ولم يكن عليها يومئذ سور يمنع فاخذها بحد السيف وأسكن فيها القبيلة الخزرجية سنة ٦٤٠ (٢٠ هـ)[٣]

وأورد ابن خلدون [٤] : ان عياض بن غنم أقبل الى الجزيرة سنة ٦٣٩ (١٨ هـ) فافتتح بلادها . وآخر جميعها افتتح الموصل . وقد يكون سبب تضارب آراء المؤرخين في ايرادهم أسماء الفاتحين وتعيينهم تاريخ الفتح ان عبد الله بن المعتم بعد فتحه الموصل وما يجاورها من المدن والقلاع صالحه أهلها على الجزية كما يذكره ابن الاثير . ثم تمردوا سنة ١٨ أو سنة ٢٠ هجرية وأبوا تأدية الجزية فاقبل عليهم عياض وعاملهم بالعنف والشدة وكان من أمرهم ما كان مع عمرو بن جند وخالد بن الوليد . وقد أسكن بينهم القبائل العربية كي لا يعودوا الى العصيان .

ونقل ابن الأثير : أن عمر بن الخطاب استعمل عتبة بن فرقد على قصد الموصل سنة ٢٠ هجرية ولما أتاها قاتله أهل نينوى فأخذ حصنها وهو الشرقي عنوة ثم عبر دجلة فصالحه أهل الحصن الغربي وهو الموصل على الجزية وفتح

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٨٦

(٢) ابن الاثير ج ٢ ص ٢٢١

(٣) طالع الواقدي ج ٢ ص ١٠٨ وسالنامة الموصل ١٣٠٨ ص ١٥٨

(٤) تتمة ج ٢ ص ١٠٨

بانهذرا[١] والمرج [٢] وباعذار [٣] وحبتون [٤] وداسان [٥] وجميع معاقل الأكراد وقردى[٦] وبازبدي [٧] وجميع أعمال الموصل وكانت عديدة كثيرة السكان . والأصح أن عتبة بن فرقد لم يكن فاتحاً بل استعمل على الموصل وأطرافها وافتتح شهرزور أي ديارسليمانية فضمت الى الموصل ولم تزل مضمومة حتى أفرزت عنها آخر خلافة الرشيد . ثم خلف عتبة في ولاية الموصل هرثمة بن عرفجة سنة ٦٤٢ [٨]

وفي خلافة عثمان بن عفان سنة ٦٤٤ (٢٤ هـ) وُلي على الموصل حكيم ابن سلام الحزامي [٩] وفي خلافة علي بن أبي طالب كثرت عمارة الموصل وازداد سكانها وقصدها المهاجرون الكثيرون . يقول ابن الأثير [١٠] : وكان أهل الجزيرة والموصل يومئذ نافلة انتقل اليها كل من نزل بهجرته من أهل البلدين (العراقين) أيام علي . اهـ وكانت العشائر العربية التي توطنت الموصل قد انحازت الى علي بن أبي طالب وذلك على أثر الانقسامات التي جرت بعد مقتل عثمان ابن عفان . وبلغت أخبارهم الى علي وما هم عليه من الشغب وسفك الدماء ، فأرسل علي رجلا من ثقاته يقال له عبد الرحمن الخثعمي الى ناحية الموصل سنة ٦٥٩ (٣٩ هـ) ليسكن الثائرين فيها حقناً لدماء العباد . فلما قرب عبد الرحمن من

(١) اوبيث نوهدرا وهي قضا زاخو ودهوك

(٢) المرج وهو العقر والزيبار. قال الحموي ويسمى بمرج الموصل وبمرج ابي عبدة عن جانب الموصل الشرقي وهو موضع بين الجبال في منخفض من الارض فيه مروج كثيرة وقرى وهي ولاية حسنة وعلى جبالها قلاع

(٣) اوبيث عذرا في شرقي الموصل واليوم تعرف بباعدرا العرب تبعد عن برطله نحو الساعة

(٤) في الجبل على سواحل الزاب الاكبر

(٥) اوبيث داسان واقعة غربي الزاب في جنوبي العمادية

(٦) هي القطعة المعروفة اليوم ببهنان في شمالي جزيرة ابن عمر

(٧) اوبيث زبداي وهي جزيرة ابن عمر والحموي يقول هي قرية قرب البامزدي من ناحية جزيرة ابن عمر

(٨) ابن الاثير ج ٣ ص ١٩

(٩) ابن الاثير ج ٣ ص ٧٢

(١٠) ج ٣ ص ١٦

الموصل لقيه قسم من التغلبيين الذين اعتزلوا معاوية وعليهم قريع بن الحرث التغلبي فتشاتموا ثم حمل التغلبيون على عبد الرحمن وقتلوه مع أصحابه . وبلغ خبر قتله الى علي فاحتدم غضبه وعزم أن يوجه جيشاً الى أهل الموصل . فتوسلت اليه قبيلة ربيعة وقالوا له هم معتزلون لعدوك داخلون في طاعتك وانما قتلوه خطأ فأمسك عنهم [1]

الفصل السادس

الموصل في أيام الدولة الأموية

نشأت الدولة الأموية في الشام علي يد معاوية بن أبي سفيان وهو الذي أبى على علي بن أبي طالب مبايعته بالخلافة فرفع عليه لواء العصيان واستقل بالحكم في الشام سنة ٦٦١ (٤١ هـ) . ولما توفي علي بن ابي طالب وولده انفسح المجال للخلفاء الأمويين فمدوا سلطانهم الى جميع انحاء الممالك والبلاد التي افتتحها العرب بعد الاسلام وقام في الدولة الأموية الأولى أربعة عشر خليفة آخرهم كان مروان بن محمد ، وانقرضت حكومتهم سنة ٧٤٦ وهي ١٢٩ هجرية

ونشأت الدولة الأموية الثانية في الاندلس سنة ٧٥٥ (١٣٨ هـ) وكان أول خلفائهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام وقام منهم أحد عشر خليفة آخرهم كان سليمان بن حكم ثم انقرضت هذه الدولة سنة ١٠١٢ (٤٠٣ هـ)

توفي معاوية سنة ٦٧٩ (٦٠ هـ) فبويع ابنه يزيد بالخلافة وفي هذه السنة كاتب الكوفيون الحسين بن علي بن أبي طالب واستقدموه الى الكوفة ليبايعوه عليهم فقدم الحسين الى الكوفة بمن تبعه من خيرة رجال الحجاز ، وكان على الكوفة عبيد الله بن زياد من قبل يزيد الأموي . فنزل الحسين بظاهرها وأرسل الى الكوفيين يذكرهم ويطالبهم أن يبروا بوعودهم فانكروا

---

(١) ابن الاثير ج ٣ ص ١٩٣

عليه ذلك . ثم جمع عبيد الله بن زياد رجاله وخرج الى الحسين فانتشب القتال بين الفريقين سنة ٦٨٠ (٦١ هـ) فقتل الحسين ورجاله وفي تلك الآونة كان عبد الله بن الزبير بمكة قد اجتمع له خلق كثير . فلما بلغه قتل الحسين قام في الناس وعظم قتله وخالف بني أمية ونازعهم على الخلافة وادعاها لنفسه ومازال على ذلك حتى بويع بالخلافة بالحجاز سنة ٦٨٣ (٦٤ هـ) وهي السنة التي فيها تولى الخلافة الأموية في الشام معاوية بن يزيد . ثم استولى عبدالله بن الزبير على العراق سنة ٦٨٤ (٦٥ هـ) ، وهي السنة التي فيها تولى الخلافة عبد الملك بن مروان خامس الخلفاء الأمويين . فولى عبد الله على الكوفة عبد الله بن المطيع . وعلى الموصل محمد بن أشعث بن قيس . ولم يمض عام على ولايته حتى قام على الكوفة مختار أبواسحاق بن أبي عبيد الثقفي أحد مشاهير الغزاة فضبطها من عبد الله بن المطيع عامل ابن الزبير وتقلد أمرها سنة ٦٨٥ (٦٦ هـ) وأرسل عاملاً على الموصل عبد الرحمن بن سعيد بن قيس فلما قدمها عبد الرحمن خافه محمد عامل ابن الزبير فأخلى له الولاية وهرب الى تكريت لينظر ما يكون من عامل المختار وأهل الموصل

وكان لما استوثق الأمر بالشام لمروان بن الحكم رابع الخلفاء الامويين جهز جيشاً وسيره الى العراق تحت قيادة عبيد الله بن زياد ثم توفي بعد هذا بمدة يسيرة . فولى الخلافة بعده ابنه عبد الملك وكان أول ما طمحت اليه نفسه أن يستولى على العراق فأقر ابن زياد على ما كان أبوه قد ولاه اياه وأقبل ابن زياد الى الموصل بجيش كثيف نخافه عامل المختار وكتب الى الكوفة يخبر المختار بدخول ابن زياد أرض الموصل وانه قد اضطر أن يتنحى له عنها الى تكريت . فأرسل المختار يزيد بن أنس بثلاثة آلاف فارس الى الموصل وكتب الى عامله عبد الرحمن يقول له خل بين يزيد وبين البلاد فسار يزيد بجيش الى الموصل ونزل بباتلي (برطلة) [1] نخرج اليه ابن زياد وانتشب القتال

(١) قرية في شرقي الموصل تبعد عنها نحو عشرين كيلو متراً وكانت قديماً قصبة كبيرة قال الحموي برطلة قرية كالمدينة في شرقي دجلة من أعمال نينوى كثيرة الخيرات والاسواق والبيع والشراء يبلغ دخلها السنوي عشرين الف دينار (١٠٠٠٠ جنيه)

بينهما أياماً مرض فيها يزيد بن أنس فكانوا يحملونه مريضاً الى ميدان الحرب ثم اشتدّ عليه المرض وتوفي فوهن أصحابه وداخلهم الفشل فكفوا عن الموصل سنة ٦٨٦ (٦٧ هـ) وعلى هذا أرسل المختار الى الموصل ابراهيم بن الأشتر فأقبل ابراهيم وأوغل في أرض الموصل حتى بلغ نهر الخارز ونزل فيه نخرج عليه ابن زياد وناوشه القتال. ثم انكسر ابن زياد وتفرق شمل جنوده ودخل ابراهيم الموصل فأرسل في طلب عبيد الله بن زياد وقبض عليه فقطع رأسه وأنفذه الى المختار

ولما بلغ عبد الله بن الزبير انسحاب عماله عن الكوفة والموصل وما يجاورها جهز جيشاً كثيفاً وأرسله تحت قيادة أخيه مصعب الى الكوفة ليلاقي المختار. فقدم مصعب الى الكوفة وحاصرها وضيق عليها حتى افتتحها فدخلها وقتل المختار أمام باب قصره وآل أمر الكوفة وما يليها الى ابن الزبير فعزل ابراهيم بن الأشتر وولى المهلب بلاد الموصل والجزيرة وأرمينيا وبعد مضي أيام استقدمه مصعب لاخضاع الخوارج وأعاد أبراهيم بن الأشتر على ولاية الموصل سنة ٦٨٧ (٦٨ هـ) (١)

ولما كانت سنة ٦٩٠ (٧١ هـ) تجهز عبد الملك بن مروان وسار بجيشه من الشام يريد العراق وبلغ خبر مسيره الى مصعب فاستدعى ابراهيم بن الاشتر وجعله على مقدمة جيشه لمحاربة عبد الملك وثارت الحرب بين الفريقين فولت العساكر الزبيرية هاربة وألقى القبض على مصعب وقتل. ومن ثم دخل العراق في حكم الامويين. ثم أن عبد الملك سير جيشاً تحت قيادة الحجاج سنة ٦٩٢ (٧٣ هـ) الى المدينة لحرب ابن الزبير فقتل ابن الزبير وبويع لعبد الملك بن مروان بالخلافة في جميع البلاد الخاضعة للاسلام. وأنفذ عبد الملك على الجزيرة أخاه محمد بن مروان وكان في أرض الموصل

ثم لما تولى الخلافة الأموية هشام بن عبد الملك سنة ٧٢٣ (١٠٥ هـ)

(١) ابن الاثير ج ٤ ص ١٤٠

أرسل عاملا على الموصل الحرّ بن يوسف بن الحكم من بني أمية [1] فقدم اليها ونظم أمورها وبنى له فيها داراً فسيحة زخرفها بأنواع التصاوير الحسنة ونقشها بالساج والرخام والحجارة الملوّنة ولهذا سميت بالمنقوشة . ويذكر عنها صاحب تاريخ الكامل « انها كانت عند سوق القتابين والشعارين وسوق الاربعاء ، واما الآن فهي خربة تجاور سوق الاربعاء » اه

لا نعرف اليوم موقع سوق القتابين اما سوق الشعارين فمعروف . ويغلب ان يكون سوق الاربعاء « جهار سوق »

وسعى الحر بجلب مياه دجلة الى المدينة وسبب ذلك انه كان ماراً يوماً بطريق فابصر امرأة عجوزاً تحمل جرة ماء على كتفها وقد انهكها التعب لبعد النهر . وكانت تحملها قليلا ثم تجلس ريثما تستريح فرق لها الحر وكتب يستأذن هشام بن عبد الملك بحفر نهر أو قناة كبيرة لجلب مياه دجلة الى المدينة فاذن له هشام وعين له مبلغاً للنفقة على هذا المشروع . فشرع الحر بحفره وقبل نجاز المشروع توفي الحر سنة ٧٣١ (١١٣ هـ) ودفن بالمقبرة القريشية بازاء داره المنقوشة. ومن الاقوال المأثورة ان المقبرة القريشية كانت تلاصق مصلى الحنفية في جامع النبي جرجيس ففي سنة ١٩١٨ ترمم المصلى المذكور وبينما كانوا يحفرون عثروا على لحد فيه رفات . وقد افتكر الواقفون على دقائق التاريخ أن هذا اللحد هو قبر الحر بن يوسف بناء على مالهم من التقليد في ذلك ومنه نستدل أن قصر الحر كان واقعاً في محلة باب النبي بازاء جامع النبي جرجيس .

ثم استعمل هشام على الموصل الوليد بن تليد العبسي واوعز اليه بالاهتمام في انجاز حفر النهر فاهتم الوليد بالعمل وفرغ منه سنة ٧٣٨ (١٢١ هـ) ويذكر ابن الأثير انه أدخله الى البلد وكان مبلغ النفقة عليه ثمانية آلاف ألف درهم وهي تساوي تقريباً (٢٦٦٦٦٦ جنيها) ونصب على هذا النهر ثمانية احجار للطحن وجعل واردها لاصلاح ماتهدم من مجراه . وكان هذا النهر

(١) ابن خلدون ج ٣ ص ١٣٩

الذي شرع الحر بحفره يجري من دجلة من وراء دير مار ميخائل في شمالي المدينة ويدخل من مغارةالبقر من طرف (قوجه مغارة) ويأتي الموصل محاذياً الحاوي والى اليوم ترى بعض آثاره . ثم خلف الوليد العبسي على ولاية الموصل ابن أخيه أبو قحافة سنة ٧٣٩ (١٢٢ ﻫ) وجلس بعد هشام على سرير الخلافة الاموية الوليد بن يزيد بن عبد الملك سنة ٧٤٢ (١٢٥ ﻫ) ثم قتل سنة ٧٤٣ (١٢٦ ﻫ) فخلفه يزيد بن عبد الملك وولي هذا على الموصل والجزيرة مروان بن محمد بن مروان [1]

وكان بعد قتل الوليد قد انتقض العمال على بني أمية واضطرب أمرهم فنشأت فيهم الفتن وكثر المفسدون والخوارج الذين استبدوا بالبلاد وعصى بالموصل سعيد بن هديل [2] ثم ظهر الضحاك بن قيس الشيباني في الكوفة فاغتنم من انتشار هذه الفتن واشتغال مروان بن محمد في الشام وأتى الى اطراف الموصل ومعه من الصفرية [3] نحو أربعة آلاف محارب . فكاتب أهل الموصل سنة ٧٤٥ (١٢٨ ﻫ) واجزل لهم المواعيد اذا هم مكنوه من أخذ المدينة . ثم سار بجماعة من جنوده حتى انتهى اليها وعليها يومئذ رجل من بني شيبان يقال له القطران بن اكمه . ولما وصلها أفسح له الموصليون ومكنوه من أخذ مدينتهم فدخلها . اما القطران فقاتلهم بمن معه من ذويه وأصحابه وهم عدة يسيرة حتى قتلوا عن بكرة أبيهم . فاستولى الضحاك على الموصل وما يتبعها . وكان الضحاك قد كثر اتباعه وانضمت تحت رايته اعياص القبائل حتى أصبح بجيش عظيم فتوجه بخمسة آلاف محارب من أصحابه لفتح مدينة الرقة فلما بلغ خبره الى مروان الاموي وكان على حصار حمص لثورة جرت فيها ترك حمص وزحف بجيوشه لمقاتلة الضحاك والتقى به في نواحي كفر توثا من اعمال ماردين ودارت بينهما حرب طاحنة الى المساء فترجل الضحاك والذين معه من

(١) ابن خلدون ج ٣ ص ١١٢

(٢) ابن العبري س ص ١٢٠

(٣) من الخوارج وينسبون الى ابن صفار وقد اشتهروا بحروبهم مع الحجاج (طالع عنهم ابن خلدون ج ٣ ص ١٤٥ و١٥٢)

ذوي العزم والبأس نحو ستة آلاف وكان مروان قد كمن لهم برجله وخيله فالتاث أصحاب مروان على الضحاك وأصحابه والحوا عليهم في القتال حتى افنوهم عن آخرهم وفيهم قتل الضحاك فخز رأسه وطيف به من مدن الجزيرة تهويلاً للعصاة وبلغ خبر قتله الى من بقي من أصحابه فاقاموا عليهم الخيبري وهذا أيضاً قتل فخلفه في زعامة العصاة من بني شيبان رجل يدعى شيبان ابن عبد العزيز اليشكري فأخذ يقاتل مروان ثم تخلف عنه أصحابه وبقي هو في نحو أربعين ألفاً وكان سليمان بن هشام من بنى أمية قد اعتزل مروان لسبب الخلاف الذي بينهما فاوعز سليمان الى العصاة ان ينصرفوا الى الموصل ويجعلوها ظهرهم فساروا اليها واقاموا في شرقي دجلة وعقدوا جسوراً عليها ليأخذوا ميرتهم منها ثم تبعهم مروان فخندق بازائهم وكان أهالي الموصل قد اتفقوا مع الخوارج على قتاله . ودام هذا القتال نحو ستة أشهر . ولما اعيا أمر مروان أرسل فاستقدم من العراق عامر بن ضبارة في ثمانية آلاف وضم اليه جنده فظفر بالعصاة من شيبان وقتل منهم خلقاً كثيراً والبقية تبددوا وكان ذلك سنة ٦٤٧ (١٢٩ هـ)

الفصل السابع

اعتزال أهالي الموصل الامويين ومبايعتهم العباسيين

بدات اركان الخلافة الأموية تتقوض ودعائمها تتطامن للسقوط لاسباب اخصها ظلمهم الرعية في حشد المال لتوطيد دعائم ملكهم ورد المزاحمين فضاعفوا الضرائب والخراج على الرعية ثم زادوا في نفوذ العمال وجعلوا لهم حصة في اموال الضرائب ليطمعوهم في جمعه فطفق العمال يثقلون على الرعية ويظلمونها حتى كرهتهم ومالت عنهم

وساءت أحوالهم زيادة على ذلك بتقاطعهم وخلافهم في سبيل القبض على ناصية الخلافة حتى انتقض أمرهم وعثى الفساد في بلادهم . وكان من أمرهم في الموصل ما ذكرناه من خروج الخوارج وكثرة الحروب حتى مالت الاهالي

الى المبايعة لبني العباس . وكان أشياع بني العباس قد ظهر أمرهم وكثروا في خراسان وفي غيرها من البلاد سنة ٧٤٤ (١٢٧ هـ) وقد بايعوا بالخلافة للامام ابراهيم بن محمد بن العباس . ومن ثمّ جندوا الجيوش ، وأرسلوها لفتح البلاد وأخذها من يد الامويين . أما مروان بن محمد وهو آخر الخلفاء الامويين فاحتال في القبض على ابراهيم وقتله غيلة . فسار بنو العباس من خراسان الى الكوفة وفيها بويع بالخلافة لابي العباس عبد الله السفاح أخي ابراهيم . فادال الله العباسيين من الامويين وبايعهم ابناء العراق قاطبة . ثم أرسل قحطبة بن شبيب القائد العباسي أبا عون بن يزيد الخراساني في أربعة آلاف محارب الى شهر زور وهى من توابع الموصل . وناوشوا عثمان القتال فانكسر عثمان . واسرت جنوده . وقتل فيهم أبو عون مقتلة عظيمة . وأقام أبو عون في اطراف الموصل وأرسل يستنجد قحطبة ليسير الى بقية البلاد فسير اليه نحو ثلاثين الف محارب . ولما بلغ ذلك مروان بن محمد وهو بحرّان سار الى مقابلة أبي عون ومعه جنود أهل الشام والجزيرة والموصل وحشر معه بنو أمية أبناءهم . وأقبل على أبي عون حتى نزل الزاب الاكبر . وأقام أبو عون بشهر زور . وجرى ذلك سنة ٧٤٩ (١٣٢ هـ) فحفر مروان خندقاً وكان في عشرين ومائة الف . وبلغ عددهم الى أبي العباس الخليفة السفاح فجمع جنداً عظيما وأرسلها الى مروان تحت قيادة عبد الله بن علي عم السفاح فانضمّ عبد الله الى أبي عون وبعد يومين من وصوله سال عبد الله عن مخاضة في الزاب فدل عليها وأمر عيينة بن موسى فعبر في خمسة آلاف حتى انتهى الى عسكر مروان وناوشه القتال الى المساء ثم رجع كل الى مكانه . ولما أصبح مروان عقد جسراً وعبر عليه وسير ابنه عبد الله الى عسكر العباسيين فكسرهم وقتل منهم خلقاً كثيراً ثم حمل محمد بن صول بفرقة من الجيش العباسي على الأمويين ففرق شملهم وأوقع الرعب والخوف في قلوبهم حتى أدبروا هاربين على وجوههم الى الزاب ومحمد بن صول يتبعهم فامر بقطع الجسر وقتل منهم ذلك اليوم عدداً عظيماً . وكان في من قتل من الأمويين

يحيي بن معاوية بن هشام بن عبد الملك وهو شاب في غضارة الشباب كان يحارب مستقتلاً فلما رآه عبد الله بن علي وما هو عليه من الشجاعة وأبهة الشرف والجلال ناداه يا فتى لك الامان ولو كنت مروان بن محمد فجاوب ان لم أكنه فلست بدونه . قال لك الامان ولو كنت من كنتَ ، فانشده :

اذل الحياة وكره الممات وكلا اراه طعاماً وبيلاً
فان لم يكن غير احداهما فسيراً الى الموت سيراً جميلاً

واستولى عبد الله بن علي على سلاح بنى أمية واجتاح اموالهم وكتب الى السفاح يبشره بالنصر والفتح . فلما وصل الكتاب وزع السفاح الاموال على جنوده ورفع ارزاقهم الى ثمانين اما مروان فانهزم مجتازاً الزاب الى الموصل وعليها عامله هشام بن عمر التغلبي وبشر بن خزيمة الأسدي [1] ولما حاول مروان ان يعبر دجلة الى المدينة منعه أهلها عن الدخول وقطعوا الجسر فناداهم أهل الشام : هـذا أمير المؤمنين مروان . فقالوا كذبتم أمير المؤمنين لا يهرب وسبه أهل الموصل وقالوا ياجعدي يامعطل الحمد لله الذي ازال سلطانكم وذهب بدولتكم الحمد لله الذي أتانا باهل نبينا فلما سمع ذلك خاف على نفسه منهم فسار الى بلد ثم عبر دجلة وأتى الى حران . وقـدم عبد الله بن علي الى الموصل فعزل هشام وولى عليها قائد جيشه محمد بن صول ثم سار بشجعان الموصل في طلب مروان فأدركوه نازلاً في كنيسـة في بوصير حيث قتلوه شرقتلة [2] سنة ٧٤٩ (١٣٢ هـ)

---

(١) ابن خلدون ج ٣ ص ١٣١
(٢) ابن خلدون ج ٣ ص ١٣٢

الفصل الثامن

تغير أهل الموصل على الدعوة العباسية وظهور الخارجي حسان الهمداني

بعد مضي أيام على هذه الحوادث ثار أهالي الموصل سنة ٧٤٩ على محمد بن صول الخثعمي عامل السفاح فامتنعوا عن طاعته وقالوا : لانرضى ان يتولى علينا مولى من خثعم فاخرجوه واذ لم يستطع مناواتهم سار عنهم فكتبوا الى السفاح بذلك وأرسل اليهم السفاح أخاه يحيى فقدم يحيى الى الموصل باثنى عشر ألف راجل ونزل قصر الامارة بجانب مسجد الجامع . وكان يحيى قد اضمر الشر بقلبه على أهل الموصل فأمسك منهم بغتة اثنى عشر من كبرائهم وقتلهم . ولما رأى الاهلون ذلك حملوا السلاح وقابلتهم العساكر الخراسانية فاحتال يحيى عليهم بأن اعطاهم الامان وجمعهم الى الجامع ثم أمر العساكر الخراسانية بقتلهم ففتكوا فيهم فتكاً ذريعاً . وقال صاحب تاريخ الكامل : انه قتل في ذلك اليوم أحد عشر ألفاً ولما كان الليل سمع يحيى عويل النساء اللواتي قتل رجالهن فأمر في الغد بقتل النساء والصبيان واستباحهم ثلاثة أيام فان سكان الموصل كانوا قد كثروا وازدادوا خصوصاً في زمن الامويين

وكان في عسكره قائد معه أربعة آلاف زنجي قد أخذوا النساء قهراً فلما فرغ يحيى من قتل أهل الموصل ركب في اليوم الرابع وبين يديه الحراب والسيوف مسلولة فاعترضته امرأة وأخذت بعنان فرسه ولما أراد أصحابه قتلها نهاهم عن ذلك فقالت له المرأة : ألست من بنى هاشم . اما تأنف للعربيات ان يتزوجن الزنج . فلم يجبها بشيء وأرسل معها من يبلغها مأمنها ثم عاد يحيى الى داره . وقد أثر فيه كلام المرأة فجمع الزنج من الغد للعطاء وأمر بهم فقتلوا عن آخرهم . وكان سبب هذه المذبحة العظيمة في أهالي الموصل ما ذكره صاحب تاريخ الكامل : ان أهالي الموصل ندموا على مبايعتهم لبنى العباس وأظهروا الكراهية لهم فمال فريق منهم الى الامويين وفريق منهم تشيعوا لابراهيم حفيد الحسن

ابن علي بن أبي طالب فارتاب منهم العباسيون واضمروا لهم الشر . ثم قدحت نار الفتنة بحادث وهو اذا امرأة موصلية غسلت ثياباً وألقت الماء من السطح فوقع على رأس أحد الخراسانية فهجم على الدار وقد ظنها فعلت ذلك عمداً وقتل أهلها فأمسكه أهل البلد وقتلوه ومن ثم ثارت الفتنة وكان ما كان كما ذكرناه . ولما بلغ الخبر الى السفاح خاف عواقب الأمور فعزل يحيي عن الولاية سنة ٧٥٠ (١٣٣ هـ) ليسترضي بذلك الاهالي

ثم نصب مكانه اسماعيل بن علي بن عبد الله بن العباس وكان اسماعيل حسن السيرة أحسن الى الأهالي فاحبوه واطاعوه

ومات السفاح في الانبار سنة ٧٥٣ (١٣٦ هـ) فتولى الخلافة بعده أخوه أبو جعفر المنصور وفي السنة السادسة من خلافته عزل عمه اسماعيل عن الموصل اذ كان قد أوجس منـه خيفة لتظاهره بالعصيان والتمرد ثم ألقى القبض على بعض ذويه وأودعهم السجون واقام مكانه على الموصل مالك بن الهيثم الخزاعي أحد كبار الأمراء [1] وجمع مالك من الموصل جيشاً أرسله الى الخليفة ليسيره الى الديلم [2] الذين كان شرهم قـد عثى في البلاد . وكان أهالي الموصل قد اصطلح أمرهم مع الخليفة فأحبهم سيما لشجاعتهم ودربتهم في الحروب وثباتهم على الشدة ولهذا قدم الخليفة المنصور الى الموصل سنة ٧٦٠ (١٤٣ هـ) وذلك قبل ان يشرع ببناء بغداد ومكث فيها مدة من الزمان ثم عزل مالك بن الهيثم عن الموصل بعد بقائه فيها ثلاث سنين وولى عليها ابنه جعفر وجعل معه حرب ابن عبد الله أحد كبار القواد بالعساكر الكثيرة لكبح جماح الخوارج الذين كانوا قد عثوا في هـذه الجهات واقام حرب في الموصل فبنى له قصراً منيفاً باسفل الموصل عرف باسمه قصر حرب واليوم موقع هذا القصر عند قرية قنيطرة قبالة بافخارى قرية ابن الأثير وسكن هذا القصر جعفر بن المنصور

(١) ابن خلدون ج ٣ ص ٢٠٠

(٢) من سكان سواحل غربى بحر خزر ويقال انهم اجداد بني بويه وسنأتي على ذكرهم

وفيه وُلدت الست زبيدة وانقاض هذا القصر باقية الى اليوم حيث ترى آثار الرصيف على منحدر الرابية التي كان مشيداً عليها . ولم يلبث حرب على الموصل زمناً طويلا فان المنصور دعاه اليه في السنة التالية وأرسله لمحاربة استرخان الخوارزمي الذي اغار على جهات أرمينية بجماعة من أصحابه الترك وذبح من المسلمين خلقاً كثيراً . ثم أرسل المنصور على الموصل والياً الصقر بن نجدة وفي زمن ولايته خرج حسان بن مجالد الهمذاني في نواحي الموصل بقرية بانخارى على دجلة بجوار الموصل فسار اليه الصقر بعساكر الموصل سنة ٧٦٥ (١٤٨ هـ) وقاتله الا ان العساكر الموصلية هربت ملتجئة الى المدينة فتبعهم حسان بأصحابه ودخل المدينة ونهبها وأحرق اسواقها ثم سار حسان عنها الى الرقة ولم يمكث هناك طويلا فعاد الى الموصل ثانية وخرج عليه الصقر ومعه الحسن بن صالح الهمذاني وبلال القيسي بقبائلهما من سكان الموصل والتقى الفريقان وتناوشا القتال فانهزم الصقر وأسر الحسن وبلال وامر حسان بقتل بلال واستبقى على حياة الحسن لانه كان من ذويه . وكان الخليفة المنصور قد تغير على أهالي الموصل وصار يتهمهم بالتشيع لعلى بن أبي طالب ناسباً خروج الخوارج الى خيانة منهم وانهم متصحبون لحسان . فعقد النية ان ينفذ الجيوش الى الموصل للفتك بأهلها قصاصاً لهم على خيانتهم . وعلى هذا أمر المنصور باحضار الامام أبي حنيفة وابن أبي ليلى وابن أبي شبرمة وقال لهم ان أهالي الموصل شرطوا على نفسهم ان لا يخونوا دعوة العباسيين ومتى خانوا حلت دماؤهم واموالهم . فما قولكم وقد ثبتت خيانتهم عندنا . فسكت أبو حنيفة وتكلم الآخران وقالا رعيتك فان عفوت فانت أهل لذلك وان عاقبت فبما يستحقون . فقال الخليفة لابى حنيفة أراك ساكتاً ياشيخ . فقال أبو حنيفة أيها الخليفة لقد أباحوك ما لا يملكون فأثر فيه كلام أبى حنيفة وعفى عن أهل الموصل . ثم أراد ان يتلافى الخرق قبل ان يعظم حيث كان الاكراد والخوارج قد ملأوا اطراف الموصل فساداً وخراباً فاشاروا عليه بتولية خالد بن برمك وكان معروفاً باصابة رأيه ومشهوراً بشجاعته فقدم خالد الى الموصل واغار على المفسدين

فقهرهم وكفهم عن الشر ودبر أمر البلاد وأحسن ادارتها فهابه أهل الموصل هيبة شديدة

وخلف خالداً في الولاية اسماعيل بن خالد بن عبد الله القسري سنة ٧٧٠ (١٥٣ هـ وقال ابن خلدون سنة ١٥١ هجرية) وأقام فيها سنتين ثم عزله المنصور واستعمل مكانه موسى بن كعب الخثعمي وكان هذا ذميم السيرة متقاعساً عن شؤون الادارة وجباية الأموال ومعاقبة الأكراد الذين فشا شرهم في أطراف الموصل والجزيرة . فلما بلغت هذه الأحوال الى الخليفة المنصور استدعى أركان دولته واستشارهم فيمن يقيم على الموصل فأشاروا عليه بخالد ابن برمك . فقال لايصلح لنا بعد الذي أغرمناه . وكان ذلك ان المنصور اغرم خالداً بن برمك ثلاثة ملايين درهم وهي تساوي تقريباً ١٠٠٠٠٠ جنيه وأجله ثلاثة أيام فان أحضر المال والا قتله فجمع خالد كل ما بيده من أموال وضياع وغيرها واستقرض من أصحابه وجمع في يومين مليونين وسبعمائة الف وبقي ثلاثمائة الف وقد تعذر عليه جمعها وأشكل أمره فآيس من الحياة وجلس في بيته ينتظر رسول الخليفة ، وبينما هو كذلك حضر اليه خادم الخليفة يدعوه فسار وقد أيقن بالهلاك فلما مثل بين يديه صفح له المنصور عن الثلاثمائة الف الباقية وولى ابنه يحيى اذربيجان وسير خالداً الى الموصل ومعه ابنه المهدي وقال للمهدي اذا وصلت المدينة ألق القبض على موسى وأحسن وثاقه وأرسله مصفداً فسارا كلاهما الى الموصل وأرسل المهدي في طلب موسى فحضر اليه ثم أرسله مقيداً سنة ٧٧٤ (١٥٨ هـ) [1] ولبث خالد على ولاية الموصل الى أن مات المنصور وأصلح خالد أحوال الولاية ورتب شؤونها . وينقل صاحب تاريخ الكامل عن أحمد بن محمد بن سوار الموصلي قال : ماهبنا أميراً قط هيبتنا خالداً من غير أن يشتدّ علينا . فتحسنت أحوال الموصل وطردعنها الأكراد ورتع أهلها في أمن وارف

(١) ابن خلدون ج ٣ ص ٢٠٢

الفصل التاسع

كثرة الخوارج في الموصل ومحاولة بعضهم الاستيلاء عليها

لبثت الفتن والثورات الأهلية تشغل الموصل حتى في شرخ شباب الدولة العباسية رغماً عن سطوة خلفائها وانتظام ملكها وانتشار الأمن في انحائها وأخص أسباب هذه الثورات والاضطرابات في الموصل هي بقاء الخوارج منتشرين في البلاد العربية منذ نشوء النزاع في التحكيم في حرب صفين ثم كثرة القبائل المتباينة أخلاقاً والمختلفة آمالاً وزادت هشيما على النار القبائل البدوية اتي كانت مخيمة ثمة وأكثرهم عدداً وقوة هم بنو شيبان الذين كانوا قد انتشروا في أطراف الموصل سيما في شرقيها . فلما توفي المنصور وبويع بالخلافة لابنه المهدي سنة ٧٧٤ (١٥٨ هـ) أقرّ المهدى خالداً بن برمك على ولاية الموصل الى سنة ٧٧٧ (١٦١ هـ) وفي هذه السنة طلبه الى بغداد ليجعله مع ابنه هارون على المغرب واذربيجان وأرمينية فولى مكانه على الموصل حسان السردي ثم عزله بعد سنتين لضعفه عن اصلاح الاضطرابات وجعل مكانه محمد بن الفضل. وحارب محمد الخوارج وقتل زعيمهم ياسين من بنى تميم وكان قد تغلب على اكثر ديار ربيعة وفرق شمل اصحابه . ثم عزل المهدي محمد بن الفضل وولى مكانه أحمد بن اسماعيل الهاشمي سنة ٧٨١ (١٦٥ هـ) واستمر أحمد على ولاية الموصل حتى توفي المهدي سنة ٧٨٥ (١٦٩ هـ) وجلس بعده على عرش الخلافة ابنه الهادي فاستعمل على الموصل هاشم بن سعيد بن خالد الا انه عزله بعد مدة وجيزة لسوء سيرته في الرعية وولى مكانه عبد الملك بن صالح . ثم مات الهادي سنة ٧٨٦ (١٧٠ هجرية) وخلفه أخوه هارون الرشيد فاقرّ على الموصل عبد الملك الهاشمي

وفي السنة التالية لمبايعة الرشيد ظهر الصحصح الخارجي بالجزيرة وأفسد جداً ثم سار الى الموصل واخش فيها قتلاً ونهباً واستولى أيضاً على ديار ربيعة-

فجهز الرشيد جيشاً وسار اليه وبدد أصحابه ايادي سبا ثم عزل عبد الملك وجعل مكانه اسحق بن محمد بن فروح . وبعد ان اقام اسحق على ولاية الموصل سنة كاملة عزله الرشيد واستعمل مكانه سعيد بن سلم الباهلي وبعده استعمل الرشيد على الموصل الحكم بن سليمان سنة ٧٩٢ (١٧٦ هـ) وفي ايامه خرج الفضل الخارجي بنواحي نصيبين فاخذ من أهلها مالاً كثيراً وقدم يطلب الموصل ولما قاربها خرجت عليه الاهالي ليدفعوه عنهم فحمل عليهم الفضل وهزمهم الى الزاب ثم كروا بشجاعة وثبات فقاتلوه قتالاً شديداً حتى قتلوه مع أصحابه . وبعده تولى الموصل محمد بن العباس الهاشمي. ثم تغلب عليه العطاف بن سفيان الازدي سنة ٧٩٣ (١٧٧ هـ) واغتصب منه الولاية وكان العطاف من فرسان أهل الموصل وشجعانها فاجتمع عليه أربعة آلاف رجل ثم صار يجبي الخراج واتفق معه الاهلون وبقي على ذلك أكثر من سنتين والرشيد عاجز عنه حتى أقبل عليه بنفسه برأس جيش كثيف فاحتاط بالموصل وهدم اسوارها [1] وأقسم ليقتلن أهلها وليدعنها خراباً فمنعه القاضي أبو يوسف . اما العطاف فانه لما رأى قوة الرشيد هرب الى أرمينية . ثم استعمل الرشيد على الموصل يحيى بن سعيد الحريشي (سنة ١٨٠ هـ) واوصاه ان يضيق على الاهلين في الضريبة انتقاماً منهم على عصيانهم فاساء يحيى السيرة في الأهالي وظلمهم وصار يطالبهم بخراج السنين التي مضت وزاد في التشديد عليهم حتى جلا كثيرون عن الاوطان ونحا منحى ابن سعيد في الشدة والظلم اخلافه في الولاية كيزيد ابن مزيد بن زائدة الشيباني الذى تولى الموصل سنة ٨٠٠ (١٨٤ هـ) وخلفه خالد بن يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب سنة ٨٠٥ (١٩٠ هـ) وبقي حولا كاملاً على ولايتها . ثم عُزل ونُصب مكانه محمد بن الفضل بن سليمان [2]

ولما مات هارون الرشيد سنة ٨٠٨ (١٩٣ هـ) خلفه على سرير الخلافة

(١) أبو الفداء ج ٢ ص ١٦
(٢) طالع ابن خلدون ج ٣ ص ٢٢٧

ابنه الامين فاستعمل الامين على الموصل ابراهيم بن العباس . وكان الرشيد في حياته قد أعطى ولاية العهد لابنه الامين ومن بعده لابنه المأمون . أما الامين فعزل أخاه المأمون عن ولاية العهد باغراء بعض المغرضين من بطانته وجعلها لابنه موسى . وكان المأمون آنئذ في خراسان فتعصب له أهل خراسان وبايعوه بالخلافة ونشروا لواء العصيان على الامين . فجهز الامين عسكراً وسيره على خراسان . وأرسل المأمون جيشه بقيادة طاهر بن الحسين. وبعد حروب طويلة تقهقرت جيوش الامين . وتبعها طاهر بعساكره حتى دخل بغداد سنة ٨١٣ (١٩٨ هـ) فضبطها وقتل الامين . وفي تلك الآونة ظهر نصر بن شبث العقيلي وكان نصر من خاصة الامين ومريديه . وقد شق عليه قتله . فقام للانتقام وتغلب على ما يجاوره من البلاد وكان يسكن كيسوم ناحية في شمالي حلب . وتحزب له عرب تلك النواحي حتى قوي أمره وسار يطلب الجزيرة والموصل ليستولي عليها . فسير المأمون طاهراً قائد الجيش الخراساني الى محاربة نصر العقيلي . وولاه الموصل والجزيرة والشام . فسار طاهر الى قتال نصر . وكتب له يدعوه الى الطاعة وترك الخلاف فلم يجبه الى ذلك . ثم التقوا بنواحي كيسوم واقتتلوا قتالاً شديداً أبلى فيه نصر بلاء حسناً وكان الظفر من جانبه فعاد طاهر شبه المهزوم الى الرقة . ثم سير المأمون جيشاً آخر على نصر بقيادة عبد الله بن طاهر . فضيق على نصر بكيسوم وبعد وقايع كثيرة القى عليه القبض وأرسله الى المأمون مكبلا بالاغلال سنة ٨٢٤ (٢٠٩ هـ)

بينما كانت جيوش الخليفة منشغلة في محاربة نصر العقيلي شبت بالموصل ثورة يسميها ابن الاثير بواقعة الميدان وكان سببها ان عثمان بن نعيم البرجمي صار الى ديار مضر فشكا الازد واليمن من عرب الموصل وقال انهم يعتدون علينا ويغلبوننا على حقوقنا . فسار معه الى الموصل من القبائل النزارية نحو عشرين الفاً وهم من عرب مضر . وبلغ الخبر الى علي بن الحسين الهمذاني . وكان متغلباً على الموصل . اذ ان الموصل على ما يبان كانت قد أصبحت فوضى

يحكم فيها المتغلبون اثناء الحروب التي جرت بين المأمون وأخيه . وبين المأمون ونصر العقيلي . فلما وصل النزارية قرب الموصل خرج اليهم علي من المدينة في نحو أربعة آلاف رجل من أهلها وانتشب القتال بينهم فظفر علي بالنزارية وقتل منهم خلقاً كثيراً ولاذ البقية بالهزيمة . وما هدأت هذه الفتنة حتى ثارت الاخرى وكانت هذه الفتن والاضطرابات الكثيرة للسبب الذي سبقنا فبيناه عن اختلاف القبائل العديدة ودواعي التشاحن القديمة . فثارت الفتنة سنة ٨١٤ (١٩٩ هـ) بين بني ثعلبة وبين بني سامة وسماهم ابن خلدون بني شامة [١] وخرج بنو ثعلبة خارج المدينة وتبعهم بنو سامة في الف رجل واشتد بينهما القتال في مكان يقال له الفوجاء [٢] ولما بلغ خبرهم الى علي الهمذاني أرسل عليهم رجالا أمسكوا جماعة من بني سامة ومن بني ثعلبة والقاهم في السجن فسكنت الفتنة . وكان علي قد استبد بالولاية وأساء السيرة وأذلّ القبائل العربية . فخرج ذات يوم بجماعة من قومه بني همذان ومن الازد الى رستاق نينوى والمرج . فقال نعم البلاد لقبيلة واحدة فقال له الازد ونحن ماذا نصنع . اجابهم تلحقون بعمان ومن ذلك نشأت البغضة بين القبيلتين . وصارت الواحدة تتحين الفرص للايقاع بصاحبتها . وحدث ان علياً أخذ رجلاً من بني ازد يدعى عون بن جبلة وبنى عليه حائطاً فثار بنوأزد وركبوا خيلهم وعليهم السيد بن أنس وحملوا على علي وأصحابه وهزموهم شر هزيمة . فلما ضاقت الامور بعلي أرسل يستعين بأحد الخوارج يقالله مهديّ ابن علوان فأتاه واعانه على بني أزد ودخل المدينة وأبطل دعوة المأمون ثم اشتدت الحرب ثانية بين الفريقين وحمي وطيسها فدارت الدائرة على علي وأصحابه وانهزموا الى الحديثة وبنو أزد يتقفونه حتى قتلوا علياً وأخاه أحمد مع جماعة من ذويهما ونجا محمد أخو علي الى بغداد فعاد بنو أزد الى الموصل منصورين وتولى السيد أمرها وخطب للمأمون واطاعه . وكان المأمون بجرجان فلما عاد

---

(١) ج ٣ ص ٢٥٠
(٢) ابن خلدون ج ٣ ص ٢٥٠

الى بغداد سنة٨١٩ (٢٠٤ هـ) حضر اليه محمد بن حسن الهمذاني وتظلم اليه من السيد بن انس وشكا اليه قتل أخويه وأهل بيته فأرسل المأمون في طلب السيد ولما حضر اليه الى بغداد سأله المأمون أأنت السيد اجابه أنت السيد يا أمير المؤمنين وأنا ابن انس فاستحسن المأمون جوابه وقال له أنت قتلت أخوي هذا . قال نعم ولو كان معهما لقتلته لانهم أدخلوا الخارجي مدينتك وأعلوه على منبرك وأبطلوا دعوتك .فعفا عنه وأقره على الموصل ومن ثمّ عاد ابن انس ونشر الأمن والعدالة حتى كانت سنة ٨٢٢ (٢٠٧ هـ) . وكان العرب قد كثروا في نواحي الموصل وأغلبهم من بني شيبان ووديعة [1] فأفسدوا نهباً وقتلاً وسلبوا أمن البلاد وأقلقوا راحة العباد فكتب المأمون الى السيد يأمره بالمسير الى بني شيبان وغيرهم من العرب فسار اليهم وكبسهم بالدسكرة ونهب أموالهم وقتل منهم وفرق شمل الباقين ثم عاد وبقي السيد في ولاية الموصل وقد أحسن تدبيرها حتى كانت سنة ٨٢٦ (٢١١ هـ) وفيها رفع لواء العصيان زريق بن علي ابن صدقة وهو موصلي وسار خارج الموصل وكان بينه وبين السيد قديم عداوة فجمع له من قبائل العرب وتغلب على الجبال التي بين الموصل وآذربيجان وجرت بينه وبين السيد حروب كثيرة اشتهر فيها زريق وذاع صيته فتبعته القبائل الكثيرة حتى أصبح برأس ما ينيف على أربعين ألفاً سيرهم الى الموصل لمقاتلة السيد فخرج اليهم في أربعة آلاف والتقى الفريقان بسوق الاحد قريباً من الموصل وحمل السيد وحده كعادته في الحروب فقابله رجل من أصحاب زريق واقتتلا حتى قتل الواحد صاحبه فوقعا كلاهما ميتين

ولما بلغ المأمون قتل السيد حزن عليه جداً وسير محمد بن حميد الطوسي الى محاربة زريق وولاه الموصل. فقدم محمد الى الموصل بجيشه سنة ٨٢٧ (٢١٢هـ) وجمع رجال الحرب من اليمن وربيعه وسار لحرب زريق ومعه محمد بن السيد ابن أنس الأزدي وتقدم زريق نحوهم فالتقوا على الزاب وقبل ان يتناجزا الحرب كتب محمد بن حميد يدعوه الى الطاعة فامتنع وعلى هذا انتشب القتال

(١) ابن خلدون ج ٣ ص ٢٥٤

بينهما فانهزم زريق وأصحابه ثم أرسل يطلب الامان فامنه محمد وسيره الى المأمون . ثم كتب المأمون الى محمد بن الطوسي يأمره بأخـذ أموال زريق من قرى وغيرهافضبطها لنفسه وعلى هذا احضر اولاد زريق واخوته وأطلعهم على أمر الخليفة ثم قال لهم ان أمير المؤمنين قد أمرني به وقد قبلتُ ماحباني إياه والآن أرده عليكم فشكروه على ذلك وبعد هذا سار محمد الى آذربيجان واستخلف على الموصل محمد بن أنس

ولما توفي المأمون سنة ٨٣٣ (٢١٨ هـ) وجلس بعده على سرير الخلافة أخوه المعتصم أبواسحق محمد بن هارون الرشيد أقر محمداً بن أنس على ولاية الموصل حتى كانت سنة ٨٣٨ (٢٢٤ هـ) فعزله وولى مكانه أخاه عبد الله بن أنس وكان هذا حازماً شجاعاً قاتل أحـد مقدمي الاكراد جعفر بن فهرجس. وكان جعفر قد عصى بأعمال الموصل وتبعـه خلق كثير من الاكراد وغيرهم. واقام بما تعيس يجمع المال لنفسه فسار اليه عبد الله وأخرجه عن ما تعيس اما جعفر فهرب الى جبل داسن [1] حيث امتنع فيه . وكان عبد الله يتبعه برجاله متوغلاً في تلك المضايق حتى وصل اليه وقاتله فاستظهر جعفر ومن معه من الاكراد لاطلاعهم على المواقع ومراقي تلك الجبال وشدتهم في الصعود عليها رجالةً فانهزم عبد الله وقتل كثير من جنده واشتهر من رجال عبد الله رباح وكان شجاعاً حمـل على الاكراد فخرق صفوفهم وطعن فيهم وقتل حتى صار وراء ظهورهم وهو يشغلهم عن أصحابه فنجا منهم من أمكنهُ النجا . ولما تكاثر الاكراد عليه ألقى بنفسه وهو على فرسه من أعلى الجبل وكان تحته نهر فسقط الفرس في المـاء ونجا رباح وهكذا تمت هزيمة جيش الخليفة . ولما بلغ هذا الحال الى المعتصم أمر ايتاخ الامير التركي بالمسير الى جعفر فتجهز وسار نحوالموصل سنة٨٣٩ (٢٢٥هـ) وقصد جبل داسن فلاقاه جعفر وانتشب بينهما

---

(١) فى شمال الموصل من جانب دجلة الشرقي فيه من طوائف الاكراد الداسنية (ياقوت)

قتال شديد وقع فيه جعفر قتيلاً وتفرق أصحابه ايادي سبا فانكشف شره واذاهُ عن الناس . ومن ثم اعمل ايتاخ السيف في الاكراد فقتل وأسر منهم خلقاً كثيراً واستباح أموالهم وحشر الاسرى والنساء والأموال الى تكريت

الفصل العاشر

مساور الخارجي وعصيان أهل الموصل على عمال الخليفة

توفي محمد المعتصم بالله سنة ٨٤١ (٢٢٧ هـ) وتبوأ الخلافة بعده ابنه الواثق بالله وباتت البلاد بوقته في ظل أمن وارف . ثم توفي الواثق بالله سنة ٨٤٦ (٢٣٢ هـ) وخلفه على عرش الخلافة أخوه المتوكل على الله فعقد البيعة سنة ٨٤٩ (٢٣٥ هـ) لبنيه الثلاثة وهم المنتصر والمعتز والمؤيد فولى المنتصر بالله الحجاز واليمن والعراق وديار مضر وربيعة والموصل . ثم قتل المتوكل سنة ٨٦١ (٢٤٧ هـ) وخلفه ابنه المنتصر وقيل عنه انه دسّ لقتل ابيه . ومات المنتصر سنة ٨٦٢ (٢٤٨ هـ) وتولى الخلافة من شوال الى ربيع الآخر فبايع امراء الاتراك ومنهم بغا الكبير وبغا الصغير بالخلافة للمستعين ابن محمد بن المعتصم ثم ثار عليه الجند فخلعوه وبايعوا للمعتز بن المتوكل سنة ٨٦٦ (٢٥٢ هـ) وفي السنة الاولى من خلافته ظهر أمر مساور بن عبد الحميد البجلي الموصلي بالبوازيج [1] وكان يتولى أمر شرطة الموصل على قبيلة بني عمران وكان سبب عصيانه نزاعه مع حسين بن بكير فجمع مساور جماعة من أصحابه ثم كثر اتباعه من الاكراد والاعراب وسار يطلب الحديثة حيث كان حسين فهرب منه حسين . ثم ان مساوراً قصد الموصل ونزل بجانبها الشرقي وكان عليها عقبة بن محمد بن جعفر بن الاشعث بن هاني الخزاعي فخرج عقبة على العصاة وقاتلهم من الجانب الغربي وردهم عن المدينة ثم تبعتهم العساكر ولاقتهم قريباً

(١) وأصلها بيث وازيق ثم سماها العرب البوازيخ او البوازيج وهي بلدة كانت بجوار تكريت على فم الزاب الاسفل حيث يصب في دجلة

من جلولاء [١] وانتشب بينهما القتال دارت فيه الدوائر على عساكر الخليفة . فعظم شأن مساور وكثر اتباعه حتى استولى على أكثر اعمال الموصل

فلما تولى الموصل الحسن بن أيوب بن أحمد التغلبي سنة ٨٦٨ (٢٥٤ هـ) جمع عسكراً عظيماً جعل عليه امراء الموصل ومنهم كان حمدان بن حمدون جد الملوك الحمدانية فقصد مساوراً وعبر نهر الزاب وتأخر عنه مساور حتى نزل بموضع يقال له وادي الريات ـ وهو واد عميق ـ وكان الحسن يتبعه ثم التقوا واشتدّ القتال بين الفريقين فانكسرت عساكر الموصل وأثخن مساور واتباعه فيهم الجراح وكثيرون منهم سقطوا في الوادي وهلكوا ولم ينجُ منهم الا الحسن . فذاع صيت مساور وخافه الناس . ثم أقبل على الموصل في خلافة المهتدى بالله ونزل بظاهرها عند الدير الاعلى [٢] وكان حينئذ على المدينة عبد الله بن سليمان بن عمران الازدي . فلما سمع بقدومه خاف على نفسه فاختفى منه ولم يشأ أهل الموصل الدفاع عنه لشدة بغضهم له فوجه مساور جمعاً الى دار عبد الله أمير المدينة ونهبها وأحرقها ثم دخل الموصل بغير حرب ولا معارضة . ولما كانت الجمعة دخل المسجد الجامع وصعد على المنبر فخطب وجعل على درج المنبر رجالاً من ثقاته يحرسونها بالسيوف وكذلك في الصلاة . ثم فارق الموصل ولم يرد المقام بها خوفا من أهلها فسار الى الحديثة وكان قد اتخذها دار هجرته . وأرسل المهتدي بالله جيشاً عظيماً بقيادة موسى بن بغا وبابكيال لمحاربة مساور فوصلوا الى السن وقاموا هناك يتحينون الفرص واذ ذاك ثارت في بغداد فتنة خلع المهتدي فرجعت الجنود القهقرى الى بغداد

ولما جلس المعتمد على سرير الخلافة سنة ٨٦٩ (٢٥٦هـ) سير مفلحاً وهو أحد ثقاته الى قتال مساور في عسكر جرار حسن العدة فلما قارب الحديثة هرب

(١) جلولاء تبعد عن خانقين سبعة فراسخ (ياقوت) وبها كانت الواقعة المشهورة على الفرس للمسلمين (سنة ١٦ هـ)

(٢) وهو دير مار جبرائيل اسسه جبرائيل الكشكري في اوائل القرن الثامن للميلاد وكان ديراً عامراً في وقت الكلدان النساطرة وخرباته اليوم عند القلعة المسماة باشطابية

مساور فتتبعه مفلح فعطف عليه مساور وهو في أربعة آلاف فارس فاقتتلوا ولما آيس مساور من الظفر لجأ الى الهزيمة ثانية . فسار مفلح الى ديار ربيعة ثم عاد الى الموصل فنظر في امرها وأحسن فيها السيرة غير ان مساوراً بعد ان جمع له عسكراً وافياً وتجهز بما يلزم لاثارة الحرب عاد الى الحديثة وتبعه مفلح بعساكره فانتشب القتال بينهما وقتل من عساكر مفلح عدد عظيم حتى اجبر على الانسحاب الى سامرا واستولى مساور ثانية على البلاد وجبى الخراج . فودع المعتمد أمر الموصل الى اساتكين وكان من اكابر قواد الاتراك فسير أساتكين الى الموصل ابنه اذكوتكين سنة ٨٧٢ (٢٥٩ هـ) فاتاها اذكوتكين وطرد عنها الخوارج وتولى أمرها الا انه لم يحسن السيرة فيها . من ذلك انه دعا ذات يوم في موسم من المواسم وجوه الموصل واعيانها الى قبة الميدان واحضر انواع الملاهي واكثر من شرب الخمر جهاراً هو واصحابه فاستقبح الاهالي فعله ثم حدث في تلك السنة برد شديد قارس اتلف الاشجار والثمار والغلات وطالب اذكوتكين الناس بالخراج على الغلات وشدد عليهم فى الطلب وأخذ يظلم ويعبث باموال الناس فكان لا يسمع بفرس جيد عند أحد الا اخذه واهل الموصل صابرون الى ان تجرأ اصحابه على التعرض للنساء فثارت غيرة الاهالي وزجروهم على فعلهم هذا ومنعوهم ولما بلغ الخبر الى اذكوتكين أمر باحضار المعارضين من الاهالي وبضربهم فاجتمع اهالي الموصل الى الجامع الخرزجي وقالوا : لقد صبرنا على أخذ الاموال وسب الاعراض وابطال السنن والعسف وقد افضى الامر بهم الى التعرض للنساء . فأجمعوا رأيهم على اخراجه والشكوى الى الخليفة ولما بلغ الخبر الى اذكوتكين ركب اليهم بجنده وأخذ معه النفاطين فخرج اليه الاهالي وقاتلوه قتالا شديداً وما انفكوا عنه حتى اخرجوه عن المدينة ثم نهبوا داره واصابوه بحجر أثخنوه فهرب الى سامرا من يومه .

قال ابن خلدون : وانتقض أهل الموصل ايام المعتمد سنة ٢٥٩ هجرية

واخرجوا العامل وهو ابن اساتكين الهيثم بن عبدالله بن العتمد العدوي من بني ثعلب فامتنعوا عليه وولوا مكانه اسحق بن ايوب [1] وخالفه ابن الاثير قال : ان أهالي الموصل بعد امتناعهم على ابن اساتكين اجتمعوا الى يحيي بن سليمان أحد أعيان المدينة فقلدوه امرهم واستمروا على ذلك مجاهرين بالعصيان الى بدء سنة ٨٧٤ (٢٦١ هـ) وفيها كتب اساتكين الى الهيثم بن عبدالله بن المعمر التغلبيا ن يتقلد ولاية الموصل وارسل اليه الخلع والالواء . وكان ابن عبدالله بديار ربيعة فجمع جموعاً كثيرة وسار الى الموصل ونزل بالجانب الشرقي ودجلة تحول بينه وبين المدينة فخرج اليه الاهالي وناوشوه القتال ثم عدل عن مكانه وقطع دجلة الى الجانب الغربي وزحف الى باب المدينة وهو باب الابيض فقابله يحيي بن سليمان مع الاهالي وقاتلوه ودفعوه عن المدينة بعد ان أثخنوا الجراح في اصحابه . ثم ان اساتكين ارسل على الموصل اسحق بن ايوب التغلبي فخرج في جمع يبلغ عددهم عشرين الفاً معهم حمدان بن حمدون ، وكان من عادة الخلفاء اذا عصت عليهم مدينة أو قبيلة ان يثيروا عليها قبيلة أو قبائل اخرى حتى يذعنوا . فنزل اسحق بن ايوب عند الدير الاعلى فقاتله أهل الموصل ومنعوه مدة وفي تلك الاثناء مرض الامير يحيي بن سليمان فطمع اسحق في المدينة وجد في الحرب حتى انكشف الناس بين يديه ودخل المدينة ووصل الى سوق الاربعاء واحرق سوق الحشيش فخرج أحد الاهالي من مشاهير العدول واسمه زياد بن عبد الواحد وعلق في عنقه مصحفاً واستغاث بالمسلمين فاثارهم وعادوا الى الحرب وحملوا على اسحق وأصحابه حملةً أخرجوهم عن المدينة وبلغ يحيي ذلك فأمر ان يحمل في صحفة ويجعل أمام الصف . فلما رآه أهل الموصل قويت نفوسهم واشتد قتالهم وما زال الأمر كذلك واسحق يراسل الأهالي ويلاينهم ويعدهم الامان من نفسه والاحسان اليهم حتى أذنوا لهم بالدخول الى المدينة وشرطوا عليه ان يقيم في الربض الأعلى وربما هو

(١) ج ٤ ص ٢٢٨

ما يجاور المحلة المسماة اليوم « محلة القلعة » وبعد مضي ايام قلائل وقعت خصومة بين بعض أصحابه وبين قوم من الاهالي فاستأنفوا القتال ولم ينفك عنه الأهالي حتى أخرجوه مع أصحابه من المدينة واستقر الأمر بالموصل ليحيى بن سليمان

فلما بلغت هذه الأخبار الى المعتمد على الله عزل اساتكين عن الموصل في شهر شوال من السنة عينها (٢٦١ هـ) وولى ابنه جعفر العهد ولقبه المفوض الى الله وضم اليه موسى بن بغا فولاه افريقية ومصر والشام والجزيرة والموصل وأرمينية. وسعى موسى في ازالة اسباب الثورة وتمهيد الأمور في الموصل فاستعمل عليها والياً أحد أهاليها وهو الخضر بن أحمد التغلبي ارضاء لخواطر الاهالي فاخلدوا الى السكون وسارت المياه على مجاريها وهكذا أصلح الخضر الخلل الذي سببته تلك الفتن السابقة وأحسن ادارتها

الفصل الحادى عشر

ولاية ابن كنداجق على الموصل وما كان من أمره مع ابن أبى الساج ثم توطد الأمن بخضوع بني شيبان وتفرق أصحاب هارون البجلي

بعد ما قضى الخضر بن التغلبي على ولاية الموصل نحو ست سنوات عزل عنها فعهدت الولاية الى اسحق بن كنداجق سنة ٨٨٠ (٢٦٧ هـ) [1] وكان الخوارج لم يزالوا على عصيانهم وفسادهم فعزم ابن كنداجق على قطع دابرهم الا انه اعتبر وعورة المسير في سبيل الحصول على غايته سيما وان هؤلاء العصاة قد ضبطوا القرى وتحصنوا فيها وتبعهم الكثيرون من أهل الفساد حتى تقووا وأصبح اخضاعهم بالقوة ممتنعاً فتفتقت له حيلته ان يفرق بينهم بالعداوة والبغضاء ليمنع شرهم العاتي في بلاده وكان مساور قد توفي سنة ٨٧٦ (٢٦٣ هـ)

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٢٨

وتولى زعامة العصاة محمد بن خرزاد وابن خلدون يسميه ابن حرداد [1] فثقل ذلك على هارون البجلي وهو من كبار اعوان مساور وادعى الزعامـة لنفسه فشق عصى الطاعة على ابن خرزاد وسار باتباعه وهم كثيرون على اعمال الموصل فاستولى عليها وجبى خراجها . ومن ثم انتهز ابن كنداجق فرصة ذلك وانفذ الى ابن خرزاد من يحثه ويحركه على قتال هارون ويسهل له الظفر به . فجمع محمد بن خرزاد رجاله لمقاتلة هارون البجلي وسار بهم حتى نزل واسط وهي قرية في نواحي الموصـل [2] وكان البجلي بعلثايا [3] يجمع أيضاً لقتال محمد . ثم التقى الفريقان قريباً من باعدرا . وبعد قتال شديد وقع فيه من أصحاب هارون نحو مئتي قتيل وانهزم هارون بمن بقي معـه وعبر دجلة الى عرب بني تغلب ليستنصرهم على ابن خرزاد فاجتمع له خلق كثير في الحديثة . ثم أخذ يراسل أصحاب ابن خرزاد حتى استمالهم اليه ولم يبق مع ابن خرزاد الا نفر يسير من عشيرته الشمردلية وهم من أهل شهر زور . فتفرد هارون برياسة الخوارج وكثر اتباعه وغلب على القرى والرساتيق ثم جعل على دجلة من يأخذ (الخوّة) أو الخاوة من الأموال الصادرة والواردة ، وبث أيضاً نوابه في الرساتيق يأخذون الاعشار من الغلات . اما ابن كنداجق عامل الخليفة فانه لم يستفد من الخطة التي وضعها لانشغاله عن الخوارج بمحاربة خمارويه . وذلك ان المعتز بالله كان قد اقطع الديار المصرية لبابكيال أحـد كبار قواد الاتراك سنة ٨٦٨ (٢٥٤ هـ) . فاستعمل بابكيال على مصر أحمد بن طولون من الامراء التركيـة . ولم يمض زمان طويل على ولاية أحمد بن طولون حتى استبد بالأمر واستقل بالولاية في خلافة المعتمد على الله . ومنه بدأت الدولة الطولونية في مصر ثم استولى أحمد على الشام وما يتبعها وتوفي سنة ٨٨٣ (٢٧٠ هـ) فخلفه في الدولة الطولونيـة ابنه أبو الجيش خمارويه . وكان ابن كنداجق قد

(١) ج ٣ ص ٣٢٩
(٢) ياقوت
(٣) معلثا أو ملعثايا وهي اليوم قرية صغيرة بقرب دهوك

اتفق مع محمد بن أبي الساج العامل على قسم من بلاد الجزيرة على محاربة خمارويه في الشام وأخذها منه . ولما استمدا الخليفة المعتمد وعدهما انفاذ الجيوش ومن ثم جمع ابن كنداجق جيشاً من الموصل وسار يطلب الشام حتى التقى مع ابن أبي الساج فاستوليا على الشام وما يجاورها وطردا عنها عامل خمارويه . اما خمارويه فانه أرسل جيشاً ثم عاد الجيش منكسراً فقصد خمارويه الشام بنفسه مع جيش كثيف وعسكر في الرملة فحمل عليه المعتمد واشتدت الحرب بينهما وأخيراً اسفرت عن انهزام عسكر الخليفة واستولى خمارويه ثانية على الشام

ثم فسد الحال بين ابن أبي الساج واسحاق بن كنداجق وكانا متفقين في الجزيرة وذلك أن ابن أبي الساج نافر اسحق في الأعمال وأراد التقدم عليه ثم افضى بهم هذا الحال الى النزاع والبغضاء . فأرسل ابن أبي الساج الى خمارويه يقدم له الطاعة ويعده بالخطبة له في أعماله وهي قنسرين (١) فبعث له خمارويه بمال جزيل واجتمع به في الشام وجهز له جيشاً وسيره الى محاربة ابن كنداجق فزحف ابن أبي الساج وطرد ابن كنداجق عن الموصل واستولى عليها وخطب فيها لخمارويه ثم أرسل طائفة من عسكره بقيادة فتح أحد أصحابه الى مرج الموصل ليجبوا منها الخراج وكان اليعقوبية الشراة من الأكراد بالقرب منه فكبسهم فتح واجتاح أموالهم وفرقهم أيادي سبا ثم عاد اليعقوبية وجمعوا قوتهم وحملوا على فتح حملة رجل واحد فهزموه وقتلوا من رجاله عدداً عظيما

ولما استقر الأمر لابن أبي الساج في بلاد الموصل طمع فيها وعصى على خمارويه وخطب لنفسه فيها فقصده خمارويه بعساكره سنة ٨٨٨ (٢٧٥ هـ)

(١) قنسرين بلدة كانت في الجنوب الغربي من حلب تبعد عنها ٢٥ كيلو مترا وكانت واقعة على الساحل الغربي من نهر قويق . افتتحها العرب الاسلام سنة ٦٣٨ (١٧ هـ) على يد أبي عبيدة بن الجراح ثم خربت في زمان سيف الدولة بن حمدان في أواسط القرن الحادي عشر للميلاد وهي اليوم أرض قفراء

وانتشب بينهما القتال ولم يلبث ابن أبي الساج أن ولى هارباً فاستباح خمارويه معسكره وأخذ الأثقال والدواب واقتفى أثره ليلقي القبض عليه حتى وصل الى بلد وكان ابن أبي الساج قد سبقه الى الموصل فتبعه خمارويه اليها ونقل ابن الأثير في الكامل (١) عن أبي زكريا الازدي الموصلي صاحب تاريخ الموصل أن خمارويه لم يدخل الموصل بل مكث مقيماً في بلد. فانتهز ابن كنداجق هذه الفرصة للانتقام وقصد خمارويه وهو ببلد واظهر له الطاعة طالباً الانخراط في خدمته . فسير خمارويه معه عشرين الف فارس وأمره أن يلحق بابن أبي الساج حتى يدركه وكان ابن أبي الساج بالفي فارس قد هرب الى تكريت فجد ابن كنداجق في طلبه حتى أدركه في تكريت .

ولما رأى ابن أبي الساج عدده وعدته خاف على نفسه فهرب الى الموصل ونزل بظاهرها عند الدير الأعلى ولحقه ابن كنداجق واشتد القتال بينهما . وبعد قتال عنيف ولى ابن كنداجق منهزماً برجاله فكتب ابن أبي الساج الى الخليفة يعرفه الحال ويطلب منه مدداً ليسير الى الشام فيستولى عليها غير ان الخليفة لم يثق به لخيانتــه السابقة . وكان ابن كنداجق قد سبقه الى الخليفة المعتمد على الله وبذل له الطاعة فاقره على ديار ربيعة والموصل . ثم توفي اسحق ابن كنداجق سنة ٨٩١ (٢٧٨ هـ) فتولى بلاد الموصل وربيعة ابنه محمود وكان لا يقيم في الموصل فجعل نائباً عليها هارون بن سيما

ثم توفي المعتمد على الله سنة ٨٩٢ (٢٧٩ هـ) وتبوأ بعده عرش الخلافة أبو العباس بن أبي محمد الموفق بالله بن المتوكل وسمي المعتضد بالله وفي السنة الأولى من خلافته تجمع بنو شيبان جماً غفيراً فعبروا الزاب بخيمهم واثقالهم قاصدين شن الغارة على نينوى والموصل . فاجتمع على قتالهم هارون البجلي وحمدان بن حمدون التغلبي وانضم اليهم المتطوعــة من خيرة أهل الموصل .

(١) جزء : ٧

وكان بنو شيبان قد نزلوا قريباً من بعشيقا (١) ومعهم هارون بن سيما مولى أحمد بن عيسى بن الشيخ الشيباني وكان محمد بن اسحق بن كنداج لما أرسله والياً على الموصل لم يرضَ به الاهلون بل طردوه (٢) وذلك كان سبباً لاثارة بني شيبان فاتوا ينتقمون لهُ من أهالي الموصل . ثم التقى الفريقان واشتبكا في القتال فانهزم بنو شيبان وتبعهم الموصليون . اما بنو شيبان فلاذوا بالهزيمة الى الزاب ليقطعوه ولما رأوا مياهه طامية ولا ملجأ لهم الا الصبر على القتال عاودوا الكر وحملوا على عساكر الموصل وهم متفرقون في الخيم ينهبون ويسلبون واوقع فيهم بنو شيبان قتلاً وطعناً وهكذا عاد الظفر بجانب الاعراب وكتب هارون بن سيما الى محمد بن كنداجق يخبره بالواقعة ويعرفه ان المدينة خارجة عن يده ان لم يحضر هو بنفسه فقدم محمد الى الموصل بجيش كثيف نخافه اهالي الموصل وأرسلوا بغتةً الى بغداد يطلبون ازالة بني كنداج عنهم فسارت البعثة الموصلية والتقت عند الحديثة بمحمد بن يحيي المجروح قد ولاه المعتضد على الموصل وهو قادم اليها . ومن ثم عادوا به الى الموصل وبعد أيام يسيرة وصل محمد بن كنداجق وقد بلغه تعيين ابن يحيي فكتب الى خمارويه ابن طولون يلتمسه الشفاعة بحقه الى الخليفة وعلى هذا أرسل خمارويه الى الخليفة هدايا نفيسة يستعطفه في أمور كثيرة منها ان يعطي امارة الموصل لمحمد بن كنداجق فأبى الخليفة محتجاً بالاغتشاشات التي جرت في الموصل وجلها ناجمة عن سوء ادارة العمال . واقام ابن يحيي في ولاية الموصل حتى عزله المعتضد وجعل مكانه علي بن داود بن راهزار الكردي وبوقته ساءت احوال الموصل

(١) باعشيقا يذكرها الحموي ويسميها مدينة من نواحي نينوى ثم يذكر بساتينها واشجارها الكثيرة من الزيتون والنخل والنارنج ونهرها الجارى الذي يشق في وسط المدينة ويذكر عن سوقها الكبير وحماماتها وقيساريتها وتجارتها وعن قبر الشيخ أبي عبد الله محمد الراذاني الزاهد الموجود فيها وكان أهلها نصارى واليوم هي قرية صغيرة في شرقي الموصل تبعد عنها نحو أربعة فراسخ

(٢) ابن خلدون ج ٣ ص ٣٣٧

وكثر فيها المشاغبون وتوالت عليها غارات بني شيبان فقال العجيني، الشاعر الموصلي :

ما رأى الناس لهذا الدهـ ــر مذ كانوا شبيها
ذلت الموصل حتى أمر الاكراد فيها

ثم ان الخليفة المعتضد سار الى الموصل بجيوشه سنة ٨٩٣ (٢٨٠ هـ) في أول صفر فأغار علي بني شيبان المنتشرين في اطراف الجزيرة ونهب أموالهم واعمل فيهم السيف فقتل منهم عدداً عظيماً . قال ابن الاثير :[1] وغنمت عساكر الخليفة من بني شيبان الغنائم الكثيرة حتى عجز الناس عن حمل ما غنموه فبيعت الشاة بدرهم والجمل بخمسة دراهم : وبعد ان كسر المعتضد شوكتهم وكبح جماهم سار الى البقية منهم في جهات الموصل وبلد فلقيه بنو شيبان يسألونه العفو ويطلبون منه الامان باذلين له الرهائن فاجابهم الى ما طلبوا وعاد المعتضد الى بغداد

ثم خرج الدفعة الثانية الى الموصل سنة ٨٩٤ (٢٨١ هـ) وسار الى قلعة ماردين وكانت لحمدان بن حمدون العاصي وقد تحصن فيها فهرب حمدان منها وخلف فيها ابنه فرجع المعتضد الى الموصل وكتب الى حمدان بن حمدون يأمره بالطاعة والمسير اليه الى الموصل فأبى حمدان. حينئذ جهز المعتضد جيشاً وأرسله تحت قيادة وصيف موشكير ونصر القشوري ووصلوا الى دير الزعفران حيث تحصن الحسين بن حمدان ومعه أصحابه وهم متاهبون للقتال . فلما رأى الحسين طليعة جيش الخليفة خاف على نفسه فطلب الامان وبعد ما أمنوه تسلموا منه القلعة وانفذوه الى المعتمد في الموصل . وبعد هذا سار وصيف في طلب حمدان وكان بباسورين[2] فحمل عليه وصيف وقتل من أصحابه جماعة ثم انهزم حمدان في زورق كان له على دجلة الى الجانب الغربي الى ديار ربيعة وعبر نفر

(١) ج ٧ ص ١٦٥
(٢) يذكرها الحموي انها بجوار الموصل في شرقي دجلة

من الجند فقصوا أثره حتى أشرفوا على دير قد نزله . فترك حمدان ما معه من الأموال ونجا بنفسه فأخذها الجند وأتوابها الى المعتضد وكانت بقية من الجند تطارد حمدان حتى ضاقت الأرض به فقصد خيمة رجل من الخوارج قد تاب الى الخليفة وهو اسحق بن أيوب واستجار به فاجاره اسحق ثم أحضره الى المعتضد فامر الخليفة بالاحتفاظ به ومن ثم تتابع رؤساء الاكراد في طلب الامان. ولم يبق الا هارون البجلي طليقاً وشره فاش

ثم اقام المعتضد على الموصل نصر القشوري (القسوري) [1] لجباية الأموال وتعيين العمال . وفي تلك الأيام جرى قتال بين عامل معلثايا وبين أصحاب هارون البجلي وفي تلك المعركة قتل جعفر وهو من أخص أصحاب هارون وأقربهم اليه مودة فعظم قتله عليه وأرسل أصحابه وأمرهم ان يفسدوا في البلاد نهباً وقتلاً فكتب نصر القشوري الى هارون الخارجي يتهدده بقرب الخليفة وانه ان هم به أهلكه وأهلك أصحابه فلا يغتر بمن عاد عن حربه

فكتب اليه هارون جواباً منه : اما ما ذكرت عمن أراد قصدي ورجع عني فانهم لما رأوا جدنا واجتهادنا كانوا باذن الله فراشاً متتابعاً وقصباً أجوف . وما غرك الا ما أصيبت به صاحبنا فظننت ان دمه مطلول أو ان وتره متروك لك كلا ان الله تعالى من ورائك وآخذ بناصيتك ومعين على ادراك الحق منك . ولم تعيرنا بغيرك وتدع ان يكون مكان ذلك ابداء صفحتك واظهار عداوتك وانا واياك كما قيل :

فلا توعدونا باللقاء وابرزوا اليـنـا سواداً نلقه بسواد

ولعمر الله ما ندعو الى البراز ثقة بأنفسنا ولا عن ظن ان الحول والقوة لنا لكن ثقة بربنا . واما ماذكرت عن سلطانك فان سلطانك لايزال منا قريباً وبحالنا عالماً فلا قدم أجلاً ولا أخره ولا بسط رزقاً ولا قبضه وستعلم عن قريب ان شاء الله تعالى

(١) ابن خلدون ج ٣ ص ٣٤٨

ولما وصل الكتاب الى نصر عرضه على المعتضد فولى المعتضد الحسن ابن علي كوره وأمره بقصد الخوارج . وأمر كافة مقدمي الولايات والاعمال بطاعته . وسار الحسن الى الخوارج وعبر الزاب فلقيهم قريباً من المغلة . ولما تصافوا للقتال انهزم الخوارج أقبح هزيمة بعد ما قتل منهم خلق كثير ونجا هارون بنفسه . ولما رأى أصحابه اقبال دولة المعتضد وقوته أرسلوا اليه يطلبون الامان فامنهم وأتاه كثيرون منهم ولم يبقَ من العصاة الا هارون البجلي وسيرد ذكره

الفصل الثاني عشر

تقدم الموصل عمراناً وعلماً في عهد الخلفاء العباسيين وقبلهم

كنا نود ان نسهب الكلام في هذا الفصل ارضاءً لرغبة المطالع غير ان الموارد لذلك شاقة والكتب التاريخية التي بيدنا لا تبسط لنا من هذه المواد الا النزر مع ذلك فهذا القليل الذي وقفنا عليه يكفينا دليلاً على تقدم الموصل علماً وحضارةً قبل الفتوحات الاسلامية وبعدها

فان باباي الجبيلتي الذي عاش في أوائل القرن الثامن للميلاد أسس في حدياب أي بلاد الموصل أربعاً وعشرين مدرسة ينوه توما المرجي بذكرها واحدة فواحدة [١] . وينقل أيضاً ان باباي أسس فيها أي في حدياب [٢] ستين مدرسة في المدن والقرى الكبيرة واقام لادارتها ستين نابغة من المبرزين في العلوم وجعل لها اوقافاً وفية وسن لها القوانين والنظامات العجيبة . فسمى المؤرخون الاراميون ذلك العصر عصر الاستاذ باباي الجبيلتي ومن هذا يتضح ان بلاد الموصل كانت قبل الفتح الاسلامي راقية علماً وعمراناً

ولما ملك العرب هذه الاصقاع زادوا في عمران الموصل حتى بلغت منه

(١) المرجي باب ٣ فصل ٣ ص ١٤٦

(٢) طالع عن مملكة حدياب الفصل الثاني من توطئة كتابنا هذا

في مدة يسيرة مبلغاً عظيماً وضاهت بكثرة سكانها العواصم الكبيرة كما يشهد بذلك الحموي والقرماني . على ان الموصل لم تكن بكثرة سكانها في عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين أقل منها في عهد الحمدانيين والعقيليتين والاتابكيين كما سنذكره . والدليل على ذلك المذبحة العظيمة التي أحدثها في الموصل يحيى الهاشمي عامل السفاح سنة ١٣٢ هجرية وقد سلف الكلام عنها فانه قتل في يوم واحد أحد عشر ألفاً من الأهالي وبعده استأنف القتل فاعمل السيف في الموصل مدة ثلاثة أيام متوالية [١] . فعلى افتراض انه قتل في كل يوم أحد عشر ألفاً يحصل اذاً ان عدد القتلى بالغ في مدة الأيام الأربعة ٤٤٠٠٠ ومع هذا العدد العظيم من القتلى لم تخل المدينة من السكان بل ان الخليفة أبا جعفر المنصور جمع من الموصل سنة ١٤٤ هجرية جنداً عظيماً وسيرهم لمحاربة الديلم [٢] حيث أحرزوا الغلبة ونالوا رضى الخليفة . وعلى هذا نستطيع ان نعتبر عدد أهالي الموصل يومئذ مايناهز مائة ألف ونيف مع افتراضنا ان المؤرخ غالى فيما رواه عن عدد القتلى في اليوم الأول فانه مما لا ريب فيه ان عدد القبائل التي سكنت الموصل كان عظيماً وزد عليه كثرة المهاجرين في أيام علي كما ذكرناه سابقاً .

ولم تكن الموصل أقل علماً من اخواتها مدن الخلفاء على ان سوق العلم كانت نافقة في الدولة العباسية فلم تنحصر في عاصمة الخلافة بل كانت قد انتشرت الى أقصى مدن المملكة العباسية سيما في العهدين الرشيدي والمأموني. فكان العرب قد أخذوا علومهم من الفرس بعد فتح بلادهم واقتبسوا منهم الروح الآرية التي كان الفرس يمتازون بها عمن سواهم وهي الروح الشعرية ذات الخيال والتصور الحاد مع قوة التفكير والفلسفة وحب الفن فاكملت آداب العرب اللغوية وزادت في معنويتهم ومن ثم أقبل العرب على سائر

(١) ابن الاثير ج ٥ ص ١٨٠ وابو الفدا ج ١ ص ٢٢٥

(٢) ابن الاثير ج ٥ ص ٢٠٦

ابواب العلوم ووضعوا كتباً عجيبة عديدة قضت عليها الفتوحات التترية وكان لهذا الروح العلمي العربي تأثير خطير على العالم الاوروبي في القرون الوسطى .

والحقيقة ان الدولة العباسية قطعت شوطاً بعيداً في مضمار الرقي والنجاح وذلك حتى العصر الماموني . ففتح الرشيد كنوزه للعلماء والادباء حتى قيل انه لم يجتمع على باب ملك أو سلطان من الشعراء والعلماء ما اجتمع على بابه . وبوقته امتدت التجارة واتسع نطاق العلم وترجمت الكتب العديدة من اللغات الغريبة الى اللغة العربية . وتقدمت الصنائع والفنون تقدماً محسوساً. فاهدى الرشيد لكارلوس الكبير ملك فرنسا المسمى شارلمان مزولة رماية وشطرنجاً ثميناً . دلالة على مبلغ ترقي الصناعة في بلاده . وتأثره المأمون في ذلك فكان مجلسه مكتظاً بارباب العلم وسعى أيضاً بجمع مكتبة عظيمة من الكتب اليونانية النفيسة وأوعز الى المترجين باستخراجها الى العربية تعمياً للفائدة ونشراً للعلوم في انحاء مملكته قاطبة . واستمر المأمون على ذلك كل مدة خلافته التي دامت نحو عشرين سنة .

فذاك نور العلم المنبعث من ذلك المولد الكهربائي الغني قد انتشر الى أقصى البلاد التي كانت تخضع للدولة العربية . وعليه فبأقوى حجة نقول انه خص البلاد القربى من عاصمة الخلافة كالموصل وهي من أعظم وأقرب بلاد العباسيين الى عاصمة خلافتهم . فان دبيب تلك النهضة العلمية كان قد دب الى افريقية والاندلس وبلاد ماوراء النهر وأقصى البلاد الفارسية وغيرها . فقال المسيو هوارت في كتابه الآداب العربية : ان اللغة العربية انتشرت انتشاراً عجيباً وأصبحت عند الفرس وغيرهم لغة علمية كما كانت اللغة اللاتينية في أوروبا في القرون الوسطى .

فيستفاد ان الموصل احرزت في هذه النهضة العلمية درجة مهمة وذلك بنسبة قربها من عاصمة الخلافة وأهميتها الذاتية وكثرة سكانها العرب جنساً ولغة ولم تقدر الفتن الاهلية التي كانت تنشأ في الموصل حتى تولاها الحمدانيون

ان توقف سير مدارسها

اننا لم نقع على عدد مدارس الموصل . ولا على درجة انتظامها يومئذ وقد عثرنا على اليسير منها كمدرسة باب الشط في محلة الشهوان ومدرسة ماركوريل المعروف بالدير الاعلى الواقع على دجلة قريباً من (باشطابية) وكانت هـذه المدرسة قد اشتهرت في الدروس الفلسفية واللغوية على مايذكره يوحنا ابن خلدون الموصلي في كتابه عن يوسف البابوسي [1] . ثم مدرسة ديرمار ميخائيل [2] الواقع في شمالي الموصل على مسافة ساعة ونصف. وحسبنا دليلاً على رقي مدارس الموصل يومئذٍ العلماء الذين نبغوا فيهـا كابراهيم الموصلي وابنه اسحق (النصف الاول من القرن الثالث للهجرة) فقد اشتهر اسحق بفن الموسيقى والآداب اللغوية والعلوم الفقهية والحقوق الشرعية حتى قال المأمون عنه : لولم يشتهر اسحق بفن الغناء لجعلته قاضياً في مملكتي لغزارة علمه . ولاسحق كتاب في الغناء . ثم محمد بن الخطاب الموصلي (منتصف القرن الثالث للهجرة) . وزكريا الازدي صاحب تاريخ الموصـل (أواخر القرن الثالث للهجرة) . وأبو يعلى احمد بن علي بن المثنى صاحب المسند (أواخر القرن الثالث) . واسحق النينوي الشاعر الشهير (القرن الثاني للهجرة) وتوما المرجي صاحب كتاب الرؤساء (القرن الثالث للهجرة) وغيرهم كثيرون سيرد ذكرهم في الجزء الثاني ان شاء الله تعالى

(١) نسبة الى قرية بابوسا شرقي قرية القوش وتعرف اليوم بقرية بوزايي يسكنها بضعة وعشرون بيتاً من اليزيدية وكانت قديماً قرية كبيرة عامرة للكلدان النساطرة وآثارها الباقية تدل على ذلك .

(٢) أسس هذا الدير مار ميخائيل وكان من قرية سوسنة بجوار آمد . ترهب مار ميخائيل في جبل ايزلا في أواسط القرن الرابع للميلاد ثم انتقل الى جبل داسان (داسن) شمالي الموصل وعمر ديره المعروف الى اليوم باسمه قريباً من الحصن العبوري قبل تسميته بالموصـل . وبلغ عدد رهبانه الفاً ونيفاً . ثم خرب هذا الدير بعد عمرانه باجيال وجدده يوحنا الطريد الموصلي على ما رأيناه في قصيدة خطية لابن الشمارة أحد رهبان هذا الدير

الباب الثاني

في دولة الحمدانيين ودولة بني عقيل

الفصل الاول

الحمدانيون

ينتسب الحمدانيون الى قبيلة ثعلب وكان بنو ثعلب بن وائل من أعظم بطون ربيعة بن نزار وكانوا من نصارى العرب في الجاهلية ولهم محل في الكثرة والعدد وكانت مواطنهم في الجزيرة وديار ربيعة . ثم ارتحلوا مع هرقل الى بلاد الروم . ثم رجعوا الى بلادهم . وفرض عليهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجزية . فقالوا يا أمير المؤمنين لا تذلنا بين العرب باسم الجزية واجعلها صدقة مضاعفة ففعل . وكان قائدهم يومئذ حنظلة بن قيس بن هرير من بني مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن ثعلب . ثم كان منهم بعد ذلك في الاسلام ثلاثة بيوت آل عمر بن الخطاب العدوي وآل هرون المغمر . وآل حمدان بن حمدون بن الحرث بن لقمان بن أسد [1]

نشأ حمدان بن حمدون جد الامراء الحمدانيين في الموصل وعرف بالشجاعة والاقدام سيما في حملته مع عساكر الموصل على الخارجي مساور بن عبد الحميد البجلي . ثم خلع حمدان الطاعة وانضم الى الخوارج فالتحق بهارون البجلي أو الشاري سنة ٨٨٥ (٢٧٢ هـ) ولما عزم الخليفة على تعقيب الخوارج كتب الى حمدان يأمره بالمسير اليه فأبى وامتنع في قلاعه . اما ابنه الحسين فسلم نفسه الى الخليفة كما اسلفنا ذكره وسير المعتضد جيشاً على حمدان فطاردوه مدة ولم ينالوا منه مأرباً حتى امنه اسحق بن أيوب وأحضره الى الخليفة كما ذكرناه فأمر

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٢٧

الخليفة بالقائه في السجن

وبات المعتضد يجد في القبض على هارون الشاري حتى اعياه أمره . فعهد سنة ٨٩٦ (٢٨٣ هـ) بالقبض عليه الى الحسين بن حمدان لانه اشتهر كابيه في الشجاعة . فقال الحسين للخليفة اذ أنا أتيت به فلي حاجة عند أمير المؤمنين وهي اطلاق سراح أبي من السجن ولما وعده المعتضد بذلك سار الحسين بثلاثمائة فارس ومعهم وصيف بن موشكير أحد الامراء الاتراك وقد الزمه الخليفة بالطاعة للحسين . وانتهى حسين برجاله الى مخاضة في دجلة فاوقف الحسين وصيفاً ومن معه على دجلة ليسدوا العبور على هارون اذا لجأ الى الهزيمة ومضى هو بمن معه في طلبه فلقيه وناجزه القتال مدة ثلاثة أيام ولما ضاقت الحيل بهارون لاذ بالهزيمة وأتى الى دجلة ليعبرها وكان وصيف قد بارح موضعه فعبرها هارون وجاء الى حي من احياء العرب وكان الحسين قد أحس بذلك فجد في أثره حتى أدركه واشتبكا بالقتال ثم حمل الحسين بنفسه على هارون وأمسكه أسيراً الى المعتضد في بغداد حيث طيف به في اسواقها وشوارعها ثم أعدم شنقاً . وخلع المعتضد على ابن حمدان واخوته الخلع الثمينة وأمر بحل عقال أبيه ومن ذلك الحين دخل الحمدانيون في طاعة الخلفاء وخدمتهم وتقلدوا المناصب الرفيعة فتولوا حكم الموصل واستقلوا به ثم وسعوا نطاق حكمهم الى ديار بكر والجزيرة وسوريا وأولهم أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان . فعظم شأنهم واشتدت شوكتهم وحملوا على الاروام فدوخوا بلادهم واستولوا على كثير منها ثم غزوا الاناضول دفعتين وكانت حينئذ بيد الأروام المالكين في القسطنطينية وذهبوا بحملاتهم الى اماسيا فاغتنموا الغنائم الكثيرة . وقد اشتهر من أمراء بني حمدان ناصر الدولة وسعد الدولة وسيف الدولة . وامتاز سيف الدولة ببأسه وصولته في الحروب واصابة رأيه . فبلغت الدولة الحمدانية في ايامه الى ذروة العز والسؤدد بأمنها الشامل ونجاحها الكامل في علمائها وشعرائها ولما قرض بنو بويه دولة بني حمدان من الموصل سنة ٩٧٩ (٣٦٩ هـ)

انحصرت حكومتهم في سوريا لمدة وجيزة كما سنراه من تفاصيل أحوالهم في الفصول الآتية وان كان بحثنا يدور بنوع خصوصي على دولتهم في الموصل .

الفصل الثاني

مبدأ الدولة الحمدانية

في ولاية أبي الهيجاء عبدالله بن حمدان في الموصل

لما توفي المعتضدبالله خلفه على سرير الخلافة ابنه المكتفي بالله سنة ٩٠١ (٢٨٩ هـ) وسار المكتفي على خطة أبيه من الثقة بآل حمدان والاركان اليهم في الشؤون فولى سنة ٩٠٤ (٢٩٢ هـ) أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون على الموصل وأعمالها [١] وقدم أبو الهيجاء من بغداد حيث كان مقيماً الى الموصل ودخلها في أول تشرين الثاني بجنود كثيرة . ولما خرج من الغد لعرض الجيوش وافاه صريخ من نينوى بأن الأكراد الهذبانية بمقدمتهم محمد بن بلال أغاروا على نينوى ونهبوها . فسار أبو الهيجاء من وقته وعبر الجسر الى الجانب الشرقي ولحق بالأكراد فأدركهم قريباً من المعروبة على الخازر . وبعد قتال شديد وقع فيه قتيلاً سيما الحمداني عاد عنهم أبوالهيجاء لكثرتهم . ثم كتب الى الخليفة يستنجده ولما أتته النجدة سار بها سنة ٩٠٦ (٢٩٤ هـ) يريد الهذبانية وكانوا قد اجتمعوا في خمسة آلاف بيت فهرب الهذبانية الى البابة في جبل السلق المشرف على الزاب [٢] في شهرزور وتحصنوا فيه ومن هناك اخذ ابن بلال يراسل أبا الهيجاء باذلاً له الطاعة ويستأمنه أن يحضر اليه بأولاده ليجعلهم رهينة عنده . فرضي أبو الهيجاء وأمهله مدة . أما ابن بلال فانتهز الفرصة وحث أصحابه على المسير نحو اذربيجان اذ كان قصده

(١) ابن خلدون ج ٣ ص ٢٩٦
(٢) ابن خلدون ج ٣ ص ٣٥٦

بذلك اشغال أبي الهيجاء بالأمل ريثما تتسنى الهزيمة له ولأصحابه فيسيرون آمنين . ولما ابطأ محمد بن بلال عن الوعد أدرك أبو الهيجاء الحيلة فجرد معه جماعة فيها أخوته سليمان وداود وسعيد وغيرهم ممن يثق بجلده وبسالته وسار يقفو أثر الهاربين حتى أدركهم وقد تعلقوا بالجبل المعروف بالقنديل فقتل منهم جماعة وانهزم البقية الى اذربيجان . ثم بلغ أبا الهيجاء أن زعيم الهذبانية ابن بلال لم يزل مقيماً على جبل السلق فعاد الى الموصل ليجمع رجاله وسار ثانية الى جبل السلق حيث كان محمد بن بلال مع بعض أصحابه الأكراد . وجاز الجبل حتي قارب الأكراد وأقام على حصارهم عشرة أيام . ولما رأى الأكراد صبر رجال أبي الهيجاء ورأوا أن الخيل قد أغلقت بوجههم مخارج الخلاص أذعنوا فسلموا له فامنهم وأبقى عليهم وردهم الى حزة مع أموالهم وأهلهم ولم يقتل منهم الا رجلاً واحداً هو قاتل صاحبه سيما فأمنت البلاد وأحسن أبو الهيجاء السيرة في أهل الموصل وما يليها . ثم ان محمد بن بلال أرسل يطلب الاقامة في الموصل فأذن له ومن ثم تتابعت الأكراد الحميدية وأهل جبل داسن بتقديم الطاعة وهكذا استقامت الأحوال وزالت المشاغب وعمّ الأمن

أما الحسين بن حمدان فبقي في بغداد في خدمة الخليفة على قيادة الجيش . ولما اجتمع القواد والقضاة مع الوزير العباس بن الحسن على خلع المقتدر سنة ٩٠٨ (٢٩٦ هـ) كان الحسين بن حمدان من جملة المتواطئين على خلع المقتدر والبيعة لابن المعتز . وكان قد اشهر السلاح على ذوي المقتدر ثم قتل ابن المعتز فخبطت مساعي المؤامرين واستقرت الخلافة للمقتدر فخاف الحسين بن حمدان من بطشه وفر هارباً بمن تبعه فأمر الخليفة أن تسير الجند في طلبه . وكتب الوزير أبو الحسن علي بن الفرات الى ابي الهيجاء بن حمدان أن يجد في طلب أخيه وكان في بلد . فحمل أبو الهيجاء على بلد ومن ثم فارقها الحسين الى سنجار وأخوه في أثره حتى أدركه بعد مسير عشرة ايام وانتشب القتال بين أصحاب الأخوين فقتل وأسر كثير من أصحاب الحسين . ولما ضاقت

الخارج بالحسين كتب الى ابن الفرات وزير المقتدر يسأله الرضى ويلتمسه الى أن يشفع فيه الى المقتدر بالله فشفع فيه ابن الفرات وعفا عنه المقتدر وأعاده الى بغداد ثم عقد له على قم وقاشان من العراق العجمي بينهما نحو تسعين كيلو متراً في جنوبي طهران ثم ان الخليفة عزل أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان عن ولاية الموصل سنة ٩١٣ (٣٠١ هـ) واستعمل عليها نحرير الخادم فعصى أبو الهيجاء على الخليفة المقتدر وجاهر بالتمرد وعلى هذا أرسل الخليفة مؤنساً المظفر في مقدمة جيشه لاخضاع أبي الهيجاء ولما رأى هذا ضعفه عن مقاومة مؤنس قصد الخليفة مستأمناً فقبله الخليفة وخلع عليه وقلده ولاية الموصل ثانية سنة ٩١٤ (٣٠٢ هـ) ولم يمض سنة على صلح أبي الهيجاء حتى رفع أخوه الحسين لواء العصيان على الخليفة وكان الخليفة قد ولاه ديار ربيعة فاستأثر بأموال الاتاوة والضرائب لنفسه غير مبال بمطالبة الخليفة . فجهز الخليفة جيشاً بقيادة رائق الكبير وسيره على الحسين بن حمدان فلم يقدر أن يلقي عليه القبض لأن جيش الحسين كان يبلغ عدداً نحو عشرين ألف فارس . ولما عاد مؤنس الخادم من مصر حيث كان يحارب المهدي العلوي قصده برجاله فهرب الحسين وانحازت رجاله الى جيش مؤنس وبقي هو بنفر يسير من خاصته فتبعه مؤنس وأمسكه وقاده أسيراً الى الخليفة وكان المقتدر قد اشتد غضبه على بني حمدان لعصيانهم المرة بعد الأخرى فألقى عليهم القبض وسجنهم

ومن ثم تقلد العمالة على الموصل أبو أحمد بن حماد الموصلي . وبقي الأمراء الحمدانيون مسجونين في دار الخليفة الى سنة ٩١٧ (٣٠٦ هـ) وفيها أطلق الخليفة سراحهم ولم يمض سنة على فك عقالهم حتى أمر الخليفة بقتل الحسين ابن حمدان وكان سبب ذلك أن يوسف بن الساج العامل على اذربيجان وعلى أرمينية امتنع عن دفع أموال الجباية فقصد الوزير علي بن الفرات ارسال الحسين بن حمدان بجيش على يوسف بن الساج ليحاربه فوشى بهما لدى الخليفة وقيل له ان الوزير متفق مع الحسين واذا صار عند ابن الساج اتفقا عليك فأمر

الخليفة للحال بعزل الوزير وقتل الحسين بن حمدان وعزل بني حمدان وأصحابهم عن مناصبهم ومن ثم ولي على الموصل وأعمالها العباس بن محمد بن كنداج سنة ۹۱۹ (۳۰۷ هـ) الا أن الأهاين شغبوا عليه في السنة الأولى من ولايته ولم يريدوه . وبناء على هذا أثار العباس عليهم قبائل العرب انتقاماً منهم . فشن الاعراب الغارة على الموصل وأعمالها وخربوا ودمروا ونهبوا القرى ثم بلغ الخبر الى الخليفة فأنكر على العباس بن كنداجق فعله واستقبحه وأرسل بعزله للحال وتعيين عبد الله بن محمد الفتان على الولاية . وكان عبد الله شديداً انصرف في أول ولايته الى كف الاعراب وتأييد الأمن والسلام . و دفع الأكراد المارانية فقتل منهم وأسر وأرسل الى بغداد نيفاً وثمانين أسيراً فشهروا وسجنوا

أما أبو الهيجاء بن حمدان فلم يزل يتزلف الى الخليفة ويتقرب له باخلاص الخدمة حتى اعاده الى ولاية الموصل سنة ۹۲٦ (۳۱٤ هـ) فأقام أبو الهيجاء في بغداد وأرسل ابنه ناصر الدولة الى الموصل وكان ثمة الأكراد والعرب قد أخربوا وأفسدوا أيضاً . فكتب أبو الهيجاء الى ابنه يأمره بجمع الرجال وتعقيب الأشقياء في اطراف تكريت ففعل ناصر الدولة واجتمع بأبيه وحاصرا الاعراب فأحضرا شيوخهم وطالباهم بما أحدثوه من الاضرار فردوا على الناس ما سلبوه وكان شيئاً كثيراً ثم قتل بعض المسببين وسجن غيرهم ورحل من هناك ناصر الدولة الى شهرزور فوطيء الأكراد الجلالية وقاتلهم وبعد قتال عنيف سلموا لابن حمدان ووعدوه بالكف عن الشر والفساد

وكانت منزلة بني حمدان تزداد عند الخلفاء يوما فيوما فاتخذوا لهم مقرا في بغداد يسكنه أحدهم لتدبير شؤونهم في دار الخلافة عند مسيس الحاجة وزادتهم منزلة موالاتهم المقتدر لما خلع ثانية سنة ۹۲۹ (۳۱۷ هـ) . وحدث من جراء ذلك حرب اهلية دعت الى حمل السلاح فدافع أبو الهيجاء عن المقتدر بسلاحه ووقع وثمة صريعاً في احدى المعارك . ولما اعيد المقتدر الى

عرش الخلافة اسف كل الاسف على ابي الهيجاء فاقر ابنه ناصر الدولة على ما كان لابيه من ولاية وضياع وضمان . وكان ناصر الدولة شديد الهيبة على الخوارج والعصاة قد اخضع منهم كثيرين كابن مطر ومحمد بن صالح . فاستمر على ولاية الموصل الى سنة ٩٣٠ (٣١٨ هـ) وفي ربيع الاول سار منها الى ديار ربيعة ونصيبين وسنجار والخابور ورأس العين وميافارقين وارزن [١] فضمنها بمال ثم تقلد ولاية الموصل عمه أبو العلاء سعيد بن حمدان فقدم من بغداد ووصلها في ربيع الثاني من السنة نفسها . وفي أيامه ظهر صالح بن محمود من عصاة البوازيخ . وكان صالح قد سار بجماعة الى سنجار ثم الى الشجاجية من أرض الموصل وطالب أهلها بالعشر ثم قصد الحديثة وطالب المسلمين منهم بالزكاة والنصارى بالجزية فطردوه واسروا ابنه وهرب صالح الى الجانب الغربي بجوار الموصل وأقام عند الزاب الاعلى وكان نصر بن حمدان قد اسر ابنه فارسل يتهدده ان لم يطلق سراح ابنه فسار اليه نصر وطارده الى البوازيخ وحاصره فيها وما زال على حصاره حتى القى عليه القبض وقاده اسيراً الى الموصل ثم ارسلهُ مع ابنه مكبلاً بالاغلال الى بغداد

الفصل الثالث

استيلاء مؤنس المظفر على الموصل

كان مؤنس المظفر الملقب بالخادم من متقدمي الامراء الذين تقلدوا زمام الامور على عهد الخلفاء العباسيين ، لاسيما أنه نال نفوذاً في زمان المقتدر ، فأحبه وقدمه في الشؤون وسلم بيده مقاليد الحكم وكان يعهد اليه بقيادة الجيوش في الحروب الكبيرة . فساء ذلك بعض رجال الحاشية وحسدوه على

(١) في ارستان واقعة في الغرب الشمالي من بحيرة وان قريبا من اخلاط افتتحها عياض بن غنم سنة ٢٠ هـ وكانت عامرة في أوائل الاسلام نبع فيها كثير من العلماء المشاهير وفي القرن السابع للهجرة خربت وسميت البلاد المجاورة لها ارزنجان كتسمية ارزن الروم وهي ارضروم

منزلته وأخذوا يشون به ويشكونه بالخيانة حتى أوغروا عليه صدر الخليفة ، فعزم على الايقاع به عند سنوح الفرص . وكان مؤنس قد شعر بالمكيدة فأخذ يتحوط لنفسه من الغدر . ثم جرى في تلك الايام أن الخليفة قلد منصب الوزارة للحسين بن القاسم بن عبد الله بن وهب وكان الحسين من ألد أعداء مؤنس المظفر واكثرهم وشاية به ، ولما تقلد الوزارة استنفر منه مؤنس والقلوب المتشاحنة تتفاهم ، ومن ثم طفق يبذل جهده في عزله عن الوزارة أو الغدر به واذ لم يفلح جاهر بما في خاطره للخليفة وألح على عزله مقدماً أسباباً كثيرة فوعده الخليفة بذلك ولم يفعل . ثم أبلغ الحسين الخليفة أن مؤنساً يحاول أخذ ولده العباس الراضي من داره والمسير به الى الشام حيث تكون له البيعة فاشتد غضب الخليفة وأمر الحسين بالتحوط واستقدم قواد الجيش وجمع الرجال والغلمان الى داره وبذلك ازداد استشعار مؤنس وصحت عنده سعاية الحسين في التدبير عليه . ومن ثم سار الى الموصل سنة ٩٣٢ (٣٢٠ هـ) ووجه خادمه بشرى برسالة الى الخليفة ولما قدم بشرى الى دار الخلافة بالرسالة لاقاه الحسين وسأله عما هو في شأنه فأخبره أنه قادم برسالة ولا يذكرها الا لأمير المؤمنين الا أن الخليفة لم يأذن له بالدخول عليه وأرسل يأمره بذكر ما معه للوزير فامتنع وقال ما أمرني صاحبي بهذا فسبه الوزير الحسين وشتم صاحبه وأمر بضربه ثم أغرمه بثلاثمائة الف دينار ونهب داره وحبسه وأخذ أيضاً أملاك مؤنس واقطاعه وضمها الى بيت المال

فلما بلغ مؤنساً ماجرى على خادمه وهو يؤمل أن يطيب المقتدر قلبه سار الى الموصل ومعه اتباعه من القواد والأمراء والغلمان . ثم بذل الأموال لرؤساء العرب فتبعه كثيرون منهم برجالهم . ولما بلغ الخبر الى الوزير كتب الى سعيد وداود ابني حمدان والى ابن أخيهما ناصر الدولة يأمرهم بمحاربة مؤنس ودفعه عن المدينة فاجتمع بنو حمدان على محاربة مؤنس الا داود بن حمدان فانه امتنع عن محاربته لاحسان مؤنس اليه اذ كان قد أخذه بعدموت

أبيه ورباه وأحسن اليه احساناً عظيماً . فأخذ اخوته باقناعه وذكروا له اساءة الحسين وأبي الهيجاء ابني حمدان الى المقتدر مرة بعد أخرى وانهم يريدون ان يزيلوا عن اسمهم تلك الوصمة . واليوم تهمهم مصالحهم ومصالح بلادهم اكثر من مراعاة اصول الصداقة . وما زالوا به حتى وافقهم على ذلك وقال انكم تحملونني على البغي والكفران با لاحسان . وما آمن ان يجيئني سهم عائر فيقع في نحري . وجرى به كما تفأل عن نفسه وذلك ان مؤنساً اقبل على الموصل بثمانمائة فارس فاخرج عليه بنو حمدان في ثلاثين الفاً . ولم يمض الا أيام قليلة حتى انهزم بنو حمدان وقد قتل منهم داود بسهم أصابه بنحره . وكان داود شجاعاً مغواراً يلقب بالمجفجف وقال فيه الشاعر:

لو كنت في الف الف كلهم بطل مثل المجفجف داود بن حمدان

ودخل مؤنس الموصل في صفر واستولى على أموال بني حمدان وديارهم وقد التحق به كثيرون من بغداد والشام ومصر لاحسانه اليهم . ثم ان ناصر الدولة سالم مؤنس وصار معه . وأقام في الموصل تسعة أشهر . ثم اعتزل عنه ونزل الى بغداد . ولما رأى مؤنس كثرة الملتحقين به وعدته الوافرة . ولى على الموصل غلامه يانس وسار هو يريد بغداد ليضبطها . ولما بلغ الخبر الى الخليفة المقتدر هلع قلبه فرقاً مما سمعه عن جيش مؤنس مع ما هو عليه من قلة ذات اليـد سيما وان الجيش كان نافراً منه لقلة الارزاق . فامر بتوزيع ما بقي من الاموال والارزاق على الجيش ثم جهز جنداً وسار بنفسه ليدفع العدو عن بغداد غير ان جيشه لم يستطع الثبوت ازاء قوة مؤنس . فانهزم كله وبقي الخليفـة متخلفاً عن الجيش فادركه قوم من اغربة العرب اتباع مؤنس وقتلوه سنة ٩٣٢ (٣٢٠ هـ) ولما بلغ خبر قتله الى مؤنس ضرب على رأسه وبكى عليه شديداً ثم تقدم مؤنس الى الشماسية وأنفذ الى دار الخليفة من يمنعها من النهب

وفي تلك السنة تبوأ عرش الخلافة القاهر بالله محمد بن المعتضد فاظهر

ارتياحه الى مؤنس وانم عليه ثم غدر به وقتله [1] لخيانة جديدة ظهرت منه واعاد بني حمدان على امارة الموصل

الفصل الرابع

ضمان بني حمدان الموصل واعمالها ثم استئثارهم باموالها

ان ولاية العمال على البلاد في عهد الراشدين كانت على ما يرى من صحف التواريخ اشبه باستقلال اداري وكان العمال من قواد الجنود الفاتحة وشأنهم مراقبة سير الاحكام واقامة الصلاة وتقاضي أموال الجباية من الموظفين الاهليين . ثم لما دالت الايام وصارت الخلافة للامويين احتاجوا الى الاحزاب دفعاً لمطامع منازعيهم على الخلافة فزادوا في نفوذ العمال وجعلوا قسماً من لاعمال طعمةً لهم . ثم لما احتاز بنو العباس مقاليد الخلافة نهجوا على منهج الامويين في مراعاة جانب العمال . بل وزادوا على ذلك تضمين الخراج لهم أي ان يجعلوا على العامل مالاً معيناً يدفعه كل سنة الى بيت المال في بغداد وهو يتولى قبض الخراج والجزية وسائر الضرائب فيتصرف فيها كما يشاء لا يطالبه الخليفة الا بالمال المضروب . كذا فعل الرشيد مع ابراهيم بن الاغلب اذ ضمنه افريقية والمأمون مع عبد الله بن طاهر العامل على خراسان . وجرى على هذه القاعدة الخلفاء الذين من بعدهم ، حتى افضى هذا الحال الى استقلال الامراء بولاياتهم . وكان بنو حمدان كغيرهم من عمال البلاد حتى قد طمحت نفوسهم الى اختزان الاموال . ثم الى الاستقلال بالبلاد سيما لما رأوا تجاوز الخلفاء عنهم المرة بعد الاخرى . واختبروا ضعفهم عنهم وحاجتهم اليهم . فضمنوا أولاً البلاد بالمال ثم استأثروا به ، وأخيراً استقلوا بالبلاد استقلالاً تاماً حكماً واقتصاداً

(١) أبو الفدا ج ٢ ص ٨٢

خُلع القاهر بالله بعد خلافته سنة وستة أشهر ، وجلس بعده على سرير الخلافة الراضي بالله احمد بن المقتدر سنة ٩٣٣ (٣٢٢ هـ) وكان يحب أبا العلاء سعيد بن حمدان ويثق به كل الثقة فضمنه الموصل وديار ربيعة سراً اذ كان المتولي عليها ابن أخيه ناصر الدولة يحاول ان يستأثر لنفسه باموال الجباية كما كان يفعل غيره . فلما أحسّ بتضمين البلاد لسعيد ساءَه منه ذلك وأضمر له الشر وصار يتحين الفرص حتى آن زمن أخذ الاموال من الموصل وأعمالها . وقدم سعيد لجمعها باسم الخليفة فاحتال عليه ناصر الدولة وقتله [1] ولما بلغ خبر قتله الى الراضي بالله أمر وزيره ابن مقلة بالمسير الى الموصل والقبض على ناصر الدولة فسار اليها بالجند . اما ناصر الدولة فرحل عنها وتوغل في جبال زوزان وجدّ الوزير في أثره فلم يدركه . وعليه اقفل راجعاً الى الموصل حيث أقام يجبي أموالها . وطال مقامه فيها فاحتال بعض أصحاب ناصر الدولة على ابن الوزير في بغداد ـ وكان ينوب عنه في اعمال الوزارة ـ وبذلوا له عشرة آلاف دينار ليكتب الى أبيه يستدعيه . فكتب الى أبيه يستعجله في القدوم لاختلال الاحوال بحيث ان تأخر يخشى وقوع مكروه . فقام الوزير من ساعته وعاد الى بغداد بعد ما ولى على الموصل ماكرد الديلمي من الساجيه . ولما عرف ناصر الدولة برجوع الوزير الى بغداد جمع عساكره وسار على ابن ماكرد فالتقى به قريباً من نصيبين وقاتله اياماً حتى هزمه واستولى على الموصل وديار ربيعة . ثم كتب الى الخليفة يستعطفه ويضمن له الاموال . فأجيب الى ذلك واستقرت البلاد له

ثم انتقض أمر الخلافة سنة ٩٣٥ (٣٢٤) فاستبد العمال واستقال الوزراء وضاق الحال بالخليفة حتى الجأته الضرورة ان يستوزر أحمـد بن رائق وكان قد استبد بأموال واسط والبصرة . فاستقدمه الى بغداد وقلده امارة الجيش وامارة الامراء وولاهُ الخراج في جميع الدواوين والبلاد . ثم أمر بالخطبة له

(١) أبو الفدا ج ٢ ص ٨٨

على جميع المنابر . أما ابن رائق فما زاده ذلك الاستبداداً حتى أبطل الدواوين والوزارة وأخذ وحده ينظر في جميع الأمور وصارت الأموال تحمل الى خزائنه فيتصرف فيها كما يريد

وتلك زادت الأحوال وخامة وازالت الطاعة عن الولاة والعمال بحيث لم يبق للخليفة سوى بغداد واعمالها وتوزعت المملكة العباسية : فصارت فارس لبني بويه والبصرة والاهواز وواسط لعبد الله البريدي ومصر والشام للاخشيد ابن طغج والمغرب وافريقية للمهدي والاندلس لبني أمية وخراسان وما والاها لنصر بن أحمد الساماني . وهجر والبحرين لأبي طاهر القرمطي وطبرستان وجرجان للديلم [١] وكان لبني حمدان الامارة المطلقة على الموصل ونواحيها وعلى قسم من ديار ربيعة . ثم انتهزوا الفرصة من فوضى هذه الاحوال واستبدوا بالموصل وديار بكر وديار مضر وديار ربيعة وجبوا اموالها لنفسهم [٢] وفي تلك الآونة ظهر بجكم سنة ٩٣٧ (٣٢٦ هـ) وكان بجكم تركي الاصل من غلمان أبي علي العارض واستخدم عند الخلفاء وفي هذه الاحوال تغلب على المستبد ابن رائق وأخذ منه امرة الامراء وكان الخليفة الراضي يحاول استرداد البلاد ودفع المستبدين فقرب اليه بجكم واكرمه ورغبه في المسير معه الى الحمدانيين ليعاقبهم على استبدادهم واحتجافهم الأموال فسار الخليفة وبجكم بالجيوش سنة ٩٣٨ (٣٢٧ هـ) على ناصر الدولة ولما بلغه خبر مسيرهما اليه خرج من الموصل بجنوده والتقى ببجكم عند الكحيل وهي تبعد عن الموصل ستة فراسخ وانتشب القتال بين الفريقين فانهزم أصحاب ناصر الدولة الى نصيبين ثم الى آمد . ومن ثم كتب بجكم الى الخليفة يبشره بالنصر وكان الخليفة قد اقام في تكريت فاتى الموصل واقام فيها مع بجكم مدة غير يسيرة

(١) القرماني ك ج ١ ص ٩٥
(٢) مقدمة ص ٢٥٩

الا انهما لم يظفرا بشيء من اموال الحمدانيين ثم عاد الخليفـة ويحكم الى بغداد ليدفعا عنها ابن رائق الذي تحكم أمره فيها لغيابهما فعاد ناصر الدولة الى ديار ربيعة والموصل كما كان أولا (١)

الفصل الخامس

الخليفة المتقى لله وبنو حمدان

توفي الراضي بالله سنة ٩٤٠ (٣٢٩ ﻫ) ثم خلفه على سرير الخلافة المتقي لله . وفي السنة الاولى من خلافته قتل يحكم بطعنة خنجر طعنه بهـا غلامه . فاستراح الحمدانيون بقتله وصالحوا الخليفة ببعض المـال وتقربوا اليه حتى صاهروا ابناء الخلفاء فتزوج أبو المنصور بن المتقي بابنة ناصر الدولة ومن ثم عظمت منزلتهم عند الناس وتقررت اركان دولتهم وفي آخر خلافة المتقي سار سيف الدولة الى حلب وحمص وأطنة وقسم من بلاد الجزيرة (٢) فأخذها من يد الاخشيد محمـد صاحب مصر وضمها الى بلاد دولتهم فصارت تخضع لهم سائر بلاد الموصل والشام (٣)

وخدم الامراء الحمدانيون الخليفـة المتقي لله ودافعوا عن حياته وذلك انه لمـا قتل يحكم ظهر أبو عبد الله البريدي وكان على واسط وقـد طمحت به مطامعه الى الاستيلاء على بغداد فسار المتقي لله بالاتراك البجكميين والتقى باصحاب البريدي عند نهر ديالة ثم اختلف الاتراك البجكميون وانضم منهم الى البريدي فهرب المتقي لله الى الموصل ودخل البريدي بغداد في اليوم الثاني عشر من رمضان فاقام بهـا أربعة وعشرين يوماً (٤) . ثم ثار عليـه الجند يطلبون

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٣١
(٢) ابو الفدا ج ٢ ص ٩٨
(٣) مقدمة ص ٢٥٩
(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٣٢

الارزاق والرواتب واذ لم يكن بيده ما يسد الطلب هجموا عليه ويتقدمهم كورتكين الامير التركي وأحرقوا داره ونهبوها ولاذ البريدي بالهزيمة الى واسط ثم دبر كورتكين الشؤون في بغداد الى ان عاد المتقي اليها من الموصل فاستقدم من الشام ابن رائق السالف ذكره وقلده امارة الامراء.

ولما كانت سنة ٩٤١ (٣٣٠ هـ) أرسل البريدي أخاه أبا الحسين الى بغداد في لجّ من الاتراك والديلم فخرج اليه الخليفة بجيشه وحاربه فانكسر الخليفة وهرب مع ابن رائق الى الموصل ثم دخل أصحاب البريدي الى بغداد في جمادى الأخرى واستولوا على دار الخلافة . وكان المتقي لله قد أنفذ الى ناصر الدولة ابن حمدان يستمده على البريدي فأرسل له أخاه سيف الدولة نجدةً في جيش كثيف ولما وصل سيف الدولة الى تكريت وجد المتقي مع ابن رائق قد انهزما فاقفل راجعاً معهما الى الموصل . اما ناصر الدولة فلما بلغه قدوم الخليفة مع ابن رائق فارق المدينة الى الجانب الشرقي وتوجه نحو معلثايا حذراً من شر ابن رائق لحزازات سابقة بينهما ثم ترددت الرسل حتى تعاهدا واتفقا فحضر ناصر الدولة ونزل على دجلة بالجانب الشرقي وعبر اليه الأمير ابن منصور وابن رائق يسلمان عليه فاحتفل بهما ونثر الدنانير على ابن المتقي . ولما هموا بالانصراف ركب ابن المتقي وأراد ابن رائق الركوب فامسكه ناصر الدولة ان يقيم عنده للحديث معه فجذب ابن رائق كمّ ثوبه وركب فشب به الفرس وسقط . حينئذ صاح ابن حمدان بأصحابه ان يقتلوه فهجموا عليه وقتلوه وألقوه في دجلة . ثم ان ناصر الدولة أرسل الى المتقي لله معتذراً بأن ابن رائق كان يريد به شراً وانما فعل به ما فعل تخلصاً من شره . فرد الخليفة عليه الجواب رداً جميلاً ثم أمره بالمسير اليه ولما سار اليه ناصر الدولة استقبله الخليفة وأحسن اليه وجعله أمير الامراء

اما أبو الحسين البريدي فانه أساء السيرة في بغداد حتى نفرت منه قلوب الأهالي لا سيما الجند وقد تركه أغلبهم وهربوا الى الموصل ملتحقين بالمتقي .

فقوي بهم ابن حمدان وعزم على الذهاب الى بغداد مع المتقي فتجهزا وسارا . ولما قرب من بغداد هرب أبو الحسين البريدي الى واسط ومن ثمّ اختلت الاحوال في بغداد ونهب الناس بعضهم بعضاً حتى دخلها المتقي لله ومعه بنو حمدان في الجيوش الكثيرة . وسار بنو حمدان مقتفين أثر البريدي الى واسط حيث التقى الفريقان تحت المدائن بفرسخين وشبت نار الحرب بينهما فانكسر بنو حمدان أولاً ثم عاودوا الكر على البريدى وأصحابه فهزموهم واعتقلوا منهم أسرى كثيرين وهرب البريدي الى البصرة وبقي سيف الدولة الحمداني في واسط يعمل في فتق الحيلة للقبض على البريدي . فكان المال قد شح بيده فتذمر عليه الاتراك وتغير عليه القائدان التركيان توزون وخجنجح فهرب منهما راجعاً الى بغداد وتبعه توزون اليها ولما وصلها غادرها سيف الدولة فجعله المتقي أمير الامراء ثم تغير توزون واتفق مع ابن شيرزاده واستبدا بالأمور نخافهما المتقي وأنفذ الى ناصر الدولة بن حمدان سنة ٩٤٣ (٣٣٢ هـ) يطلب منه ان يرسل اليه جيشاً يصحبه الى الموصل فسير ناصر الدولة الى الخليفة جيشاً مع ابن عمه الحسين بن سعيد وأتوا بالخليفة وأهله واعيان دولته ومعه الوزير ابن مقلة الى الموصل . واقام بنو حمدان بجيوشهم في تكريت ليدافعوا عن الخليفة ويحموه . فقصدهم توزون وناجزهم القتال مدة ثلاثة أيام فانهزم بنو حمدان وغنم منهم توزون الغنائم الكثيرة ولحق بهم حتى دخل الموصل وضبطها فسار بنو حمدان بالمتقي الى نصيبين ثم استقر الصلح بين بني حمدان. وتوزون على ان يدفع بنو حمدان سنوياً ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف ضماناً عن الموصل وعاد عنها توزون الى بغداد . اما المتقي فأقام في الرقة عند بني حمدان حتى نهاية السنة المذكورة وبعده صالحه توزون ووثقه بالحلف والاقسام . ولما عاد المتقي الى بغداد سنة ٩٤٤ (٣٣٣ هـ) حنث توزون بالايمان فقبض على المتقي لله وبعد ان سمل عينيه خلعه عن الخلافة وبويع بها الى المستكفي بالله أبي القاسم عبد الله بن المكتفي

الفصل السادس

بدء دولة بني بويه أو الدولة الديلمية

جاء نقلاً عن أبي نصر بن ماكولا [1] : ان نسب بني بويه يرتقي الى يزدجرد من الملوك الساسانية وقيل ان أبا شجاع بن فنا خسرو جد بني بويه يتصل نسبه بمهر نرسي وزير بهرام جور الاول . وكان أبو شجاع مع اولاده الثلاثة وهم عماد الدولة أبو الحسن على وركن الدولة الحسن ومعز الدولة أبو الحسن أحمد يقطن بلاد الديلم الممتدة على سواحل بحر خزر من جنوبه الغربي ولهذا لقبت دولتهم بالديلمية أيضاً . وانصرف أبو شجاع الى تربية اولاده على مبدأ العمل والاقدام ومرّنهم على حمل السلاح ودربهم بفنون الحرب . وفي تلك الأيام خرج من بلاد الديلم ماكان بن كالي واسفار بن شرويه ومرداويج بن زيار . وقد تبعهم خلق كثير من دعاة العلويين ليفسدوا على العباسيين ويستولوا على البلاد وخرج اولاد أبي شجاع في جملة من خرج وكانوا ثلاثتهم في مقدمة جيش ماكان بن كالي . ثم لما قلب الدهر لماكان ظهر المجن فأدبر سعده وأقبل نحسه أعرض عنه اولاد بني بويه وانخرطوا في خدمة جيش مرداويج سنة ٩٣٣ (٣٢١ هـ) وكان مرداويج قد دانت له الأمور واتسعت له المضامير وسار يدوخ البلاد فملك قزوين وهمذان واصبهان وطبرستان وغيرها من البلاد . ولما صار اليه بنو بويه أحسن اليهم وقدمهم في الأمور وقلد أبا الحسن علياً أي عماد الدولة كرج وكانت في العراق العجمي بين اصفهان وهمذان . فنجح بنو بويه نجاحاً باهراً وكثر اتباعهم ثم نظموا احوال الجند وأدخروا لهم الأموال وكان مرداويج يلمح منهم ذلك وقد أوجس منهم خيفة لا سيما لما رأى تقدمهم عليه في الأمور واستمالة الناس اليهم فاضمر لهم الشر

(١) ابن الاثير جزء : ٨ ص ٩١

في قلبه وأرسل الى عماد الدولة يتلطف به ويستدعيه اليه . فأدرك عماد الدولة الحيلة ومن ثم ازاح القناع عن مخبئات مطامعه وجاهر بالعصيان على مرداويج فسار الى ارجان واستولى عليهـا وكثر رجال بني بويه ومؤازروهم وعظمت شوكتهم وكان مرداويج يحاول كبح جماحهم ولم تكن محاولتـه الا ضغثاً على ابالة فان أهالي اصبهان ثاروا عليه سنة ٩٣٤ (٣٢٣ هـ) وقتلوه شر قتلة . ومن ثم آل الأمر لبني بويه واستولوا على البلاد التي كانت لمرداويج. ثم سار معز الدولة البويهي الى الاهواز سـنة ٩٣٧ (٣٢٦ هـ) وتملـكها وطمحت نفسه الى الاستيلاء على بغداد فاقبل عليها سنة ٩٤٥ (٣٣٤ هـ) واتفق معه ينال كوشه العامل على الاهواز بغضة لزيرك بن شيرزاد الذي كان متولياً الرياسة في بغداد ودخلها معز الدولة البويهي في جمادى الاولى فارتعدت فرائص الناس فرقاً واختفى منه المستكفي حتى أمنه معز الدولة وبايعه بالخلافة . ومن ثم استقر الأمر لمعز الدولة ولم يكن للخليفة الا اسم عاري وبعض اقطاع يديرها كاتب له للقيام بنفقاته الضرورية [1]

ثم خلع المستكفي وبويع بالخلافة بعده المطيع بن المقتدر وبزمانه زاد أمر الخلافة ادباراً فان ايدي بني بويه تطاولت على حقوق الخلفاء واستولوا على البلاد من اعمـال الري والجبل وفارس والاهواز والعراق وبعد ان رتبوا شؤون العراق من تنسيق الاعمال وضرب الاتاوة وغـيرها عزم معز الدولة ان يسير الى بني حمدان ليستولي على الموصل واعمالها فارسل عليها جيشاً بقيادة موسى فيادة وينال كوشه وخرج اليهم ناصر الدولة الحمداني والتقى الفريقان من سامرا . وكان زيرك بن شيرزاد في بغداد يتحين الفرص للايقاع بمعز الدولة البويهي فقدم من بغداد بأصحابه وانضم الى جند ناصر الدولة ثم انحاز اليه أيضاً ينال كوشه بأصحابه فقوى ناصر الدولة وحمل على جند بني بويه وقهرهم حتى أخرجهم عن بغداد واستولى عليها ثم كر عليه معز الدولة واشتد القتال

(١) ابن الاثير ج ٨ ص ١٦١

وكان الاعراب الموالون لابن حمدان قد انتشروا يمنعون الميرة عن العدو فضاق الامر بالديلم ومسهم الجوع وعزموا على الانسحاب الى الاهواز . وقبل ان ينسحبوا عالجوا الجنود الحمدانية بحملة قطعية اجبروا فيها ابن حمدان ان ينسحب عن موقعه ثم استقر الصلح بين ابن حمدان و بين ابن بويه سنة ٩٤٦ (٣٣٥ ه المحرم) على أن يحمل ناصر الدولة بن حمدان مبلغاً سنوياً من المال عن الموصل وديار بكر وديار مضر من الجزيرة . وما انصرف الديلم عن الموصل حتى حمل عليها تكين الشيرازي بأصحابه الاتراك فدخلوا الموصل واستولوا عليها وهرب ناصر الدولة الى نصيبين . ومن هناك كتب الى معز الدولة يستصرخه على الاتراك . فسير معز الدولة الجيوش الكثيرة الى السنّ حيث اجتمعت بهم الجنود الحمدانية واقبلوا الى الموصل فقاتلوا الاتراك قتالاً شديداً حتى اجلوهم عن المدينة وتبعهم الاعراب من اصحاب ناصر الدولة واثخنوا فيهم الجراح وأسروا تكين الشيرازي وحملوه الى ناصر الدولة فسمله وسجنه في احدى قلاعه . ثم عاد ناصر الدولة الى الموصل . وبعد هذا بات البويهيون والحمدانيون في الفة وولاء حتى أقبل معز الدولة بجنده الى الموصل سنة ٩٤٨ (٣٣٧ ه) وذلك لان ناصر الدولة بن حمدان تأخر عن تقديم المال فاتخذ معز الدولة ذلك حجة وسار بجنده الى الموصل . فهرب ناصر الدولة عن الموصل الى نصيبين خوفاً من الديلم لكثرتهم ووفرة عدتهم وأتى معز الدولة اليها ودخلها في شهر رمضان فعسف أهلها وأخذ أموالهم وأرزاقهم . وبينما كان مستعداً للمسير الى نصيبين ليقبض على ناصر الدولة باغتته الانباء من أخيه ركن الدولة عن قدوم العساكر الخراسانية على جرجان والري وأرسل يستمده بالعساكر لدفع العدو عن البلاد . فاضطر حينئذ الى مصالحة ناصر الدولة ومن ثم استقر الصلح بينهما على ان يؤدي له ناصر الدولة عن بلاده مليوناً من الدراهم . ويخطب لبني بويه عماد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة في جميع انحاء بلاده

دامت علاقات الصلح موثقة الى سنة ٩٥٨ (٣٤٧ هـ) وفيها تغير معز الدولة ثانية فسار نحو الموصل وكتب له ناصر الدولة يبذل له المال الكثير بضمان سنوي قدره مليونان [1] من الدراهم وهي تساوي تقريباً ٦٦٦، ٦٦ جنيه ولم يمض سنة على هذا القرار الاخير حتى تغير معز الدولة ثالثة وسار ناصر الدولة محتجاً بتأخير حمل المال اليه . ولما بلغ الموصل مع وزيره المهلبي وجد ناصر الدولة قد فارقها الى نصيبين وكان من عادة ناصر الدولة اذا قصده من هو أشد صولة منه بحيث يضطره الحال الى اخلاء المدينة استصحب معه جميع الكتاب والوكلاء والمطلعين على أبواب المال ومنافع السلطان . ثم يأمر الاعراب ان يغيروا على العلافة والميرة . فكان الذي يقصد بلاده يبيت في حاجة ماسة الى ارزاق الجند . وهكذا جرى بمعز الدولة لما دخل المدينة وأرسل في طلب الارزاق للجند لم يجد فيها شيئاً فضاقت به الاقوات ومسّ جنده الضر [2] . ثم بلغه ان بنصيبين غلات السلطان فاستخلف على الموصل سبكتكين الحاجب الكبير وسار هو بنفسه الى نصيبين . ولما توسط الطريق بلغه ان ولدي ناصر الدولة أبا المرجا وهبة الله بسنجار مع اصحابهما . فسير اليهم شرذمة من جنده ولم يشعر أولاد ناصر الدولة الا وقد التاث الجند عليهم فبادروا الى ظهور الخيل ولجأوا بالهزيمة . ونزل أصحاب معز الدولة في خيامهم وانهمكوا في الاكل والشرب وبيناهم كذلك باغتهم ولدا ناصر الدولة باصحابهما فوضعوا فيهم السيف وقتلوا وأسروا وأقاموا بسنجار بينما كان بعض أصحاب ناصر الدولة مقيمين على الحصون في الموصل والجزيرة يغيرون على الديلم فيقتلون ويأسرون ويقطعون الميرة عنهم . أما ما كان من ناصر الدولة فانه لما رأى بعض أصحابه قد انحازوا مستأمنين الى الديلم هرب الى حلب عند أخيه سيف الدولة فخرج سيف الدولة الى لقائه وبالغ في اكرامه وخدمته

(١) الكامل . جزء : ٨ : ١٨١

(٢) ابن خلدون ج ٣ ص ٤٢٤

حتى نزع خفي أخيه بيده . ثم راسل معز الدولة في أمر الصلح وامتنع معز الدولة عن تضمين البلاد الى ناصر الدولة لخلفه مرة بعد مرة وعلى هذا ضمنها منه سيف الدولة بمليونين وتسعمائة الف درهم . ثم اطلق له الاسرى الذين في سنجار وغيرها [١] وانما اجاب معز الدولة الى الصلح بعد تمكنه من البلاد لقلة الاموال وتقاعد الناس عن تأدية الخراج لاحتجاجهم بانهم لا يصلون الى غلاتهم . ثم أرسلوا يطلبون الحماية من العرب . فخاف معز الدولة حدوث الغوائل ولهذا رضي بالصلح كما ذكرناه . ثم رجع الى بغداد سنة ٩٥٩ (٣٤٨ هـ) وهي السنة التي امحلت فيها الارض وأجدبت وانقطعت الامطار حتى صار غلاء عظيم بلغ فيه كر الحنطة [٢] الفاً ومائتي درهم . فنزح كثير من اهالي الموصل الى البلاد العراقية والشامية طلباً للرزق

مضى على عقد الصلح خمس سنوات ثم انحرف عنه معز الدولة فسار الى الموصل وملكها وكان ناصر الدولة قد بارحها الى نصيبين وتبعه معز الدولة اليها بعد ان استخلف على الموصل أبا العلاء صاعد بن ثابت لحمل الغلات وجباية الخراج . وجعل بكتوزون وسبكتكين العجمي على الجيش لحماية المدينة . ولما قرب من نصيبين فارقها ناصر الدولة ودخلها معز الدولة فجعل عليها من يحفظها . وفي اثناء غيابه عن الموصل حمل أبو تغلب ابن ناصر الدولة على اصحاب معز الدولة وناجزهم القتال . ثم انصرف عنهم ولم يظفر منهم بشيء لكنه أحرق في طريقه السفن التي لمعز الدولة . وبينما كان معز الدولة يتربص للقبض على ناصر الدولة بلغه انه نازل في جزيرة ابن عمر فبادر اليها باصحابه ووصلها في شهر رمضان . ولما وصلها لم يقف فيها على أثر ناصر الدولة ولا على أثر أحد من بطانته فملكها وأقام فيها مدة . وفي تلك الاثناء جمع ناصر الدولة أولاده وجنوده وسار الى الموصل . فباغت اصحاب معز

(١) ابن خلدون ج ٣ ص ٤٢٤
(٢) الكرّ العراقي يساوي ٤٠ اردبا

الدولة وقتل وأسر كثيراً منهم أبو العلاء وسبكتكين وبكتوزين واستولى على ما تركه فيها معز الدولة من مال وسلاح وحمله كله مع الاسرى الى قلعة كواشي . فلما سمع معز الدولة ما فعله ناصر الدولة سار يطلبه في اطراف سنجار وحينئذ قصد أبو تغلب بن ناصر الدولة الموصل ونزل بظاهرها عند الدير الاعلى وأخذ بمراسلة معز الدولة في أمر الصلح . ولما رأى معز الدولة انه لا بد من عقد الصلح اذ تحقق لديه انه متى فارق الموصل عاد اليها الحمدانيون وملكوها وان اقام فيها لا يزال متردداً وهم يغيرون على النواحي اجاب أبا تغلب الى الصلح وعقد عليه ضمان الموصل وديار ربيعة والرحبة وشرط عليه اطلاق الاسرى الذين عندهم فاستقرت القواعد على ذلك ورحل معز الدولة الى بغداد

الفصل السابع

سجن ناصر الدولة الحمداني ووفاته ثم نزاع اولاده

توفي معز الدولة سنة ٩٦٦ (٣٥٦هـ) وخلف امارة العراق لابنه عز الدولة بختيار فألفى اولاد ناصر الدولة موته فرصة ليملكوا العراق ويقضوا على حياة الديلم . ومن ثم عزموا على ان يسيروا برجالهم على بختيار ويحاربوه . فصدهم أبوهم عن ذلك قائلاً ان معز الدولة قد ترك لابنه مالاً كثيراً وثروة طائلة اذا فرقها في جنده يستظهر عليكم . فانتظروه حتى ينفقه ثم أقصدوه وفرقوا الاموال في اصحابكم فتظفروا به لا محالة . وما زال يعارضهم في ذلك والشباب لا يرضى بوازع يصده في مأربه حتى ضجروا منه وعدوه عثرة في سبيل مصلحة بلادهم فوثب عليه ابنه فضل الله الملقب بعدة الدولة والمعروف بالغضنفر أبي تغلب ويسميه ابن خلدون بأبي ثعلب وقبض عليه بمساعدة امه فاطمة الكردية [1] والقاه سجيناً في القلعة ثم وكل به من يقوم بخدمته وتولى هو

(١) ابن الاثير ـ ج ٨ ص ٢٠٨

أمر البلاد . وروى ابن خلكان عن سبب حبسه انه كان شديد المحبة لأخيه سيف الدولة فلما توفي سيف الدولة سنة ٩٦٦ (٣٥٦ هـ) [1] اثر موته في ناصر الدولة فتغيرت احواله وساءت اخلاقه وضعف عقله الى ان لم يبق له من حرمة عند اولاده وجماعته فقبض عليه أبو تغلب [2] وأنكر اخوته فعله هذا وخالفوه فتفرقت كلمتهم وآل قصاراهم الى حفظ ما في يدهم وصار أبو تغلب يتزلف الى بختيار ويتملقه خوفاً من غدر اخوته فضمن منه البلاد بمليون ومائتي ألف درهم سنوياً . اما ناصر الدولة فبقي سجيناً في القلعة الى سنة ٩٦٨ (٣٥٨ هـ) ثم توفي في ربيع الأول من السنة المذكورة ودُفن في تل توبة شرقي الموصل بجوار خربات نينوى

ومن ثم أخذت جذور النزاع تتاصل في العائلة الحمدانيـة والحزازات العدائية تتمكن من قلوبهم وزاد على ذلك ان ناصر الدولة كان قد اقطع ابنه حمدان مدينة الرحبة وماردين فلما قبض عليه أبو تغلب كتب سراً الى ابنه حمدان يستدعيه اليـه ليتقوى به على المسيئين اليـه من اولاده فظفر اولاده بالكتاب ولم ينفذوه وخافوا أباهم حتى حملهم خوفهم على ان ينقلوه الى قلعة كواشي . ولما اتصل الخبر بحمدان عظم عليه ذلك وصار لهم عدواً مبايناً وكان قد سار الى الرقة بعد وفاة عمه سيف الدولة فملكها ثم سار الى نصيبين برجاله وأرسل يطالب اخوته بالافراج عن أبيهم فقصده أبو تغلب بجيشه وهزمه ثم سار يتبعه حتى استولى على املاكه . ولما رأى حمدان ما آل اليه أمره سار الى بغداد مستأمناً الى بختيار فأكرمه بختيار وأحسن مثواه . ثم أرسل الى أبي تغلب النقيب أبا أحمد الموسوي والد الشريف ليصلح بين أبي تغلب وبين أخيه حمدان فرضي أبو تغلب بالصلح قسراً لا طوعاً وبعده عاد

(١) ورد في وفيات الاعيان صحيفة ٤٦٣ من الجزء الاول : ان سيف الدولة الحمداني توفي في الموصل ودفن في مسجد بناه لنفسه في الدير الاعلى . فقد يكون هذا المسجد الجامع الملاصق لموقع هذا الدير المعروف بيحيا أبي القاسم قريباً من باشطابية

(٢) وفيات الاعيان ج ١ ص ١٧٦

من بغداد الى الرحبة سنة ٩٦٩ (٣٥٩ هـ) وظلّ أبو تغلب يتحمل بالقبض على أخيه حمدان فكتب اليه يستدعيه الى الموصل الا ان حمدان أبى ان يحضر اليه خوفاً من غدره . فغضب أبو تغلب من ذلك وسير اليه أخاه أبا البركات . اما حمدان فلما سمع بقدوم أخيه أبي البركات أخلى الرحبة وهرب فقدمها أبو البركات واستولى عليها ثم استناب بها من يحفظها في طائفة من الجيش وعاد الى الرقة ومنها الى عرّبان [1] ولما سمع حمدان بعود أخيه عن الرحبة سار اليها من برية تدمر وهي بر الشام فوافاها في شعبان ليلاً وأصعد جماعة من غلمانه على السور ففتحوا له الابواب ودخلها ثم قتل رجال أخيه وجمع أصحابه وسار في أثر أخيه أبي البركات حتى أدركه في عربان آمناً . فلقيهم أبو البركات بغير جنة ولا سلاح وحمل بنفسه في وسطهم فضربه أخوه حمدان وألقاه ميتاً [2] فحمل الى الموصل حيث دُفن في تل توبة عند أبيه . اما أبو تغلب فجهز أخاه أبا الفوارس محمد وأرسله الى نصيبين ولما وصلها كتب اليه حمدان يلاينه ويستميله بالمواعيد ويوثقه بزيادة اقطاعه ان هو سار اليه . فوثق منه أبو الفوارس وسار اليه آمناً الا ان حمدان غدر به وسجنه وكان ابراهيم والحسين ابنا ناصر الدولة قد التحقا أيضاً بحمدان خوفاً من أخيهما أبي تغلب وساروا الى سنجار وتبعهم أبو تغلب بعسكره سنة ٩٧٠ (٣٦٠ هـ) . ولما رأى اخوته ضعفهم عنه بادروا الى ابواب الحيلة فكتب اليه اخواه ابراهيم والحسين يستغفرانه ويسألانه العودة اليه وذلك خدعة ليتسنى لهما الفتك به ثم هربا اليه بجمع من أصحاب حمدان غير ان هذه الحيلة لم تخف على أبي تغلب فحاول جهده ان يقبض عليهما ، لكنهما هربا ، ومن ثم استولى أيضاً على الرحبة . ولما ضاق الأمر بحمدان سار الى بختيار يسأله الانصاف من أخيه وكان أبو تغلب بعد ان حسن احوال الرحبة وعمر سورها رجع الى الموصل ودخلها في ذي الحجة من السنة

(١) عربان وهي بلدة الخابور من أرض الجزيرة (ياقوت)

(٢) أبو الفداء ٢ ص ١١٦

عينها . وضبط أبو تغلب من أخيه مدينة ماردين سنة ٦٧١ (٣٦١ هـ) واستولى على ما كان لأخيه فيها من مال وأثاث وسلاح وحمله الى الموصل . وبقي حمدان وأخوه ابراهيم عند بختيار وهو يعدهما خيراً . ثم كتب الى أبي تغلب وأنفذ كتابه مع الشريف أبي حمدان الموسوي ليصلح بينه وبين أخويه ويرد عليهما اعمالهما واموالهما ولما أبى أبو تغلب عاد أبو أحمد الى بختيار بخيبة المسعى . فغضب بختيار وقدم على الموصل ليستولي عليها وعلى اعمالها وينتقم بذلك لحمدان وابراهيم فوصلها في التاسع عشر من ربيع الآخر . ونزل عند الدير الأعلى وكان أبو تغلب قد سار عن الموصل بالاثقال والاموال واستصحب معه كتابه الى سنجار ثم رحل من سنجار الى بغداد واقام بظاهرها لا يتعرض لأحد من سوادها بل كان هو وأصحابه يشترون حاجاتهم باوفى الاثمان . وسمع بختيار بذلك فأعاد وزيره أبا طاهر بن بقية والحاجب سبكتكين الى بغداد دفعاً لشر ابي تغلب ودخل ابن بقية الى بغداد . واما سبكتكين فاقام خارج المدينة قريباً من معسكر أبي تغلب . ثم أرسل أبو تغلب الى سبكتكين يطلب موافقته في القاء القبض على الخليفة وعلى بختيار ليصير الملك لهما . وتمّ بينهما الاتفاق على ذلك الا ان سبكتكين نكل عنه خوفا من سوء العواقب

وبقيا كلاهما على هذا الحال والواحد لا ينال من صاحبه مغنماً حتى تقرر الصلح على ان يضمن أبو تغلب البلاد ويطلق لبختيار ثلاثة آلاف كر من الغلة عوضاً عن مؤونة سفره وان يرد على أخويه املاكهما واقطاعهما ما عدا ماردين [١] ولما انتهيا على ذلك دخل سبكتكين الى بغداد ورجع أبو تغلب الى الموصل فنزل بالحصباء تحت الموصل وكان بختيار حينئذ نازلاً في الدير الاعلى وبينهما عرض المدينة وتعصب أهل الموصل لأبي تغلب وأظهروا له الميل ذلك لما نالهم من مظالم بختيار ومصادرته أموالهم . ثم سار بختيار عن

(٢) ابن الاثير ج ٨ ص ٢٢٧

المدينة ووصل الى الكحيل فبلغه ان أبا تغلب قد قتل قوماً من أصحابه كانوا قد انحاروا الى جيش بختيار وعادوا الى الموصل ليأخذوا أهلهم وما لهم ثم يلحقون به. فساءه ذلك وأرسل الى الوزير أبي طاهر بن بقية والحاجب سبكتكين يأمرهما بالمسير اليه مع الجنود وعاد بختيار فنزل بالدير الاعلى وعزم ان لا يفك الحصار عن أبي تغلب حتى يقاد اليه أسيراً فهرب أبو تغلب الى تلعفر وكتب الى بختيار معتذراً مؤكداً الاقسام ان لا علم له بقتل أولئك فعاد عنه بختيار بعد ان توثق منه على حفظ العهود. ثم أكرمه وقدر شجاعته فزوجه بابنته واعطاه لقب السلطان [1]

الفصل الثامن

استيلاء عضد الدولة البويهي على الموصل

وقتل أبي تغلب آخر الامراء الحمدانيين فيها

خلع المطيع لمرض اعتراه وخلفه على سدة الخلافة الطائع لله سنة ٩٧٣ (٣٦٣هـ) وفيها هم عضد الدولة بن ركن الدولة البويهي بالاستيلاء على العراق وما زال يحاول نيل مأربه حتى ذل بختيار وساءت احواله وانتقض أمره لشح المال وقصر ذات اليد ونقم الجند عليه لقلة الارزاق فتخير عضد الدولة هذه الفرصة وحمل على بغداد فدخلها سنة ٩٧٧ (٣٦٧ هـ) . اما بختيار فسار يقصد الشام ومعه حمدان بن ناصر الدولة الحمداني وكان حمدان يحسن لبختيار قصد الموصل ويطمعه بكثرة اموالها ووفرة غلاتها ويسهل له الاستيلاء عليها وما زال به حتى أقنعه. وكان عضد الدولة قد استحلفه ان لا يقصد مدينة لأبي تغلب لسابق مودة بينهما فاحنث بختيار بالحلف وزحف عليها برجاله ولما صار الى تكريت أوفد اليه أبو تغلب رسولاً يسأله ان يقبض على أخيه حمدان ويسلمه

(١) ابن الاثير ج ٨ ص ٢٢٧و٢٢٨

اليه واذا فعل ذلك سار بنفسه اليه ليقاتل معه عضد الدولة ويعيده الى ملكه .
فقبض بختيار على حمدان وسلمه الى نواب أبي تغلب فحملوه اليـه وحبسه في قلعة . ثم سار بختيار بعشرين ألف مقاتل واجتمع بأبي تغلب عند الحديثة ومن هناك زحفا على عضد الدولة وانتشبت الحرب بينهما فظفر عضد الدولة ببختيار وأسره ثم أمر به فقتل من ساعته اما أبو تغلب فانهزم بأصحابه راجعاً الى الموصل

فنقم عضد الدولة على أبي تغلب لخيانته العهد والولاء وسار الى الموصل في ذي الحجة سنة ٣٦٧ هجرية وطرد عنها أبا تغلب وملكها مع ما يلحق بها . وخيل لأبي تغلب ان عضد الدولة كغيره يقيم فيها يسيراً ثم يضطره الحال الى عقد الصلح والعود عن بلاده لكن طاش سهمه فان عضد الدولة فطن للأمر وذلك انه لما قصد الموصل حمل معه الميرة والعلوفات وأتى بثقات من رجاله واقفين على احوالها واعمالها واقام فيها مطمئناً ثم بث سراياه في طلب أبي تغلب . اما ابو تغلب فلما حبطت مساعيـه في استرجاع بلاده بزيادة الضمان وأغلقت بوجهه ابواب الرجاء رحل الى نصيبين ومعه ابنا معز الدولة أبو اسحق وأبو طاهر وأمهما والمرزبان بن بختيار . فسير عضد الدولة في طلبـه سرية عليها أبو الوفاء طاهر بن محمد وسار يتبعه الى ميافرقين . فلما وصلها ابو الوفاء أغلقت دونه وكانت من حصون الروم . ثم هرب أبو تغلب من هناك الى أرزن الروم (أرضروم) ومنها الى الحسينية من اعمال الجزيرة حيث امتنع في قلاعها وتبعه أبو الوفاء اليها فالفاها أمنع من عقاب الجو . ثم عاد الى ميافرقين وكان يتولاها رجل من الحمدانيـة اسمه مؤنس فشد عليهـا الحصار وأنفذ يتوعد الاهالي ويتهددهم بالويل والثبور ان هم أصروا على العصيان فأجابوه الى فتح ابواب المدينة وتسليمها له وأرسلوا الى مؤنس يطلبون منه مفاتيح المدينة فأنفذها اليهم حذراً من ان يثوروا عليه وأرسل يسألهم ان يستأمنوه من أبي الوفاء

وكان أبو الوفاء مدة مقامه في تلك الجهات قد افتتح سائر ديار بكر وديار

مضر وربيعة مع حصونها وقلاعها من يد سلامة البرقعيدي عامل الحمدانيين. فرتب عضد الدولة البلاد التي استولى عليها من بني حمدان واستخلف على الموصل أبا الوفاء [١] ثم عاد الى بغداد في سلخ ذي القعدة سنة ٣٦٨ هجرية ثم بعث عضد الدولة جيشاً الى الاكراد الهكارية وافتتح قلاعهم [٢]

ولما رأى أبو تغلب زوال ملكه واستيلاء عضد الدولة على بلاده ولم يبقَ له أمل في الرجوع اليها سار سنة ٩٧٩ (٣٦٩ هـ) يطلب البلاد الشامية وكان على الشام قسام داعية العزيز العلوي الذي غلب عليها بعد افتكين فخال قسام دون آمال أبي تغلب ومنعه الدخول الى المدينة حذراً من ان ينازعه على ولايتها اما حرباً او بأمر من العزيز. فاستوحش أبو تغلب منه ونزل خارج المدينة ثم أرسل رسولاً الى العزيز بمصر يستنجده ليفتح له الشام فورد له الجواب من العزيز يستدعيه اليه ويعده خيراً الا ان أبا تغلب ظن ذلك خدعة فامتنع عن الذهاب ثم اسعفه العزيز بجند مع قائدٍ اسمه الفضل فقدم الفضل بجنده واجتمع بأبي تغلب عند طبرية وزحفا على الشام وبعد حرب ونزال عادوا عنها بخيبة المسعي. وفي تلك الآونة جرت منازعة بين دغفل الطائي عامل العزيز على الرملة وبين بني عقيل النازلين بجوار الرملة فاستجار بنو عقيل بأبي تغلب وطلبوا منه ان ينصرهم على دغفل الطائي ويسميه ابن خلكان المفرج بن الجراح البدري الطائي [٣] فرحل أبو تغلب برجاله ونزل بجوار عقيل فارتاب الطائي والفضل منه وظناه طامعاً في الاستيلاء على الأعمال وعلى هذا انتشب القتال بين الفريقين فانهزمت عقيل وأصحاب أبي تغلب ولم يبق معه الا سبعمائة رجل من غلمانه وكان الطائي يراوغ في القبض عليه وبينما كان أبو تغلب يذود عن نفسه اتته ضربة في حاق رأسه ووقع صريعاً فحمله الرجال

---

(١) أبو الفدا ج ٢ ص ٢١٦

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٤٩

(٣) وفيات الاعيان ج ١ ص ١٧٦

الى دغفل واراد الفضل أخذه وحمله الى العزيز بمصر الا ان دغفل الطائي أرسل من قتله سراً سنة ٩٧٩ (٣٦٩ هـ) [١] وذلك خوف ان يصطنعه العزيز ويجعله عنده . فلما علم الفضل بذلك حزن عليه حزناً شديداً وانحى بالائمة على دغفل مستقبحاً منه ذلك ثم أخذ رأسه وعاد الى مصر . وكان أبو تغلب آخر ملوك الحمدانيين في الموصل ومن بقي من أهله حملهم بنو عقيل الى سعد الدولة ابن سيف الدولة المالك يومئذ على حلب

الفصل التاسع

نظرة اجمالية في دولة بني حمدان

دامت الدولة الحمدانية في الموصل نحو أربع وسبعين سنة أي منذ ولاية أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان في خلافة المكتفي سنة ٩٠٥ (٢٩٣ هـ) الى ان أقبل عضد الدولة البويهي سنة ٩٧٧ (٣٦٧ هـ) وطرد أبا تغلب ابن ناصر الدولة الحمداني وضبط بلاده

كان الحمدانيون في أول أمرهم عمالاً للخلفاء على الموصل ثم لما ضعف شأن الخلفاء لاسيما في تسيطر بني بويه واستفحال أمرهم طمحت انظار العمال الى الاستبداد والاستئثار بالجباية فاضطر الخلفاء الى التراضي معهم على مال مضمون وان يكن أقل مما يجبى وهو الضمان أو المقاطعة كما ضمن البريدي الاهواز على أيام الراضي كل سنة ٣٦٠٠٠٠ دينار . فصار الحمدانيون أيضاً يضمنون الموصل وبلادها بمبلغ من المال يقدمونه للخلفاء وبعدهم لسلاطين بني بويه ولم يتجاوز مبلغ الضمان الثلاثة ملايين من الدراهم فان ناصر الدولة الحمداني ضمن الموصل وبلادها من معز الدولة البويهي بمليونين وتسعمائة ألف درهم [٢] . وفي الغالب كان الحمدانيون لا يقدمون مبلغ الضمان الا اذا

(١) ابن الاثير ج ٨ ص ٢٥٣
(٢) ابن خلدون ج ٣ ص ٤٢٤

ألجئوا حرباً فان العمال كانوا قد استقلوا فيما بقي بيد العباسيين من البلاد وكان أقرب المستبدين الى مقر الخلافة بنو بويه باصبهان وفارس و بنو حمدان بالموصل والجزيرة (ميسوپوتاميا) ولم يبق للخلفاء الا بغداد ونواحيها ما بين دجلة والفرات وامراؤهم مع ذلك مستبدون عليهم ويسمون القائم بدولتهم أمير الامراء . ثم جاء معز الدولة الى بغداد وملكها واختص باسم السلطان فبقيت اخبار الدولة تؤثر عنهم وصارت اخبار الخلفاء منذ المستكفي بالله ٩٤٤ (٣٣٣هـ) مندرجة في اخبار بني بويه والسلجوقية من بعدهم [١] وكان الحمدانيون قد استفادوا من تلك الاحوال فاستأثروا بالحكم والجباية وصاروا لا يقدمون شيئاً أو يقدمون اليسير مما كانوا يجبونه من بلادهم الواسعة التي كانت تشتمل على الموصل الى تكريت [٢] وديار بكر وديار مضر وديار ربيعة والديار الشامية [٣] ولا صحة لما رواه ابن الشحنة عن ناصر الدولة ابن حمدان انه ضبط مصر [٤] سنة ١٠٧٣ (٤٦٦ هـ) فان ناصر الدولة بن حمدان توفي سنة ٩٦٨ (٣٥٨ هـ) ويغلب ان ابن الشحنة يقصد بناصر الدولة أبا علي الحسن من اولاد ناصر الدولة الحمداني وكان هذا من أكبر القواد المتقدمين في مصر على عهد الخليفة المستنصر بالله وذكر عنه ابن الاثير انه حارب العبيد وطردهم من مصر سنة ١٠٧٢ (٤٦٥ هـ) [٥]

وكان الحمدانيون يجمعون من هذه البلاد الواسعة العامرة أموالاً كثيرة لا نعلم كم كان مقدارها يومئذ أما المعلوم فالموصل مع قراها المجاورة كانت تقدم للدولة العباسية سنوياً ما ينيف على عشرات الملايين من الدراهم . نقل ابن خلدون عن جراب الدولة ان الموصل وما يليها كانت تدفع في أيام المأمون

(١) ابن خلدون ج ٣ ص ٤١٩
(٢) أبو الفدا ج ٢ ص ١٠٠
(٣) أبو الفدا ج ٢ ص ١٢٦
(٤) ك . ابن الشحنة ج ٨ ص ١٧٧
(٥) ج ١٠ ص ٣٠

عشرين الف الف رطل من العسل الابيض وأربعة وعشرين الف الف درهم[١] أي ٠٠٠، ٦٠٠، ١ دينار وهي تساوي تقريباً ٠٠٠، ٨٠٠ جنيه ثم نقصت جباية الموصل في أيام المعتصم فاصبحت ٠٠٠، ٠٠ ٣، ٦ درهم . وفي أواسط القرن الثالث للهجرة انحطت الى ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٤[٢] وكان سبب هذا النقصان ضعف شأن الدولة العباسية وخيانة العمال واستئثارهم باموال الدولة . أما في عهد الدولة الحمدانية فلا ريب انها زادت عما كانت عليه في عهد الخلفاء كما يدلنا عليه ترفهم واسرافهم في العطاء شأن الملوك العظام فان سيف الدولة الحمداني أمر بضرب دنانير للصلات في كل دينار منها عشرة مثاقيل وعليه اسمه وصورته . فامر لابي الفرج منها بعشرة دنانير فقال مرتجلاً :

نحن بجود الامير في حرمٍ نرتع بين السعود والنعم
ابدع من هذه الدنانير لم يجر قديماً في خاطر الكرم
فقد غدت باسمه وصورته في دهرنا عوذة من العدم

فزاده عشرة أخرى . وقد انشده اعرابي ثلاثة ابيات من الشعر فأمر له بمائتي درهم[٣] وقد بلغ الاسراف بالحمدانيين في الجود والكرم مبلغه عند الخلفاء العباسيين

وقد أحرز الحمدانيون السباق في حلبة المجد فصاهروا الخلفاء وحازوا المنعة والقوة مالاً ورجالاً فحاربوا الروم وتقلدوا امارة الامراء في الدولة العباسية . وحارب ناصر الدولة اكبر سلاطين بني بويه وهو معز الدولة وانتصر عليه . وطمع أولاده في الاستيلاء على بغداد في سلطنة بختيار ابن معز الدولة ولولا تقاطعهم وخلافهم الذي آل بهم الى الخصام والقتال لكانوا قضوا على دولة بني بويه في بغداد واستقرّ لهم الامر . ذكر عنهم صاحب

(١) مقدمة ص ١٥٧
(٢) زيدان ج ٢ ص ٦١ و ٦٣
(٣) الثعالبي ج ١ ص ١٢

الدرة اليتيمة قال : رُزقت البلاد ملوكاً وأمراء من آل حمدان وبني ورقاء هم بقية العرب والمشغوفون بالادب . والمشهورون بالمجد والكرم . والجمع بين السيف والقلم . فكانوا ملوكاً وأمراء أوجههم للصباحة . وألسنتهم للفصاحة . وسيف الدولة مشهور بسيادتهم وكان رضي الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مأواه غرة الزمان . وعماد الاسلام . وكانت وقائعه في عصاة العرب يكف بأسها . وتفل انيابها . وتذل صعابها . وغزواته تدرك من طاغية الروم الثار وتحسم شرهم المثار . وتحسن في الاسلام الآثار [1]

فكانت العلوم ناجحة في ايامهم وسوق الآداب العربية نافقة في دولتهم. وقد امتازوا بها هم نفسهم حتى أصبحوا موسم الأدباء . وحلبة الشعراء . وما منهم الا أديب جواد يحب الشعر وينتقده . ويثيب على الجيد منه فيجزل ويفضل . فاجتمع من الشعراء على أبوابهم مالم يجتمع على باب أحد من الملوك بعد الخلفاء واشتهر منهم بالادب سيف الدولة فكان أديباً معجباً لجيد الشعر شديد الاهتزاز لما يمدح به [2] واشتهر منهم أيضاً أبو فراس ابن أبي العلاء سعيد بن حمدان وشعره مشهور سائر بين الحسن والجودة والسهولة والجزالة والعذوبة والمتانة . ومعه رواء الطبع وسمة الظرف . وقد شهد له المتنبي بالتقدم والتبريز [3] وله ديوانه الشهير المعروف باسمه وقد طبع في بيروت سنة ١٩٠٠ م . واشتهر في ايامهم من علماء الموصل وشعرائها الشاعر البليغ السري الرفاء أبو الحسن بن احمد صاحب كتاب الديرة (النصف الاول من القرن الرابع للهجرة) والجغرافي الشهير أبو احمد بن حوقل صاحب كتاب المسالك والممالك (أواسط القرن الرابع للهجرة) وأبو الفتح عثمان المعروف بابن جني صاحب المؤلفات العديدة منها كتاب الخصائص وكتاب سرّ الصناعة

(١) الثعالبي ج ١ ص ٨ و ٧

(٢) الثعالبي ج ١ ص ٨

(٣) الثعالبي ١ ص ٢٢

(منتصف القرن الرابع للهجرة) وعمانوئيل بن شهاري صاحب كتاب الأوكساميرون أي الايام الستة . وكان هذا معلماً في مدرسة الدير الاعلى وهو دير مار جبرائيل (منتصف القرن الرابع للهجرة) وايشوعياب بر شهاري وكان معلماً في مدرسة مار ميخائيل على دجلة.

الفصل العاشر

وفاة عضد الدولة وظهور باذ الكردي وما جرى له مع بني حمدان

كان الحمدانيون قد أخضعوا العصاة وكسروا شوكة الخوارج . فاذعن لهم اعراب البادية واكراد الجبال ولما زال ملكهم راغ الاكراد في الجبال سيما منهم الهكارية . وانهاروا كالسيل الجارف على اعمال الموصل . وعاثوا فيها سلباً ونهباً . فبادر عضد الدولة الى تجهيز العساكر وتسييرها في أثر العصاة فانهزم الاكراد الى الجبال وتحصنوا فيها . وكان الجند يقفون أثرهم ويناجزونهم القتال حتى ضعف الاكراد عنهم لكثرتهم ووفرة عدتهم وثباتهم على القتال . وخافوا سوء عاقبة عصيانهم . فارسلوا يطلبون الامان فأجيبوا اليه ثم سلموا قلاعهم ونفوسهم . ونزلوا مع الجند الى الموصل . غير ان مقدم الجيش نكث الوعود والايمان فصلبهم على جانبي الطريق ـ من معلثايا بجوار زاخو ـ الى الموصل ـ على طول خمسة فراسخ تقريباً . حينئذ خاف بقية الاكراد سطوة عضد الدولة وبأسه فاخلدوا الى السكون . وبعد اخماد القلاقل الداخلية . انصرف عضد الدولة الى ترميم ما تهدم في بلاده فعمر المساجد والاسواق . وادرّ الاموال على الائمة والعلماء . ومدّ يد المساعدة الى الغرباء والضعفاء الذين يأوون الى المساجد وجدد أيضاً ما دثر من الانهار وأعاد حفرها وتسويتها . ثم أجرى الجرايات على الفقهاء والمحدّثين والمتكلمين والشعراء وغيرهم من أرباب العلوم والفنون وجهز بالاموال الطائلة وزيره نصر ابن

هارون وكان نصرانياً وأرسله الى البلاد لتعمير البيع والاديرة . وبذل المساعدات لفقرائها [١]

ولما توفى الملك عضد الدولة بن بويه سنة ٩٨٢ (٣٧٢ هـ) اجتمع القواد والأمراء وولوا ابنه ابا كاليجار الامارة . ولقبوه صمصام الدولة . وخلع صمصام الدولة على أخويه أبي الحسن احمد وأبي طاهر فيروز شاه وأقطعهما فارس وأمرهما ان يجدّا في المسير اليها ليسبقا أخاهم شرف الدولة أبا الفوارس وكان يومئذ في كرمان . فلما نمى الخبر الى شرف الدولة بوفاة أبيه سار مسرعاً من كرمان الى بلاد فارس وضبطها وهكذا تفرق بنو بويه في انحاء المملكة العباسية واقتسموها بينهم

أما صمصام الدولة فابتدأ بمحاربة باذ الكردي وهو أبو عبد الله الحسين ابن دوشتك مقدم الاكراد الحميدية الذين كانوا في ثغور ديار بكر . وروى ابن خلدون ان اسمه باذ . وكنيته أبو شجاع وأبو عبد الله الحسين هو أخوه [٢] . كان باذ عظيم الخلقة شديد البأس عليه ملامح الدهاء والبطش . ولما ملك عضد الدولة الموصل حضر باذ عنده نخافه عضد الدولة وقال ما أظن هذا يبقى علىّ فان فيه بأساً وشراً ومن، ثم أوصى أصحابه ان يحتالوا في القبض عليه . ولما أحسّ بهم باذ أركن الى الفرار . وصار يرعى الغنم وكان كريماً جواداً يفيض على المحتاجين ويقصده الكثيرون حتى ذاع صيته وانتشر خبر جوده وكرمه فاحبه الناس واجتمع عليه خلق كثير من العرب وصار يقطع الطرق وينهب السابلة ثم شرع بشن الغارة على القرى والمدن ويوزع على أصحابه ما يناله بشجاعته . ولما كثر أصحابه وأعوانه حمل على أرمينية وملك منها مدينة ارجيش . واستجاش فيها العساكر وزحف على ديار بكر . فاستولى على مدينة آمد وميا فارقين . وكان باذ لما مات عضد الدولة قد

(١) ابن الاثير جزء ٨ ص ٢٥٥
(٢) ج ٣ ص ٤٣٣

استفحل أمره وقويت شوكته حتى قصد نصيبين وضبطها . ولما نمى خبره الى صمصام الدولة أرسل عليه عسكراً بقيادة أبي سعد بهرام . فانكسر أبو سعد وتفرق أصحابه ثم صير اليه صمصام الدولة أبا القاسم سعيد بن الحاجب مع جيش عظيم والتقوا بباجلايا من قضا كواشي في جنوبي بحيرة وان . وهي كواش وكانت تسمى قديماً « داردمشت » فانهزم أيضاً أبو القاسم واستولى باذ على كثير من الديلم فقتل وأسر منهم . ونجا أبو القاسم الى الموصل فثار به الاهالي نفوراً من سوء سيرة الديلم . وأخرجوه من المدينة ومن ثم دخلها باذ الكردي واستولى عليها سنة ٩٨٣ (٣٧٣ هـ) وأقام في الموصل يستعد للمسير الى بغداد ليزيل عنها الديلم ويستولي عليها فلما بلغ خبره الى صمصام الدولة هاع منه فجمع العساكر الكثيرة وأرسلها بقيادة زيار بن شهراكويه من أكبر قواد الديلم فزحف بها زيار وانتشب القتال بينه وبين باذ سنة ٣٧٤ هـ فاجلت الواقعة عن هزيمة باذ وأصحابه . وأسر زيار كثيراً من عسكره وأهله فحملهم الى بغداد . وملك الديلم بلاد الموصل . ثم أنفذت السرايا في طلب باذ وكان قد هرب الى ديار بكر . فلما رأى زيار ان لا سبيل الى القبض عليه أعمل الحيلة لقتله ووضع رجالاً لذلك فسار أحدهم الى معسكر باذ ودخل ليلاً الى خيمته وضربه وهو يظن انه يضرب رأسه فوقعت الضربة على ساقه ومرض باذ لتلك الضربة حتى أشفي على الموت . ولما أبل من مرضه راسل زيار في الصلح فاستقر الحال بينهما على ان تكون ديار بكر وشطر طور عابدين لباذ . وهكذا عاد زيار الى بغداد وقد جعل على الموصل سعيد ابن الحاجب مع جيش من الديلم . ثم ان الجند شغبوا على صمصام الدولة سنة ٩٨٥ (٣٧٥ هـ) وأجمعوا على تسليم الملك الى أخيه شرف الدولة وكتبوا الى شرف الدولة بذلك فقدم بجنده على الاهواز والبصرة ثم على بغداد فاستولى عليها وكان قد ألقى القبض على أخيه صمصام الدولة فسمله واعتقله في قلعة سنة ٩٨٦ (٣٧٦ هـ)

وفى هذه الفترة انصرف باذ الى جمع المال وتجنيد الرجال حتى أصبح بجيش عظيم فاقبل على الموصل سنة ٩٨٧ (٣٧٧ هـ) يريد ان يستولي عليها . وكان سعيد الحاجب الوالي على الموصل قد توفي في تلك الاثناء فولى شرف الدولة مكانه على الموصل أبا نصر خواشاذه . وأرسل معه العساكر . ولما وصلها وبلغه خبر قدوم باذ بعدد عظيم من الرجال الابطال كتب الى شرف الدولة يستمده زيادة في العساكر والاموال . وكان باذ قد قارب المدينة فاضطر خواشاذه ان يستعين بالعرب من بني عقيل وبني نمير وأقطعهم الموصل ليدافعوا عنها [١] فتوقف باذ لكثرة العرب ثم أرسل طليعة أخاه مع جند يسير فقتل أخوه وانهزم عسكره . وأقام باذ في مكانه لا يجسر على التقدم الى سنة ٩٨٩ (٣٧٩ هـ) وفيها ثار أهالي البلاد على الديلم لكثرة شرهم ومظالمهم وعمت هذه الثورة جميع بلاد العراق وامتدت الى الموصل فحاربوا الديلم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً . وجرى انه مرض شرف الدولة ومات في تلك السنة عينها فلما بلغ خبر وفاته الى باذ زاد طمعه في الاستيلاء على الموصل وتحقق أمله فيها . الا ان العرب من بني عقيل وبني نمير حالوا دون مرامه . وفي تلك الايام قدم الى الموصل أبو طاهر ابراهيم وأبو عبد الله الحسين ابنا ناصر الدولة الحمداني . وقد روى ابن خلدون عن قدومهما الى الموصل روايتين . فذكر ان شرف الدولة البويهي لما ولى خواشاذه في الموصل بعث أبا طاهر الحمداني وأخاه الى الموصل وبعد سفرهما اليها خاف منهما فكتب الى خواشاذه ان يعيدهما اليه فلم يجيبا وأغذ السير الى الموصل [٢]

وقال أيضاً : جاء أبو طاهر وأبو الحسين ابنا ناصر الدولة بن حمدان أميرين على الموصل من قبل بهاء الدولة وبقيت في ملكهما الى سنة ٣٨١ هجرية [٣] : وقوله الاخير يوافق ما أورده ابن الاثير عن ابني حمدان انهما

(١) ابن خلدون ج ٣ ص ٤٣٤
(٢) ج ٤ ص ٢٥٣
(٣) ج ٣ ص ٤٣٤

كانا في بغداد في خدمة شرف الدولة . وبعد وفاته احتالا على ابنه بهاء الدولة واستأذناه في الذهاب الى الموصل . وبعد ما أذن لهما ندم بهاء الدولة وخشي ان يستوليا ثانية على الموصل فكتب الى خواشاذة عامله ان يدفع ابني حمدان ويعيدهما الى بغداد . فانفذ خواشاذه اليهما يتوعدهما ويأمرهما بالعودة الى بغداد . أما ابنا حمدان فاسرعا بالمسير الى الموصل حتى نزلا بالدير الاعلى وكانت الفتنة قد تجددت في ثورة الاهالي على الديلم . وقد هجموا عليهم ونهبوهم ثم التحقوا باصحاب ابني حمدان واحتدم القتال بين ابني حمدان وبين الديلم فانكسر الديلم وانهزم منهم واعتصم الباقون بدار الامارة . ولما عزم أهل الموصل على قتلهم والاستراحة منهم منعهم ابنا حمدان عن ذلك . ثم أخرجوا خواشاذه بمن معه عن المدينة واستقر الامر بالموصل لبني حمدان

أما باذ فانه لما رأى عجزه عن المدينة رجع الى ديار بكر فجمع له الاكراد واكثرهم من الاكراد البشنوية اصحاب قلعة فنك (وهي في قرب جزيرة ابن عمر تبعد عنها نحو الفرسخين وقد أقام فيهـا الاكراد البشنوية مستقلين مدة ثلاثمائة سنة [1]) . ثم بلغه الخبر ان أبا طاهر وأخاه قد ملكا الموصل واستبدا فيها فعول على المسير اليها فسار اليها سنة ٩٩٠ (٣٨٠ هـ) وشرع يكاتب أهلها ويستميلهم اليـه . ثم قدمها وقد أجابه بعضهم ونزل في جانبها الشرقي . ولما رأى ابنا حمدان عدده وعدته ضعفا عنه وكتبا الى أبي الذواد محمد بن المسيب أمير بنى عقيـل يستنصرانه على باذ ، ويعدانه بتوليته على جزيرة ابن عمر ونصيبين وبلد . فرضي ابن المسيب وسار اليه أبو عبد الله ابن حمدان وأقام أبو طاهر بالموصل يحارب باذ . فلما اجتمع أبو عبد الله بابن المسيب صارا الى بلد وعبرا دجلة . وباذ غافل عنهما ثم احس بهما وأراد الهرب خوفاً ان يشدا عليه فيكون أبو طاهر من الامام وعبد الله من الوراء لكنه لم يقـدر لزوال نظام جنده فادركهم أصحاب بني حمدان وقتلوا فيهم مقتلة كبيرة وفرّ باذ

(١) ياقوت

منهزماً على ظهر فرسه وبينما كان يهرب جمح به الفرس فسقط عنه واندقت ترقوته ومات من ساعته ثم رآه بعض أصحاب بني حمدان فعرفوه وحملوه الى الموصل حيث صلبت جثته فوق دار الامارة الا ان أهالي الموصل أنكروا ذلك وقالوا لا يحلّ ان يفعل هذا برجل شجاع غاز ، فانزلوا جثته وكفنوها وصلوا عليها ثم دفنوها

وكان لباذ ابن اخت من بني مروان يدعى ابا علي هذا سار من بعد قتل باذ بمن معه الى حصن كيفا على نهر دجلة وهو من المعاقل المنيعة فتزوج بامرأة باذ وتملك الحصون التي له بما فيها من رجال ومال ثم سار الى ميافرقين وقصده ابنا حمدان وقاتلاه فظفر بهما ابوعلي وأسر عبدالله بن حمدان ثم اطلقه ، ولما عاد عبدالله الى اخيه ابي طاهر وجده قد القى الحصار على آمد فاشار عليه بمصالحة ابن مروان والاتفاق معه غير ان ابا طاهر لم يذعن لمشورة اخيه بل اجبره ان يكون على الجيش فسارا الى ابن مروان وحارباه ثم انكسرت جيوشهما وهرب ابو طاهر الى نصيبين واسر ابو عبدالله الحسين ولبث مضيقاً عليه حتى شفع فيه صاحب مصر فأطلق سراحه ومن ثم مضى ابو عبد الله الى مصر وتقلد ولاية حلب سنة ٩٩١ (٣٨١ هـ) وكان ابو الفضائل بن سعد الدولة بن سيف الدولة الحمداني قد توفي وبقي ابو عبدالله على ولاية حلب حتى مات . أما ابو علي المرواني فملك ديار بكر وما يجاورها ثم قتل وخلفه اخوه ابو نصر بن مروان ومنه بدأت الدولة المعروفة بدولة بني مروان وقال ابن خلدون انها أخذت منشأها من ابي علي المرواني سنة ٩٩٠ (٣٨٠ هـ)



الفصل الحادي عشر

بدء دولة بني عقيل ويقال لها أيضاً دولة بني المقلد او آل المسيّب

كان بنو عقيل و بنو كلاب وبنو نمير و بنو خفاجـة وكلهم من عامر بن صعصعة و بنو طي من كهلان قد انتشروا ما بين الجزيرة والشام في عـدوة الفرات وكانوا كالرعايا لبني حمدان يؤدون اليهم الاتاوات و ينفرون معهم للحروب . ثم استفحل أمرهم عند فشل دولة بني حمدان وساروا الى ملك البلاد واستولوا على نصيبين [1] وكان يرأس هذه القبائل المتحالفة امير من عقيل يسميه ابن خلدون ابا الدرداء وهو خطأ والاصح هو ابو الذؤاد محمد بن المسيب بن رافع بن المقلد بن جعفر بن عمر بن مهند أمير بني عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر. ومن نسب هذا الامير يتضح سبب تسمية هذه الدولة العربية بدولة بني عقيل وبنى المقلد وآل المسيب

لما انهزم ابو طاهر الحمداني امام ابى علي بن مروان سار الى نصيبين في قلة من اصحابه فطمع به ابو الذؤاد محمد بن المسيب أمير بني عقيل المتغلب يومئذ على نصيبين فغدر به واعتقله مع علي ابنه وجملة من قواده ثم قتلهم عن آخرهم وسار الى الموصل بدء سنة ٩٩١ (٣٨١ هـ) وضبطها ثم أرسل الى بهاء الدولة يخبره بذلك ويسأله ان ينفذ اليه من يقيم عنده من أصحابه يتولى الأمور ، فسير اليه قائداً من قواده وكان أبو الذؤاد قد تنفذ على نائب بهاء الدولة حتى صار اليه الحل والابرام في الكبيرة والصغيرة وليس للنائب فيهـا أمر ولا سلطان . ولما بلغ خبر استبداده الى بهاء الدولة انفذ عليه أبا جعفر الحجاج ابن هرمز بعسكر كثير فقدم أبو جعفر الى الموصل وطرد عنها أبا ذؤاد وملكها . فثار ثائر بني عقيل واجتمعوا مع أميرهم أبي الذؤاد على حرب أبى جعفر فاشتد القتال بينهم وكان أبو الذؤاد بطلاً شجاعاً أظهر في تلك الوقائع اقداماً وبأساً

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٥٤

فهابته العرب واجتمع منهم عليه خلق كثير حتي أجفل أبو جعفر لكثرتهم وأرسل يطلب مدداً من بهاءالدولة فامده بالوزير أبي قاسم علي بن أحمد وقدم أبو القاسم الى الموصل في أوائل سنة ٩٩٢ (٣٨٢ هـ) فكانت بينهم حروب ووقائع وكان الظفر فيها للديلم

ولما توفي أبو الذؤاد سنة ٩٩٧ (٣٨٧ هـ) [١] سار المقلد أخوه الى الموصل فاستمال اليه بعضاً من الجنود الديلمية وكتب الى بهاء الدولة يضمن منه الموصل واعمالها بمليونين من الدراهم [٢] وهي تساوي تقريباً ٦٦٦و٦٦ جنيه ثم قصد أخاه علي الذي خلف أبا الذؤاد في امارة بني عقيل وأظهر له ان بهاء الدولة قد ولاه الموصل وسأله ان ينصره على أبي جعفر . فسار كلاهما برجال عقيل ونزلوا على الموصل وانضمّ اليهم الديلم الذين استمالهم المقلد . فضعف أبو جعفر عن محاربتهم وهرب سراً الى بغداد بأهله وأمواله . ثم دخل المقلد الموصل واستقر الأمر بينه وبين أخيه على ان يخطب لهما ويقدم علي لكبره ويكون لهُ نائب لجباية الأموال وبارح علي المدينة واقام المقلد فيها وسارت أمورهما على هذه الوتيرة مدة طويلة حتى جرت خصومة بينهما كما سنذكره في محله

وكان المقلد يتولى أيضاً حماية غربي الفرات من أرض العراق ولهُ عليها نائب متهور فجرت بين نائبه وبين أصحاب بهاء الدولة مشاجرة وكتب النائب يشكو الى المقلد حاله واذ ذاك سار المقلد بعساكره وانتشبت الحرب بينهم وكان بهاء الدولة آنئذٍ منشغلا في محاربة اعوان أخيه صمصام الدولة فلما بلغه الخبر بمجيء أصحاب المقلد الى بغداد أنفذ أبا جعفر الحجاج الى بغداد وأمره بمصالحة المقلد خوفاً من اثارة الحرب لانصرافه الى محاربة أخيه فراسل أبو جعفر المقلد واستقر الصلح بينهما على ان يحمل المقلد عشرة آلاف دينار الى بهاء

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ١٥٠
(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٥٥

الدولة وان يخطب له في البلاد . ثم خلعت على المقلد الخلع السلطانية ولقب بحسام الدولة . وأقطع الموصل والكوفة والقصر وهو قصر شيرين على نهر حلوان في غربي خرباتها والجامعين وهو اسم الحلة قديماً [١] . غير ان المقلد لم يبر بوعوده الا بحمل قليل من المال وهذا أيضاً استأثر به فقصدته الرجال وعظم شأنه وخافه الملوك البويهيون أنفسهم

واتى في وفيات الأعيان عن المقلد انه كان فيه عقل وسياسة وحسن تدبير فغلب على سقي الفرات واتسعت مملكته ولقبه الامام القادر بالله وكناه وأنفذ اليه بالاواء والخلع فلبسها بالانبار واستخدم من الديلم والاتراك ثلاثة آلاف رجل واطاعته خفاجة حتى ملك البلاد الكثيرة [٢] . وجرى انه بينما كان المقلد منشغلاً في العراق بلغه اذ أصحاب أخيه علي قد اساءوا الى أصحابه في الموصل وهم يحاولون الاستيلاء عليها فلما فرغ من شغله عاد الى الموصل وفي عزمه ان ينتقم من أصحاب أخيه لكنه توقف عن ذلك خوفاً من وخامة العاقبة وشر الحرب فاعمل الحيلة في القبض علي أخيه على ليصفو له جو الملك وكانت دار أخيه ملاصقة لداره فنقب الحائط ودخل على أخيه ليلاً فاعتقله وبعث زوجته وولديه قرواش وبدران الى تكريت فخرجت زوجة أخيه بولديها الى الحسن ابن المسيب أخي المقلد وكانت احياؤه قريباً من تكريت فاستجاش العرب على المقلد وسار اليه في عشرة آلاف مقاتل ولاقاه المقلد بألفي فارس وبينما هم في ذلك اذ جاءت زميلة بنت المسيب شافعة في أخيها علي فاطلقه المقلد ورد عليه ماله وترك الموصل لأخويه علي وحسن وسار عنها سنة ٩٩٨ (٣٨٩ هـ)

ولما توفي علي سنة ٩٩٩ (٣٩٠ هـ) بقيت الامارة لحسن فسار المقلد الى الموصل بجيش كثيف وطرده عنها ثم دخلها وملك فيها وكان المماليك الاتراك الذين في بغداد قد أعجبتهم صولة المقلد وسطوته فرغبوا في خدمته وتبعوه

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٥٥
(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٥٠

ثم تخلفوا عنه لتمدي الديلم عليهم ولاذوا بالهزيمة فتبعهم المقلد وظفر بهم وقتل منهم وأعاد الباقين الى خدمته وبعد هذا تغير عليه هؤلاء الاتراك فاغتنم بعضهم غفلته وقتلوه غيلة وهو فى الانبار حيث كانت أمواله وخزائنه وجاء عنه فى وفيات الاعيان أنه بينما كان في مجلس انسه وهو في الانبار وثب عليه غلام تركى فقتله وذلك فى صفر سنة ٣٩١ ويقال انه مدفون على الفرات بمكان يقال له شقيا بين الانبار وهيت وكان المقلد ذا فضل وادب ومن شعره ما شوهد مكتوباً على حائط قصر بجوار نصيبين [١]:

يا قصر ما فعل الالى ضربت قبابهم بقعرك
اخنى الزمان عليهم وطواهم بطويل نشرك
واهاً لقاصر عمر من يختال فيك وطول عمرك

ولما مات المقلد كان ابنه قراوش [٢] وبدران فى تكريت نخاف نائبه عبد الله بن ابراهيم بن شهرويه بادرة الجند وشغبهم وكتب الى ابى منصور ابن قراد من كبار زعماء العرب وهو في السندية وهي قرية على نهر عيسى بين بغداد والانبار [٣] يستدعيه الى نصرة قرواش على عمه الحسن ويستميله بالمواعيد الكثيرة فقدم ابن قراد برجاله وحمى الخزائن والبلدة ومن ثم أرسل عبد الله النائب الى قرواش المعروف أيضاً بأبي المنيع معتمد الدولة ولما وصل بذل لابن قراد اموالا كثيره مكافأة له على صنيعه أما الحسن بن المسيب فانه جمع مشايخ عقيل وشكا اليهم قرواش وما بذله عفواً من الاموال الطائلة لابن قراد وأراد الحسن ان يثيرهم بذلك على ابن أخيه غير ان بني عقيل خالفوه في مقصده وعرضوا عليه مصالحة قرواش واذ لم يجد بداً من موافقتهم رضي بها . ثم ان قرواش ندم على ما أعطاه لابن قراد وأضمر على

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ١٥١
(٢) قرواش اسم عربي على فعوال من القرش وهو لغة الكسب والجمع وبه سميت قريش لانها كانت تعاني التجارة ٠
(٣) ياقوت

قتله واذ احس قراد ترك أمواله وفر هارباً فاستولى عليها قرواش

وغزا قرواش البلاد وكان بطلاً شجاعاً حارب الاتراك والديلم وخفاجة وهي قبيلة كبيرة من بني عقيل كانوا يسكنون اطراف الكوفة . وفي مبادى القرن الخامس الهجري خلعوا الطاعة في اطراف الانبار والكوفة والبصرة وأفسدوا فيها فحمل عليها قرواش واستباح أموالهم وفتك بهم فتكاً ذريعاً . ثم استفاد من انتقاض أمر بني بويه ومناجزتهم بعضهم بعضاً . وكان عماه وهما ابو الحسن بن المسيب وابو مرخ بن المسيب قد توفيا فاستقل قرواش بالبلاد واحتاز أموالها ثم انفذ خدمة لمصاحبته الى صاحب مصر الحاكم بأمر الله سادس الملوك الفاطمية يقدم له الطاعة ويعده بالخطبة له في بلاده وهي بلاد الموصل والكوفة والانبار وسقي الفرات والمدائن . فخطب له فيها سنة ١٠١٠ (٤٠١هـ) [١]

فلما بلغت اخبار قرواش الى الخليفة القادر بالله وكان قد خلف الطائع لله سنة ٩٩١ (٣٨١ هـ) أرسل من ساعته الى بهاء الدولة يعرفه انحياز قرواش الى صاحب مصر . ومن ثم كتب بهاء الدولة الى عميد الجيش أبي علي بن أبي جعفر يأمره بالحملة على قرواش فسار أبو علي بجيش عظيم وأموال طائلة لنفقة الجند . ولما خرج اليه قرواش ورأى أهبة أبي علي وكثرة رجاله داخله الندم والفشل فكتب في الحال الى أبي علي يسأله ان يتوسط بالصلح بينه وبين بهاء الدولة ويعده بابطال خطبة العلويين وباعادة خطبة القادر بالله

ثم توفي الملك بهاء الدولة سنة ١٠١٢ (٤٠٣ هـ) وخلفه ابنه سلطان الدولة . ثم عقب سلطان الدولة ابنه الآخر مشرف الدولة . فلما استقر الملك لمشرف الدولة وبلغه عن قرواش استبداده في البلاد ، واحتجافه بالاموال حرك عليه بني أسد وأمدهم بالجند والمال فساروا الى قرواش وقاتلوه . ثم انهزم قرواش برجاله وبنو أسد يتبعونه حتى أدركوه وقادوه أسيراً بعد ان

---

(١) أبو الفدا ج ٢ ص ١٤٧

نهبوا خزائنه واثقاله . وبعد أيام هرب قرواش من الاسر ولاذ بسلطان الثمالي، أمير خفاجه فمد مشرف الدولة يده على بلاد قرواش وضبطها ومضى أيام على ذلك ثم كتب قرواش الى مشرف الدولة يسأله الصفح فلم يغنه رجاؤه فتيلاً حتى توفي الملك مشرف الدولة سنة ١٠٢٥ (٤١٦ ﻫ) وملك العراق بعده اخوه جلال الدولة وكان قرواش يتزلف اليه بالطاعة والاخلاص فوثق منه جلال الدولة وأعاده على ملكه

وبقي قرواش على الصلح مع بني بويه زمناً غير يسير . ثم انقلب عنهم وحسر النقاب عن مطمعه في الاستبداد بالبلاد فاستأثر بها وبجبايتها ثانية وامتنع عن مراجعتهم في الامور . فاثار جلال الدولة عليه بني أسد وبني خفاجة وأمدهم بالجند والمال وسيرهم كتائب الى قتال قرواش . وسار قرواش من الموصل الى الكوفة حيث التقى برجال جلال الدولة في ظاهرها ونازلهم القتال وبعد عراك شديد وضرب عنيف أدرك قوتهم فهرب الى الانبار . وكان رجال أسد وخفاجة يطاردونه حتى بلغ الموصل فدخلها وتحصن فيها سنة ١٠٢٦ (٤١٧ ﻫ)

وفي تلك الآونة ثارت الفتن في داخلية بلاد الدولة البويهية فانصرف ملوكها الى اخماد أجيج هذه الفتن والمشاغب وكان الجند أيضاً قد هاجوا على الاثير عنبر . وكان من نخبة الرجال البويهية . وكان ماضي الحكم نافذ الكلمة وعامة الجند طوع بنانه . ولما عم الاغتشاش وسادت الفوضى خلع الجند طاعته وظن الاثير ان ذلك مكيدة من الملك فلاذ بالهزيمة منضماً الى قرواش فقبله قرواش وأحسن مثواه واكرمه واعتز به على مناوئيه ثم سار الى بلاده وملكها . وقدم الانبار وكان بنو خفاجة قد أحرقوها وتركوا جميل أبنيتها ردماً فعمر منها ما عمر . وبينما هو كذلك اذ أقبل ابن قراد بجمع من بني عقيل وعليهم بدران أخو قرواش لحربه فلم الاثير شعث رجاله وجمع كلمتهم . ثم أرسل يطلب مدداً من ابن مروان وكان مناصراً لقرواش . فخرج الاثير

بثلاثة آلاف مقاتل وثارت الحرب بين الفريقين أياماً طويلة اسفرت أخيراً عن فشل اعداء قرواش فطلبوا صلحه واستقر الصلح بينهما على ان يعطي قرواش لاخيه بدران مدينة نصيبين . فعاد قرواش الى الانبار وكمل ابنيتها وشاد حولها سوراً منيعاً وأقام فيها . وكانت هذه الحروب الكثيرة قد أوهنت قوة قرواش مالاً ورجالاً . فاستفاد من ضعفه الامير منيع الخفاجي وسار الى اقطاع آل المسيب التي على سقي الفرات فضبط منها وخطب فيها للملك أبي كاليجار البويهي

الفصل الثاني عشر

دخول الغزّ الى الموصل

كان الغز وهم من شعوب الاتراك منتشرين في مفازة بخارى وخضعوا لدولة آلة سبكتكين [1] ، ثم في زمن السلطان محمود بن سبكتكين كثروا وضاقت بهم البلاد فصاروا يفسدون نهباً وسلباً فنكبهم السلطان محمود ونهب احياءهم وقتل منهم خلقاً كثيراً ثم أجلاهم عن بلاده ، فلحق كثير منهم باصبهان وقاتلوا صاحبها . وذلك سنة ٤٢٠ هجرية . ثم افترقوا فسارت طائفة منهم الى جبل بكجار عند خوارزم [2] ولحقت طائفة أخرى باذربيجان مع زعمائهم توقا وكوكتاش ومنصور ودانا ثم دخلوا مراغا سنة ١٠٣٧ (٤٢٩ هـ) ونهبوها وأثخنوا في الاكراد الهذبانية ، وكذا فعلوا في الري [3]

(١) ابن خلدون ج ٣ ص ٤٥٠

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٥٩

(٣) الري وسماها قدماء الجغرافيين اليونانيين (راجس) كانت من أشهر المدن الفارسية القديمة وكان موقعها في شمالي عراق العجم وترى اخربتها في جنوبي طهران على مسافة خمسة كيلو مترات . وكان يحيط بها سور منيع يبلغ طوله ٢٦ كيلو مترا . وبعض هذا السور باق الى اليوم يدل على عظمة المدينة وسعتها . افتتح العرب هذه المدينة بعد الاسلام سنة ٦٤٦

والكرخ [1] وقزوين . ثم ساروا الى أرمينية وعاثوا فى نواحيها وقصدوا الدينور [2] سنة ١٠٣٨ (٤٣٠هـ) فنهبوا وقتلوا

ثم اجتمع الغز الذين في أرمينية وساروا الى بلاد الأكراد الهكارية من أعمال الموصل فقاتلوا أكرادها وهزموهم واستولوا على بيوتهم وأموالهم ثم ساروا يتبعونهم وكان الأكراد قد تحصنوا في الجبال والمضايق وقدجمعوا قوتهم فكرّوا على الغز وقاتلوهم شديداً حتى ظفروا بهم وقتلوا منهم ألفاً وخمسمائة رجل وأسروا سبعة من أمرائهم ومائة من وجوههم وغنموا سلاحهم وخيلهم فتمزق الغز وتفرقوا . ثم جمعوا شتاتهم وانضم اليهم الغز الذين طردهم ابراهيم ينال أخو طغرلبك فتوغلوا في جبال الزوزان وساروا الى جزيرة ابن عمر سنة ١٠٤١ (٤٣٣ هـ) فنهبوا قردى وبازبدى والحسنية وفيشابور . وكان زعيمهم منصور بن غز غلي قد نزل بجنوده في الجانب الشرقي من جزيرة ابن عمر وعليها سليمان بن نصر الدولة بن مروان فأخذ سليمان يحتال عليه بعقد الصلح حتى رضي به منصور على شرط أن يقيم في الجزيرة حتى ينكشف الشتاء ثم يسير بمن معه من الغز الى الأصقاع الشامية . وبعد أن تم الصلح بينهما أقام سليمان مأدبة عظيمة دعا اليها أمراء الغز مع زعيمهم منصور فلما حضروا احتاط بهم جند سليمان واوثقوهم ثم ألقوهم في السجون وبلغ الخبر الى الغز المقيمين خارجاً فذعروا من ذلك وانصرفوا عن الجزيرة الى أطراف الموصل وكان قرواش قد جمع رجال البشنوية خوفاً من شر الغز وسار اليهم ليكشفهم عن بلاده فحاربه الغز وقاتلوه قتال من لا يخشى الموت حتى

ميلادية في خلافة عمر بن الخطاب على يد عروة بن زيد الطائي . وبني سورها وجامعها الكبير في خلافة أبي جعفر المنصور ثم أخربها المغول وقتلوا أهلها ومن نجا من حدّ السيف انتقل الى طهران

(١) يعرف عند العرب بكرخ خوزستان

(٢) الدينور مدينة شهيرة كانت في عراق العجم تبعد عن همذان عشرين فرسخاً . وكانت عامرة في زمن المدنية الاسلامية ونبغ فيها عدد كبير من العلماء الاعلام واليوم هى خربة . وقد ذكرها الحموي ووصف كبرها

هزموه وأعادوه الى الموصل مقهوراً . ثم عاد الغز الى الجزيرة. وشدوا عليها الحصار فأرسل ابن مروان يعدهم باطلاق أميرهم ويبذل لهم الأموال الكثيرة اذا ساروا عنه فوعدوه ثم نكثوا بوعدهم وذلك انهم بعداطلاق سراح أميرهم وقبضهم الأموال حملوا على بلاده فخربوا ودمروا وأقام بعضهم في اطراف ديار بكر والبقية ساروا الى البقعاء من أراضي الموصل بينها وبين نصيبين فنزلوا في قصبتها برقعيد وسمع قرواش بقدومهم فأرسل من يستطلع أحوالهم وعددهم ثم أنفذ يستعطفهم ويعدهم بمبلغ ثلاثة آلاف دينار اذا ساروا عنه فلم يرضوا به وأرسلوا يطلبون منه خمسة عشر ألف دينار ـ أي ما يساوي تقريباً ٧٥٠٠ جنيه ـ فوعدهم قرواش بهذا المبلغ ومن ثم استدعى الاهالي وأعلمهم بذلك . وبينما كانوا مهتمين بجمع المال زحف الغز على المدينة ونزلوا بالحصباء فخرج قرواش بخواص المدينة وسوادها وقاتلهم سحابة يومه حتى أدركهم الليل فافترقوا . ولما كان الغد عادوا الى حومة القتال وما لبث الاهالي حتى انهزموا وانهزم قرواش أيضاً بسفينة نزلها من داره ومن ثم دخل الغز المدينة فسبوا وأخربوا وبلغ مقدار ما نهبوه من دار قرواش ماينيف على مائتي ألف دينار [١] . ووصل قرواش الى السن ثم أرسل الى الملك جلال الدولة يستنصره على الغز وكتب الى امراء العرب والاكراد يشكو اليهم الغز وما فعلوه في الموصل من المظالم . اما الغز فلما استقر بهم المقام في الموصل اغرموا الاهالي عشرين ألف دينار ثم دخلوا البيوت ونهبوا ما بقي فيها من أموال وحلي ووضعوا غرامة أخرى أربعة آلاف دينار ثم حضر جماعة من الغز عند أحد أعيان المدينة وهو ابن فرغان وطالبوه بدفع المال فلم يطق أهل الموصل احتمال هذه المظالم وحملوا حملة رجل واحد على الغز الذين عند ابن فرغان فقتلوهم ثم خرجوا يطوفون ويقتلون كل من صادفوه منهم ومن بقي من الغز لجأوا الى دار وتحصنوا فيه فنقب الاهلون عليهم واعملوا فيهم السيف حتى قتلوهم

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ١٥٢

عن بكرة أبيهم . ولم يخلص منهم الا سبعة انفار منهم الأمير أبو علي منصور فهرب منصور الى الحصباء وكتب الى الأمير كوكتاش يعرفه الحال . وكان كوكتاش قد فارق الموصل بجمع عظيم من الغز فما ابطأ كوكتاش ان قدم برجاله ودخل الموصل عنوة في الخامس والعشرين من رجب سنة ١٠٤٣ (٤٣٥هـ) فوضع فيها السيف واقام يقتل وينهب اثني عشر يوماً ولم يسلم الا سكة أبي نجيح لاحسان أهلها الى الأمير منصور وسلم أيضاً من التجأ اليها من الموصل وبقيت جثث القتلى في طرق المدينة حتى انتنت ثم طرحت بعد ذلك كل جماعة في حفيرة (١)

وطال مقام الغز في بلاد الموصل وهم يشنون الغارات على الاطراف وينهبون ويسلبون . ولما رأى جلال الدولة بن بويه ان شرهم قد انتشر وأوشك ان يعم بلاده أيضاً كتب الى طغرلبك بن ميكائيل بن سلجوق مؤسس الدولة السلجوقية يشكو اليه الغز وما يفعلونه في بلاده من المظالم والفساد . فورد الجواب من طغرلبك يعتذر الى جلال الدولة بأن هؤلاء التركمان كانوا لنا عبيداً وخدماً ورعايا وتبعاً يمتثلون الأمر ويخدمون الباب ولما نهضنا لتدبير خطب محمود بن سبكتكين وخوارزم انحازوا الى الري فعاثوا فيها وأفسدوا فزحفنا بجنودنا من خراسان اليهم مقدرين انهم يلجأون الى الامان ويلوذون بالعفو والغفران فملكتهم الهيبة وزحزحتهم الحشمة ولا بد من ان نردهم الى راياتنا خاضعين ونذيقهم من بأسنا جزاء المتمردين قربوا أم بعدوا (٢)

ذكرنا ان قرواش سار الى السن ومن هناك راسل جلال الدولة وأصحاب الاطراف وأمراء العرب في طلب النجدة فلم يستطع جلال الدولة اسعافه لسبب اختلال أمر الجند الاتراك . اما من امراء العرب فقدم لنصرته نور الدولة أبو الاعز دبيس بن صدقة واجتمعت عليه عقيل وغيرهم ثم ساروا الى الموصل

(١) ابن الاثير ج ٩ ص ١٤٦
(٢) ابن الاثير ج ٩ ص ١٤٦

فتأخر الغز عنهم الى تلعفر وبوماريه ونواحيها ومن هناك راسلوا الغز الذين كانوا في ديار بكر يطالبون مساعدتهم على العرب ثم التقى الفريقان برأس الايل من الفرج واقتتلا قتالاً شديداً استظهر فيه العرب واعملوا السيف في الغز فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وغنموا جميع اثقالهم . وأرسل قرواش رؤوس كبار الغز الى بغداد فأخذها الاتراك ودفنوها حمية على ابناء نزعتهم اما من بقي من الغز فساروا عن طريق نصيبين واغاروا على بلاد الأرمن والروم ونهبوها . وكان الغز الذين قدموا على الموصل نيفاً وثلاثين ألفاً . ولم يفلت منهم سوى خمسة آلاف [1] فعظم قرواش بهذا الانتصار الباهر وارتفع قدره ومدحته الشعراء منهم أبو علي بن شبل البغدادي بقصيدة منها :

يأبي الذي أرست نزار بينها	في شامخ من عزه المتخير
نزهت أرضك من قبور جسومهم	فغدت قبورهم بطون الانسر
من بعد ماوطئوا البلاد وظفروا	من هذه الدنيا بكل مظفر
ولقوا ببأسك سطوة الاسكندر [2]	فضوا رتاج السد عن يأجوجه

الفصل الثالث عشر

منازعة بني المقلد ثم تولي قريش الامارة

توفي جلال الدولة بن بهاء الدولة بن بويه سنة ١٠٤٣ (٤٣٥ هـ) بعد ما ملك في بغداد نحو سبع عشرة سنة وكانت أيامه مشحونة بالفتن والقلاقل والحروب مع بني اعمامه منازعيه في الملك . ولما توفي كان ابنه الاكبر الملك العزيز أبو منصور بواسط [3] فاطاعه الجند وكتبوا اليه يعجلون قدومه

(١) ابن الاثير ج ٩ ص ١٤٦

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٥١

(٣) واسط من المدن العربية الكبيرة وكانت واقعة جنوب شرقي بغداد على مسافة ١٠٠ كيلو متر تقريباً . أسسها الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٧٠٢ (٨٣ هـ) واشتهرت

ليبايعوه وبلغ خبر مبايعته الى الملك أبي كاليجار البويهي الذي كان مستولياً على بلاد فارس فأخذ يراسل القواد والجند ويعدهم بالاموال الكثيرة ويرغبهم في ملكه حتى استمالهم اليه فعدلوا عن الملك العزيز

ولما علم الملك العزيز بعدول الجند عن مبايعته الى مبايعة الملك أبي كاليجار خاف غدرهم فسار مستجيراً بقرواش وبنصر الدولة بن مروان وبقي مقيماً عند نصر الدولة حتى توفي في ميافارقين . أما الملك أبو كاليجار فلما استقرت القواعد بينه وبين الجند وتيقن من البيعة له أرسل الاموال الطائلة لتفرق على الجند وعلي أولادهم . ثم أهدى الى الخليفة عشرة آلاف دينار مع تحف كثيرة نفيسة فصارت الخطبة له في بلاد فارس والعراق باسره . ومن ثم قدم الى بغداد سنة ١٠٤٤ (٤٣٦ هـ) فدخلها بمائة فارس من أصحابه وخلع على القواد وملك أربع سنوات . ثم توفي وخلفه في الملك ابنه الملك الرحيم سنة ١٠٤٨ (٤٤٠ هـ) . وكان أمراء بني عقيل على أتم اتفاق مع الملك أبي كاليجار فباتت بلادهم في راحة وأمان حتى السنة التي توفي فيها . ثم تجددت الفتن وعمت المشاغب بلاد بني المقلد . وبدأت بفتنة ثارت بين أبي الحسن عيسكان أمير الاكراد الحميدية سكان العقر وما يجاورها من الجبال وبين أبي الحسن موشك أمير الاكراد الهذبانية سكان قلعة اربيل واعمالها . فحاول قرواش اخمادها لئلا تتطاير شظاياها الى غيرها من الاماكن . وعلى هذا انتصر للاكراد الهذبانية ليكسب ثقتهم ويتقوى بهم على نصر الدولة بن مروان لسبب اختلاف جرى بينهما . ثم زاد الشر في اختلاف بني المقلد وانقسامهم على بعضهم بتأصل جراثيم العداوة بين أبي الكامل زعيم الدولة أخي قرواش وبين ابن أخيه قريش بن بدران ، فجمع كل منهما رجاله ، وجرى بينهما قتال شديد كان الظفر فيه لقريش وانهزم عمه زعيم الدولة . ثم سار قريش

بحضارتها ومشاهير رجالها . ثم أخربها هولاكو المغولي بعد ماقضى على الدولة العباسية . وترى الى اليوم انقاض أبنيتها وجوامعها المتقنة البناء . وبجنوبيها على مسافة ٣٧ كيلو متراً توجد قرية صغيرة تدعى « واسط الحي »

الى عمه قرواش وأخذ يوغر قلبه على زعيم الدولة ويشيه بانه طامع في ملكه . وما زال به حتى تمكنت الوحشة والبغضاء من قلب قرواش وظهرت بغضتهما لبعضهما ظهوراً آل بهما الى الحرب ومن ثم انتهز بنو مروان والاكراد الحميدية فرصة الانتقام من قرواش وانضموا بجندهم الى زعيم الدولة للاخذ بناصره تمكيناً للشر بينه وبين قرواش ، فسار سليمان بن نصر الدولة بن مروان وأبو الحسن عيسكان الحميدي بجنودهما وتبعهما كثير من الاكراد الى مدينة معلثايا فنهبوها وأخربوها [١] ثم جاء زعيم الدولة بمن معه من العرب وعقيل ونزلوا بمرج بانيثا والاصح حانيثا وهي مجاورة لمعلثايا [٢] وخرج قرواش اليهم فنزل عنهم على مسافة فرسخ وانتشب القتال بين الفريقين فانكسر قرواش وتفرق رجاله ووقع أسيراً فأرسله أخوه زعيم الدولة مقيداً الى الموصل

وكان قرواش مهيباً تخافه العرب والاكراد فلما رأوا ما صار منه طمعوا في زعيم الدولة وأخذوا ينهبون ويسلبون . وكان زعيم الدولة يخاف تقلب الاحوال وسوء العواقب فعمد الى مصالحة أخيه بتسليم الملك له غير انه لم يزل طامعاً في الملك اذ كان يسؤه ان يرى أخاه حائلا بينه وبين أمنيته فأخذ يحتال ثانية في القبض عليه وكان قد استمال اليه الاجناد والعرب وجمع من المال شيئاً كثيراً فأنزل أخاه قرواش ثانية واستبد بالملك سنة ١٠٥٠ (٤٤٢ هـ) [٣] ومن ثم أنف قرواش من تحكم أخيه في البلاد وعقد النية على مفارقته رغبة في الراحة فسار عن الموصل يريد بغداد . ولما علم زعيم الدولة بمسيره أرسل اليه أعيان قومه ليردوه طوعاً أو كرهاً فرضي قرواش بالعود وخرج أخوه الى استقباله وزاد في تكريمه واسكنه دار الامارة وأجرى له شيئاً من المال لينفقه على حاشيته . وبقيت دولة بني المقلد في طاعة زعيم الدولة سنة كاملة

---

(١) ابن الاثير ج ٩ ص ٢٠٦

(٢) المرجىص ٤٠٨

(٣) أبو الفدا ج ٢ ص ١٧٩

ثم توفي سنة ١٠٥١ (٤٤٣ هـ) بجرح انتقض عليه في تكريت حيث دفن .
فاجمع عرب عقيل على تسليم الملك الى علم الدين أبي المعالي قريش بن بدران وقدم قريش الى الموصل فارسل الى عمه قرواش وهو تحت الاعتقال يعلمه بوفاة زعيم الدولة وقيامه بالامارة ويعده بانه يتصرف على اختياره ويكون بالامارة نائباً عنه . وبعد ذلك جرى نزاع بين قريش وعمه ثم آل الى القتال فانتصر قريش على عمه واستمال اليه العرب فنقل عمه الى قلعة الجراحية من أعمال الموصل حيث توفي سنة ١٠٥٢ (٤٤٤ هـ) فحمل ميتاً الى الموصل ودفن بتل التوبة قريباً من نينوى . قال ابن خلكان : كان أول ما فعله قريش انه قتل عمه قرواشاً في مجلسه في مستهل سنة ٤٤٤ هجرية . وكان قرواش من خيرة رجال العرب ذا عقل ثاقب مع دراية وخبرة في الشؤون . وصولة في الحروب . وكان شاعراً بليغاً ومن شعره في الحماسة :

من كان يحمد أو يذمّ مورثاً ... للمال من آبائه وجدوده
فانا امرؤ لله أشكر وحده ... شكراً كثيراً جالباً لمزيده
لي اشقر سمح العنان مغاور ... يعطيك ما يرضيك من مجهوده
ومهند عضب اذا جردته ... خلت البروق تموج في تجريده
ومثقف لدن السنان كأنما ... أم المنايا ركبت في عوده
فبذا حويت المال الا انني ... سلطت جود يدي على تبديده

ولم يهنأ قريش بالامارة بعد موت عمه والله ينتقم من الظالم باظلم منه فان أخاه المقلد وكان موغر الصدر مما وقر بنفسه من استبداد أخيه أخذ يعمل في فتق الحيلة ليضبط الامارة . ولا عجب فان ذوي المطامع لا تجمعهم الاواصر ولا يزعهم فيها وازع واذا دعت الحاجة فهم يضحون اخوانهم واعزاءهم على مذابح تلك المطامع المعبودة . وهكذا كان فاز المقلد حمل على قريش وانتشب بينهما القتال فانهزم المقلد الى نور الدولة دبيس بن مزيد يستنصره على أخيه سنة ٤٤٤ هجرية . اما قريش فبعد انهزام أخيه اغار على حلله ونهبها وأقفل

راجعاً الى الموصل فوجدها قد اختلت احوالها واختلفت العرب عليه . وكان نواب الملك الرحيم قد استولوا على بلاد بني عقيل في العراق فأقام قريش في الموصل يسعى في استمالة العرب حتى أصلحهم . ولما أذعنوا له جرد الرجال من العرب والاكراد ، وسار الى العراق ليستعيد بلاده فراسل أولاً نائب الملك الرحيم يبذل له الطاعة ويطلب منه تقرير ما كان له من البلاد . وكان الملك الرحيم منشغلا بخوزستان وخاف العواقب اذا رفض فأجابه الى ذلك على كره واستقر الامر لقريش

الباب الثالث

الدولة السلجوقية والدولة الاتابكية في الموصل

الفصل الاول

منشأ الدولة السلجوقية ونهاية إمارة قريش

ان السلاجقة هم من الاقوام التركية التي كانت تقطن المفازة المتسعة الارجاء مابين تركستان والصين وكانت حينئذ احياء بدوية منتجعة وفيها كان التتر والخطا والغز [١] ثم السلاجقة وهم قبيلة من الغز [٢] وقد سموا بذلك نسبة الى سلجوق زعيمهم ومؤسس دولتهم

كان سلجوق على ما رواه ابن الاثير من كبار أمراء الترك وترعرع في قصر ملكهم بيغو . وكان منذ حداثته نشيطاً تبدو على وجهه مخايل النجابة

(١) ابن خلدون ج ٣ ص ٤٥٠

(٢) ابن خلدون ج ٥ ص ٣

والشجاعة . فلما بلغ أشده خافه بيغو على ملكه وأراد به شراً . فهرب به سلجوق وتبعه كثيرون من الغز الاشداء الى ديار المسلمين وهناك اعتنق الاسلامية وازداد علواً وامرة وعظمه الاسلام فأقام بنواحي جند [1] . ثم لما سنحت له الفرص استولى على تلك النواحي التي كانت تؤدي الجزية لملك الترك فطرد عماله وجعل عليها رجلاً من خاصته وأقام على ذلك حتى توفي في جند خلال مباديء القرن الحادي عشر للميلاد

ولما نشأ طغرلبك من ولد ميكائيل بن سلجوق حارب مسعود من آل سبكتكين وانتصر عليه . فاستولى على خراسان ، واتخذ نيسابور عاصمة لمملكته سنة ١٠٣٧ (٤٢٩ هـ) ولقب بالملك الاعظم . أما مسعود فجيش عسكراً يضيق به الفضاء وسار لمحاربة طغرلبك فنزل على مرو وانتشبت بينهما حروب . كان الظفر فيها للسلاجقة فتمزق مسعود واجناده كل ممزق . ومد طغرلبك يده على اذربيجان وخوزستان وبلاد ايران والعراقين وكردستان وملكها. ثم انتشر السلاجقة يدوخون البلاد فاستولوا على بلاد الروم وكرمان ودامت مملكتهم نحو ١٥٦ سنة أي من سنة ١٠٣٧ (٤٢٩ هـ) الى ١١٩٣ (٥٩٠ هـ) . وسنستطرد الكلام عن بعض ملوكهم ممن له شان في تاريخ الموصل

كان طغرلبك طامعاً في الاستيلاء على بغداد فسار اليها سنة ١٠٥٥ (٤٤٧ هـ) محتجاً بما فعله الملك الرحيم البويهي من تبطيل الخطبة له في شيراز أشهر مدن ايران . وانتشر اجناد طغرلبك في طريق خراسان . ولما بلغ خبر قدومه الى الملك الرحيم هلع قلبه خوفاً وأخذت منه الحيرة أي مأخذ سيما لانه كان عارفاً بما يبطنه خاصة بغداد وعامتها من البغض له والسعي في سقوط مملكته الديلمية . ثم تقدم طغرلبك الى بغداد ونزل بعيداً عنها فارسل الملك

(١) جند كانت مدينة شهيرة من تركستان على نهر جيحون وذكرها الحموي انها كانت في زمانه بيد المغول

الرحيم يعاهده على الصلح ويطلب منه ابقاء البلاد له . ولما تقررت القواعد الصلحية أمر الخليفة القائم بأمر الله الذي تولى الخلافة بعد أبيه القادر بالله سنة ١٠٣٠ (٤٢٢ هـ) ان يخطب لطغرلبك . ثم دخل طغرلبك الى بغداد باحتفال شائق سنة ١٠٥٥ (٤٤٧ هـ) . وبادر قريش بن بدران بالمسير الى بغداد لتقديم الطاعة له . وفي اليوم الثاني لدخول طغرلبك ثارت فتنة بين الاهالي وبين الاجناد السلاجقة فنسب طغرلبك ذلك الى حركة من الملك الرحيم فاحضره عنده وأمر ان يسجن في قلعة حيث توفي سنة ١٠٥٨ (٤٥٠ هـ) وكان الملك الرحيم آخر ملوك بني بويه في العراق . فدالت الامور للسلاجقة وآل اليهم النقض والابرام وعظم شأنهم وصاهروا الخلفاء

ثم ان أبا الحارث البساسيري [١] أحد مماليك بهاء الدولة البويهي خالف السلاجقة وخضع للمستنصر الفاطمي خليفة مصر وتبعه الكثيرون من الاجناد التركية معهم دبيس بن مزيد باصحابه وسار البساسيري سنة ١٠٥٦ (٤٤٨ هـ) الى الموصل ليضبطها ويخطب فيها لخليفة مصر . فلما قدمها خرج اليه قريش بن بدران ومعه قتلمش بن عم طغرلبك . وثارت الحرب بينهما عند سنجار وبعد قتال عنيف انهزم قريش وقتلمش . فدخل البساسيري الى الموصل وخطب فيها لخليفة مصر . ثم ان قريش غدر بقتلمش وانحاز الى البساسيري فعاد الى الموصل ورضي بالخطبة للمستنصر بالله والطاعة له وعلى هذا وردت له الخلع النفيسة من مصر

ولما بلغ الخبر الى طغرلبك سار الى الموصل بجماعة من اصحابه ونهب في طريقه اوانا وعكبرا . ووصل تكريت فشدد عليها الحصار وافتتحها . ثم عزم على المسير الى الاعراب ليضعضع قواتهم ويأمن غوائلهم . ثم يسير الى فتح

(١) اسمه ارسلان وكنيته أبو الحارث وجاء في معجم البلدان ما نصه : بسا بالفتح ويعربونه فيقولون فسا مدينة بفارس . وأورد أبو العباس احمد بن علي بن بابه القاشي ان ارسلان البساسيري منسوب اليها أي الى بسا

الموصل . فقصدهم وقتل منهم عدداً عظيماً وفرق الباقين . وبعد هذا أقبل الى الموصل بجيشه نخافته الاهالي . وكان البساسيري قد انهزم الى الرحبة وبقي قريش ودبيس فأنفذا الى هرزاسب أحد قواده يستعطفانه ان يتوسط بهما الى السلطان ويصلح أمرهما . فأغضى عنهما السلطان ولم يرد ان يعفو عن البساسيري . ثم أخذ قريش يتزلف الى طغرلبك . وما زال يلتمسه ان يعيد عليه بلاده حتى أجابه السلطان فاقطعه نهر الملك وهي كورة واسعة كانت تشتمل على ٣٦٠ قرية بعد نهر عيسى في غربي بغداد بين دجلة والفرات . ثم بادوريا ونهر بيطر من نواحي دجيل . ثم عكبرا وأوانا وتكريت ونصيبين والموصل . الا ان ابراهيم ينال أخا السلطان طغرلبك لم يرض بمصالحة قريش وباقطاعه البلاد بعد ما ظهر من خيانته فاستأذن السلطان وكان قد عاد الى بغداد وسار بجيش على قريش ليخرجه عن الموصل فلما قدمها ابراهيم هرب قريش الى الرحبة عند البساسيري ودخل ابراهيم الى الموصل سنة ١٠٥٧ (٤٤٩ هـ) وتسلم أزمة تدبيرها وأقام فيها سنة كاملة . ثم انه انقلب على أخيه لاستبداده في الملك فاتفق مع قريش والبساسيري وأخذ يكاتب خليفة مصر يستنصره على أخيه . ثم بارح الموصل سنة ١٠٥٨ (٤٥٠ هـ) وسار الى بلاد الجبل وكان طغرلبك قد بلغه عن اختلاف أخيه فأوجس ريبة من مسيره الى الجبل وظن ذلك حيلة منه ليمتنع فيه فيتسنى له حشد الجنود والمجاهرة بالعصيان لهذا أنفذ رسولا يستدعيه اليه . فحضر ابراهيم الى بغداد لا رغبة في الصلح بل ليسبل على عصيانه نقاب السلم وأحسن اليه السلطان وجعله عنده

ومن ثم انتهز البساسيري وقريش الفرصة وعادا الى الموصل . فوجدا أبوابها موصدة بوجههما فحاصراها وضايقا الاهالي حتى اشتد فيهم الجوع وأكلوا لحوم الحيوانات ثم اضطرهم عسر الحال ان يسلموها . فدخلها البساسيري وقريش وأمرا بهدم قلعتها حتى عفا أثرها . واذ بلغ الخبر الى السلطان سير جريدة بألفي فارس لكن البساسيري وقريش هربا قبل أن

يصلها السلطان فسار يتبعهما الى نصيبين

وكان ابراهيم قد لبث في بغداد ليرى ما يكون من اخيه فاستفاد من غيابه وسار الى همذان وضبطها . وعلى هذا عاد طغرلبك الى همذان لمحاربته . أما ابراهيم فكان قد امتنع في همذان وجمع العساكر العديدة من الاتراك . وأقام في انتظار أخيه . فقدم طغرلبك وحاربه وهزم أصحابه وأسره ثم أمر به نخنق بوتر قوسه . وبعد ان فرغ طغرلبك من مهمته هذه عاد راجعاً الى بغداد وكان البساسيري وقريش قد استوليا عليها عنوة وخطبا فيها لخليفة مصر سنة ١٠٥٩ (٤٥١ هـ) ولما سمعا بقدومه هرب البساسيري الى الكوفة . ثم ان طغرلبك أنفذ خمار تكين بألفى فارس للقبض على البساسيري ولم يكن مع البساسيري من يدافع عنه فأمسكه وحز رأسه ثم جيء به الى السلطان فطيف به في المدينة

ولما رأى قريش ما حل بربيبه البساسيري عرف سوء مصيره وأدرك الخطر الذي هو فيه ان لم يتلاف الخرق ، فبادر الى تقديم الاموال الطائلة للسلطان طغرلبك ووعده باخلاص الخدمة والطاعة له الى الموت ، فعفا عنه السلطان وأعاده الى امارته . وبعد أن قضى فيها سنتين خاضعاً للسلطان السلجوقي توفي في نصيبين بمرض الطاعون آخر سنة ١٠٦١ (٤٥٣ هـ) وكان عمره احدى وخمسين سنة [1]



(١) ابن خلكان ج ٢ ص ١٥٤

الفصل الثاني

امارة شرف الدولة مسلم العقيلي

بعد قريش تولى الامارة في الموصل وما يليها ابنه شرف الدولة مسلم أبو المكارم وخضع للسلطان السلجوقي فساد الامن في بلاد الموصل والعراق الى سنة ١٠٦٣ (٤٥٥ هـ) وفيها توفي السلطان طغرلبك ولم يخلف ولداً ليجلس على سرير السلطنة . فوقع النزاع بين سليمان وبين الب ارسلان محمد ابني داود جغري بك السلجوقي وكثرت القلاقل وعمت الفوضى وانتشرت عرب البادية يفسدون نهباً وسلباً واستمر هذا الحال الى أن استقرت السلطنة لالب ارسلان . وبعد ان نكل باضداده ومنازعيه من السلاجقة سار بجيوشه على الاعراب فقتل منهم وأركن الباقون الى الفرار . ثم رجع الى بغداد وكان قد سمع عن طاعة شرف الدولة صاحب الموصل واقتداره وحسن سيرته فأرسل في طلبه الى بغداد . ولما قدمها شرف الدولة خرج الوزير فخر الدولة الى استقباله وخلع الخليفة عليه . ثم أقطعه السلطان زيادة على ما بيده الانبار وهيت والبوازيج وحربي [1] وكانت بين بغداد وسامرا واعطاه أيضاً السن وكانت مدينة عند مختلط الزاب الصغير بدجلة فوق تكريت . ذكر الحموي اسوارها وجوامعها وكنائسها الكثيرة . وكان الفرس يسمونها قرد ليباد . ثم ان شرف الدولة عاد الى الموصل . وكان بنو كلاب في الرحبة في طاعة العلوي المصري يجاهرون بالدعوة له فسار اليهم شرف الدولة بجنده سنة ١٠٦٧ (٤٦٠ هـ) وحاربهم فظفر بهم وفرقهم . ثم أخذ أموالهم وأعلامهم وأرسلها الى بغداد فعظم شأنه وأرسل له الخليفة الخلع الثمينة وأثنى عليه السلطان وقربه اليه

ثم قُتل السلطان الب ارسلان سنة ١٠٧١ (٤٦٤ هـ) فحمل الى مرو ودفن فيها وقام بعده بالسلطنة ابنه ملكشاه وتوثقت علاقات المودة بينه وبين شرف

(١) ابو الفداج ٢ ص ١٩٤

الدولة فمكثا على عهود الولاء زمناً طويلاً ثم انقلب الولاء بينهما الى عداوة وحرب وذلك ان فخر الدولة أبا نصر بن جهير الثعلبي الموصلي وزير الخليفة وعميد السلاطين السلجوقيين أرسله السلطان سنة ١٠٨٤ (٤٧٧ هـ) بجند كثيف الى ديار بكر ونواحيها ليستولي عليها فانفذ ابن مروان صاحب ديار بكر يستغيث بشرف الدولة ويعده بآمد اذا تمّ لهما النصر . فطمع شرف الدولة بالمواعيد وزحف برجاله لنصرة ابن مروان وبعد قتال شديد انكشفت الحرب عن انهزام شرف الدولة وابن مروان واستيلاء ابن جهير على ديار بكر . ومن ذلك اليوم صارت ديار بكر لابني جهير[1] وكان شرف الدولة لما هرب قد دخل آمد وانحصر فيها ثم بلغ الخبر الى ملكشاه بعصيانه وانحصاره فأرسل من ساعته عميد الدولة أبا منصور محمد بن فخر الدولة بن جهير الى الموصل ومعه امراء التركمان منهم اقسنقر قسيم الدولة جد الملوك الاتابكية في الموصل . فقدم ابن جهير ونزل قريباً من المدينة ثم أرسل ينذر أهلها ويشير اليهم بالطاعة وتسليم المدينة فاذعنوا وفتحوها لهُ وأرسل عميد الدولة بن جهير يبشر السلطان بالفتح فسار السلطان بنفسه الى بلاد الموصل وملكها لكن لم يقم فيها مدة طويلة لسبب عصيان أخيه تكش فى خراسان واذ ذاك أجبر ملكشاه ان ينسحب بعساكره عن الموصل ليسير في طلب أخيه ومن ثم قرّ رأيه ان يرسل في طلب شرف الدولة ويمنحه العفو ليكون خاضعاً له شاكراً خير من ان يأتي المدينة فيجدها طليقة ويدخلها عنوةً . فأرسل اليه وهو في الرحبة واعطاه المواثيق والعهود وأحضره اليه وقدم شرف الدولة للسلطان الأموال الكثيرة ونال منه الرضى واعادهُ الى بلاده

وكان شرف الدولة ذا فكر صائب وشجاعة في الحروب سار الى الديار الشامية والجزيرة وضبط منها حلب سنة ١٠٨٠ (٤٧٣ هـ) واقتحم حران سنة ١٠٨٣ (٤٧٦ هـ) ثم حاصر انطاكية وكانت بيد الروم فخافه صاحبها

(١) ابن خلدون ج ٥ ص ٢٢١

ووعده بتقديم الجزية له سنوياً . فلما كانت سنة ١٠٨٤ (٤٧٧ هـ) زحف سليمان بن قتلمش السلجوقي صاحب قونيا واعمالها على انطاكية وحاصرها وضبطها . ثم أرسل يبشر السلطان ملكشاه بذلك . ونمي خبر فتح انطاكية الى شرف الدولة بن قريش فاوفد رسولاً الى سليمان يطالبه بالمال الذي كان يحمل اليه من انطاكية ويتهدده بالسلطان اذا أبى . فاجابه سليمان اما حمل المال فلا أحمله أبداً واما تتهددني بالسلطان فاني لهُ وطاعته شعاري وله الخطبة والسكة في بلادي

على هذا جمع شرف الدولة جموعاً من العرب والتركمان وسار الى انطاكية ليحصرها فخرج اليه سليمان بعساكره والتحمت الحرب بينهم سنة ١٠٨٥ (٤٧٨هـ) ثم دارت الدوائر على شرف الدولة فانهزم وتفرق أصحابه ولحق به سليمان حتى أمسكه فقتله في الخامس عشر من صفر من السنة عينها وعمره خمس وأربعون سنة . وكان شرف الدولة من أشهر أمراء بني عقيل وأحسنهم سياسة وأكثرهم عدلا وكانت اعماله في غاية الخصب والأمن وقد اتسعت له فملك من السندية التي على نهر عيسى في غربي بغداد من الفرات الى منبج [1] ومن الشام وحلب وما والاها من البلاد وديار ربيعة وديار مضر. وأخذ الاتاوة من بلاد الروم وضاهى بقوته ملوك السلجوقية في الجند والمال حتى أو شك ان يغلبهم على أمرهم . وكانت سيرته من أحسن السير وأعدلها فكان يصرف الجزية في سبيل تعمير البلاد واصلاحها من ذلك انه عمر سورا للموصل سنة ٤٧٤ هجرية [2] وكان الأمن في بلاده عاماً والرخص شاملاً بحيث يسير الراكب فلا يخاف شيئاً وكان له في كل بلد وقرية عامل وقاضٍ وصاحب خبر بحيث لا يتعدى أحد على أحد [3]

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٦٩
(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٥٤
(٣) ابن الاثير ج ١٠ ص ٥١

الفصل الثالث

انقراض دولة بني عقيل

واستيلاء الامراء السلاجقة على الموصل واولهم كربوقا

استولى السلجوقيون على دولة بني العباس واقتسموها بينهم ولم يكن فيها للخلفاء العباسيين الا الخطبة فقط فآلت الى ثلاث دول سلجوقيـة مستقلة . الواحدة ملـكت في بلاد الروم . والاخرى في كرمان والاخرى ملـكت قسما من بلاد فارس والعراق العربي . وكان ملوك هذه الدولة قد ساءهم ان يروا الامارات الصغـيرة كامارة بني عقيل وامارة بني مروان يستقلون في البلاد ويستأثرون بالأموال . فعقدوا النيـة على محوها واستئصال شافتها ليأمنوا غوائلها فيصفو لهم جو البلاد ويستبدون بالملك . وعلى هذا بثوا امراءهم مع الجيوش المجهزة فقرضوا دولة بني مروان من ديار بكرسنة١٠٨٥ (٤٧٨ هـ) واستولوا على بلادها . ثم صرفوا انظارهم الى استئصال دولة بني عقيل

وكان لما قتل شرف الدولة كما ذكرناه رتب السلطان ملـكشاه أبا عبدالله محمد بن شرف الدولة في الرحبة وحران وسروج وبلد الخابور وزوجـه أخته زليخة [١] وكان والده شرف الدولة قد اعتقل أخاه أُبا سالم ابراهيم بن قريش بقلعة سنجار مدة أربع عشرة سنة فلما تقرر أمر أبي عبد الله محمد في الامارة اجتمع بنو عقيـل فأخرجوا ابراهيم وملـكوه عليهم . ثم اعتقله السلطان ملـكشاه سنة١٠٨٩ (٤٨٢ هـ) وبعث فخرالدولة بن جهير على الموصل وبلادها وبقي سجينا حتى توفي ملـكشاه سنة ١٠٩٢ (٤٨٥ هـ) فأطلق ابراهيم وتولى الامارة ثانية . وكان ابراهيم قليل الخبرة في ادارة البلاد وشؤون السياسة قد انسلخت من مملـكته الانبار [٢] وحلب [٣] وضبطها سليمان بن قتلمش وزادت

(١) اس الاثير ح ١٠ ص ٥١
(٢) ابن خلدون ح ٤ ص ٢٦٩
(٣) ابن الاثير ج ١٠ ص ٩٦

احواله وخاصة بمحاربته مع تتش الملقب بتاج الدولة أخي السلطان ملكشاه. وذلك ان بركيارق بن ملكشاه خلف أباه في الدولة السلجوقية العراقية. فقدم عمه تتش ليختلس منه السلطنة ولما وصل نصيبين أنفذ الى ابراهيم يأمره ان يعطيه طريقاً وان يخطب له بالسلطنة في بلاده. فأبي ابراهيم ومن ثم أقبل عليه تتش بعساكره والتحمت الحرب بينهما بمكان يسمى المضيع ويسميه ابن خلكان المصنع ـ وربما هو غلط النساخ ـ فانتصر عليه تتش وقتله صبراً سنة ١٠٩٣ (٤٨٦ هـ) وملك بلاد الموصل ولما عرف بمبايعة الجند لبركيارق خابت آماله ، فهرب الى البلاد الشامية ، ثم تبعه بركيارق فظفر به وقتله سنة ١٠٩٥ (٤٨٨ هـ)

وكانت بلاد الموصل بعد ان غادرها تتش قد خضعت لبني عقيل فاستولى محمد بن شرف الدولة على نصيبين واستولى أخوه علي على الموصل وما يجاورها. وبعد قتل تتش أرسل السلطان بركيارق فاستقدم من الشام الأمير قوام الدولة أبا سعيد كربوقا. فسار كربوقا الى نصيبين واستلمها من محمد العقيلي وأمنه على نفسه. ثم قدم الى الموصل وحاصرها مدة ولم يظفر منها بشيء فسار عنها الى بلد حيث غدر بمحمد العقيلي وقتله ثم عاد الى الموصل وحاصرها حصاراً شديداً حتى نفدت اقواتها ومواد الايقاد وصار الناس يوقدون القير وحب القطن. فلما ضاق الحال بصاحبها علي فارقها الى الحلة وتسلم كربوقا الموصل وبلادها سنة ١٠٩٥ (٤٨٩ هـ) وهكذا انقرضت دولة بني عقيل

واقام كربوقا على ولاية الموصل الى سنة ١١٠١ (٤٩٥ هـ) وفي اثنائها سار بجيوش الموصل الى الحرب الصليبية الأولى ثم أرسل السلطان بركيارق في طلبه ليسيره الى محاربة محمد بن ملكشاه فسار كربوقا وفي الطريق اصابه مرض عضال. ولما علم بدنو أجله ولى مكانه على الموصل سنقرجه من الامراء السلاجقة وعاد اليها سنقرجه بعد موت كربوقا وكان اعيان المدينة قد بلغهم خبر موته فكتبوا الى موسى التركماني وهو في حصن كيفا يستقدمونه ليسلموه

المدينة . فبادر موسى بالمسير الى الموصل وبلغها بعد سنقرجه بثلاثة أيام . وظنه سنقرجه انه قادم للسلام عليه فخرج لاستقباله بأهل المدينة ودخل به الى دار الامارة ثم جرى بينهما الحديث على الولاية وكل واحد منهما طامع بها وحمي الجدال بهما حتى أفضى الى اشهار السلاح فضرب موسى سنقرجه ضربة سيف لم تصبهُ حسناً ثم حمل أحد غلمان موسى على سنقرجه وعاجله بضربة أخرى قضت على حياته فاستولى موسى على المدينة وخلع على أصحاب سنقرجه وطيب نفوسهم وأحسن اليهم . وبعد مدة يسيرة ثارت الحرب بينه وبين شمس الدولة جكرمش السلجوقي صاحب جزيرة ابن عمر فانكسر موسى وتحصن في الموصل ثم أرسل يستعين بصاحب ديار بكر وهو الأمير سقمان بن ارتق ويعده بحصن كيفا وبعشرة آلاف دينار . ولما قدم سقمان الى الموصل هرب جكرمش الا انه بعد مدة عاد جكرمش الى الموصل وكان موسى قد قتل بدسيسة ودفن بتل يسميه ابن الاثير بتل موسى فحاصر المدينة وافتتحها واحسن السيرة فاحبه العرب والاكراد واطاعوهُ ، وتم الامر لجكرمش من دون منازع في الموصل حتى تولاها السلطان محمد بن ملكشاه . وجرى ذلك ان السلطنة استقرت لبركيارق كما ذكرناه ثم بعد وفاة المقتدي بامر الله الذي تولى الخلافة بعد القائم بامر الله سنة ١٠٧٤ (٤٦٧ هـ) تبوأ عرشها ابنه المستظهر بالله سنة ١٠٩٤ (٤٨٧ هـ) وبوقته ثارت حرب داحسة بين بركيارق وبين محمد اخيه فكانا يتناوبان الظفر حتى ضعف الحال بكليهما مالاً ورجالاً وطمع بهما الاعداء ودامت بينهما هذه الحروب من سنة ١٠٩٩ (٤٩٣ هـ) الى سنة ١١٠٣ (٤٩٧ هـ) . ولما رأى بركيارق سوء المصير وان السلطنة أوشكت ان تخرج من يدهم راسل اخاه في أمر الصلح فاتفقا على ان يكون للسلطان محمد من النهر المعروف باسپيذرود [1] في نواحي اذربيجان الى باب الابواب [2] مع ديار بكر

---

(١) معناه النهر الابيض ، في نواحي اذربيجان ، مخرجه من عند بارسيس ويصب في بحر جرجان (ياقوت) (٢) مدينة دربند في غربي سواحل خزر في ذيل جبال قفقاس ويسميها العرب باب الابواب ويسمونها أيضاً الباب

والجزيرة والموصل والشام

وبعد ما تقررت قواعد الصلح سار محمد الى مرغا ثم الى اربيل يريد جرمكش صاحب الموصل ليأخذ منه البلاد وكان جرمكش قد احسّ بمسيره اليه فجدد اسوار الموصل ومكن حصونها ، وأمر أهل السواد الذين بالخارج ان يدخلوا المدينة . فلما قرب محمد ورأى الاسوار الجديدة والحصون المنيعة ارسل الى جكرمش يعرفه بالصلح الذي استقام امره وبالشروط المقررة بينه وبين اخيه بركيارق : منها ان تكون الموصل وبلاد الجزيرة له وعرض عليه كتاب بركيارق بذلك ثم وعده ان يبقيها له ويكتفي منه بالخطبة باسمه . فابى جكرمش تسليمها واصر على العصيان . ومن ثم زحف محمد برجاله واحتاط بالسور وناوش الاهلين بالقتال فقابلوه بشجاعة وكانوا شديدى المحبة لجكرمش لاستقامته وحسن سيرته فيهم ثم حمل اصحاب محمد على الاسوار وهدموا منها جانباً ولما ادركهم الليل انصرفوا عنه الى الغد وعند الصباح وجدوه مجدداً وقد شحن بالرجال . وكان الاهالي آمنين لكثرة الاقوات في المدينة ورخصها فقد ذكر ابن الاثير [1] ان الحنطة كانت تباع حينئذ ٣٠ مكوكا بدينار أي نصف جنيه مصرية والمكوك كان يومئذ صاعاً ونصفاً والصاع عند أهل العراق هو ثمانية ارطال والشعير ٥٠ مكوكا بدينار . وفي أثناء هذه الحرب توفي بركيارق أي سنة ١١٠٤ (٤٩٨ هـ) . ولما بلغ خبر موته الى جكرمش استدعى أهل المدينة واستشارهم فيما يفعله بعد موت السلطان فخيروه ثم استشار امراء الجند فاشاروا عليه بتسليم المدينة الى السلطان محمد اذ لم يبق لهم سلطان غيره فكتب له بالطاعة ثم طلب وزيره سعد الملك ولما حضر الوزير الى جكرمش وتداولوا في أمر الصلح أخذه الوزير الى السلطان فصار أهل الموصل يبكون ويحثون التراب على رؤوسهم خوفا على جكرمش من غدر السلطان . الا ان السلطان بش به واحسن اليه فاقره على الولاية ثم ان جكرمش دعاه أن يدخل الى المدينة

(١) جزء ١٠ ص ١٤٣

فلم يقبل وعلى هـذا اقام جكرمش مأدبة عظيمة في ظاهر المدينة وحمـل الى السلطان والى وزيره الهدايا والتحف الثمينة . ثم ان محمد سار الى اصبهان سنة ١١٠٦ (٥٠٠ هـ) ليأخذها من ابن اخيه ملـكشاه ، فانتهز جكرمش فرصـة غيابه واعلن حاكمية مستقلة على البلاد . ولمـا بلغ خبر عصيانه الى محمد ارسل عليه جاولي سقاوو بجيش عظيم ليطرده عن البلاد وكان جاولي من الامراء السلجوقية المعروفين بشجاعتهم واقدامهم وكان قد اغار على البلاد التي بين خوزستان وفارس فملـكها وتحصن فيها من السلاطين السلاجقة . ولما مات بركيارق قصده محمد نخافه جاولي وطلب منه الامان ثم قدم عليه في اصفهان فاحسن محمد استقباله ، وكان وصوله يوم بلغ السلطان خبر عصيان جكرمش فاقطعه بلاد جكرمش وسيره بالعساكر الى الموصل كما ذكرناه

الفصل الرابع

امارة جاولي على الموصل

قدم جاولي الى بلاد الموصل فافتتح البوازيخ ونهبها أربعة أيام ثم جعـل عليها من رجاله وسار الى اربل . ولما نمى خبر قدومه الى جكرش بادر الى جمع العساكر . وفي تلك الاثناء جاءه رسول أبي الهيجاء بن موشك الـكردي الهذباني صاحب اربل يعرفه باستيلاء جاولي على البوازيخ ويستعجله في المسير اليـه . فبادر جكرمش وعبر دجلة الى شرقيها بعسكر الموصـل واجتمع بالعساكر الهذبانية في قرية باكلبا من قرى اربل ثم وافاهم جاولي بعسكره فانتشبت بينهما الحرب وحمل جاولي حملة على قلب الجيش الموصلي ففرقه وأسر جكرمش وانهزم من بقي منه الى الموصل حيث امتنعوا وأقاموا أميراً عليهم زنكى بن جكرمش . وكان عمره آنئذ احدى عشرة سنة وخطبوا له وفرق غزغلي مملوك جكرمش الاموال والخيل على الجند . ثم كتب الى الملك قلج

ارسلان بن سليمان بن قتلمش السلجوقي وكان على بلاد الروم يستدعيه ليسلمه المدينة . أما جاولي فقرب من الموصل وكانت منيعة اذ كان جكرمش قد شيد سورها وبنى عليها فصيلا وحفر خندقها وحصنها على أحسن ما يرام . فشدّد جاولي الحصار عليها الا انها امتنعت زمناً طويلاً . ثم أخرج جكرمش وأجبره أن يأمر الأهالي بفتح المدينة فأمرهم جكرمش بذلك ولم يفعلوا . وذات يوم وجد جكرمش ميتاً في الجب الذي كان يحبس فيه [1] ولبث جاولي على حصار الموصل وهو لا يقدر ان ينال منها قلامة ظفر

ذكرنا ان أصحاب جكرمش كتبوا الى الملك قلج ارسلان يستدعونه ليسلموه المدينة فقدم بعساكره ووصل نصيبين حيث أقام بضعة أيام حتى كثر جمعه وتوفرت عدته . ثم سار منها الى الموصل ولما بلغ خبر قدومه الى جاولي سقاوو رفع الحصار ورحل عن الموصل . فأرسل الأهالي الى قلج ارسلان يحلفون له على الطاعة . وبعد أيام يسيرة دخل قلج ارسلان الموصل وخطب لنفسه بعد الخليفة وأحسن الى الجند عموماً . وخصوصاً الى أولاد جكرمش بالخلع الثمينة . ثم رفع الرسوم المحدثة وعدل في الناس فأحبوه وخضعوا له خضوعاً تاماً . أما جاولي سقاوو فانه لما رحل عن الموصل ورد اليه كتاب من الملك رضوان وهو طغتكين أول ملوك بني طغتكين في الشام سنة ١١٠٣ (٤٩٧ هـ) يستدعيه الى الشام ليساعده على الصليبيين . فسار جاولي الى سنجار ثم الى الرحبة وطمع في الاستيلاء عليها . فكتب الى الملك رضوان يستمده على البلاد التي يريد الاستيلاء عليها . فاذا نال مأربه منها سار اليه بمن معه لمحاربة عدوه . فأقبل رضوان بجيشه والتقى به قريباً من الرحبة فافتتحاها. وبلغ خبرهما الى قلج ارسلان فجعل ابنه ملكشاه في دار الامارة وجهز خمسة آلاف فارس وسار بهم على جاولي . فالتقى الفريقان قريباً من الرحبة والتحم القتال بينهما. ثم حمل قلج ارسلان بنفسه على العدو حتى اختلط فيهم وضرب

---

(١) أبو الفرج ص ٣٤٥

يد صاحب العلم فابانها . ثم هجم على جاولي وضربه بسيفه الا انه لم يحكم الضربة. فحمل أصحاب جاولي عليه وعلى عسكره ومزقوهم كل ممزق . ولما أدرك قلج ارسلان الخطر المحيق به خاف أن يقع أسيراً بيد عدوه بعد تشتت عسكره فألقى بفرسه في نهر الخابور ليعبره وانحدر به الفرس الى ماء غمر فغرق فيه ومن ثم خلا الجو لجاولي في الموصل ، وألقى القبض على ملكشاه بن قلج ارسلان وعمره حينئذ احدى عشرة سنة فأرسله الى السلطان محمد . ثم سار جاولي الى جزيرة ابن عمر . وعليها حبشى بن جكرمش فقدم حبشي الطاعة له واهداه ستة آلاف دينار . وكان السلطان محمد قد جعل لجاولي كل بلدة يفتحها فملك جاولي بلاداً كثيرة بحزمه وشجاعته . وقصدته الرجال وتوفرت له العدد حتى تجبر وأخذ يضارع نفسه بالسلطان فامتنع عن تقديم الاموال . وحدث في تلك الآونة ان دبيس بن صدقة من ملوك بني مزيد في الحلة خلع طاعة السلطان وعصى عليه فقصده السلطان بجنده وكتب الى جاولي دفعات يأمره بارسال الجند اليه وجاولي يعده ويماطله ويكاتب دبيس ليحمله على الزيادة في العصيان ومناوأة السلطان بل وكان يمده بالعدد والرجال . فلما قتل دبيس سنة ١١٠٧ (٥٠١ هـ) أرسل السلطان جيشاً عظيماً مع الامراء وبينهم اسباسلار مودود بن التون تكش الى الموصل . وأمرهم بأخذ البلاد من يد جاولي [1] فقدموا اليها وحاصروها وكان جاولي قد رمم ثلم اسوارها وأحكم ما بناه جكرمش وأعدّ الميرة والآلات واستظهر على اعيان المدينة فحبسهم واستولى على أموالهم ليفرقها في الجيش . وجعل على الاسوار على ما يقول ابن الاثير عشرين ألف مقاتل من أحداث الموصل وأبطالها . وأسكن امرأته القلعة وجعل على خفرها الفاً وخمسمائة فارس من الاتراك . فصادرت زوجته ما بقي في البلدة وبالغت في الظلم والعسف . وكان الحصار قد تمادى بالاهالي من الخارج والظلم من الداخل مدة خمسة عشر يوماً حتى سئم الاهلون هذه

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٩٨

الاحوال واتفق نفر منهم على تسليم المدينة فأتوا ليلاً وتسلقوا على أحد ابراج السور وقتلوا من وجدوا فيه من الجند . ثم فعلوا كذلك في غيره من الابراج . وتسلمها عساكر مودود وناوشوا القتال أصحاب جاولي حتى هزموهم وضبطوا المدينة سنة ٥٠٢ هجرية فنادى مودود بالصلح مع الاهالي وأعادهم الى دورهم مطمئنين . ثم بث سراياه في طلب جاولي وكان قد هرب الى نصيبين . ولما رأى ان لا مناص له سار الى اصبهان ملتجئاً الى السلطان محمد فدخل عليه وبيده كفنه . وكان بعض الأمراء قد توسطوا فيه فعفا عنه

الفصل الخامس

امارة مودود بن التون تكش

وقسيم الدولة اقسنقر سيف الدين البرسقي على الموصل

تولى مودود الموصل وما يتبعها وانصرف مدة الى تنظيم ما خربته تلك الانقلابات سيما حروب الأمراء السلاجقة . ثم عبى الجيوش وسار الى محاربة الافرنج في الاقطار السورية والشامية . وكان بودوين الاول أو بغدوين على ما يسميه المؤرخون العرب قد خلف أخاه غودفروا دوك برابانت وبوليون على الفتوحات الفلسطينية وكان يغير على بلاد الشام وينهب ويخرب حتى غلت الاسعار فيها وعم الضيق تلك الاصقاع سنة ١١١٢ (٥٠٦ هـ) . وكان طغتكين قد أرسل يستنجد مودود على الصليبيين كما ذكرناه فسار مودود بجمع من عساكره الى ميادين الحرب . ثم في عودته منها أقام في الشام أياماً في اثنائها باغته أحد رجال الباطنية [1] بضربات سكين وقتله سنة ١١١٣ (٥٠٧ هـ) ولما

---

(١) الباطنية ويقال لهم الملاحدة أو الاسماعيلية هم من بقايا القرامطة الخوارج وأصحاب حسن بن صباح ويسمون عند الأوروبيين (*Les Assassins*) أي القتلة ثم قويت شوكتهم بعد موت السلطان ملكشاه وتغلبوا على عدة حصون خصوصاً حصن الالموت قريباً من مدينة قزوين . وبث حسن اصحابه فى الجهات فأتى قوم منهم سوريا وتحصنوا في الجبال المجاورة لطرسوس وعليهم أمير اسمه أبو طاهر ويعرف بشيخ الجبل يخضع للامير الكبير الذي في بلاد فارس . ودامت الاسماعيلية سنة ١٠٩٠ ــ ١٢٥٥ (٤٨٣ ــ ٦٥٣)

بلغ خبر قتله الى السلطان محمد ولى مكانه على بلاد الموصل سيف الدين اقسنقر البرسقي أحد الأمراء السلاجقة

فقدم البرسقي الى جزيرة ابن عمر . وبعد ان تسلمها من نائب مودود قصد ماردين وأخضع أهليها ثم سار الى الحروب الصليبية بصحبة مسعود ابن السلطان وبعد مدة يسيرة عاد الى الموصل لكنه لم يلبث زمناً طويلاً على ولايتها فان السلطان نقله الى الرحبة سنة ١١١٥ (٥٠٩ هـ) وسلم الموصل واعمالها الى جيوش بك وبعث معه ابنه مسعود وبقيت في يده الى أن توفي السلطان محمد سنة ١١١٧ (٥١١ هـ) وخلفه في السلطنة ابنه السلطان محمود فابقى الموصل لاخيه مسعود وزاد عليها اذربيجان وأقر معه جيوش بك [1] وكان هذا تركياً من مماليك السلطان محمد ، وانتشر الاكراد اثناء ولايته وأفسدوا في الجهات حتى انتفى الامن فحمل عليهم بعساكره وحصر قلاعهم وفتح كثيراً منها ببلد الهكارية والزوزان والبشنوية وفرّق الاكراد في الجبال والشعاب والمضايق . ومن ثم أمنت الطرق واطمأن الناس وبقي الاكراد لا يقدمون على حمل السلاح لهيبته وما زال أمره في الموصل ناجحاً حتى كانت سنة ١١٢٠ (٥١٤ هـ) فعزله السلطان محمود وأمر بقتله لانه كان يحث مسعوداً على أخيه السلطان محمود ويوغر قلبه عليه . وعلى ذلك انتشبت الحرب بين الاخوين فتداخل اقسنقر البرسقي يمهد الصلح بينهما . ولما تقرر أنفذ السلطان محمود فقتل جيوش بك جزاء خيانته وقلد البرسقي الموصل واعمالها كالجزيرة وسنجار ونصيبين وغيرها [2] مكافأة لخدمه وحسن أثره ، فقدم البرسقي الى الموصل سنة ١١٢١ (٥١٥ هـ) وتولى أمرها وكان البرسقي متصفاً بالعدل كثير الخيرات يحب أهل العلم ويجلهم فتحسنت بوقته أحوال البلاد وأقام على ذلك الى سنة ١١٢٦ (٥٢٠ هـ) وفي ثامن ذي الحجة منها

(١) ابن خلدون ج ٥ ص ٤٦
(٢) المقدسي ج ١ ص ٢٩

هجم عليه ثلاثة من الباطنية ـ وهو يصلي في الجامع العتيق في الموصل ـ فقتلوه [١] لانه كان يحاول استئصال شافتهم وكان قد حاصر زعيمهم كيقباذ الديلمي في تكريت وقتل منهم خلقاً كثيراً . يورد أبو الفرج : ان صاحب انطاكية أرسل الى ابنه عز الدين مسعود يخبره بقتل والده قبل ان يصل اليه الخبر [٢] ، وعجيب ان الاعداء من الفرنج الصليبية يقفون على خبر قتل البرسقي قبل ابنه مع ما هم عليه من انقطاع العلاقات . وقد أعطى أبو الفرج سبب ذلك فقال : كان الفرنج يتشوقون الى الوقوف على اخبار المسلمين، ولهذا فكانوا يبثون العيون في ظهرانى الجيوش الاسلامية ليكتشفوا على مخبئات أحوالهم

وكان ابنه عز الدين مسعود آنئذ في حلب يحارب الصليبيين في عهد بودوين الثاني . فأنفذ اليه أصحاب أبيه يخبرونه بقتله ويستقدمونه اليهم ليتولى أعمال أبيه وهي الموصل وديار الجزيرة وحلب وحماة وجزيرة ابن عمر وغيرها [٣] فقدم عز الدين الى الموصل سنة ١١٢٧ (٥٢١ هـ) أول ذي الحجة وأحسن الى أصحاب أبيه وأقرّ الوزير المؤيد أبا غالب على وزارته فأحبه الامراء والاجناد ومحضوا له الطاعة ثم سار الى السلطان محمود فأحسن السلطان استقباله وأعاده مكرماً الى بلاد أبيه . فبذل عز الدين قصاراه في تنظيم الجند وتنسيق شؤون الادارة . وكان بطلاً شجاعاً تطمح نفسه الى الاستيلاء على بلاد الشام. فسار بجنده الى الرحبة وحاصرها حصاراً شديداً حتى أجبر أهاليها على التسليم وفي اليوم عينه اعتراه مرض عضال قضى على حياته . وبعد موته انتقض أمر الجند فتبددوا بعد ان نهبوا ما تيسر لهم وعند ما اتصل خبر موته بأصحابه الذين في الموصل ولوا مكانه على امارتها أخاً صغيراً له يتولى أمره

(١) المقدسي ح ١ ص ٢٩
(٢) أبو الفرج ص ٣٥٢
(٣) المقدسي ج ١ ص ٣٠

مملوك يدعى جاولي . فنادى جاولي بالصغير أميراً على البلاد لكن مسعاه لم ينجح اذ أن الامارة انتقلت منه الى بني اتابك كما سنبينه في الفصل الآتي . فانه لما بلغت وفاة عز الدين الى السلطان محمود أصدر مرسومه بتسليم الموصل الى دبيس بن صدقة الاسدي صاحب الحلة فتجهز دبيس للمسير الى الموصل غير ان الخليفة المسترشد أنكر ذلك ومنعه عن المسير اليها . وقال لا سبيل الى هذا . وآخر ما وقع اختيار المسترشد عليه تولية عماد الدين زنكي على الموصل (١)

الفصل السادس

حالة الموصل بالاجمال في عهد الامارات السلجوقية

ان الموصل لم تتقدم عمراناً وحضارة في دولة بني عقيل بل تقهقرت عما كانت عليه في زمن الحمدانيين وكان سبب هذا التقهقر اضطراب حياة هذه الدولة التي دامت نحو مائة سنة أي من سنة ٣٨٧ الى سنة ٤٨٩ هجرية (٩٩٧-١٠٩٥ م) فقد انقضى معظم زمانها في منازعة رجال هذه الدولة بعضهم بعضاً لا سيما الانقلابات والتطورات المتوالية التي حدثت فيها كدخول الغز وما أحدثوه فيها من القتل والنهب والتخريب وعصيان البساسيري وقريش وغاراتهم على الموصل المرة بعد الأخرى كما مرّ بنا الكلام . ولما تقلد الامارة شرف الدولة العقيلي بذل قصاراه في تشييد ما خرب منها غير ان مطامع السلجوقيين لم تسمح له بذلك

وزاد في الطين بلة تملك السلجوقيين عليها . فانهم زادوا على خرابها حتى تأخرت الموصل بايامهم تأخراً عظيماً اذ كانت أيام امارتهم فيها ملوثة بالدماء ومشوهة بالاضطرابات الداخلية ومحاطة بسلسلة حروب غير منقطعة وكانت الويلات نصيب الموصل من هذه الاضطرابات والحروب فخربت البلاد ونهبت

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٤١

القرى وأصبح قسم من عمران الموصل خراباً لا يسكنه أحد [١] ومات من الاهالي خلق كثير جوعاً وقتلاً [٢]

ان الامارات السلجوقية دامت في الموصل مدة اثنتين وثلاثين سنة أي من سنة ٤٨٩ الى سنة ٥٢١ (١٠٩٥–١١٢٧) وفي هذه المدة لم تهدأ الحروب بين الامراء السلاجقة الطامعين في الموصل فقد انتشبت حرب طاحنة بين كربوقا أول الامراء السلاجقة في الموصل وبين علي آخر امراء بني عقيل سنة ١٠٩٥ ميلادية وعقبها اضطرابات من جراء منازعة موسى التركماني وسقمان بن أرتق وجكرمش ثم الحرب التي جرت عند ابواب المدينة بين السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي وبين جكرمش أمير الموصل سنة ١١٠٣ وعقبها حصار جاولي للموصل في امارة جكرمش سنة ١١٠٦ ثم الحرب التي دارت رحاها بين جكرمش وجاولي ثم بين جاولي ومودود قائد جيش السلطان محمد سنة ١١٠٧ وقد مر ذكرها .

كان الامير كربوقا الذي خلف الامارات العربية في الموصل يخضع للسلطان السلجوقي كما كان يخضع عمال العباسيين في أوائل دولتهم ولأجل ذلك رأينا ان السلطان بركيارق نقله من امارة الموصل الى قيادة الجيش فانفذه لمحاربة أخيه السلطان محمد وتوفي عند خوي في آذربيجان [٣] ثم لما انتشبت الحروب بين السلاطين السلاجقة وصار الواحد يناصب صاحبه على اطراف الدولة العباسية وانتهز عمالهم فرصة انشغالهم في تلك الحروب فاستقلوا في البلاد وهذا كان السبب في اثارة الحروب بين الامراء السلاجقة الطامعين في الموصل . فقد استمرت الحروب قائمة على ساق وقدم مدة أربع سنوات (٤٩٣–٤٩٧ هـ) بين السلطان بركيارق وبين أخيه السلطان محمد . وكان العمال يؤثرون هذا الحال ويختارونه ليدوم تحكمهم ويخلو لهم جو البلاد [٤]

(١) طالع ابن الاثير ج ١٠ ص ١٣٨ و ج ١١ ص ٤٥
(٢) ابن العبري س ص ٢٣٨
(٣) أبو الفدا ج ٢ ص ٢٢٦
(٤) ابن الاثير ج ١٠ ص ١٣٨

وبعد انتهاء هذه الحروب أقطعت الموصل للسلطان محمد بن ملكشاه وبعده لابنه مسعود وعليها عامل يجمع الضريبة وكان مقدار هذه الضريبة في زمانهم ان يدفع الاهالي عن كل يوم مائة دينار ذهباً عدا ما كان يؤخذ من الغلات[1]

اما روح العلم التي كانت حية في دولة الحمدانيين وقبلهم فقد أصبحت في زمن دولة بني عقيل خامدة . ثم قضى عليها في زمن السلاجقة وذلك لاختلال الاحوال واضطراب الراحة والأمن وانصراف أولياء الأمور عن العلوم الى الحروب فلم يقم من الموصل من النوابغ المبرزين في عهدهم الا القليلون منهم أبو اسماعيل مؤيد الدين بن علي المنشي الاصبهاني المعروف بالطغرائي صاحب لامية العجم الشهير وهي من فرائد الشعر وله ديوان معروف باسمه وكان عالما متفنناً متضلعاً في سائر العلوم لاسيما في علم الكيمياء[2] وأشغل مدة غير يسيرة مركز الوزارة في الموصل في عهد السلطان مسعود بن محمد السلجوقي

الفصل السابع

في الدولة الاتابكية

سميت هذه الدولة بالاتابكية نسبة الى جد ملوكها وهو الاتابك قسيم الدولة أبو سعيد اقسنقر بن عبد الله . والاتابك لقب كان يلقب به الامير الذي يتولى تربية السلاطين . وكان قسيم الدولة قد أحرز المناصب الرفيعة في الدولة السلجوقية لاسيما سنة ١٠٨٥ (٤٧٨) وفيها تغلب تاج الدولة تتش بن الب ارسلان على حلب وما يليها وولى عليها قسيم الدولة فاشتهر قسيم الدولة بشجاعته ودربته في الحروب وسار الى حرب الفرنج وضبط حمص واستولى على الشام . ثم لما رأى كثرة اتباعه وانتظام جنده جاهر بالعصيان على السلطان تتش واستبد بالبلاد والأموال فوافاه تتش بعساكره وانتشبت الحرب بينهما بجوار

---

(١) ابن العبري س ص ٢٨٦

(٢) ابن خلدون ج ٥ ص ٥٠

حلب سنة ١٠٩٤ (٤٨٧ هـ) وبعد قتال عنيف انكسر الاتابك اقسنقر ووقع أسيراً فقتله تتش وأمر ان يدفن خارج حلب . ثم لما ملك ابنه الاتابكي عماد الدين زنكي نقل بقايا أبيه فدفنها بجوار المدرسة الزجاجية في حلب وأوقف على تربته بعض الاوقاف (١)

نشأت الدولة الاتابكية على عهد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي . وكان أول ملوكها عماد الدين زنكي وحيد الاتابك قسيم الدولة اقسنقر وبدأت ملوكيته سنة ١١٢٧ (٥٢١ هـ) كامارة مستقلة على بلاد الموصل وديار بكر وما يجاورها من كردستان (٢) . ثم بعد وفاة عماد الدين انقسمت هذه الامارة الى قسمين . ثم انضمت واحدة في عهد عز الدين مسعود رابع الملوك الاتابكيين فى الموصل فانه بعد وفاة ابن عمه الملك الصالح سار الى حلب واستولى عليها وانقرضت الدولة الاتابكية على أثر موت ناصر الدين محمود بن الملك القاهر آخر ملوكها سنة ١٢٣٣ (٦٣١ هـ) ثم انتقلت السلطنة الى السلطان بدر الدين لؤلؤ . وقام في الدولة الاتابكية تسعة ملوك نذكر أخبارهم تباعاً

ترك قسيم الدولة ولداً واحداً وهو عماد الدين زنكي وكان لما قتل أبوه صبياً صغيراً فأخذه كربوقا أمير الموصل وصرف عنايته في تربيته لسابق صداقة بينه وبين أبيه . ولما مات كربوقا مكث عماد الدين في الموصل حتى شبت نيران الحروب الصليبية دفعة أخرى فسار اليها برجاله وأبرز في ساحة الحرب شجاعةً ودهاءً فذاعت شهرته بين الامراء وبعد ذلك عاد الى الموصل واقام فيها حتى تولى البرسقي أمرها . ثم تولاها ابنه عز الدين . وقد أسلفنا ذكره وما كان من موته وقيام أخيه الصغير مع جاولي المملوك بامارة الموصل. فارسل جاولى القاضي أبا الحسن بهاء الدين بن القاسم الشهر زوري وصلاح الدين الباغيساني

(١) ابن خلكان جزء ١ ص ٩٨
(٢) سامي

الى السلطان محمود ليطلبا تقرير البلاد عليه . وكان الرسولان لايرضيان بجاولي أميراً عليهم فلما وصلا بغداد وحضرا امام السلطان طلبا عماد الدين زنكي وكان آنئذ في بغداد ، فحبذ السلطان طلبهما اذ كان قد بلغه عن عماد الدين وشجاعته . ومن ثم أصدر أمره بتوليته على البلاد[1] وسلم اليه أيضاً ولديه الب ارسلان وفروخ شاه المعروف بالخفاجي ليربيهما فسمي الاتابك[2] فسار عماد الدين سنة ١١٢٧ (٥٢١ هـ) الى البوازيج ثم الى الموصل ولما بلغ خبر توليته وقدومه الى جاولي بادر الى لقائه واحتفى به وبالغ في اكرامه واستقباله حتى مال اليه عماد الدين فاقطعه الرحبة واعمالها ثم اقام بالموصل يصلح أمورها ويقرر قواعدها على أحسن نظام وأحكم قاعدة . فولى نصير الدين دزدارية قلعة الموصل وفوّض اليه أمر الولاية جميعها وجعل الدزدارية في البلاد وجعل محمد الباغيساني أمير حاجب الدولة وبهاء الدين قاضي قضاة بلاده جميعها وما يفتحه من البلاد[3] وبعد ما فرغ عماد الدين من اصلاح الخلل وترتيب الشؤون شرع في أخذ البلاد فافتتح جزيرة ابن عمر وأربل سنة ١١٢٨ (٥٢٢هـ) وكانت بيد مماليك البرسقي وسار الى سنجار والخابور ونصيبين فملكها جميعاً وضبط أيضاً حلب وحماة . ثم عاد الى الموصل وبعد ما اراح عسكره اياماً تجهز سنة ١١٢٩ (٥٢٤ هـ) الى الغزو فعاد الى الشام وقصد حلب واعتزم على قصد حصن الاثارب[4] وكان الفرنج الذين فيه يضيقون على حلب فقصدهم عماد الدين بعساكره وحاربهم وهزمهم وأسر كثيراً من زعمائهم وملك حصن الاثارب عنوة فخرّبه ثم سار الى قلعة حارم[5] وكانت بيد الفرنج فحاصرها حتى

(١) المقدسي ج ١ ص ٣٠
(٢) ابن خلكان جزء ١ ص ٢٤١
(٣) ابن الاثير جزء ١٠ ص ٢٤٥
(٤) قال أبو الفدا : ومن الاماكن المشهورة بالشام الاثارب بالهمزة المفتوحة والثاء المثلثة والف وراء مهملة وباء موحدة
(٥) قال أبو الفدا : حارم من اعمال حلب وهي بلدة صغيرة ذات قلعة واشجار واعين ونهر صغير . وقال أبو سعيد : هو حصن كثير الارزاق وقد خص بالرمان الذي يظهر باطنه من ظاهره مع عدم العجم وكثرة المياه

صالحوهُ على نصف خراجها فرجع عنها وقد ملأ قلوب الافرنج رعباً منه (١)

الفصل الثامن

قدوم المسترشد بالله الى الموصل وحصارها ورجوعه عنها

ثم اتساع بلاد عماد الدين زنكي

توفي الخليفة المستظهر بالله سنة ١١١٨ (٥١٢ هـ). وجلس بعده على عرش الخلافة ابنه المسترشد بالله. وكان المسترشد بالله شجاعاً هماماً تمكن في خلافته تمكناً عظيما لم يره أحد من أسلافه من عهد المنتصر بالله الى خلافته ما عدا المعتضد والمكتفي فان الحكم كان للمتغلبين من الملوك وليس للخليفة معهم الا اسم الخلافة (٢) وكان المماليك يخلعون الخلفاء ويحكمون عليهم وما زالوا على ذلك حتى ملك الديلم واستولوا على العراق قاطبة فزالت هيبة الخلافة تماماً ثم لما انقرض وملك السلجوقيون جددوا من هيبة الخلافة لاسيا في وزارة نظام الملك الا أن الحكم والشحن والعهد وضمان البلاد في العراق كان للسلطان ولم يكن للخلفاء الا قطائع يأخذون دخلها. أما المسترشد فانه استبد بالعراق ولم يبق للسلطان محمود معه غالباً سوى الخطبة فجمع العساكر الكثيرة وقاد الجيوش وباشر الحروب (٣) وزاده تمكناً موت السلطان محمود سنة ١١٣٠ (٥٢٥ هـ) ونزاع افراد العائلة السلجوقية على السلطنة حتى آل الأمر بهم الى سفك الدماء ودارت حرب طاحنة بين مسعود أخي السلطان محمود وبين عمه سنجر وكان الخليفة المسترشد بالله قد اتفق مع مسعود وسار بجيشه لمحاربة سنجر فكتب سنجر الى عماد الدين زنكي وكان من الموالين له يأمره بالمسير الى بغداد والاستيلاء عليها ليشغل الخليفة عن نجدة السلطان مسعود. فلما

(١) ابن خلدون ج ٥ ص ٢٢٦
(٢) ك: قرماني ج ٢ ص ١١٨
(٣) المقدسي ج ١ ص ٣١

علم الخليفة بذلك رجع مسرعاً الى بغـداد والتقى بعماد الدين قريباً من حصن البرامكة والتحمت الحرب بينهما (١) فلم يستطع عماد الدين الثبوت ازاء هجمات جند الخليفة وأجبر على الانسحاب بعساكره الى الموصل ومن ثم بات الخليفة يتحين فرصة الانتقام من زنكي . وكان السلاطين السلجوقيون آنئذ منشغلين بمحاربة بعضهم بعضاً ، وكان كثـيرون من قوادهم وأمرائهم قد قصدوا باب الخليفة (٢) فتقوى بهم وساروا الى الموصل في ثلاثين ألف مقاتل سنة ١١٣٢ (٥٢٧ هـ) . ولما اقترب منها غادرها عماد الدين في بعض عسكره الى سنجار وجعل فيها نائبه نصر الدين جقري الدزدار وأمره بالدفاع عنها فشـدد الخليفة عليها الحصار وكان عماد الدين يركب يومياً بجنده ليقطع الميرة عن جند الخليفة حتى مسهم الجوع وضاق بهم الحال ودام الحصار مدة ثلاثة أشهر في اثنائها اجتمع على عماد الدين خلق كثير حتى توفرت له الجند والعدة فعزم على المسير الى بغداد بينما كان الخليفة منشغلاً عنها فيستولى عليها وبعد أن يحصنها يحمل على الخليفة ويجعله بينه وبين جند الموصل . فلما أحس الخليفة بذلك خاف سوء العاقبة فرفع الحصار وعاد الى بغداد أما الاتابك زنكي فانه سار الى جميع قلاع الأكراد الحميدية وامنعها قلعة القصر وقلعة شوش وكانت قلعة عظيمة عالية جداً مجاورة لقصر الحميدية . وكان سبب مسيره اليها أن الأمير عيسى الحميدي كان قد اتفق مع الخليفة وأمده بالرجال والأرزاق في حصاره الموصـل . فحمل زنكي على القلاع حملة شـديدة وافتتحها سنة ١١٣٣ (٥٢٨ هـ) وأجلى عنها أكرادها ، فهلعت من بأسه قلوب الاكراد ، وخضع له الجبل بأسره . وكان زنكي قد عظم وخافته السلاطين السـلجوقية أنفسهم حتى ان الراشد بالله الذي تولى الخلافة بعد أبيه المسترشد سـنة ١١٣٤ (٥٢٩ هـ) لما قصده السـلطان مسعود بجيوشه الكثيرة سار الى

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٥٩
(٢) ابن الاثير ج ١١ ص ٢

الموصل محتمياً بزنكي وأقام عنده مدة من الزمان فدخل السلطان مسعود بغداد واستمال الرعية ونهب دار الخلافة (١) ولم يجسر أن يطالب زنكي بالخليفة خوفاً منه مع رغبته في القبض عليه

وكان زنكي يتوق الى الحروب وقد مضى عليه زمن وهو قاعد عنها فعبى جيشه وسار الى حمص سنة ١١٣٦ (٥٣١ هـ) ليحاصرها ثم عاد عنها ولم ينل منها مأرباً فقصد قلعة بعرين من أمنع الحصون التي بجوار حماة فاستولى عليها وملك أيضاً المعرّة وكفر طاب وحمص وبعلبك (٢) ثم رجع الى الموصل ومنها سار الى شهرزور سنة ١١٤٠ (٥٣٥ هـ) ليضبطها من قبجاق بن ارسلان تاش التركماني وكانت تخضع له جميع بلاد التركمان ولما بلغه مسير زنكي اليه جمع رجاله وحارب زنكي فظفر به واستباح عسكره، ثم سار الجيش الاتابكي في أعقابهم وحصروا الحصون والقلاع وملكوها، ثم بذل زنكي الأمان لقبجاق فسار اليه وانخرط في سلك جنده (٣)

وفي سنة ١١٤١ (٥٣٦ هـ) دخل صاحب آمد في طاعة عماد الدين وخطب له في بلاده وخضعت له الحديثة أيضاً فنقل من كان بها من آل مهراش الى الموصل

الفصل التاسع

عماد الدين زنكي والسلطان مسعود ومسيره الى بلاد الجزيرة

ان الأكراد انتهزوا الفرصة من غياب زنكي الى الأقطار السورية فعثوا فساداً وتمادوا في الظلم والعسف وصاروا يشنون الغارات على النواحي المجاورة وينهبون ويقتلون. ولما عاد زنكي مظفراً قصدهم برجاله فضعضع قوتهم

(١) ك قرماني ج ٢ ص ١١٤
(٢) ابن الاثير ج ١١ ص ٢٣ و٢٨
(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ٣١

وفرق جمعهم وقتل منهم خلقاً كثيراً ثم استأسر زعماء الأكراد المهرانية والهكارية واذ ذاك استقام له أمر الجبل وأمر زنكي ببناء قلعة العمادية وكانت قبلاً قلعة حصينة عظيمة تدعى أشب هدمها الأكراد لعجزهم عن حفظها فلما ملك زنكي الجبل سنة ١١٤٣ (٥٣٨ هـ) ابتناها ودعاها باسمه ثم عاد الى الموصل. وكان السلاطين السلاجقة قد تقرر الصلح بينهم فرجع السلطان مسعود الى بغداد ـ وكان حاقداً على زنكي لاتفاقه مع عمه سنجر كما مر عنه الكلام ـ فانتهز خلو باله من الاضطرابات الداخلية والخارجية وأقبل بعسكره الى الموصل ليطرد زنكي عن البلاد فلم يفلح وعاد عنه خائباً وقال ابن خلدون (١) ان الاتابك استعطف السلطان واستماله على أن يدفع اليه مائة الف دينار (٥٠٠٠٠ جنيه مصرية) ويعود عنه فشرع في ذلك وحمل منها عشرين ألفاً وكان من أعظم الأسباب في تأخر السلطان عن الموصل هو خوفه على بلاده من الافرنج فقد أكد له أكابر جيشه انه لا يقدر أحد علي دفع الأفرنج عن البلاد غير اتابك زنكي فقد وليها قبله مثل جاولي سقاوو ومودود وجيوش بك والبرسقي وغيرهم من أكابر القواد ـ وكان السلاطين يمدونهم بالعساكر الكثيرة ـ ولم يقدروا على حفظها حتى وليها اتابك واذ لم يمده أحد من السلاطين بالجند والمال فقد افتتح من بلاد العدو عدة حصون ومدن (٢) وبعد هذا سار الاتابك زنكي الى ديار بكر وملك أعمالها : آمد. وطرّه . وأسعرد. وحرّان . وحصن الرزق . وحصن ياسنه . وحصن ذي القرنين . واستولى أيضاً على بعض أعمال ماردين (٣) ثم عزم على فتح الرها فسار اليها بجيوشه وضبطها عنوة سنة ١١٤٤ (٥٣٩ هـ) في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة (٤) من الأمير يوسلين أو جوسلين وكان صاحب امارة الفتوحات الصليبية في بلاد

---

(١) ج ٥ ص ٢٣٥
(٢) المقدسي ج ١ ص ٣٦
(٣) ابن خلدون ج ٥ ص ٢٣٥
(٤) ابن خلكان ج ١ ص ٢٤١

الجزيرة ومملكته تمتد من قريب ماردين الى الفرات مثل الرها وسروج والبيرة وحلين وغيرها من البلاد . ولما دخل زنكي مدينة الرها أعجبته جداً ورأى تخريب مثلها لا يجوز وكان الجند قد تفرقوا فيها ينهبون ويقتلون فأمر أن ينادى في العسكر برد ما أخذوه من الرجال والنساء والأطفال الى بيوتهم واعادة ما غنموه من أثاث وأمتعة فرد الجميع ولم يفقد منه الا النزر القليل وعادت المدينة الى حالتها الأولى [١] ثم جعل عليها جنداً لحراستها وسار الى سروج فتسلمها . وبينما كان منشغلاً في فتح البلاد بلغه خبر قتل نائبه نصر الدين جقري فعزم من ثمَّ على الرجوع الى الموصل وفتح جميع الحصون التي على طريقه ليأمن على دولته من غوائل العصاة ؛ فأقام على حصار حصن جعبر على الفرات ، وأرسل جيشاً على قلعة فنك بجوار جزيرة ابن عمر وعليها حسام الدين الكردي البشنوي . ولما طال الحصار على حصن جعبر أرسل زنكي الأمير حسان المنبجي الى سالم بن مالك العقيلي صاحب الحصن ليحثه على تسليم الحصن وقال له اذا اصررت من الذي يمنعك منه . فأجابه سالم : يمنعني منه ذاك الذي منعك من الأمير بلك . وكان أمر حسان مع بلك أن حساناً كان صاحب منبج فحاصره بلك وأرسل يتهدده بالكلام عينه وبينما كان يضيق عليه بالحصار جاءه ذات يوم سهم فغرب في فؤاده وقتله . فعاد حسان بالجواب وأخبر زنكي بامتناع سالم عن تسليم الحصن. أما زنكي فأصر على الحصار . وفي احدى الليالي بينما كان نائماً في خيمته هجم عليه جماعة من غلمانه وقتلوه غيلة ودفن في الرقة [٢] فتفرقت كلمة جنوده ورفعوا الحصار عن حصن جعبر وعادوا الى الموصل سنة ١١٤٦ (٥٤١ هـ) في الخامس عشر من ربيع الأول

ان عماد الدين اشتهر بحكمته وتحوطه للامور من ذلك انه لم يكن يمكن

(١) ابن الاثير ج ١١ ص ٤٠
(٢) نخبة ص ٢٧

احداً من خدمه أو اعوانه ان يفارق بلاده معتبراً ان البلاد كبستان عليه سياج يهاب دخولها فاذا اخرج منها من يدل على عورتها ويطمع العدو فيها زالت هيبتها وتطرق الخصوم لها . ولما اجتمعت له الاموال الكثيرة اودع بعضها بالموصل و بعضها بسنجار وبعضها بحلب حتى اذا جرى خرق على هذه الجهات او حيل بينه وبينها استعان على سدّ الخرق بالمال . أما شجاعته فاليه النهاية فيها وحسبنا في ذلك ان ولايته احدق بها الاعداء والمنازعون كالخليفة المسترشد ، والسلطان مسعود ، واصحاب ارمينيا ، وركن الدولة صاحب حصن كيفا وابن عمه ثم الافرنج ثم صاحب دمشق ، فكان ينتصف منهم ويغزوهم في عقر ديارهم ويضبط بلادهم . ولم يتصد ابداً لحرب السلطان مسعود لكنه كان يحمل اصحاب الاطراف عليه واذا فعلوا عاد السلطان محتاجاً اليه وطلب منه ان يجمعهم على طاعته فيصير كالحاكم النافذ الكلمة فيهم

وكان كثير الخيرات والصدقات للفقراء شديد الهيبة على اصحابه وقد روى صاحب الروضتين ان الاتابك زنكي خرج يوماً من الباب حيث كان احد الملاحين نائماً فأيقظه احد الجند ولما استيقظ من نومه ورأى الاتابك واقفاً سقط على الارض ميتاً . وكان يوصي بالغرباء فحين يدخل غريب بلدته ان كان جندياً اشتمل عليه الاجناد واضافوه وان كان صاحب ديوان قصد أهل الديوان وان كان عالماً قصد القضاة بني الشهرزوري فيحسنون اليه ويؤنسون غربته . وكان لا يؤمر الا الرجال ذوي الهمم العالية والآراء الصائبة والأنفس الأبية ويوسع لهم في الأرزاق فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف (١) . وكان زنكي بحسن سيرته موضوعاً لمديح الشعراء ومن أحسن ما قيل فيه قصيدة لأحمد بن منير :

في ذرا ملك هو الد هرُ عطاءً واستلابا

من له كف تبذ الـ غيث سحاً وانسكابا

(١) المقدسي ج ١ ص ٤٣

فاتح في وجه كل امة للنصر بابا
ترجف الدنيا اذا حرك للسير الركابا
وتحز المشمخرات اختلالا واضطرابا
وترى الاعداء من هيبته تأوى الشعابا
يا عماد الدين لا زلت على الدين سحابا

الفصل العاشر

انقسام بلاد عماد الدين بين ولديه

نور الدين محمود ، وسيف الدين غازي

مات عماد الدين زنكي وخلف لولديه نور الدين محمود وسيف الدين غازي الموصل وما يتبعها والديار الجزرية والشامية ما خلا دمشق (١) فاخذ نور الدين وكان مع أبيه في غزوته الاخيرة خاتم أبيه وسار بجند حلب فملك غربي الجزيرة وهي الرها وحران وسروج وملك أيضاً حلب وما كان يتبعها وحمص وحما . واتفق أصحاب عماد الدين منهم جمال الدين محمد وصلاح الدين الباغسياني على حفظ ما بقي من البلاد لابنه الآخر سيف الدين غازي لان الملك الب ارسلان بن السلطان محمود ـ وكان أيضاً مع عماد الدين في غزواته ـ طمع في البلاد وأظهر طمعه فيها لجمال الدين وصلاح الدين . فوعداه خيراً خوفاً ان يفسد عليهما الامر . ثم أخذا يلهيانه بالطرب واللهو ريثما يتيسر لهما تحليف الامراء لسيف الدين الغازي بن أتابك . وبعد ما حلفاهم وأرسلاهم الى الموصل كتبا الى سيف الدين وكان على شهر زور يطلعانه على الاحوال ويستعجلانه بالقدوم . فجد بالمسير الى الموصل ودخلها . أما الب ارسلان فانه سار مع نفر يسير من الجند ومعه جمال الدين والباغسياني ولما وصلوا الى سنجار طلب الب ارسلان اخراج صاحبها والخطبة له فأجيب الى ذلك على

(١) أبو الفدا ج ٣ ص ١٩]

شرط ان يملك الموصل أولاً . ولما صار قريباً من الموصل أرسل جمال الدين يخبر سيف الدين الغازي بوصوله فأرسل سيف الدين جنداً ألقوا عليه القبض وقادوه اليها مغللاً فسجن في قلعتها وحينئذ استقرت هذه البلاد لسيف الدين الغازي بن زنكي وهي آمد وماردين ودارا في شرقي الجزيرة والموصل وما يتبعها مع سنجار ونصيبين في شماليها وكان اعداء عماد الدين زنكي قد استبشروا بموته وطمعوا في الاستيلاء على بلاده زاعمين ان ولديه لا يستطيعان الذبّ عنهـا . فأخذ البرنس يوسلين وكان أميراً على الرها كما ذكرناه يراسل أهل الرها وعامتهم من الارمن ويحملهم على العصيان وتسليم البلدة اليه فأجابوه الى ذلك وعاهدوه على اللقاء فسار يوسلين بعساكره الى الرها وضبطها وامتنعت القلعة عليه بمن فيهـا من المسلمين . ولما بلغ خبره الى نور الدين زنكي وهو بحلب قصده بعساكره ففارقها يوسلين هارباً الى ولايته تل باشر وحينئذ دخل نور الدين المدينة ونهبها وأسر أهلها حتى اقوت من السكان ولم يبق فيها الا النزر [1]

أما سيف الدين فبعـد ان حلف له السلطان مسعود وأقره على ملكه وذلك لسابق خدمه خضعت له البـلاد وأطاعته ما عدا ما كان بديار بكر . كالمعدن وحيزان وسعرد [2] فسار اليها بجيوشه وأخضعها كلها ثم قصد الشام لملاقاة أخيه نور الدين وتقرير القواعد بينهما فقضى سيف الدين عند أخيه بضعة أيام ثم عاد الى الموصل وكانت البلاد والقبائل تهابه كما كانت في زمن أبيه

ولما قضى سيف الدين غازي في الملك ثلاث سنوات وبضعة أيام اعتراه مرض عضال أعيا أمره نطس الاطباء وتوفي سنة ١١٤٩ (٥٤٤ هـ) في جمادى الثاني وله من العمر أربعون ربيعاً . قال عنه ابن الاثير [3] : كان سيف الدولة الاتابكي شجاعاً عاقلاً كريماً يحب جنوده فكان يطعمهم بكرة مائة رأس غنم

---

(١) ابن الاثير ج ١١ ص ٤٦

(٢) المقدسي ج ١ ص ٤٧

(٣) جزء ١١ ص ٥٦

فاتح في وجه كل امة للنصر بابا
ترجف الدنيا اذا حرك للسير الركابا
وتحز المشمخرات اختلالا واضطرابا
وترى الاعداء من هيبته تأوى الشعابا
يا عماد الدين لا زلت على الدين سحابا

الفصل العاشر

انقسام بلاد عماد الدين بين ولديه

نور الدين محمود ، وسيف الدين غازي

مات عماد الدين زنكي وخلف لولديه نور الدين محمود وسيف الدين غازي الموصل وما يتبعها والديار الجزرية والشامية ما خلا دمشق [1] فاخذ نور الدين وكان مع أبيه في غزوته الاخيرة خاتم أبيه وسار بجند حلب فملك غربي الجزيرة وهي الرها وحران وسروج وملك أيضاً حلب وما كان يتبعها وحمص وحما . واتفق أصحاب عماد الدين منهم جمال الدين محمد وصلاح الدين الباغسياني على حفظ ما بقي من البلاد لابنه الآخر سيف الدين غازي لان الملك الب ارسلان بن السلطان محمود ـ وكان أيضاً مع عماد الدين في غزواته ـ طمع في البلاد وأظهر طمعه فيها لجمال الدين وصلاح الدين . فوعداه خيراً خوفاً ان يفسد عليهما الامر . ثم أخذا يلهيانه بالطرب واللهو ريثما يتيسر لهما تحليف الامراء لسيف الدين الغازي بن أتابك . وبعد ما حلفاهم وأرسلاهم الى الموصل كتبا الى سيف الدين وكان على شهر زور يطلعانه على الاحوال ويستعجلانه بالقدوم . فجد بالمسير الى الموصل ودخلها . أما الب ارسلان فانه سار مع نفر يسير من الجند ومعه جمال الدين والباغسياني ولما وصلوا الى سنجار طلب الب ارسلان اخراج صاحبها والخطبة له فأجيب الى ذلك على

(١) أبو الفدا ج ٣ ص ١٩]

شرط ان يملك الموصل أولاً . ولما صار قريباً من الموصل أرسل جمال الدين يخبر سيف الدين الغازي بوصوله فأرسل سيف الدين جنداً ألقوا عليه القبض. وقادوه اليها مغللاً فسجن في قلعتها وحينئذ استقرت هذه البلاد لسيف الدين الغازي بن زنكي وهي آمد وماردين ودارا في شرقي الجزيرة والموصل وما يتبعها مع سنجار ونصيبين في شماليها وكان اعداء عماد الدين زنكي قد استبشروا بموته وطمعوا في الاستيلاء على بلاده زاعمين ان ولديه لا يستطيعان الذبّ عنهما . فأخذ البرنس يوسلين وكان أميراً على الرها كما ذكرناه يراسل أهل الرها وعامتهم من الارمن ويحملهم على العصيان وتسليم البلدة اليه فأجابوه الى ذلك وعاهدوه على اللقاء فسار يوسلين بعساكره الى الرها وضبطها وامتنعت القلعة عليه بمن فيها من المسلمين . ولما بلغ خبره الى نور الدين زنكي وهو بحلب قصده بعساكره ففارقها يوسلين هارباً الى ولايته تل باشر وحينئذ دخل نور الدين المدينة ونهبها وأسر أهلها حتى اقوت من السكان ولم يبق فيها الا النزر [1]

أما سيف الدين فبعد ان حلف له السلطان مسعود وأقره على ملكه وذلك لسابق خدمه خضعت له البلاد وأطاعته ما عدا ما كان بديار بكر . كالمعدن وحيزان وسعرد [2] فسار اليها بجيوشه وأخضعها كلها ثم قصد الشام لملاقاة أخيه نور الدين وتقرير القواعد بينهما فقضى سيف الدين عند أخيه بضعة أيام ثم عاد الى الموصل وكانت البلاد والقبائل تهابه كما كانت في زمن أبيه

ولما قضى سيف الدين غازي في الملك ثلاث سنوات وبضعة أيام اعتراه مرض عضال أعيا أمره نطس الاطباء وتوفي سنة ١١٤٩ (٥٤٤ هـ) في جمادى الثاني وله من العمر أربعون ربيعاً . قال عنه ابن الاثير [3] : كان سيف الدولة الاتابكي شجاعاً عاقلاً كريماً يحب جنوده فكان يطعمهم بكرة مائة رأس غنم

(١) ابن الاثير ج ١١ ص ٤٦
(٢) المقدسي ج ١ ص ٤٧
(٣) جزء ١١ ص ٥٦

جيدة وكذا عشية وهو أول من حمل على رأسه العلم وأمر بتعليق السيوف بالمناطق وترك التوشح بها وحمل الرمح في حلقة السرج وبنى المدارس للفقهاء والربط للفقراء وأوقف لها الاوقاف الكثيرة. وذكر ابن خلكان عنه وعن شديد رغبته في العلم واكرامه العلماء وعن مدرسته الشهيرة في الموصل المعروفة بالعتيقة(١) وكانت الشعراء تقف على بابه فيبذل لهم الاموال الكثيرة وقد قصده الشاعر البغدادي شهاب الدين حيص بيص بقصيدة فاجازه عنها ألف دينار أميري ما عدا الاقامة والخلع الوفيرة وأول تلك القصيدة :

الى مَ يراك المجد في زي شاعر ... وقد نحلت شوقا اليك المنابر (٢)
اتابك ان سميت في المهد غازياً ... فسابقة معدودة في البشائر
وفيت بها والدين قد مال روقه ... وصدقتها والكفر بادي الشعائر

وخلف سيف الدين ابناً واحداً أخذه عمهُ نور الدين وسعى بتربيته لكنه مات في ربيع الشباب وانقرض به عقب سيف الدين

الفصل الحادى عشر

ملك قطب الدين مودود

بعد وفاة سيف الدين اتفق جمال الدين محمد الوزير الاصبهاني المعروف بالجواد وزين الدين علي أمير الجيش وصاحب الرأي على تمليك أخيه قطب الدين مودود فاحضروه واستحلفوه وحلفوا له ثم أركبوه الى دار السلطنة فاحسن الادارة وخضعت له جميع بلاد أخيه سيف الدين فلما ملك قطب الدين أخذ جماعة من أمراء الموصل يراسلون أخاه الأكبر نور الدين ويطمعونه في تسليم الملك له وكان فيمن كاتبه عبد الملك مستحفظ سنجار يستدعيه ليسلمه المدينة فسير نور الدين جريدة في سبعين فارساً من امراء دولته الى سنجار

(١) ج ١ ص ٥٠٧
(٢) ابن خلدون جزء ٥ ص ٢٣٩

واستلمها من عبد الملك . وبلغ ذلك قطب الدين فجمع عسكره وسار من الموصل ونزل مخيماً بتليعفر فترددت الرسل بين الفريقين وحال جمال الدين بينهما منعاً لحدوث الشر وقال للامراء ليس من الرأي ان نقاتله فهو ابن أتابك ونحن عظمنا محله عند السلطان وهو يظهر قوتنا للفرنج بشجاعته واقدامه فان قاتلناه وهزمناه طمع فينا السلطان وطمع به الفرنج فيكون الوبال علينا وما زال يلحّ بالصلح حتى رضي به الفريقان على ان تبقى ديار الشام لنور الدين وديار الجزيرة لأخيه قطب الدين . وبعد ان استقر الصلح عاد نور الدين الى حلب وسار الى حرب الفرنج سنة ١١٥١ (٥٤٦ هـ) فضبط دمشق مع كثير من مدنهم وحصونهم وأسر البرنس يوسلين [١]

وعاد قطب الدين الى بلاده وساسها أحسن سياسة فتوفرت له الاموال والرجال وهابته النظراء وخشيت بأسه وبلغ من السؤدد مبلغاً عظيما حتى انه أمسك أحد السلاطين السلجوقيين وسجنه في قلعة الموصل وذلك انه لما توفي السلطان مسعود بهمذان سنة ١١٥٢ (٥٤٧ هـ) عهد بالسلطنة لملكشاه ابن السلطان محمود . ثم قتل ملكشاه فتولاها أخوه محمد في خلافة المقتفي لأمر الله الذي تولاها بعد الراشد بالله سنة ١١٣٥ (٥٣٠ هـ) وكان المقتفي بالله من الخلفاء الذين امتازوا بحزمهم وحطوا من قدر الملوك المتغلبة واستلموا أزمة التدبير واحتازوا البلاد عمن سواهم [٢] ولما بلغه خبر موت مسعود واقامة السلطان محمد على بغداد لم يرض فاستظهر على اعوانه من الامراء السلاجقة وطردهم عن بغداد . ثم استولى على دور السلطان وامواله واتفق مع سليمانشاه ولي عهد سنجر شاه ان يكون السلطان في بغداد على شرط ان يكفيه شر السلطان محمد فخطب له فيها سنة ١١٥٦ (٥٥١ هـ) وخلع عليه واعطاه ثلاثة آلاف فارس ليسير بها الى محاربة السلطان محمد في همذان ويكسر شوكته ليتم لهما الأمر

(١) المقدسي ج ١ ص ٧٢
(٢) ك : قرماني ج ٢ ص ١١٨

فسار سليمان شاه الى همذان وشبت بينهما نيران الحرب وانجلت أخيراً عن انكسار سليمان شاه فعاد راجعاً ومر بشهر زور . وكان السلطان محمد قد كتب الى قطب الدين الاتابكي يستنصره على سليمان شاه ويبذل له البذول الكثيرة اذا ظفر . فارسل قطب الدين الى نجدته نائبه زين الدين بجماعة من جند الموصل والتقى زين الدين بسليمان شاه قريباً من شهر زور فاحاط به وأمسكه وقاده الى قلعة الموصل حيث اعتقل واقام سجيناً الى سنة ١١٦٠ (٥٥٥ هـ) وفيها توفي السلطان محمد المذكور آنفاً فارسل أكابر السلجوقية يطلبون من قطب الدين مودود اطلاق سليمان شاه ليولوه السلطنة فاطلق سراحه

ان الدولة الاتابكيــة في عهد قطب الدين قطعت شوطاً مهماً في مضمار التقدم وكان مما ساعد على تقدمها صدق واخلاص رجالها الذين شدوا أزرها ونظموا أمورها كما نظم البرامكة دولة بني العباس ومن أشهر رجال الدولة الاتابكية الوزير جمال الدين الجواد . ومدبرها وصاحب رأيها الأمير زين الدين علي كوجك وكان تركماني الأصـل ملك اربل وبلاداً كثيرة في تلك النواحي ثم سلمها الى قطب الدين مودود الاتابكي . ونقل ابن خلكان عن ابن شداد في سيرة صلاح الدين : كان زين الدين موصوفاً بالقوة المفرطة والشهامة وله في الموصل اوقاف كثيرة مشهورة من مدارس وغيرها [١] وقال ابن الاثير كان زين الدين حاكماً في الدولة الاتابكية وأكثر البلاد في يده منها اربل وبلد الهكارية والعمادية وبلد الحميدية وتكريت وسنجار وحران ثم اصابه طرش سنة ١١٦٧ (٥٦٣ هـ) وفقد بصره فاضطره الحال الى التخلي عن وظيفته وتسليم البلاد الى قطب الدين ولم يترك في يده الا اربل [٢] فسار اليها حيث اقام الى ان توفي وقد تجاوز المائة سنة

ثم سلم قطب الدين قلعة الموصل الى فخر الدين عبد المسيح وجعله حاكماً

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٥٥٠
(٢) ابن الاثير ج ٩١ ص ١٣٢

على البلاد وكان فخر الدين من مماليك زنكي عماد الدين ذا سيرة مثلى وسياسة سديدة

ولما أراد قطب الدين ان يوصي ـ قبل وفاته ـ بالملك لابنه الأكبر عماد الدين زنكي سعى فخر الدين بصرف الملك عن عماد الدين لكثرة تعلقه بعمه نور الدين الى أخيه سيف الدين غازي الثاني فنجح مسعاه وأوصى بالملك لسيف الدين

وتوفي قطب الدين سنة ١١٦٩ (٥٦٥ هـ) وكان من أحسن الملوك سيرةً واعفهم عن اموال الرعية محبوباً الى كبيرهم وصغيرهم قال فيه الشاعر :

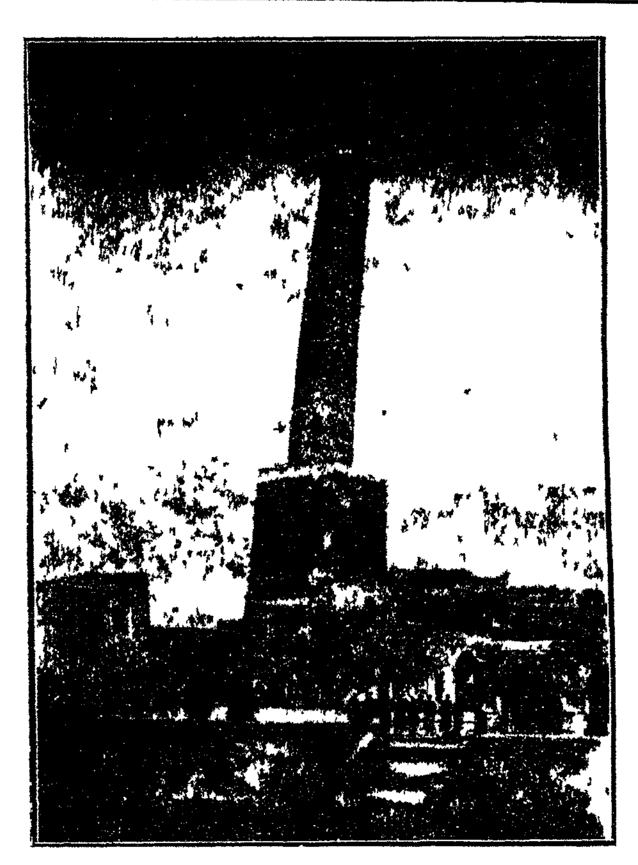
خلق كماء المزن طيب مذاقة والروضة الغناء طيب نسيم
كالسيف لكن فيه حلم واسع عمن جنى والسيف غير حليم
كالغيث الاّ ان وابل جوده أبداً وجود الغيث غير مقيم
كالدهر الا انه ذو رحمة والدهر قاسي القلب غير رحيم

ولما بلغت نور الدين وفاة أخيه قطب الدين مودود وتملك سيف الدين غازي بلاد أبيه ثم بلغه أيضاً تحكيم فخر الدين عبد المسيح وكان نور الدين يبغضه لما كان يبلغه عنه من تشكيات ابن أخيه عماد الدين اقبل الى الموصل وقال انه أولى بتدبير اولاد أخيه وافتتح في طريقه البلاد فسلم سنجار الى عماد الدين . ثم وردت اليه الرسل من امراء الموصل يستحثونه على القدوم اليهم ليسلموه المدينة

ولما وصلها دخلها من دون مقاومة ، فنظم أمورها من تخفيف المكوس ، واقامة بعض الابنية ، أشهرها الجامع الشهير المعروف باسمه أي بالجامع النوري ويسمى اليوم الجامع الكبير ، وانما سمي بالكبير لانه كان يومئذ من أكبر الجوامع في البلاد الاسلامية (١)

---

(١) ك: قرماني ج٦ ص ٩٧



صورة الجامع الكبير ، أو الجامع النوري
« ومنارته المعروفة بالطويلة »

وجاء في وفيات الاعيان (١) عن سبب عمارته نقلاً عن الاصبهاني في البرق الشامي انه كان بالموصل خربة متوسطة البلد واسعة وقد أشاعوا عنها ما نفر القلوب منها فقالوا ما شرع في عمارتها الا من ذهب عمره . فأشار عليه الشيخ الزاهد معين الدولة عمر الملا بابتياعها ورفع بنائها جامعاً ففعل وأنفق عليه أموالاً كثيرة ووقف عليه ضيعة من ضياع الموصل ورتب فيه خطيباً ومدرساً وكان قد وصل في تلك السنة الى الموصل الفقيه عماد الدين أبو بكر

(١) ج ٢ ص ١٦٩

التوقاتي الشافعي فجعله مدرساً فيها . ثم جدد مناشير أهل المناصب وتوقيعات ذوي الرتب من القضاء والنقابة وأمر باسقاط جميع المكوس والضرائب وأنشأ بذلك منشوراً منه :

« قد قنعنا من كنز الأموال باليسير من الحلال فسحقاً للسحت ، ومحقاً للحرام الحقيق بالمقت ٠٠٠٠ وبعداً لما يبعد من رضى الرب ، ويقصي من محل القرب . وقد تقدمنا بأسقاط كل مكس وضريبة في كل ولاية قريبة أو بعيدة » (١)

ومن طالع هذا المنشور يستدل على ما كان عليه هؤلاء الملوك من الرفق بالرعية . ثم أقر سيف الدين على الموصل وما يتبعها وجعل له عميداً رجلا خبيراً اسمه سعد الدين كمشتكين وأمره بالاركان اليه واتباع مشورته في كل أمر صغير وكبير . وسار الى سنجار فعمر أسوارها وأقطعها لعماد الدين . أما فخر الدين فأخذه معه الى بلاد الشام وغير اسمه فدعاه عبد الله وأقطعه اقطاعاً كبيراً (٢)

الفصل الثاني عشر

محاربة سيف الدين الثاني الاتابكي لصلاح الدين الأيوبي

توفي نورالدين محمود الاتابكي صاحب الديار الشامية والمصرية سنة ١١٧٣ (٥٦٩ هـ) فتولى الملك بعده ابنه الملك الصالح في السنة الحادية عشرة من عمره وحلف له يمين الطاعة جميع الامراء النورية . وكان نور الدين قد أرسل قبل وفاته الى ابن أخيه سيف الدين صاحب الموصل يطلبه مع جنده للمغازي فسار سيف الدين بعساكره ، وأخذ معه سعد الدين كمشتكين ، وبينما هو في الطريق بلغه خبر وفاة عمه فعاد عن مسيره وقصد البلاد التي كان عمه نور

(١) المقدسي ج ١ ص ١٨٨
(٢) المقدسي ج ١ ص ١٨٨

الدين قد اغتصبها منه وهي نصيبين والخابور وحران والرها والرقة وسروج[1] وافتتحها جميعها ثم استكمل بقية البلاد الجزرية فملكها وعاد الى الموصل

ونمى خبر وفاة نور الدين الى صلاح الدين الأيوبي وكان عامله على مصر فطمع في البلاد لكنه تظاهر بالطاعة للملك الصالح فضرب السكة على اسمه وبعث له من الدينار الأميري ثم أرسل يعاتب الأمراء النورية لأنهم افسحوا لسيف الدين أن يستولى على البلاد ويعدهم بقرب مسيره اليهم ليسترد البلاد زاعماً أنه أولى بصيانة البلاد للملك الصالح مراعاة لحقوق والده عليه. أما الأمراء النورية فرأوا عجز الملك الصالح عن ادارة الملك لصغر سنه سيما وأن شؤونه قد عهدت الى أهل الأغراض والمطامع فكتبوا الى سيف الدين يستقدمونه ليملكوه البلاد غير أن سيف الدين خاف أن يكون في ذلك مكيدة فأبى الذهاب

أما صلاح الدين فسار الى (دمشق) سنة ١١٧٤ (٥٧٠ هـ) وبذل فيها الأموال ففتحها ودخلها وبعد أن ثبت فيها قدمه وقويت نفسه سار الى حمص وحما[2] وما يجاورهما فملكها أيضاً ثم أقبل الى حلب حيث كان الملك الصالح وحاصرها فقاتله الأهالي وأجلوه عن المدينة. ومن ثم كتب الملك الصالح الى ابن عمه سيف الدين يستنجده على صلاح الدين ويستقومه ليسيرا اليه سوية ويطرداه عن بلادهما فاحتال صلاح الدين بتفريق كلمتهما ليتمكن من البلاد وعليه كتب الى عماد الدين في سنجار يطمعه في الملك وهو أحق به من أخيه الصغير فانقاد اليه عماد الدين وجاهر بالعصيان والعداء. فجهز سيف الدين عسكراً عظيماً تحت قيادة أخيه عز الدين وسيره الى الشام مع كبار أمرائه وبينهم القندار أمير الجيوش وقصد هو نفسه سنجار وحاصرها فلم يستطع فتحها. لأن عماد الدين كان قد حصنها وجدّ في الذب عنها. وبينما

---

(١) ابن خلدون ج ٥ ص ٢٥٣

(٢) ابن الاثير ج ١١ ص ١٦٨

كان سيف الدين على حصار سنجار بلغه خبر انهزام عسكر أخيه عز الدين في الشام وظفر صلاح الدين الأيوبي فاضطر حينئذ الى مصالحة أخيه عماد الدين والمسير عنه الى حلب . ولما وصلها اجتمعت اليه جنود حلب وصاروا كلهم على صلاح الدين نخاف صلاح الدين كثرتهم وكتب الى سيف الدين يبذل له حمص وحماة ويلتمسه أن يترك بيده دمشق ليكون نائباً فيها عن الملك الصالح الا أن سيف الدين رفض طلبه وقال : لا بد من تسليم البلاد والعودة الى مصر . وعلى هذا انتشب القتال بين الفريقين قريباً من حماة فانهزم عسكر سيف الدين وتبعهم صلاح الدين حتى دخلوا حلب واحتموا فيها فأقام علي حصارها . ولما أحس سيف الدين بضعفه عن صلاح الدين أبرم معه صلحاً على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بايديهم منها فأجابهم الى ذلك ورحل عن حلب الى حماة وفيها وفد اليه رسول الخليفة المستضيء بنور الله الذي خلف المستنجد بالله سنة ١١٧٠ (٥٦٦ هـ) مقدماً الخلع لصلاح الدين أما سيف الدين فانه لما عاد الى الموصل جمع العساكر الكثيرة وفرق فيهم الأموال الطائلة قال ابن الأثير[1] نقلاً عن تاريخ صاحب الدولة الصلاحية . أن عدد عسكره كان عشرين ألفاً ثم عاد نخطأه بقوله كم هي الموصل وأعمالها على الفرات ليكون فيها عشرون ألف فارس وانما ذكر ذلك صاحب تاريخ الدولة الصلاحية قصد أن يعظم أمر صاحبه بالظفر والحقيقة أن سيف الدين جمع له ستة آلاف فارس وسار بهم الى ملاقاة صلاح الدين ليجلوه عن البلاد الشامية سنة١١٧٥ (٥٧١ هـ) : اه .ليس من الغريب أن يكون لسيف الدين عشرون ألف فارس وملكه كان يمتد تقريباً على بلاد الجزيرة[2] وجميعها بلاد عامرة كثيرة السكان ذات قرى عديدة واسعة على أن بني حمدان لما أرادوا دفع مؤنس المظفر عن الموصل خرجوا عليه بثلاثين ألف فارس . ولما انتشب

---

(١) ج ١١ ص ١٧٥
(٢) أبو الفدا ج ٣ ص ٥٩

القتال بين مودود وجاولي سقاوو أمير الموصل خرج جاولي بعشرين ألف مقاتل من احداث الموصل لمحاربته كما أثبته ابن الأثير نفسه

انتشبت الحرب بين الفريقين فانكسر سيف الدين واستولى صلاح الدين على جميع مهماته واثقاله واتسع بها وتقوى وسار الى منبج واستولى عليها . وعظم شأنه بهذا الانتصار الباهر على العساكر الموصلية . ثم قصد حلب وحاصرها الا انه لم يظفر منها بشيء . ثم اتفقوا على الصلح وقرروا قواعده على ان يكونوا كلهم عوناً على الناكث الغادر . وعاد سيف الدين الى الموصل منصرفاً الى تعديل شؤونه واصلاح ما تضعضع من اموره فاستوزر جلال الدين أبا الحسن وكان جمال الدين وزير البيت الاتابكي قد عزل فلما وليها أبو الحسن ظهرت منه المقدرة والمعرفة التامة بقوانين الوزارة . ثم استناب سيف الدين بقلعة الموصل مجاهد الدين قايماز وفوض اليه الامور وكان من خيرة أمرائه بنى كثيراً من الجوامع والربط والخانات ولبث في خدمته . أما جلال الدين فعزله سيف الدين لما كان بين جلال الدين وبين مجاهد الدين من المشاحنة . وكان سيف الدين ينقاد الى مجاهد الدين فألح عليه بعزله فعزله سنة ١١٧٧ (٥٧٣ هـ) . وأظهر سيف الدين حرمة عظيمة للخلفاء . وخطب في آخر حياته للخليفة الناصر لدين الله الذي ولي الخلافة بعد المستضيء سنة ١١٧٩ (٥٧٥ هـ) فقدم رضي الدين القزويني مدرس النظامية الموصل لاخذ البيعة له . توفي سيف الدين غازي الثاني صاحب الموصل وديار الجزيرة بمرض السل سنة ١١٨٠ (٥٧٦ هـ) وعمره ثلاثون سنة وكان مشهوراً بحسن السيرة والعدل وحب الرعية ديّناً يكره الظلم وأهله . ومما يحكى عنه ان الناس خرجوا سنة ٥٧٥ هجرية يستسقون لانقطاع المطر . وخرج سيف الدين أيضاً في موكبه فثار به الناس وطلبوا منه ان يأمر بمنع بيع الخمور فاجابهم الى ذلك ومن ثم دخلوا البلدة وقصدوا الخمارين ونهبوا بيوتهم وأراقوا ما بها من الخمور (١)

---

(١) ابن الاثير ج ١١ ص ١٨٩

الفصل الثالث عشر

استيلاء عز الدين مسعود الاول الاتابكي على حلب

لما أحس سيف الدين غازي الثاني بقرب الاجل أراد ان يعهد بالملك لابنه معز الدين سنجر شاه وعمره حينئذ اثنتا عشرة سنة الا انه خاف على البلاد من صلاح الدين الايوبي . وكانت شوكته قد قويت في الاصقاع الشامية وخشي من أخيه عز الدين ان ينازع ابنيه على الملك فيأول حينئذ الى يد العدو . فأوصى بالملك لاخيه عز الدين مسعود عملاً بما أشار عليه أكابر دولته . ثم أعطى لابنيه بعض البلاد على ان يكون مرجعهما الى عمهما عز الدين وان يتولى أمرهما مجاهد الدين قايماز ومات سنة ١١٨٠ (٥٧٦ هـ) . فخطب بالملك لعز الدين . وأعطيت جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه . وقلعة عقر الحميدية لولده الصغير ناصر الدين كسك

وكان عز الدين مسعود من خيرة رجال العائلة الاتابكية . قد تقلد قيادة الجيوش العامة في عهد أخيه سيف الدين غازي . وسار الى محاربة صلاح الدين الايوبي سنة ٥٧٠ هجرية لما استفحل أمره بعد وفاة نور الدين الاتابكي صاحب الديار الشامية والمصرية كما أسلفناه

ثم بعد توليه الملك ببضعة أشهر مرض ابن عمه الملك الصالح صاحب حلب واشتد مرضه حتى آيس من الحياة . فأحضر اليه امراءه واستحلفهم ان يسلموا حلب وما يتبعها لابن عمه عز الدين مسعود فقالوا له بل الاصلح ان نسلمها لاخيه عماد الدين وهو ابن عمك وزوج أختك . وليس له الا سنجار فقط . وعز الدين له البلاد من الفرات الى همذان (١) وهي تقريباً بلاد الجزيرة وكردستان فأجابهم : ان عز الدين بطل شجاع وجنوده كثيرة وعدته متوفرة فان سلمناها لعماد الدين وهو قليل العدة والجند توشك ان

(١) ابن الاثير ج ١١ ص ١٩٣

تصير الى صلاح الدين . سيما وعينه طامحة اليها غير قانع بما استولى عليه من البلاد الشامية . ونحن لم يبق بيدنا الا حلب . فاستحسن الجميع قوله وصوبوا رأيه وتوفي الملك الصالح سنة ١١٨١ (٥٧٧ ﻫ) وعمره تسع عشرة سنة . وكان حليماً كريماً متمسكاً بعرى دينه حسن السيرة في الرعية عادلاً . وذكر عنه انه لما اشتد مرضه وصف له الاطباء شرب الخمر للتداوي . فقال لا أفعل حتى أستفتي الفقهاء فأفتوه فيه فقال أترى ان سمح الله بقرب الأجل أيؤجله شرب الخمر . لالقيت الله سبحانه وقد استعملت ما حرمه عليّ . فامتنع ولم يشرب .[1] ولما قضى نحبه أنفذ الأمراء النورية الى الملك عز الدين الاتابكي يستدعونه ليسلموه حلب . فبادر عز الدين متوجهاً اليها في العشرين من شعبان سنة ٥٧٧ هجرية وصعد القلعة واستولى على ما بها من الخزائن وتزوج أم الملك الصالح . وأقام بها الى سادس عشر شوال . ثم رأى انه لا يمكنه حفظ الشام والموصل وكان خائفاً من صلاح الدين لا سيما وان أمراءه يلحون عليه في طلب زيادة رواتبهم . فرحل عن حلب وخلف بها مظفر الدين ابن زين الدين صاحب اربل المذكور آنفاً . ولما وصل الى الرقة لقيه أخوه عماد الدين صاحب سنجار فقرر معه مقايضة حلب بسنجار وهذا يدل على أهميتها يومئذ [2]

ثم بلغت الاخبار الى صلاح الدين الايوبي وكان في الديار المصرية حين وفاة الملك الصالح فعاد الى الشام سنة ١١٨٢ (٥٧٨ ﻫ) حيث جهز العساكر

---

(١) أبو الفدا ج ٣ ص ٦٦

(٢) يذكر الحموي ان سنجار كانت مدينة في لحف جبل عال يقطعها نهر (الثرثار) ويسقي أراضيها وكان بجانبها واد عظيم تكثر فيه اشجار النخل والاترج والنارنج . وكانت سنجار في حوالي القرن العاشر أي في عهد الدولة الحمدانية كثيرة القرى والعمران وبقيت كذلك حتى أخربها ارطغرل السلجوقي لما اقبل الى الموصل في حوالي ١٠٥٧ (٤٤٩ ﻫ) فقتل من أهلها ٤٠٠٠ وأجلى البقية فاقوت من السكان (ابن العبري س) ثم تراجع عمرانها في عهد الدولة الاتابكية واليوم يشتمل جبل سنجار على نيف وخمسين قرية أعظمها السموقة والقيران وعدد سكانه يبلغ ثمانية آلاف نسمة

الـكثيرة ليسير الى بلاد الجزيرة والموصل ويأخذها من يد عز الدين وكان سبب ذلك ان صلاح الدين الايوبي بلغه وهو في الشام ان رسول عز الدين مسعود وصل الى الفرنج يحثهم على قتاله ليشغله عنه فعلم انه قد غدر به ونكث باليمين ولهذا عزم على قصد حلب والموصل (١) وزاده أملاً فيها اتفاق بعض رجال عز الدين معه لا سيما منهم مظفر الدين بن زين الدين وهو المعروف بكوكبري وكان يومئذ صاحب حران . وقد نفر من عز الدين لنزاع جرى بينه وبين نائبه مجاهد الدين قايماز . فالتجأ الى السلطان صلاح الدين وقطع الفرات اليه . فقوّى عزمه على قصد بلاد الجزيرة وسهل أمرها عليه ومن ثم عبر السلطان صلاح الدين وضبط حران والرها والبيرة وحصن كيفا والرقة ونصيبين وسروج والخابور . وهو قرقيسيا وماكسين وعرمان (٢) . ثم جمع أهل مشورته واستشارهم في الموصل فأشاروا عليه ان يقصدها . فسار صلاح الدين بالعساكر الكثيرة . وكان عز الدين ومعه مجاهد الدين قد جمع العساكر من فارس وراجل وأحضر العدة الوافرة والاسلحة الـكثيرة باذلاً للجند الاموال الطائله . ثم شحن عز الدين ما بقي بيده من البلاد كالجزيرة وسنجار واربل وغيرها بالرجال والسلاح والاموال . فلما قرب صلاح الدين الى الموصل ورأى كثرة الرجال والعدد تحير في أمره وخشي سوء العواقب فانه رأى مدينة عظيمة ذات اسوار منيعة قد ملئت بالرجال . وعلم انه لا طاقة له على أخذها واذا عاد عنها خائباً كان ذلك حطة في قدره واحتقره الملوك بعد الشهرة الذائعة التي أحرزها . فدعى اليه ناصر الدين ابن عمه ومظفر الدين كوكبري بن زين الدين وقال لهما لقد غررتماني في مشورتكما وأطمعتماني في غير مطمع . ولو قصدنا غير الموصل لهان علينا فتحه باسمنا وهيبتنا . أما ناصر الدين فشد ازره ورجاه بالفتح القريب . ومن ثم تقـدم صلاح الدين الى

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ١٢٤
(٢) ابن خلدون ج ٥ ص ٢٥٩

الموصل سنة ٥٧٨ هـ فنزل محاذي باب كندة وأنزل مظفر الدين بباب الجسر وأنزل أخاه تاج الملوك عند الباب العمادي . ثم نصب المنجنيقات وقاتل قتالاً شديداً فلم يظفر منها بشيء وخاف أخيراً ان يكبسه الاهالي ليلاً فان عسكر الموصل كانوا ينزلون الى دجلة من باب سري قريباً من عين الكبريت . وهذا الباب يُرى الى اليوم . فتأخر صلاح الدين عنها وأخذ يراسل عز الدين في الصلح فلم يتفقا عليه لان عز الدين شرط عليه اعادة البلاد التي ضبطها منه . ولما رأى صلاح الدين انه لا ينال غرضاً من الموصل ولا يحصل الا على العناء والتعب بلا جدوى ، وأن الجنود الاتابكية التي بسنجار تقطع الطريق على عساكره وأصحابه ، سار الى سنجار سنة ١١٨٢ (٥٧٨ هـ) وكان عليها حينئذ شرف الدين أخو الملك عز الدين مسعود . وبعد حصار طويل آيس صلاح الدين من أخذها الا أن أميراً من الزرزارية راسل صلاح الدين ان يطرقه ليلاً فيسلم له المدينة من احدى جهاتها . فقصدها ليلاً ودخلها ولما أحس به شرف الدين هرب بمن معه الى الموصل . واستقر لصلاح الدين ما ملكه بسنجار فخابت آمال عز الدين من استرداد البلاد من يده لاستحكامه في سنجار

فكتب عز الدين الى شاه أرمن صاحب خلاط من مدن وان يستنصره على صلاح الدين فكتب هذا الى صلاح الدين يشفع اليه في الموصل ويتهدده بالمسير اليه ان لم يفعل . فلم يصغ اليه صلاح الدين وعلى ذلك جمع شاه أرمن عساكره وسار بأمرائه وأصحابه حتى التقى بعز الدين وكان صلاح الدين اذ ذاك قد بارح سنجار الى حران . فلما بلغه اجتماع شاه أرمن بعز الدين وليس معه العساكر الكافية لرد العدو ، سار الى جوزم تحت ماردين حيث امتنع الى سنة ١١٨٣ (٥٧٩ هـ) . ثم ان شاه ارمن فارق عز الدين ورحل الى بلاده فقصد صلاح الدين آمد وملكها ثم سار الى حلب وهي بيد عماد الدين ابن مودود زنكي وقد شغب عليه أمراؤه وجنده لقلة رواتبهم . فلما رأى

عماد الدين ان لا مندوحة له من التسليم سلمها الى صلاح الدين على شرط ان يعطيه عوضاً عنها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج . فرضي بذلك صلاح الدين وأعطاه اياها واستلم منه حلب . فمدحته الشعراء منهم محيي الدين ابن الزكي بقصيدة منها هذا البيت :

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب

فاتفق ان صلاح الدين فتح القدس في رجب سنة ١١٨٧ (٥٨٣ هـ) (١)

الفصل الرابع عشر

وهن الدولة الاتابكية

وقدوم السلطان صلاح الدين الايوبي الى الموصل دفعة ثانية

لا صيانة للبلاد الا بالرجال الصُدق ، ولا وقاية للملك الا بالثقاة الخبر ، الذين عركهم الدهر نخبروا غثه وسمينه . أولئك هم حماة الاوطان ، ومعاقل البلدان . وخفرة البنود ، وقادة الجنود . بهم يدفع العدو المباين ، وبهم يتم التعاضد والتعاون . فاذا صارت الدولة الى رجال لم يعجموا عود الزمان ، ولم يحنكهم تقلب الحدثان . آل الملك ولا ريب الى البوار ، وحل به الدمار . على ان الدولة بوحدتها الادبية كالانسان الفرد اذا أعدم حواسه الخارجية التي بها يستعين على احكامه العقلية وافعاله البشرية أصبح ولا غرو عرضة للنقص ، بل مجموعة من الافعال والاحكام الناقصة . كذا قل عن الدولة اذا أعدمت رجالها الخبيرين وهم عيونها ودليلها في الطرق الوعرة والسبل الموبقة تمسي والحالة هذه في اخطار مبينة تعتورها في امورها الادارية ومسالكها السياسية فلا تعتم ان تهوى

وهذا ما جرى للدولة الاتابكية في زمن أحاقت بها الاعداء وأشدهم

(١) ابن الاثير ج ١١ ص ٢٠٢

طمعاً السلطان صلاح الدين الايوبي حينما كان رجال هذه الدولة قد شغلتهم مشاحنة بعضهم عن مهام الملك . وكان بعض الأمراء قد أوغروا صدر عز الدين على عميده مجاهد الدين قايماز وأغروه بالقبض عليه . وكان مجاهد الدين من خيرة رجال الدولة الاتابكية واكثرهم خيراً وأجزلهم عقلاً [١]. فاحتال عليه عز الدين وألقاه في السجن ثم استولى على أمواله وأملاكه [٢] وكان الذي أشار عليه بذلك محمود زلفندار صاحب الجيش وشرف الدين بن أبي الخير أحد اكابر الأمراء . ولما سجن مجاهد الدين سنة ١١٨٣ (٥٧٩ هـ) ولي قلعة الموصل محمود زلفندار وجعل ابن أبي الخير حاجباً وولاهما ادارة الامور . قال ابن الاثير وصح اذ ذاك قول الشاعر :

ذهب الذين يُعاش في اكنافهم وبقي الذين حياتهم لا تنفع

وهكذا آلت الدولة الى يد صبيان لا خبرة لهم ولا حنكة . فكان على اربيل وأعمالها زين الدين يوسف بن زين الدين علي كوجك وهو صبي صغير . وعلى جزيرة ابن عمر معز الدين بن سنجر شاه بن سيف الدين بن مودود وهو صبي . وهذه كلها كانت بيد مجاهد الدين مع شهر زور وأعمالها ودقوقا وقلعة عقر الحميدية . فلما ألقي عليه القبض انتهز الفرصة الخليفة الناصر لدين الله (الذي تبوأ عرش الخلافة بعد أبيه المستضيء سنة ١١٧٩ (٥٧٥ هـ) وأرسل جنداً الى دقوقا فحاصرها وأخذها . ثم أنفذ صاحب اربل وصاحب الجزيرة يقدمان الطاعة لصلاح الدين وكان صلاح الدين قد زادت مطامعه ووثق من نفسه بالاستيلاء على الموصل وخصوصاً عند سماعه بسجن مجاهد الدين [٣] واذ رأى عز الدين ما آل الحال به وقد شعر بحاجة ماسة فى هذه الازمة الى مجاهد الدين أمر للحال باخراجه من السجن سنة ١١٨٤ (٥٨٠ هـ) وبحبس ابن أبي الخير وزلفندار محمود قصاصاً لهما على غدرهما

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٥٣٩
(٢) ابن الاثير ج ١١ ص ٢٠٣
(٣) طالع ابن شداد ص ٤٤

ولما رأى مجاهد الدين ما آل الحال بالدولة قصد شمس الدين البهلوان صاحب همذان وبلاد الجبل يستمده على صلاح الدين فأجاب البهلوان طلبه وامده بنحو ثلاثة آلاف فارس فساروا الى اربل واكتسحوا البلد وخربوها ثم تفرقوا منشغلين في السلب والنهب . وبينما هم كذلك باغتهم زين الدين يوسف فقتل منهم عدداً عظيماً ومن سلم لاذ بالهزيمة فرجع الاعجام منهزمين الى بلادهم وغنم الاربليون اموالهم وخيلهم وسلاحهم . اما مجاهد الدين فعاد الى الموصل بصفقة خاسر سنة ٥٨٠ هجرية [1] وبعد هذا سار صلاح الدين من حلب سنة ١١٨٥ (٥٨١ هـ) وعبر الى جزيرة ابن عمر فأخذ معه معز الدين سنجرشاه صاحبها وقدم الى الموصل وقبل وصوله اليها وهو عند بلد أرسل عز الدين أمه وابنة أخيه نور الدين مع بعض اعيان دولته ليصرفوه عنهم حقناً لدماء العباد فأبى صلاح الدين الا الحرب وأرجعهم خائبين لوثوقه من نفسه في احراز الغلبة . وتقدم حتى نزل بالاسماعيليات قريباً من الموصل بحيث يصل من العسكر كل يوم نوبة جديدة لحصار الموصل [2] ثم جاءه صاحب اربل زين الدين يوسف ومعه أخوه مظفر الدين كوكبرى بعساكرهما فانزلهما على الجانب الشرقي من الموصل مع غيرهما من الامراء والتحم القتال بين الفريقين فاشار بعضهم على صلاح الدين ان يقطع الماء عن الموصل بتحويل دجلة الى ناحية نينوى فاستصوب الرأي لكنه أعرض عنه أخيراً لما يقتضيه من التعب وطول المدة

وكان مجاهد الدين قد حصن المدينة وأصلح احوال الجند فكان يعبر كل يوم بعامة أهل المدينة الى الجانب الشرقي ويعودون مساء . وبعد ما اقام صلاح الدين نحو شهر وتحقق لديه عجزه عن فتحها رفع الحصار وسار عنها الى ميافارقين فافتتحها وملكها ثم قرّر اقطاعاتها وأحكم قواعدها وعزم على العود الى الموصل لاستئناف الحرب فجعل طريقه على نصيبين ووصل الى كفر

---

(١) ابن الاثير ج ١١ ص ٢٠٥

(٢) ابن شداد ص ٤٤

زمار في فصل الشتاء فأقام بجوارها لقطع الغلة عن الموصل لعلمه انه لا يفتتحها الا بهذه الوسيلة . اما مجاهد الدين فلما رأى اصرار السلطان صلاح الدين وثباته على حرب الموصل ارتأى ان يصالحه فأنفذ اليه رسولاً في ذلك . وبينما كانت تتردد رسل الصلح مرض السلطان مرضاً شديداً فرحل عن كفر زمار عائداً الى حران وتبعته رسل مجاهد الدين يسألونه الاجابة على الصلح فاجابهم الى ذلك على شرط ان يسلم له الملك عز الدين جميع البلاد الباقية له [١] . ونقل شهاب الدين المقدسي عن العماد ان صاحب الموصل نزل للسلطان عن جميع ما وراء الزاب من البلاد والقلاع والحصون والضياع وشهر زور ومعاقلها واعمالها وولاية بني قفجاق [٢] وولاية القرابلي والبوازيخ وعانا وقرّر عليه السلطان الموصل واعمالها على ان يكون بحكمه وينفذ العساكر لخدمته وتكون الخطبة والسكة باسمه وان يطلق المظالم ولا يرتكب المآثم . وروى ابن خلدون انه في رمضان سنة ٥٨٢ هجرية وهي ١١٨٦ للميلاد ترددت الرسل بينهما في الصلح على ان يسلم عز الدين شهر زور واعمالهـا وولاية الفراتلى وما وراء الزاب (كركوك ودقوقا واربيل وما يليها أي صقع باجرمي الى تكريت) ويخطب له على منابرها وينقش اسمه على سكته [٣] فصارت جميع ديار الشام والجزيرة وديار بكر في طاعة صلاح الدين الايوبي . ثم أنفذ الى شهر زور مملوكه مجاهد الدين اياز فطرد عنها التركمان المستولين عليها وتملكها [٤]

ومن ذلك الحين ضعفت الدولة الاتابكية وتقلص ظلها واوشكت الى الزوال وزادها شراً وخالا عوامل الحسد والشحناء حتى انقسمت القلوب وشرع كل واحد من اربابها يسعى في ايجاد الحيل ليوقع شراً بصاحبه وان عماد الدين

(١) ابن الاثير ج ١١ ص ٢١٠
(٢) والاصح هم بنو قبجاق وهم قوم من الترك سكنوا ما بين جبال اورال ونهر ولغا فسمي ذلك الصقع أي شرق جنوبي روسيا صحراء قبجاق
(٣) ج ٥ ص ٢٦٢
(٤) المقدسي ج ٢ ص ٦٤

زنكي اتابك بعد ان أسس اركانهـا واذاع اسمها في الخافقين واتسعت ذاك الاتساع المدهش بمدة وجيزة انحصرت اليوم بقطعة صغيرة من أرض الموصل ولم يبق من اخلافه الا عز الدين بن مودود على الموصل وابن أخيه سنجرشاه ابن سيف الدين على جزيرة ابن عمر وعماد الدين على سـنجار وثلاثتهم قد نبذوا اللباب وتمسكوا بالقشور يخضعون لصلاح الدين الايوبي ويخطبون له في البلاد ويضربون السكة باسمـه وهم على شفا جرف هار تثيرهم النزاعات وتسعرهم الحزازات . وكان سنجر شاه يكاتب صلاح الدين موغراً صدره على عمه عز الدين ويشكوه بالخيانة ويشيه بمكاتبة الاعداء عليه وكان يتزلف بذلك الى السلطان صلاح الدين لينال منه ولاية الموصل

اما عز الدين فكان صابراً على ما يكره خوفا من اثارة الحرب بينـه وبين ابن أخيه حيث يتسنى لصلاح الدين ان يطردهما عن البلاد ويستولى عليها تماماً . ولما رأى سنجرشاه ان مراسلته صلاح الدين لم تغنه فتيلاً قصده بنفسه وهو نازل على عكا واقام عنده وهو لا ينال مأرباً حتى سئم المقام فاستأذن بالعودة فلم يأذن له . ثم ان سنجرشاه رحل خفية من دون علم السلطان اذ كان خائفاً على نفسه للتشكيات الـكثيرة التي كانت ترد الى السلطان من أهل الجزيرة . فكتب السلطان الى عز الدين يأمره بالمسير الى جزيرة ابن عمر وبضبطها ويأمره أيضاً بالقبض على سنجرشاه اذا عاد اليها . فظن عز الدين ذلك مكيدة ليشنع السلطان عليه بنكث العهود فلم يفعل بل أرسل يطلب منه منشوراً بالجزيرة ، وترددت الرسل في ذلك حتى نهاية سنة ١١٩٠ (٥٨٦ هـ) فسار عز الدين الى الجزيرة وحاصرها أربعـة أشهر ثم استقر الصلح بينهما على ان يكون نصف اعمال الجزيرة لعز الدين والنصف الآخر لسنجرشاه [1] وجاء في كتاب النوادر السلطانية ان السلطان صلاح الدين صالح المواصلة واعطاهم ما بين النهرين وكان قد أخذها من سنجرشاه [2] وهي ليست ما بين النهرين التي تشتمل على سائر

(١) ابن الاثير ج ١٢ ص ٢٥

(٢) ابن شداد ص ٤٦

بلاد الجزيرة بل هي جزيرة ابن عمر وكانت مع مايجاورها بيد سنجر شاه كما رأيناه.
ان السلطان صلاح الدين الايوبي افتتح بلاداً كثيرة وملك بلاد الجزيرة والشام وسورية وفلسطين ومصر ونال بسقطة الدولة الاتابكية سؤدداً عظيماً واسما شهيراً . ونقل ابن الاثير عن أحد الثقاة انهُ رأى صلاح الدين يركب ويعضده معز الدين صاحب ملاطية ويسوى ثيابه علاء الدين خرشاه ابن عز الدين صاحب الموصل قال فعجبت من ذلك وقلتُ في قلبي ماتبالي يا ابن أيوب اية ميتة تموت يركبك ملك سلجوقي وابن اتابك زنكي (١)

وتوفي صلاح الدين الايوبي سنة ١١٩٣ (٥٨٩ هـ) وخلفه ابنه عزيز عماد الدين وكان صلاح الدين من مماليك نور الدين الاتابكي صاحب حلب والشام وسار الى مصر لحرب الصليبيين وهناك تقلد الوزارة في الدولة الفاطمية على عهد آخر خلفائها العاضد لدين الله ولما توفي العاضد لدين الله سنة ١١٧١ (٥٦٧ هـ) ولم يكن له وريث استبد صلاح الدين بالملك وكان يخطب للخليفة العباسي ولنور الدين الاتابكي ، وبعد وفاة نور الدين استولى على حلب واخضع الملوك الطوائف واستولى على بلادهم وأحرز صلاح الدين انتصارات باهرة في الحروب الصليبية واشتهر بحسن سيرته وكرم اخلاقه ولين طباعه.



(١) ابن الاثير ج ١٢ ص ٣٣

الفصل الخامس عشر

في نهاية الملك عز الدين مسعود الاول

وملك ابنه أبي الحرث أرسلان شاه الملقب الملك العادل نور الدين

لما بلغ موت صلاح الدين عز الدين أتابك جمع أهل الرأي من أصحابه وفيهم مجاهد الدين قايماز كبير دولته ونائبه واستشارهم فيما يفعل فقر رأيهم على أن يكاتبوا أصحاب الاطراف وهم مظفر الدين صاحب أربل وسنجرشاه صاحب جزيرة ابن عمر وعماد الدين صاحب سنجار ونصيبين والخابور والرقة ويتفقوا على العصيان والمطالبة ببلادهم . فأجمعوا رأيهم على ذلك وسار عز الدين بالعساكر مع أخيه عماد الدين الى الرها : وذكر شهاب الدين المقدسي أن بقية أصحاب الأطراف لم يتفقوا في ذلك مع عز الدين الاتابكي وانما اتفق معه أخوه عماد الدين ، فسارا في عساكرهما الى تل موزن (بين رأس العين وسروج) لقصد الرها ، وأرسل العادل حينئذ يطلب الصلح وأن تكون البلاد الجزرية ـ الرها وحران والرقة وما معها ـ بيده على سبيل الاقطاع من عز الدين فلم يجبه الى ذلك [١] وبينما كان يتهيأ للحملة أصابه مرض عضال آيس فيه من الحياة فترك الجند مع اخيه عماد الدين واقبل الى الموصل وتوفي فيها سنة ١١٩٣ (٥٨٩هـ) في شهر شعبان ودفن في المدرسة التي أنشأها مقابل دار المملكة . وكان لين الجانب رقيق القلب يحب الرعية جداً

ثم قام بالملك بعده ابنه نور الدين ارسلانشاه الأول فأقر مجاهد الدين قايماز على نيابته وتدبير مملكته . وكان عمه عماد الدين قد رجع عن الرها بخفي حنين وهو يحدث نفسه بالاستيلاء على مملكة أخيه عز الدين فأشار الى بعض عماله أن يضبطوا بعض القرى المجاورة لهم وهي لنور الدين ففعلوا

(١) المقدسي ج ٢ ص ٢٢٧

ولما أحس نور الدين كتب الى عمه عماد الدين ينذره باعادة القرى وينهاه عن العود الى مثل ذلك . فأغلظ له عماد الدين في الجواب وعلى هذا تجهز نور الدين وسار الى نصيبين ليستولى عليها وقبل وصوله اليها توفي عمه عماد الدين سنة ١١٩٧ (٥٩٤ هـ) فخلفه ابنه قطب الدين محمد على بلاده أي سنجار والخابور ونصيبين والرقة وسروج وهي التي عوضه صلاح الدين عن حلب لما أخذها منه وتولى تدبير دولته مجاهد الدين برتقش . وبلغ قطب الدين مسير عمه نور الدين بالجيوش فسار اليه من سنجار والتقيا قريباً من نصيبين وبينهما نهر قطعه نور الدين وحمل على ابن عمه ففرق جيشه وهزمه شر هزيمة ثم دخل نصيبين وملكها [1] واذ لم يكن لقطب الدين طاقة على ابن عمه كتب الى الملك العادل أخي صلاح الدين يستنجده ويبذل الأموال الكثيرة اذا أعاد له نصيبين فسار الملك العادل الأيوبي اليها وكان نور الدين قد ضعف عن محاربة الملك العادل لمرض فشا في عسكره فقتل منهم خلقاً كثيراً ولاذ من بقي منهم بالهزيمة وأخلى نور الدين المدينة وعاد راجعاً الى الموصل ثم سار الملك العادل الى ماردين وحاصر قلعتها وقطع عنها الميرة فعظم الأمر على نور الدين وعلى غيره من ملوك الطوائف في ديار بكر والجزيرة وخافوه على ملكهم . وحدث في تلك الأيام أن العزيز توفي بمصر سنة ١١٩٨ (٥٩٥ هـ) ثم خلفه ابنه محمد منصور . وكان أول ما فعله محمد جمع عسكراً وسار الى حصار دمشق وهي بيد عمه العادل ليأخذها منه . وكتب الى نور الدين صاحب الموصل وغيره من الملوك على موافقته والأخذ بناصره وحركهم أيضاً على المسير الى ماردين ليشغلوا عمه العادل عن قتاله فيتهيأ له الاستيلاء على دمشق . وكان الاتابكيون قد أوجسوا خيفةً من الملك العادل أن يغلبهم على أمرهم ويضبط بلادهم فاتفقوا على مجاراة صاحب مصر في محاربة العادل خدمة لمصلحتهم . أما الملك العادل فسار الى دمشق خوف أن تخرج من حوزته وترك على ماردين

(١) ابن الاثير ج ١٢ ص ٥٦

ابنه الملك الكامل فانتشب القتال بينه وبين بني اتابك ولم يلبث العسكر الكاملي أن ولّى هارباً . ثم ثارت بعد ذلك حروب كثيرة بين نور الدين وبين أصحاب الملك العادل أشهرها الحرب التي ثارت سنة ١٢٠٣ (٦٠٠ هـ) وكان سببها أن الملك العادل استمال قطب الدين الاتابكي صاحب نصيبين أن يخطب له في البلاد التي تحت يده فساء ذلك نور الدين وقصد نصيبين بجيشه وضبطها وبينما كان على حصار قلعتها أتاه الخبر أن مظفر الدين كوكبري صاحب اربل أقبل على الموصل فنهب نينوى وكانت عامرة وأحرق غلاتها . وكان قطب الدين أيضاً قد كتب الى الملك العادل يخبره بما فعله نور الدين ويستنصره عليه فأرسل الملك العادل ابنه الملك الأشرف موسى وانضمّ اليه مظفر الدين صاحب أربل وصاحب الحصن وآمد وصاحب جزيرة ابن عمر وغيرهم على مقاتلة نور الدين ، فالتقوا عند بوشري وثارت بينهم حرب ضروس كانت الدوائر فيها على عسكر نور الدين لما أصابهم من التعب والسغب فلاذوا بالهزيمة الى الموصل ولم يبق مع نور الدين الا أربعة أنفار دخل بهم المدينة وكان الأشرف يتبعه بأصحابه فنهبوا البلاد نهباً قبيحاً وأهلكوا ما لم يصلح لهم لا سيما في مدينة بلد واستولوا على تلعفر ثم طلب نور الدين صلحهم فصالحه الأشرف وعاد عنه

الا أن الملك العادل ما زالت عيونه طامحة الى الاستيلاء على ما بقي من البلاد للبيت الاتابكي واذ لم يتيسر له تحقيق أمانيه بطريقة حربية لانشغاله بحرب الصليبيين عمد الى طريقة سلمية فأخذ ابنة نور الدين زوجة لابنه ظناً منه أن ينال مأربه بهذه الوسيلة . أما نور الدين فانتهز فرصة هذه المصاهرة للانتقام من ابني اعمامه قطب الدين صاحب سنجار ونصيبين والخابور ومحمود ابن سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر وكانت العداوة مستحكمة العرى بين الفريقين فكتب الى الملك العادل يرغبه في الاستيلاء على بلادهما فتكون له جزيرة ابن عمر وللعادل نصيبين وسنجار والخابور . وعند هذا الخبر استبشر

العادل وأمّل نوال مأربه لانه علم متى ملك هذه البلاد يأخذ الموصل لامحالة . وأرسل يطمع نور الدين ان يعطي هذه البلاد اذا ملكها لابنه الذي هو صهره فاستقرت القاعدة على ذلك وتحالفا عليها ثم بادر العادل بالمسير بعساكره من دمشق الى الفرات وقصد الخابور فأخذه سنة ١٢٠٩ (٦٠٦ هـ) الا ان نور الدين احسّ بغلطه وعرف ان البلاد ذاهبة منه ومن بيته وقد أصبح في حصار شديد لايقدر فيه على مفارقة الموصل والملك العادل واولاده يحتاطون به وقد ملكوا خلاط وديار بكر وديار الجزيرة ولا بد ان يستولوا يوماً على بلاده ، وهكذا تنقرض في زمانه الدولة الاتابكية . فندم أشد الندم على ما فعل ودعا اليه خواصه من الذين يرجع اليهم في الامور واستشارهم في ماذا يفعله فاشاروا عليه بالاتفاق مع مظفر الدين كوكبرى صاحب اربل الذي كان يكره الملك العادل لكثرة طمعه ولما راجعوه بذلك اتفق معه وانضم اليهما ايضاً الملك الظاهر صاحب حلب وكيخسرو بن قلج ارسلان صاحب بلاد الروم على دفع الملك العادل وكان قد استولى على الخابور وهو مقيم على حصار سنجار . ثم بلغت هذه الاخبار والفتن الكثيرة الى الخليفة الناصر لدين الله فانفذ الى الملك العادل يحثه على الصلح وحقن الدماء . ثم وصل هبة الله بن المبارك استاذ الدار والامير اق باش أحد كبار مماليك الخليفة وهما رسولا الى الملك العادل وبعد مداولة طويلة جرت مع الملك العادل اجاب الى الصلح على شرط ان تبقى له البلاد التي أخذها وتبقى سنجار لصاحبها . فاستقرت القاعدة على ذلك ورحل العادل الى حران . وجاء في كتاب الروضتين ان الملك العادل صالح بني اتابك وردهم الى سنجار ونصيبين والخابور [١] . ومن ثم توثقت عرى المودة بين مظفر الدين وبين نور الدين . فأخذ نور الدين ابنتي مظفر الدين زوجتين لابنيه وهما عز الدين مسعود ومنصور عماد الدين زنكي

ثم اصاب نور الدين ارسلانشاه الاول ابن زنكي مرض عضال مات فيه

---

(١) المقدسي ج ٢ ص ٢٣٤

سنة ١٢١٠ (٦٠٧ هـ) وكان ذا سياسة للرعايا شديداً على اصحابه كثير المهابة وكان شجاعاً ذا همة باذخة دفع بسطوته الطامعين في ملكه من الاشداء كالسلطان صلاح الدين الايوبي وخافه الملوك مجاوروه ، ولولاه لاستولى الايوبيون على ملكه ولم يبقوا على أحد من الاتابكيين . وكان كريماً لا يطمع فيما لغيره فانه كان قد توصل ان يستولى على ماردين لكنه تجاوز عنها لصاحبها كرماً . وفي مرضه أمر بالملك لابنه الملك القاهر عز الدين مسعود الثاني وحلف له الجند وأعيان الناس ثم اعطى ولده الاصغر منصور عماد الدين قلعة عقر الحميدية وقلعة شوش وولايتها وولى على تدبير المملكة والقيام بمصالحها الامير بدر الدين لؤلؤ [١] لان مجاهد الدين قايماز كان قد توفي حتف انفه في حصار نصيبين سنة ١١٩٧ (٥٩٤ هـ) نخلفه على تدبير المملكة الامير بدر الدين لؤلؤ وكان ذا رأي سديد مع كمال خلال السيادة فيه . ولما اشتد المرض بنور الدين أمره الاطباء ان يقصد الحمام المعروف بعين القيارة قريباً من الموصل فتوفي ليلاً في الطريق ومعه الملاحون والاطباء فأخفى بدر الدين موته وحمله الى داره ولم يعلم أحد بموته حتى فرغ من قضاء بعض الدعاوي التي جلس لها وعند العصر نعاه القوم فدفن بالمدرسة التي أنشاها مقابل داره

الفصل السادس عشر

وفاة الملك القاهر وتملك ابنه الملك ارسلانشاه الثاني

استقرت بلاد الموصل للملك القاهر وقام بدر الدين لؤلؤ في تدبيرها والنظر في مصالحها أحسن قيام فباتت هذه المملكة في زمانه بأمن وراحة وعمر مدرسة شهيرة ثم باغته الاجل فتوفي سنة ١٢١٨ (٦١٥ هـ) يوم الاثنين لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر [٢] وكان كريماً حليماً قليل الطمع

(١) ابو الفداء ج ٣ ص ١١٩

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٢٥ وابو الفرج ص ٤٠٣

في أموال الرعية ذا رقة شديدة يكثر من ذكر الموت . روى ابن الاثير قال : حكى لي بعض من كان يلازمه كنا ليلة قبل وفاته بنصف شهر عنده فقال لي قد وجـدت ضجراً من القعود فقم بنا نتمشى الى الباب العمادي وهو الباب الذي في سور شمالي الموصل وقد سمي باسم عماد الدين زنكي مؤسس هـذه الدولة والى اليوم يعرف بهذا الاسم ومن هذا يستدل ان دار الامارة كانت في شمالي الموصل على دجلة وربمـا قريباً من موقع قره سراي . قال : فقمنا وتوجهنا الى الباب العمادي ولمـا وصل التربة التي عملها لنفسه عند داره وقف عندها لا يتكلم ثم قال لي لعمرك ما نحن في شيء أليس مصيرنا الى ههنا واطال الحديث في هذا ثم عاد الى الدار فقلت له الا نمشي الى الباب العمادي فقال لم يبق لي نشاط الى هذا ولا الى غيره ودخل داره وتوفي بعد أيام فأصيب أهل بلاده بموته وعظم عليهم فقده لانه كان محبوباً اليهم قريباً من قلوبهم ففي كل دار لاجله رنة وعويل (١)

وكان الملك القاهر قبل وفاته قد اوصى بالملك لابنه الاكبر نور الدين ارسلانشاه الثاني وعمره عشر سنوات واقام بدر الدين وصياً عليه ومـدبراً لدولته . ولما جلس نور الدين على سرير ملك آبائه سنة ٦١٥ هجرية أحسن بدر الدين القيام بواجب الوصاية وأخلص الخدمـة عاملاً بالرأي الصائب في تأييد ملك الموصي به فأرسل الى الخليفة يطلب له التقليد والتشريف ثم انفذ الى الملوك المجاورين يعرض عليهم تجديد العهد لنور الدين على القواعد المرعية بينهم وبين ابيه . وهكذا ضبط بدر الدين أمور المملـكة رغماً عن صغر سن السلطان وكثرة الطامعين في دولته كاعمام ابيه وكانوا مقيمين في المدينة وعمه عماد الدين صاحب ولاية قلعة عقر الحميدية وشوش وما يليها وكان يحـدث نفسه بالملك ، فسد بدر الدين بحسن سياسته ذلك الخرق ورتق ذلك الفتق وأحسن السيرة في الرعية وغير ثياب الحداد التي كان يلبسها الناس حزناً على

(١) ابن الاثير ج ١٢ ص ١٣٧

موت الملك السالف وتابع الاحسان والخلع عليهم جميعاً ثم جلس لكشف ظلامات الناس .[١] وبعد مضي أيام قلائل وصل التقليد من الخليفة لنور الدين بن القاهر بالولاية ولبدر الدين بالنظر في أمر الدولة ثم وفدت من الملوك كتب التعزية وتوثيق عرى العهد والولاء

أما عماد الدين فبات متحيناً الفرص ليستولي على الملك . فأخذ يكاتب مستحفظ قلعة العمادية ويبذل له المواعيد اذا سلمه القلعة . وكان بدر الدين يستقصي أخباره ويتتبع مقاصده وقد اطلع على الدسيسة فبادر بعزل مستحفظ العمادية وأنفذ اليها أميراً بجماعة من الجند فتسلموها منه . ثم بثّ نوابه في غيرها من القلاع حذراً من تلون الحوادث . واتفق في تلك الايام ان الملك نور الدين اعتراه مرض ولازم داره لا يركب ولا يظهر للناس ، فاستفاد زنكي من غيابه ، وكتب الى جند العمادية يقول لهم ان ابن أخي قد مات وبدر الدين يحاول الاستيلاء على البلاد . وأنا أحق منه بملك آبائي وأجدادي . فقنع الجند بكلامه . وعلى هذا أسلموه القلعة في شهر رمضان من السنة عينها

فجهز بدر الدين عسكراً وسيره الى العمادية لحصارها . وكان مظفر الدين كوكبري صاحب اربل في نصرة عماد الدين . فكتب اليه بدر الدين يذكره حلفه وعهوده بان لا يتعرض الى اعمال الموصل وقلاع الهكارية والزوزان[٢] وما يليها ، ومتى تعرض اليه أحد منعه بماله ورجاله . فطالبه بدر الدين بوفاء الوعود . فلم يرض مظفر الدين وأصر على الاخذ بناصر زنكي برجاله وماله . وقوي زنكي لمناعة موقعه وشدة فصل الشتاء . فلما رأى بدر الدين حرج موقفه ويأس جنده من أخذ القلعة لحسن استحكامها عاد الى الموصل وانفسح المجال لعماد الدين ان يراسل باقي قلاع الهكارية والزوزان مستدعياً أهلها الى

(١) ابن الاثير ج ١٢ ص ١٣٨

(٢) الزوزان جبل في كردستان يمتد مشي ثلاثة أيام تقريباً في شمالي جزيرة ابن عمر . وهو شهير في اعتدال مناخه وخصوبته يأوي اليه الاكراد في فصل الصيف باغنامهم لكثرة منتجعاته

طاعته . ولم يمض زمن طويل حتى لبى جميعهم هـذا الطلب وسلموه القلاع فملكها وجعل عليها الولاة . ولما رأى بدر الدين ما كان من خيانة مظفر الدين واتفاقه مع عماد الدين حيث لم ينجع فيهما اللين ولا الشـدة وهما ما زالا يتعرضان الى البلاد واطرافها بالنهب والأذى أرسل الى الملك الاشرف موسى ابن العادل صاحب ديار الجزيرة وخلاط ان يصـير في طاعته ويستنصره على عدوه . فاجابه الاشرف بالقبول ووعده الأخـذ بناصره والمحاربة دونه واستعادة قلاعه المضبوطة . وكان الملك الاشرف يومئذ بحلب نازلاً بظاهرها فارسل الى مظفر الدين ينحي عليه باللائمة لتعديه القواعد المقررة بينهم منها ان يكونوا خصماً للناكث . ثم يتهدده ان لم يعد ما أخذه من بلاد الموصل أن يوافيه بنفسه وجنده ويقصد بلاده فيستولي عليها . فلم يجبه مظفر الدين لوثوقه من النجاح باتفاق صاحب آمد وصاحب ماردين معه . فجهز الاشرف عسكراً وسيره الى نصيبين نجدة لبدر الدين وكان عماد الدين بعد ما فرغ من أمر الجبل سار الى العقر حيث جمع له جيشاً كثيفاً وأقبل به على اعمال الموصل التي في الصحراء وأمده أيضاً مظفر الدين كوكبري بطائفة من جنده . فلما اتصـل الخبر ببدر الدين أنفذ جنداً الى اطراف الموصل ليدفعوه عنهـا . فساروا اليه جريدة بخيلهم وسلاحهم . وبعد قتال عنيف في سهل تحت العقر انتصر العسكر البدري وانهزم عماد الدين بعسكره الى اربيل

وكانت هذه الاخبار قد بلغت الخليفة الناصر لدين الله . فأنفذ وفداً من قبله ليتوسطوا في الصلح ولمـا رضي به المتحاربون أقسموا بحضور الوفد على مراعاة الشروط المقررة بينهم بان لا يتعدى أحدهم على بلاد الآخر

الفصل السابع عشر

الدولة الاتابكية في عهد الملك ناصر الدين بن الملك القاهر

كانت اشاعات عماد الدين زنكي عن وفاة نور الدين ارسلانشاه قد انتشرت ، فارتاب أهالي الموصل في حياته ، وظنوا ان بدر الدين يستر موته محاولة في الاستيلاء على الملك . والحقيقة ان نور الدين ارسلانشاه ما زال مريضاً لا يخرج للناس كعادة بني اتابك وقد انتابته أمراض شتى أضعفته حتى توفي سنة ١٢١٩ (٦١٦ هـ) . وقام بعده في الدولة أخوه الملك ناصر الدين محمود وله حينئذ من العمر ثلاث سنوات . وبعد ما حلف له الجند ركب للناس فاطمأنوا . وطابت نفوسهم لما علموا ان لهم سلطاناً من البيت الاتابكي. وكانت مطامع مظفر الدين وعماد الدين في ضبط البلاد قد تجددت سيما وقد بلغهما عن مسير أغلب جند الموصل الى الملك الاشرف في حلب نجدة له بسبب اجتماع الصليبيين في مصر وهي كانت التجريدة الخامسة التي نهض بها المجر والجرمانيون سنة ١٢١٦ (٦١٣ هـ) وكان الصليبيون يحاربون الكامل ناصر الدين الايوبي . فأراد الملك الاشرف أن يجمع الجيوش ويحمل على البلاد الشامية التي بيد الافرنج فينهبها ويخربها ليعود بعض الافرنج الذين بدمياط الى بلادهم وبذلك يخف الامر عن الملك الكامل صاحب مصر

فانتهز مظفر الدين وعماد الدين هذه الفرصة وجمعا العساكر وقصد بعضهم اطراف الموصل بالنهب والسلب . أما بدر الدين فأنفذ الى نصيبين حيث كان بعض جند الاشرف يستدعيهم اليه ليستعين بهم على عدوه . فلبى جند الاشرف طلبه وقدموا الى الموصل تحت قيادة مملوك للاشرف اسمه ايبك . فعبر بدر الدين دجلة بجموع العساكر ونزل في شرقيها ثم قطع مظفر الدين مياه الزاب وتقابل الفريقان فجرت بينهما مناوشات خفيفة منها ان بدر الدين حمل على ميسرة مظفر الدين وفيها عماد الدين زنكي فهزمها . وعقيب

هذه المعركة عبر العسكر البدري الى الموصل . ونزلت عساكر العدو ازاء باب الجسر مزايلة حصن نينوى فأقامت ثلاثة أيام ، أخيراً لما رأى مظفر الدين كثرة العساكر الموصلية خاف ان يكبسه بدر الدين ليلاً بالفارس والراجل على الجسور وفي السفن . فرحل ليلاً من غير ان يضرب كوساً [1] أو بوقاً واجتاز الزاب الى أربل وبعد هذا بأيام ترددت الرسل بينهم واستقر الصلح أيضاً على ان يبقى لكل واحد منهم ما بيده من البلاد [2]

ولم تمض أيام على هذا الصلح حتى تجددت الفتن وثارت الحرب فان عماد الدين لما كان مستولياً على جميع قلاع العقر والعمادية ارتأى جند بدر الدين الذين على قلعة كواشي وكانت على ما يظن من أمنع قلاع الموصل بجوار زاخو ان يسلموها الى عماد الدين حينما رأوا ان أمر الجبل صائر اليه فخلعوا طاعة الملك ناصر الدين الاتابكي وسلموا القلعة لعمه زنكي . فكتب بدر الدين الى مظفر الدين يعاتبه على نكثه العهود المرة بعد الأخرى . ثم أنفذ الى الملك الاشرف وهو بحلب يعلمه الحال ويطلب المدد . فعبر الاشرف الفرات الى حران ليسير الى الموصل. ولما نمى خبر قدومه الى مظفر الدين صار يراسل ملوك الاطراف ليثيرهم على الملك الاشرف ويخوفهم من خلو وجهه فيهم فوافقه على ذلك عز الدين كيكاوس بن كيخسرو بن قلج ارسلان صاحب بلاد الروم. وصاحب آمد . وصاحب حصنكيفا . وصاحب ماردين . واتفقوا كلهم على الطاعة لكيكاوس والخطبة له في سائر بلادهم الا أن هذا التحالف لم يدم زمناً طويلاً فان كيكاوس باغتته المنية بعد أيام يسيرة . ومن ثم انفصمت عروة هذا التحالف وتشتت شمل اصحابه . فعمد مظفر الدين الى مراسلة بعض أمراء الملك الاشرف ليغيرهم عليه ويستميلهم لنفسه فأجابوه الى ذلك وفارقوا الملك الاشرف الى دنيسر حيث اجتمعوا بصاحب آمد . وعقدوا النيات على

(١) الكوس كلمة فارسية معربة معناها « الطبل »

(٢) ابن الاثير ج ١٢ ص ١٤٠

أن يحولوا بين الاشرف وبين بدر الدين . الا أن صاحب آمد فارقهم وصالح الاشرف فانحل عقد المتآمرين وعاد جميعهم الى طاعة الاشرف ما عدا أحدهم وهو أحمد المشطوب فانه سار الى سنجار وعليها حينئذ فروخشاه بن زنكي مودود الاتابكي ونمى خبره الى فروخشاه فأنفذ جنداً اعتقلوه وحملوه أسيراً اليه ولما حضر احمد عند فروخشاه أخذ يقنعه باطلاقه ليشغل الاشرف عن سنجار التي كان طامعاً بها فقنع فروخشاه بكلامه وأطلقه وسار احمد المشطوب بمن معه وقد انضوى اليه بعض أهل الفساد حتى بلغ البقعاء [1] وأخذ ينهب القرى الكثيرة . فحملت عليه عساكر الموصل وطاردته حتى هرب الى تلعفر واحتمى فيها فتبعه جند بدر الدين وحاصروه فيها اياماً ولم يتمكنوا من القبض عليه . ثم قصده بدر الدين بنفسه وحاصر تلعفر فافتتحها وملكها وكانت لصاحب سنجار وأخذ أحمد المشطوب أسيراً الى الموصل حيث سجنه سنة ١٢٢٠ (٦١٧ هـ) ثم أرسله مصفداً بالاغلال الى الملك الاشرف

اما الملك الاشرف فانه بعد ما أصلح شان الامراء العصاة أقبل الى الموصل بجمع من جنده وكان ناقماً على فروخشاه وطامعاً بسنجار فخافه فروخشاه على نفسه وأقبل اليه متذللاً ثم سلمه سنجار واستعطفه ان يستعمله على الرقة فاستعمله . وملك الاشرف سنجار وما يليها . وكان فروخشاه آخر أمير من البيت الاتابكي ملك سنجار ودام فيها ملكهم نحو أربع وتسعين سنة ثم انتقلت الى السلاطين الايوبيين

ثم قدم الاشرف الى الموصل ودخلها بالعساكر الكثيرة في التاسع عشر من جمادى الاولى سنة ١٢٢٠ (٦١٧ هـ) وكان يوم وصوله اليها يوماً حافلاً مشهوداً ترجل له بدر الدين لؤلؤ وحمل الغاشية بين يديه [2] (والغاشية ستارة مرصعة بالجواهر النفيسة كانت تحمل على رؤوس الملوك كالمظلة تعظيماً لهم)

(١) قال الحموي البقعاء كورة بجوار الموصل بينها وبين نصيبين ، وقاعدتها برقعيد وهي اليوم « أبو وجنة » . ويغلب ان تكون البقعاء عين ناحية زمار

(٢) أبو الفرج ص ٤٠٦

ثم وافته رسل الخليفة الناصر لدين الله ابن المستضيء تتوسط في الصلح فاستقر الصلح على ان يعيد مظفر الدين جميع القلاع الاقلعة العمادية وشوش وهي في غربي العقر على مسافة ١٥ كيلو متر ورضي الاشرف بذلك حسماً للفتن والنزاع الذي كان يشغلهم عن حرب الفرنج فجعل أجلا لتسليم القلاع وأخذ عماد الدين زنكي رهينة عنده الى حين تسليم القلاع . ثم ان عماد الدين قدم للملك الاشرف رهينة عنه قلعتي العمادية وشوش فاطلق سبيله . ولما رحل الملك الاشرف عن الموصل في رمضان من السنة عينها أنفذ بدر الدين عند حلول الأجل المعين يطلب تسليم القلاع الى نوابه . فنكث عماد الدين الوعد ولم يسلم من القلاع الاقلعة « جل صورا » من اعمال الهكارية . وكان عماد الدين قد احتال على وكيل الملك الاشرف واسترد منه الرهينة وهي قلعتا العمادية وشوش وهكذا آلت اليه أيضاً جميع اعمال الجبل

وبعد مضي مدة يسيرة نفر أهل الجبل من عماد الدين لسوء سيرته وكثرة مظالمه فمالوا الى بدر الدين لؤلؤ لما كانوا يسمعونه عنه من حسن السيرة في الرعية والعدل وحب الخير فكتبوا الى بدر الدين سنة ١٢٢١ (٦١٨ هـ) يقدمون له الطاعة ويعدونه بتسليم القلاع له ويرضون منه ان يعطيهم فيها بعض الاقطاع . اما بدر الدين فتخوف ان يسير اليهم من غير استئذان الملك الاشرف مراعاة له وحذراً من غدره . فكتب له بذلك واجابه الملك الاشرف بالاجازة على شرط ان يخلي له نصيبين ودارا وقرقيسيا وهي بلدة كانت عند ملتقى الخابور في أرض الجزيرة واليوم ترى على خرباتها قرية صغيرة تسمى « أبو سراي » . فبعد ما سلم بدر الدين هذه المدن الثلاث للاشرف قصد القلاع المذكورة ففتحت له ابوابها ودخلها من غير معارضة وأحسن بدر الدين السيرة في الاهالي وذاعت شهرته الصالحة في سائر اطراف الجبال ورغب أهالي بقية القلاع في الدخول في طاعته فسلموها له الاقلعة شوش فانها استمرت على العصيان

اما عماد الدين زنكي فلما رأى ما صار اليه أمره قصد أذربيجان

سنة ١٢٢٢ (٦١٩ هـ) ودخل في خدمة أوزبك بن البهلوان واقام عنده [١].
وأتى عنه في وفيات الاعيان : انه لما أخذت منه قلاع الهكارية وما يجاورها من القلاع انتقل الى اربل عند حميه مظفر الدين كوكبري صاحب اربل فاقام بها وكنا نحن بجواره وكان من أحسن الناس صورة ثم قبض عليه مظفر الدين حموه لأمر يطول شرحه وسيره الى سنجار الى الملك الاشرف ثم أفرج عنه وعاد الى اربل وقايضه مظفر الدين عن القلاع بشهر زور واعمالها فانتقل اليها واقام بها الى ان توفي سنة ١٢٣٢ (٦٣٠ هـ) [٢]

والظاهر من تباين القولين في خاتمة عماد الدين انه بعد مسيره الى أوزبك تغير أهل العمادية على بدر الدين لؤلؤ سنة ١٢٢٥ (٦٢٢ هـ) وأخذوا يراسلون عماد الدين ومظفر الدين ويعدون كلا منهما بالقلاع كما يورده ابن الاثير [٣] وأظهروا من ثم لبدر الدين لؤلؤ ما كانوا يبطنونه له من المخالفة وشق عصا الطاعة فلم يدعوا عندهم من أصحابه الا من وافقهم على افكارهم . وبناء على ذلك تخلف عماد الدين عن خدمة أوزبك وعاد الى اربل ليطلب كعادته مساعدة حميه مظفر الدين . ولما كان مظفر الدين نفسه طامعاً في هذه القلاع وراغباً في الاستيلاء على بلاد الدولة الاتابكية ولهذا السبب عينه اثار حروباً وقصد الموصل دفعات متوالية [٤] فعقد النية على التخلص من عماد الدين كيلا يحول بينه وبين مطمعه وغدر به فعقله وأرسله الى الملك الاشرف . اذ كان الملك الاشرف ينفر من عماد الدين لغدره وعصيانه . وبعد ان اعتقله مدة أطلقه فعاد عماد الدين الى حميه ليطالبه ببلاده ، فاعطاه حموه بلاد شهر زور رجاء ان تبقى بلاد الدولة الاتابكية بينه وبين بدر الدين لؤلؤ . ولما رضي عماد الدين بذلك سار الى شهر زور واقام فيها الى وفاته كما نقلناه عن ابن خلكان

(١) ابن الاثير ج ١٢ ص ١٦٩
(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٢٦
(٣) ١٢ ج ص ١٨٣
(٤) ابن الاثير ج ١٢ ص ١٧٤ و١٨٧

الفصل الثامن عشر

عصيان بعض اطراف الجبل

ثم مآل حكم الموصل الى بدر الدين لؤلؤ بموت ناصر الدين محمود الاتابكي

ذكرنا ان بدر الدين لؤلؤ استولى على قلاع الجبل الا قلعة شوش وكانت هذه القلعة أمنع من عقاب الجو تجاور عقر الحميدية وتبعد عن الموصل نحو اثني عشر فرسخاً فقصدها بدر الدين بجنوده سنة ١٢٢٢ (٦١٩ ﻫ) وافتتحها . وكان مظفر الدين كوكبري ينظر الى هذا الانقلاب بعين الحسد فعزم على ان يقصد الموصل ويضبطها غير انه تريث خوف ان يباغته الملك الاشرف بجنوده . ففتقت له حيلته ان يشغله عنه ليأمن غوائله وتبقى البلاد بينه وبين بدر الدين لؤلؤ وبعدة وجيزة توصل الى ان يثير عليه شهاب الدين غازي صاحب خلاط والمعظم عيسى صاحب دمشق . ذكر ابن خلدون : ان شهاب الدين غازي ولي عهد الاشرف وعامله على خلاط وأرمينيا استظهر بأخيه المعظم صاحب دمشق وبمظفر الدين كوكبري وتداعوا لحصار الموصل [1] فلما انتشبت الحرب بين بني أيوب خلا الجو لمظفر الدين فأقبل الى الموصل وحاصرها واستمر على حصارها مدة عشرة أيام وأخيراً حبطت مساعيه بحبوط مساعي مؤازريه وانكسار جيوشهم امام جند الملك الاشرف فعاد مظفر الدين عن الموصل الى اربل بصفقة خائب

وكان هذا الاختلال قد سرى الى الجبل وأفسح مجالا لبعض أهاليه ان يشقوا عصا الطاعة ويظهروا بالعصيان لاسيما أهالي قلعتي هرور [2] والعمادية فتغلب عليها بعض العصاة وهم اولاد خوجة ابراهيم وطردوا عمال بدر الدين وضبطوها وكانت العمادية حينئذ قلعة منيعة لجدة حصونها التي شادها عماد الدين

(١) ج ٥ ص ٢٧٢

(٢) هرور في ناحية برواري العليا على مسافة ٥٠ كيلو متر عن العمادية

الاتابكي الاول وهي الى اليوم في موقعها شمالي الموصل على مسافة ٨٠ كيلومترا . اما هرور فتجاور العمادية وقد وصف الحموي غزارة مياهها ووفرة خيراتها وكثرة معادنها لاسيما المومياي والحديد.

فلما بلغ خبر عصيان هاتين القلعتين الى بدر الدين جهز العساكر وأرسلها اليهما ، وبعد حصار طويل افتتحهما الجند وألقوا القبض على العصاة سنة ١٢٢٥ (٦٢٢ هـ) فأنفذ بدر الدين عماله في سائر جهاته واستقر الامن ومن ثم انصرف بدر الدين الى اصلاح الخراب الذي سببته تلك الاضطرابات في الموصل ونواحيها زيادة على ما اتلفه الجوع من النفوس التي لا يحصي عديدها [1].

وكان بدر الدين لؤلؤ قد عظم قدره وارتفع شأنه وآلت الامور اليه في الحل والابرام . وورد في كتاب روضة المناظر ان بدر الدين استولى على الدولة الاتابكية بعد موت الملك القاهر فانقرضت دولة بني اتابك [2] : ومفاد ذلك ان نور الدين ارسلانشاه الثاني وناصر الدين محمود اللذين خلفا اباهما الملك القاهر عز الدين الثاني كانا عاجزين عن ادارة الملك لحداثة سنهما فتسلم بدر الدين مقاليد التدبير بحيث لم يبق لهما الا اسم الملوكية فقط . ثم لما توفي ناصر الدين محمود استقل بالبلاد تماماً فوصل اليه التقليد من الخليفة العباسي المستنصر بالله الذي تولى الخلافة بعد أبيه الظاهر بأمر الله سنة ١٢٢٦ (٦٢٣ هـ) ولقبه بالملك الرحيم فخطب له على المنابر

وقد اختلف المؤرخون في تعيين زمن وفاة الملك ناصر الدين محمود آخر الملوك الاتابكيين فذهب أبو الفداء الى أنه توفي سنة ١٢٢٢ (٦١٩ هـ) وبعد موته استقل بدر الدين بالبلاد [3] . وذكر أبو الفرج : أن ناصر الدين

---

(١) ابن الاثير ج ١٢ ص ١٨٧

(٢) ك : ابن الشحنة ج ٩ ص ٦٨

(٣) ج ٣ ص ١٣٧

توفي سنة ١٢٣٣ (٦٣١ هـ) [١] ، وهـذا هو الأصح ، على أن الطغرا آت. والنقود ما زالت تضرب باسم ناصر الدين محمود الى سنة ٦٣١ هـ على ما يرى في جدول (طغرا آت) مسكوكات بعض ملوك الدولة الاتابكية الذي نشره المسيو . ن . سيوفي كما سنراه ومن بعد هذه السنة ضربت المسكوكات باسم بدر الدين لؤلؤ كما يلاحظ في الجـدول عينه . ومن ذلك يستفاد أن ناصر الدين الاتابكي ملك الى سنة ٦٣١ وفقاً لما يعينه أبو الفرج

الفصل التاسع عشر

نظرة اجمالية في أحوال دولة بني اتابك

انقرضت الدولة الاتابكية في الموصل بموت ناصرالدين محمود وقد دامت فيها نحومائة وست سنوات أي ٥٢١ ـ ٦٣١ هجرية ١١٢٧ ـ ١٢٣٣ ميلادية وقام فيها تسعة ملوك هاك اسماءهم مع مدة ملكهم :

(١) عماد الدين زنكي بن اقسنقر

١١٢٧ (٥٢١) ـ ١١٤٦ (٥٤١)

(٢) سيف الدين الأول بن عماد الدين

١١٤٦ (٥٤١) ـ ١١٤٩ (٥٤٤)

(٣) قطب الدين مودود بن عماد الدين

١١٤٩ (٥٤٤) ـ ١١٦٩ (٥٦٥)

(٤) سيف الدين الثاني بن قطب الدين مودود

١١٦٩ (٥٦٥) ـ ١١٨٠ (٥٧٦)

(٥) عز الدين مسعود الأول بن قطب الدين مودود

١١٨٠ (٥٧٦) ـ ١١٩٣ (٥٨٩)

(٦) نور الدين ارسلانشاه الأول بن عز الدين مسعود الأول

---

(١) أبو الفرج ص ٤٣٥

١١٩٣ (٥٨٩١) ـ ١٢١٠ (٦٠٨)

(٧) الملك القاهر عز الدين مسعود الثاني ابن ارسلانشاه الأول

١٢١٠ (٦٠٧) ـ ١٢١٨ (٦١٥)

(٨) نور الدين ارسلانشاه الثاني بن الملك القاهر

١٢١٨ (٦١٥) ـ ١٢١٩ (٦١٦)

(٩) الملك ناصر الدين محمود بن الملك القاهر

١٢١٩ (٦١٦) ـ ١٢٣٣ (٦٣١)

واشتهر هؤلاء الملوك بعمل الخير كتأسيس الجوامع واقامة المدارس ونشر العلوم كما سنراه في الفصل الآتي . وامتازوا خاصة بالعدل وحسن التدبير والرفق بالرعية . وقد ذكر صاحب الروضتين حادثاً في عدالة عماد الدين الأول قال : ان عماد الدين في عودته من احدى غزواته نزل بعساكره في ظاهر جزيرة ابن عمر ودخل البلدة وأقام في قلعتها . فاحتذى به أمير من كبار أمرائه يدعى أبا بكر الدبيسي . ودخل البلدة متخلفاً عن بقية الجند. فنزل دار رجل يهودي وطرد صاحبها منها . أما اليهودي فقصد عماد الدين يستنصفه وكان راكباً والدبيسي بجانبه . فلما اطلع الاتابك على الشكوى نظر الى الدبيسي نظر مغضب ولم يفه بكلمة بل رجع القهقرى ودخل البلدة وأمر باخراج خيمة من القلعة ونصبها في ظاهر البلدة واذ لم تكن الأرض حينئذ تحتمل وضع الخيام لكثرة الوحل والطين فكان الفراشون يضعون على الأرض تبناً لينصبوا خيمة زنكي وفعل الاتابك زنكي ذلك توبيخاً للدبيسي على سوء فعله باليهودي

ان مملكتهم اتسعت اتساعاً عجيباً في مدة يسيرة حتى كانت تشتمل في حياة الاتابك عماد الدين الاول على الموصل وسنجار والخابور ونصيبين (من الجزيرة) وعلى سائر القلاع الكردية (من كردستان) وعلى حلب وحمص وحما (من الشام) ثم واصل الفتوحات فوسع نطاق مملكته الى ماردين.

ودارا والرها وحران وسروج وآمد وشهرزور . ولما توفي عماد الدين الأول وخلفه في الملك ابناه نور الدين محمود وسيف الدين غازي الأول امتدت الدولة الاتابكية فصارت تشتمل على سائر بلاد الموصل الى تكريت وعلى بلاد دياربكر وشهرزور لسيف الدين غازي . وعلى سائر بلاد الجزيرة والشام ومصر لنور الدين وخطب له أيضاً في الحرمين الشريفين واليمن (١)

وكان الملوك الاتابكيون قد استقلوا بالبلاد والضرائب وذلك من عهد عماد الدين الأول ومالأهم على احراز هذا الاستقلال انتقاض أمر السلاطين السلجوقيين وضعف الخلفاء العباسيين يومئذ وكانوا لا يألون جهداً في اخضاع الاتابكيين وتقييدهم بدفع الجزية فلم يفلحوا كما يدلنا عليه قدوم المسترشد بالله بعسا كره الى الموصل وعوده عنها من غير جداء . ثم قدوم السلطان مسعود اليها وما كان من حربه مع عماد الدين الأول ورجوعه عنه خائباً . فقوي من ثم أمر بني أتابك وحازوا المنعة والصولة في الحروب حتى خافتهم سائر الملوك . وكان السلاطين السلجوقيون أنفسهم يهابونهم ويخشون بأسهم حتى أمسك الاتابكيون السلطانين السلجوقيين وهما الب ارسلان بن السلطان مسعود وسليمان شاه وزجوهما في سجن الموصل أي في قلعتها . وهرب الخليفة الراشد بالله من السلطان مسعود السلجوقي فلاذ بعماد الدين زنكي واستجار به ولم يجسر السلطان السلجوقي على قصده ولا المطالبة به . وكان الاتابكيون قد قطعوا خطبة الخلفاء والسلاطين وصارت الخطبة والسكة باسمهم في سائر بلادهم الى أن جددها للخلفاء سيف الدين غازى الثاني فخطب للناصر لدين الله سنة ١١٧٩ (٥٧٥ هـ) . وكانت مملكتهم على أتم انتظام وادارتهم موسومة بالعدل والرنق ، لصدق موظفيهم وهم قاضي القضاة ثم نائب الملك أو الوزير وكانت الأوامر تبلغ باسمه وتحت أمره عامة الجيش . ثم أمير الجيش ورئيس الدزدارية وهو رئيس خفر القلاع ثم أمير حاجب الدولة

(١) أبو الفدا ج ٣ ص ٥٨

ثم مأمور المال . هي جل الوظائف التي كانت عند بني أتابك وكان لهم أيضاً العمال على البلاد لجمع الضريبة . وهي كما كان يؤخذ يومئذ من سائر البلاد العباسية أي الصدقة أو الزكاة ، والجزية والخراج ، والمكوس والملاحات والأسماك وأعشار السفن وأخماس المعادن والمراصد والكارك وغلة الضرب وضرائب الصناعة والمستغلات (١) ونقل ابن الأثير عن أبيه الذي كان عامل الاتابكيين على جزيرة ابن عمر في أخذهم ضريبة المستغلات قال أتانا كتاب من الديوان بالموصل يأمرون بمساحة جميع بساتين العقيمة وهي قرية تحاذي جزيرة ابن عمر على دجلة ولها بساتين كثيرة بعضها مطلق وبعضها يؤخذ منها عن كل جريب شيء معلوم ، والجريب من المزرعة مساحة تحصل من ضرب ستين بنفسها وهي عبارة عن ٣٦٠٠ ذراع مربع

وكانت هذه الضرائب تجمع في بيت المال فكانوا ينفقون منها في شؤون الجيش وادارة الملك ويذخرون ما فضل منها في بيت المال حتى حشدوا مالا طائلاً واختزنوا ذهباً وافراً كانوا يبذلونه في سبيل الابهة والترف الملوكي . أورد السائح الاندلسي ما شهده هو نفسه في استقبال شائق جرى في الموصل لخاتون المسعودية ام عز الدين مسعود الاول وغالى في وصف ابهة الاحتفال وأمارات الجلال حتى قال : وكان مشهداً بهت الانظار واحدث الاعتبار . ذلك لما رآه من الحرائر الملونة والقلائد المزوقه التي كانت تجلل أعناق الابل ثم انتظام عسكر الجواري والجند الذين كانوا يطوفون بسيدتهم وقد جللت قبتها كلها بسبائك ذهب مصوغة اهلة ودنانير سعة الاكف وسلاسل وتماثيل بديعة الصنع بحيث لايبين من القبة موضع ومطيتاها تزحفان بها زحفا وصخب الحلي يسدّ المسامع ومطاياها مجللة الاعناق بالذهب ومراكب جواريها كذلك . فيقول هذا السائح الشهير وكان مجموع ذلك الذهب لا يحصي تقديره (٢)

(١) زيدان ج ٢ ص ٣٤
(٢) ابن جبير ص ٢١٦

وبدأ ظل هـذه الدولة يتقلص وسعدها يدبر ونحسها يقبل لما كشف صـلاح الدين الايوبي القناع عن مخبئات مطامعه في الاسـتيلاء على دولتهم وساعده في ذلك موت الملك الصالح بن نور الدين محمود وتسليمه البلاد لابن عمه سيف الدين غازي وكان سيف الدين عاجزاً عن صيانة هذه البلاد الفسيحة الارجاء فضبط منه صلاح الدين سائر بلاد الشام وأغلب بلاد الجزيرة ثم أقبل الى الموصل بعساكره وحاصرها دفعتين وأخيراً أجبر صاحبها عز الدين مسعود الاول أن يصالحه بتسليم سائر البلاد التي وراء الزاب وبلاد شهر زور وأن تـكون الخطبة والسكة باسمه فانحصرت حينئذ دولة بني اتابك في الموصـل وبعض القلاع الكردية وبعض بلاد الجزيرة كنصيبين ودارا وقرقيسيا وهذه أيضاً أخذها الملك الاشرف من ناصر الدين آخر الملوك الاتابكيين سنة ١٢٢١ (٦١٨ هـ) فـلم يبق لبني اتابك الا الموصل وقلعتا شوش والعمادية مع بقية قلاع الهـكارية والزوزان وهي النواحي الـكردية التي تحـدها بلاد العجم شرقا ووان شمالا وبتليس وسعرد في الشمال الغـربي وديار بكر في الغرب الجنوبي والموصل جنوبا

ان الاتابكيين خضعوا لصـلاح الدين الايوبي ، وبعد موته سنة ١١٩٣ (٥٨٩ هـ) صاروا يضربون النقود باسم أخيه الملك العادل الذي تولى بلاد الجزيرة والشام. وخطب الملك القاهر عزالدين مسعود الثاني باسم الخليفة الناصر لدين الله وباسم الملك الفائز محيي الدين يعقوب بن الملك العادل . ثم في سـنة ١٢٢٥ (٦٢٢ هـ) خضع ناصر الدين محمود بن الملك القاهـر للملك الاشرف صاحب الشـام والجزيرة وللملك الـكامل صاحب مصر ولدي الملك العادل وضرب النقود باسـمهما وكانا يومئذ متفقين على نزع دمشق من يد اخيهما الملك المعظم وبعده من يد ابنه الملك الناصر ودام اتفاقهما زمناً طويلا [1] . وفي سـنة ١٢٢٦ (٦٢٣ هـ) خطب للخليفة العباسي الظاهر بامر الله وللملك

(١) ابو الفداء ج ٣ ص ١٣٨ و ١٤٨

الكامل ولأخيه الملك الاشرف وكان بدر الدين لؤلؤ قد أنفذ الى الملك الاشرف فصار في طاعته وطلب منه أن يؤازره على الطامعين في ملك الاتابكي الصغير [1] فدامت الخطبة والسكة للملك الاشرف كما يتضح جلياً من جدول (طغرا آت) مسكوكات بعض الملوك الاتابكيين التي وقف عليها المسيو . ن . سيوفي ونشرها في هذا الجدول :

ملوك الموصل الاتابكيون

Atabeks de Moussel

لا اله الا الله وحده لا شريك له . الناصر لدين الله أمير المؤمنين

au 608 ٦٠٨ (١٢١١ م)

Autour : ؟ عمر [2] ؟ الملك الفائز

R : محمد رسول الله صلى الله عليه . عز الدنيا والدين اتابك

Autour : مسعود بن ارسلا نشاه بن ؟ مسعود

لا اله الا الله وحده لا شريك له . الناصر لدين الله أمير المؤمنين

id au 622 ٦٢٢ (١٢٢٥)

Autour : عدة ؟ الدنيا والدين أبو نصر محمد

R : محمد رسول الله صلى الله عليه . ناصر الدنيا والدين اتابك محمود

Autour : الملك الأشرف . الملك الكامل

الامام . لا اله الا الله وحده لاشريك له . الظاهر بأمر الله أمير المؤمنين

id au. 623 ٦٢٣ (١٢٢٦)

Autour : الملك الأشرف

R : ابن مسعود . محمد رسول الله صلى الله عليه . ناصر الدين والدنيا اتابك محمود

(١) ابو الفرج ص ٤٠٤

(٢) الظاهر ان الاثري المسيو سيوفي قرأ عمر بدلا من العادل أبي الملك الفائز

الملك الكامل : Autour

الامام . لا اله الا الله وحده لاشريك له . المستنصر بالله أمير المؤمنين.

id au, 628 ٦٢٨ (١٢٣٠)

الملك الأشرف Autour

R : محمد رسول الله صلى الله عليه . ناصر الدنيا والدين اتابك

محمود بن مسعود . الملك الكامل Autour

الامام . لا اله الا الله وحده لا شريك له المستنصر بالله أمير المؤمنين .

id au. 631 ٦٣١ (١٢٣٣)

الملك الفائز ؟ الملك الاشرف Autour

R : محمد رسول الله صلى الله عليه . ناصر الدنيا والدين أتابك

محمود بن مسعود . الملك الكامل Autour

الامام . لا اله الا الله وحده لاشريك له . المستنصر بالله أمير المؤمنين .

id au. 6 ؟ ؟ ٦ ؟ ؟

الملك الكامل . الملك الأشرف Autour

R : محمد رسول الله صلى الله عليه . ناصرالدنيا والدين أتابك

محمود . بن مسعود Autour

وبعد هذا التاريخ أي سنة ٦٣١ هجرية انتقل حكم الموصل الى السلطان لؤلؤ فضرب السكة وخطب باسم الخلفاء العباسيين والسلاطين الايوبيين . وباسمه كما سنراه في تتمة هذا الجدول

الفصل العشرون

تقدم الموصل عمراناً وحضارةً في عهد الدولة الاتابكية

رأينا ماكان من تقهقر الموصل في استيلاء الأمراء السلجوقيين عليها وما سببته اطماعهم وحروبهم السجال من الانحطاط في عمرانها ومعنويتها . وزاد على ذلك عسفهم وسوء ادارتهم حتى خرب معمورها وعفت معاهد علومها . وأصبحت على شفا جرف هار فكان اكثر عمرانها خراباً لما تسلمها الاتابكيون. ينقل صاحب تاريخ الكامل عن أبيه : انه رأى الموصل واكثرها خراب بحيث يقف الانسان قريباً من محلة الطبالين [1] ويرى الجامع العتيق ودار السلطان وليس بين ذلك عمارة قط . فكان الانسان لا يقدر على المشي الى الجامع العتيق الا ومعه حامية لبعده عن العمارة وهو الآن في وسط العمارة وليس في هذه البقاع أرض مراح . فان عماد الدين جدد عمارة الموصل وقصدها الناس واتخذوها دار اقامة . ثم أمر ببناء دور المملكة ولم يكن للسلطان غير الدار المعروفة بدار الملك مقابل الميدان . ثم رفع اسوار المدينة . وعمق خندقها [2] : ومما أوردناه يستفاد ان الموصل لما استلمها الاتابكيون كانت خراباً ، وذلك للسبب الذي ذكره ابن الاثير نفسه ، وهو مجاورة الافرنج وجور الأمراء السلجوقيين وانتقال حكمها من يد الى يد بحيث ان طمع هؤلاء الأمراء بها وغاراتهم المتواصلة عليها في تنازعهم حكمها جعلها خراباً سيما في جهتها الشرقية أي القسم الواقع منها على النهر من غربه كما يتضح مما ورد في تاريخ الكامل انه لم يكن عمارة بين محلة الطبالين ـ وهي على ما يظن محلة باب الجديد ـ وبين الجامع العتيق أو جامع الامويين ، ويعرف اليوم بجامع المصفي ، فكان هذا الخراب من جنوب شرقي المدينة الى شمالها الشرقي

(١) ترد في تاريخ مختصر الدول « محلة الطيالين »

(٢) ابن الاثير ج ١١ ص ٤٥

أي من محلة باب الجديد الى جامع المصفي الواقع في محلة الصحراء أو الكوازين فكان القسم الشرقي من المدينة انقاضاً وردماً لا يسكنه أحـد . ولما ملك الموصل الاتابك عماد الدين زنكى الاول عمر تلك الاخربة فقصـدها الناس وسكنوها . ثم شـيد دور المملكة بجوار « قره سراي » ازالة للمخاوف . وجعل الارض المراح التي نراها اليوم بين موقع قره سراي وبين محلة المكاوي في شمال شرقي المدينة كلها عمراناً حتى أصبح الجامع العتيق أي الجامع المصفي في وسط العمران [1]

ولم يزل قسم من هذا الخراب باقياً حتى بعد وفاة عماد الدين زنكى فكان في وسط المدينة بقعة فسيحة شيد فيهـا نور الدين محمود الاتابكى الجامع النوري أو الجامع الـكبير [2] وقد ورد ذكره . ومن هذا يستدل ان موقع الموصل هو اليوم كما كان قبلاً في عهد الاتابكيين حيث اننا نجد اليوم الجامع الـكبير يتوسط المدينة تقريباً . الا انها كانت في سائر اطرافها أوسع عمراناً مما هي الآن . اذ كانت البيوت تلاصق الاسوار ويدلنا على ذلك ابن جبير الذي شاهد الموصل سنة ١١٨٢ (٥٧٨ هـ) في عهد الملك عز الدين مسعود الاول بن قطب الدين مودود الاتابكى قال : انـ البيوت فيها (الموصل) بعضها على بعض مستديرة بجدار السور المطيف بالبلد كله . وفي هذه البيوت حرز ووقاية وهي من المرافق الحربية . وفي أعلى البلد قلعة عظيمة قد رُص بناؤها رصاً (موقعها في القليعات) وتتصل بها دور السلطان وقد فصل بينهما وبين البلد شارع متسع يمتد من أعلى البلد الى أسفله أي من شماليه الى جنوبيه على خط مستقيم . وكان الاتابكيون قد عمروا القسم الذى على دجلة على طول المدينة فشيدوا فيه ربضاً كبيراً كانت فيه المساجد والمدارس والمارستانات والخانات والاسواق وأحدث فيه الامير مجاهد الدين قيماز جامعاً على شط

(١) أبو الفرج ص ٣٥٩

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص١٦٩

دجلة يعرف اليوم بالجامع الاحمر أو جامع الخضر

وكانت البناية في الموصل من أجمل البنايات ، على أحسن أساليب الريازة العربية . فقد ذكر ابن جبير عن حسن أبنيتها ، وجمال هندامها ، وانتظام ابراجها وبيوتها . وقال عن الجامع الذي شيده مجاهد الدين على دجلة : اني ما أرى وضع جامع أحفل منه بناء يقصر الوصف عنه وعن تزيينه وترتيبه . وكان ذلك نقشاً في الآجر . ومقصورته عجيبة تذكر بمقاصير الجنة يطيف بها شبابيك حديدية تتصل بها مصاطب تشرف على دجلة لا مقعد أشرف منها ولا أحسن ووصفه يطول ، انما وقع الالماع بالبعض جرياً الى الاختصار . وامامه مارستان حفيل وداخل البلد قيسارية للتجار كانها الخان العظيم تنغلق عليها أبواب حديدية وتطيف بها دكاكين وبيوت بعضها على بعض قد جلى ذلك كله في أعظم صورة من البناء المزخرف الذي لا مثيل له فما أرى في البلاد قيسارية تعدلها (١)

ومن أشهر جوامع المدينة كان الجامع الجديد أو الجامع الكبير . وقد وصف المؤرخون انه كان آية في الحسن والاتقان . ثم جامع الامويين أو الجامع العتيق (المصفي) وكان الاتابكيون قد جددوا عمارته على أحسن أساليب البناية وزخرفوه في انواع النقوش . ومن أشهر أبنيته قبته الشهيرة التي كانت في صحن داره . وكان داخلها سارية رخام قائم قد خلخل جيدها بخمسة خلاخل مجدولة جدل السوار من جرم رخامها . وكان في أعلاها خصة رخام مثمنة يخرج عليها انبرب من الماء خروج انزعاج وشدة فيرتفع في الهواء قدر القامة كانه قضيب من البلور معتدل . ثم ينعكس الى أسفل القبة وينساب بقنوات الى الجامع الاحمر ، وجامع الامويين . وآثار هذه المنارة باقية الى اليوم . ثم جامع النبي يونس وقريباً منه أي بجانب خربات نينوى تل التوبة وكان عليه رباط عظيم يشتمل على بيوت كثيرة ومقاصير ومطاهر

(١) ابن جبير ص ٢١٤

وسقايات يضم الجميع باب واحـد . وفي وسط ذلك البناء بيت ينسدل عليه ستر وينغلق دونه باب كريم مرصع كله ويطيف بهذا البيت شمع كانه جذوع النخل عظماً . فكان أهالي الموصل يخرجون الى هذا الرباط كل ليلة جمعة ويتعبدون فيه . وكان حول هذا الرباط قرى كثيرة تتصل بها أخربة نينوى واليوم لا أثر لذلك سوى بعض القرى الصغـيرة . وذكر السائح الاندلسي المدارس والربط العديدة وذكر أيضاً ما شاهده في طريقه من النزل والخانات والأبنية الـكثيرة التي شادها الملوك الاتابكيون . وسعى هؤلاء الملوك أيضاً في تنشيط الزراعة . وكانت الموصل قبلهم في أقصى الحاجة اليها وأقل البلاد ثمرة حتى كان الذي يبيع الفواكه يتخذ له مقراضاً يقرض به العنب اذا أراد وزنه لقلته . وبعد ما عمر الاتابكيون البلاد صرفوا همتهم الى حثّ الأهالي على غرس البساتين الكثيرة في ظاهر الموصل حتى أصبحت بوقتهم من أغنى البلاد فاكهة (١) وقد نسج وزراء هذه الدولة على منوال ملوكها في تعمير البلاد وأخصهم جمال الدين الاصفهاني وزير قطب الدين مودود . فقـد نوّه المؤرخون عن اعماله ومبراته وبذله المساعدة لارباب العلم وتشييده الأبنية الـكثيرة وتعميره الجسور ، منها جسر عظيم بناهُ على دجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس . وذهبت به همته الى أن يشيد في مكة أبنية جليلة . فجدد مسجد الخيف وبنى الحجر بجانب الكعبة وزخرف الكعبة وبنى مسجداً على جبل عرفات وعمل الدرج عليـه . ثم عمل بعرفات مصانع الماء وبنى على المدينة سوراً (٢)

وذكر المؤرخون أيضاً عن أبي المنصور عبد الله الزيني الملقب بمجاهد الدين قايماز الخادم وزير سيف الدين غازي الثاني فانه أثر في الموصـل آثاراً جليلة وشيد مدرسة ومارستاناً وأوقف أملاكاً كثيرة على خبز الصـدقات وأنشأ ميتماً وأجرى له جميع ما يحتاج اليه ومدّ على النهر جسراً غير الجسر

(١) المقدسي ج ١ ص ٤٣

(٢) أبو الفداء ج ٣ ص ٤٤

الأصلي وبنى أيضاً الانزال والخانات في الطرق ليأوي اليها المسافرون في قرّ الشتاء وحرارة القيظ [١] ونشط العلم وأربابه فقصده المؤلفون كابي المعالي سعد بن علي الحظيري وقدم له كتابه الذي سماه « كتاب الاعجاز » برسم الامير مجاهد الدين قايماز » . ومدحته شعراء البلاد منهم ابن التعاويذي وكتب له من بغداد قصيدة منها :

مجاهد الدين دمتَ ذخراً　　لكل ذي فاقة وكنزا

وكانت سوق الآداب والعلوم نافقة عند الاتابكيين لكثرة المدارس التي انشأوها منها مدرسةُ سيف الدين غازي الاول . وهي المدرسة العتيقة وكانت من أحسن المدارس على دجلة في القليعات وتعرف اليوم بمدرسة يونس النحوي وفيها بعض الخطوط من ذلك العصر . ثم مدرسة عز الدين مسعود الاول وكانت من أوسع المدارس وقبالتها مدرسة ابنه نور الدين ارسلانشاه الاول وبينهما مساجد كبيرة [٢] . ويعد ابن جبير من مدارس العلم في الموصل ستاً ونيفاً كانت مبنية على دجلة مع مارستان عظيم . وكلها حسنة البناء تلوح كأنها قصور شاهقة عدا المدارس العديدة المنتشرة في سائر انحاء المدينة فنبغ منها في ذلك العصر العلماء الاعلام والشعراء الاماثل منهم : أبو منصور عبد الواحد بن ابراهيم المعروف بابن الفقيه (النصف الثاني من القرن الثاني عشر للميلاد) وابراهيم بن نصر السلامي (النصف الثاني من القرن الثاني عشر) وابن دهان عبد الله بن أسعد الشاعر البليغ وله ديوانه المشهور (النصف الثاني من القرن الثاني عشر) وابن الصائغ موفق الدين صاحب شرح الزمخشري (أواخر القرن الثاني عشر) وبنو الاثير ومنهم المؤرخ الشهير صاحب تاريخ الكامل (أوائل القرن الثالث عشر) والشيخ كمال الدين موسى بن يونس بن مالك وكان يدرس في الجامع الكبير الدروس

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٥٣٩
(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٢٥

الفقهية والمنطقية والطبيعية والرياضية والموسيقية فقصده الكثيرون من مسلمين ومسيحيين من البلاد البعيدة ليدرسوا عليه كالشيخ أثير الدين الابهري وعلم الدين قيصر بن أبي القاسم المقري المعروف بتعاسيف (أوائل القرن الثالث عشر) ويحيى أبو بكر بن سعدون صاحب كتاب دلائل الاحكام (أواسط القرن الثاني عشر للميلاد) والمدرس الشهير أبو الحرم بن ريان النحوي وكان يلقى دروساً فقهية ورياضية وموسيقية وغيرها (أواخر القرن الثاني عشر) ويوسف أبو درة الموصلي (مبادي القرن الثالث عشر) وله ديوان شهير في مجلدين ضخمين على ما ذكره ابن خلكان [١] . وأبو المحاسن بهاء الدين بن شداد صاحب النوادر السلطانية (مبادي القرن الثالث عشر)

وكانت الشعوب المسيحية صارفة همتها يومئذ الى انشاء المدارس ورفع منار العلوم فان سبريشوع بن المسيحي البطريرك (أواسط القرن الثالث عشر للميلاد) كان قد أنشأ المدارس على النسق العصري المعروفة بالداخلية فكان يقوم بنفقات المعلمين والطلبة بجميع ما يعوزهم من أكل وشرب ولباس حتى الحمامات ايضاً [٢] فنبغ فيهم في ذلك العصر شعراء بليغون كيوحنا الموصلي وجيورجيس وردا وخميس بن القرداحي الأربليين . ولثلاثتهم دواوين شهيرة بديعة في اللغة الكلدانية جمعوا فيها حوشي اللغة وفصيحها ببلاغة وانسجام وجزالة

(١) ج ٢ ص ٥٤٤
(٢) الطيرهاني ص ١١٧

الفصل الواحد والعشرون

استيلاء السلطان لؤلؤ على سنجار وبعض ديار الجزيرة لمدة وجيزة ثم عمران الموصل وعلومها في عهد سلطنته

خلف السلطان بدر الدين لؤلؤ بني أتابك في ملك الموصل سنة ١٢٣٣ (٦٣١ هـ) ، فسار على آثارهم وظل يخطب ويضرب السكة باسم السلاطين الأيوبيين أي باسم الملك الكامل والملك الاشرف حتى كانت سنة ١٢٣٧ (٦٣٥ هـ) وفي هذه السنة لقي الملك الأشرف حتفه وتوفي الملك الكامل بعده بستة أشهر فاستبشر السلطان لؤلؤ بوفاتهما . اذ كان دائباً في استعادة ما ذهب من بلاد بني أتابك . فقطع الخطبة والسكة باسم الأيوبيين . ثم جهز جيشاً كثيفاً ليسير به على سنجار . ويضبطها من يد الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل . وكان الملك الصالح يومئذ منشغلاً عنه الى حرب الخوارزمية [1] وباذلاً قصارى جهده في كبح جماحهم ومنع شرهم . فتخير السلطان لؤلؤ هذه الفرصة وقصده بالعساكر الى سنجار سنة ١٢٣٧ (٦٣٥هـ) أما الملك الصالح فأرسل الى الخوارزمية وهادنهم ببذل حران والرها

---

(١) الخوارزمية أو الخوارزميون هم جموع من عساكر جلال الدين بن خوارزمشاه محمد فلتت من سيف التتر . وذلك أن جلال الدين بعد ماقتله التتر سنة ١٢٣٠ (٦٢٨ هـ)سارت جيوشه مع الأمراء الذين كانوا يتولون قيادتها كبركة خان وكشلوخان وصاروخان وانضووا تحت راية السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباذ صاحب بلاد الروم وصاروا في خدمته الى أن توفي وخلفه في السلطنة ابنه غياث الدين كيخسرو فسامهم ذلاً ومن ثم هربوا منه وانتشروا في الديار الجزرية والسورية وأثخنوا فيها قتلاً ونهباً وما زالوا على ذلك حتى استمالهم الملك الصالح نجم الدين أيوب والملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب منعاً لشرهم وحذراً من بأسهم ثم أقطعاهم الرها وحران والرقة . وكان الخوارزمية يجاهرون بالعصيان حيناً بعد حين وقد كبر فسادهم وعم بلاؤهم البلاد . فاجتمع الحلبيون وساروا جيشاً عظيماً الى قتالهم وحملوا عليهم بشدة سنة ١٢٤٠ (٦٣٨ هـ) فاتلفوا منهم خلقاً كثيراً وقتلوا مقدمهم حسام الدين بركة خان فانحل عقد نظامهم ولحق فريق منهم مع أميرهم كشلوخان بالعساكر التترية وتفرقت بقيتهم في عرض البلاد الشامية وهكذا انكشف شر الخوارزمية

وأعادهم الى طاعته ومن ثمّ حمل بجنده على السلطان لؤلؤ وعساكره وناجزهم القتال حتى هزمهم شر هزيمة وغنم أثقالهم وكانت شيئاً كثيراً (١)

ولم تخب آمال السلطان لؤلؤ بهذه الكثرة المريعة بل عاود الكرّ على سنجار سنة ١٢٤٠ (٦٣٨ هـ) وكانت حينئذ بيد الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل الأيوبي اذ كان قد قايض دمشق من سنجار فضبطها السلطان لؤلؤ واستولى عليها

ثم لما حمل الحلبيون على الخوارزمية ومزقوهم في البلاد أي ممزق سنة ١٢٤٠ (٦٣٨ هـ) سار السلطان لؤلؤ في السنة عينها الى بلاد الجزيرة واستولى على نصيبين ودارا وقرقيسيا وكانت هذه البلاد من أقطاع الخوارزمية فامتدت مملكته واستقل بها فلم يكن يخطب لغيره من الملوك الا للخليفة العباسي وما زال على ذلك الى سنة ١٢٤٢ (٦٤٠ هـ) فخضع للسلطان غياث الدين كيخسرو وهو الحادي عشر من سلسلة الملوك السلجوقيين الذين ملكوا على الروم في قونية فصار يخطب باسمه وباسم الخليفة المستعصم بالله. ولما توفي السلطان غياث الدين كيخسرو سنة ١٢٤٣ (٦٤١ هـ) استبد السلطان لؤلؤ بالخطبة والطغراء في بلاده الى سنة ١٤٥٨ (٦٤٦ هـ) فاشرك فيها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز صاحب حلب

ثم جيش السلطان لؤلؤ عسكراً سنة ١٢٥٠ (٦٤٨) وسار به الى جزيرة ابن عمر وكانت بيد الملك المسعود بن الملك المعظم بن سنجر شاه بن سيف الدين غازي. وهذا كان آخر البيت الاتابكي. فحاربه السلطان لؤلؤ وقهره وضبط منه جزيرة ابن عمر ثم أسره وسيره في ركوة الى الموصل وكان قد تقدم فأوعز الى المتوكلين به أن يرموه ليلاً في دجلة فغرقوه وأذاعوا أنه رمى بنفسه في الماء وهم نيام (٢) وكان السبب في هذه الفتنة ما ذكره ابن العبري

---

(١) أبو الفدا ج ٣ ص ١٧٠

(٢) ابو الفرج ص ٤٥٦

أن الملك المعظم في حياته أخذ ابنة السلطان بدر الدين لؤلؤ زوجة لابنه الملك المسعود ليأمن على دولته من بدر الدين الذي كان قد استفحل أمره وعظم شأنه . ثم لما توفي الملك المعظم وصار أمر الجزيرة الى ابنه الملك المسعود أخذ يسيء الى امرأته ابنة السلطان لؤلؤ . فشكت حالها الى أبيها وأرسل أبوها في طلبها وأخذها عنده . ثم حمل على زوجها انتقاماً منه [1] وجرى ما ذكرناه

ولما عاد السلطان لؤلؤ الى الموصل حمل الملك الناصر يوسف صاحب حلب على بلاده التي في الجزيرة سنة ١٢٥٠ (٦٤٨ هـ) وكان سبب ذلك أن السلطان لؤلؤ أبطل الخطبة والسكة باسم الملك الناصر من سائر بلاده وجعلها باسم الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب الشام . فاغتاظ الملك الناصر من ذلك وقصد نصيبين بعساكره فقابلته عساكر الموصل والتحم القتال بينهم بظاهر نصيبين وبعد حرب شعواء انهزم الموصليون واستولى الحلبيون على اثقال لؤلؤ وخيمه وضبطوا نصيبين ، ثم نازلوا دارا وأقاموا على حصارها ثلاثة أشهر وافتتحوها فهدموا أسوارها وأخربوها ثم ساروا الى قرقيسيا وضبطوها وهكذا انحصرت مملكة السلطان لؤلؤ في سنجار وجزيرة ابن عمر واعمال الموصل [2] وكانت يومئذ على ما ذكرها الحموي الموصل والطيرهان والسن والحديثة والمرج وجهينة والمحلبية ونينوى وبرطلي وباهدرا وباعدرا وحبتون وكرمليس والمعلة ورامين وباجرمي ودقوقا وحانيجار والموصلان [3] وبعد هذه الكسرة أصبح السلطان لؤلؤ يخطب للملك الناصر يوسف ويضرب السكة باسمه فيما بقي بيده من البلاد حتى قدمها التتر كما تراه في تتمة جدول طغراآت الدولة الاتابكية للموسيو ن سيوفي :

الامام . لااله الا الله وحده لا شريك له : المستنصر بالله أمير المؤمنين

---

(١) ابن العبري س ص ٤٩٢

(٢) ابوالفدا ج ٣ ص ١٨٩

(٣) يراد بالموصلين الموصل وجزيرة ابن عمر وقد جاء البيت في كتاب تاج العروس :

وبصرة الازد منا والعراق لنا والموصلان ومنا المصر والحرم

id. au 632 سنة ٦٣٢ (١٢٣٤ م)

لؤلؤ . محمد رسول الله صلى الله عليه . بدر الدنيا والدين أتابك . R :

الامام . لااله الا الله وحده لا شريك له . المستنصر بالله أمير المؤمنين

id. au 633 ٦٣٣ (١٢٣٥ م)

Autour الملك الكامل

لؤلؤ . محمد رسول الله صلى الله عليه . بدر الدنيا والدين اتابك : R

Autour الملك الأشرف

الامام . لااله الا الله وحده لا شريك له . المستنصر بالله أمير المؤمنين

id. au 633 ٦٣٣ (١٢٣٥ م)

Autour الملك الاشرف

لؤلؤ . محمد رسول الله صلى الله عليه . بدر الدنيا والدين أتابك : R

Autour الملك الكامل

الامام . لا اله الا الله وحده لا شريك له المستنصر بالله أمير المؤمنين

id. au 638 سنة ٦٣٨ (١٢٤٠ م)

لؤلؤ . محمد رسول الله صلى الله عليه . بدر الدنيا والدين أتابك : R

الامام . لا اله الا الله وحده لا شريك له المستعصم بالله أمير المؤمنين

id. au 640 سنة ٦٤٠ (١٢٤٢ م)

Autour السلطان كيخسرو

لؤلؤ . محمد رسول الله صلى الله عليه . بدر الدنيا والدين أتابك : R

Autour السلطان كيخسرو

الامام . لا اله الا الله وحده لا شريك له . المستعصم بالله أمير المؤمنين

id. au 64 ? سنة ؟ ٦٤

لؤلؤ . محمدرسول الله صلى الله عليه . بدر الدنيا والدين أتابك : R

Autour السلطان كيخسرو

الامام . لا اله الا الله وحده لا شريك له المستعصم بالله أمير المؤمنين

id. au 642 سنة ٦٤٢ (١٢٤٤ م)

R : لؤلؤ . محمد رسول الله صلى الله عليه . بدر الدنيا والدين اتابك

الامام . لااله الا الله وحده لا شريك له . المستعصم بالله أمير المؤمنين

id. au 645 سنة ٦٤٥ (١٢٤٧ م)

R : لؤلؤ . محمد رسول الله صلى الله عليه . بدر الدنيا والدين أتابك

الامام . لا اله الا الله وحده لا شريك له المستعصم بالله أمير المؤمنين

id. au 646 سنة ٦٤٦ (١٢٤٨ م)

R : لؤلؤ محمد رسول الله صلى الله عليه . بدر الدنيا والدين أتابك

يوسف : dessous الملك الناصر Autour

الامام . لا اله الا الله وحده لاشريك له . المستعصم بالله أمير المؤمنين

id. au 647 ٦٤٧ (١٢٤٩ م)

R : لؤلؤ . محمد رسول الله صلى الله عليه . بدرالدنيا والدين اتابك

الملك الصالح نجم الدين أيوب Autour

الامام . لا اله الا الله وحده لا شريك له . المستعصم بالله أمير المؤمنين

id. au 650 ٦٥٠ (١٢٥٢ م)

R : لؤلؤ . محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . بدرالدنيا والدين اتابك

الملك الناصر يوسف Autour

الامام . لا اله الا الله وحده لا شريك له . المستعصم بالله أمير المؤمنين

id. au 65? ٦٥ ?

R : لؤلؤ . محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. بدر الدنيا والدين اتابك

الملك الناصر يوسف Autour

ان السلطان لؤلؤ تأثر الملوك الاتابكيين وسار على منهاجهم في رفع منار العلم وتشييد معاهد الادب زيادةً على ما اقامه الاتابكيون فنالت الموصل في

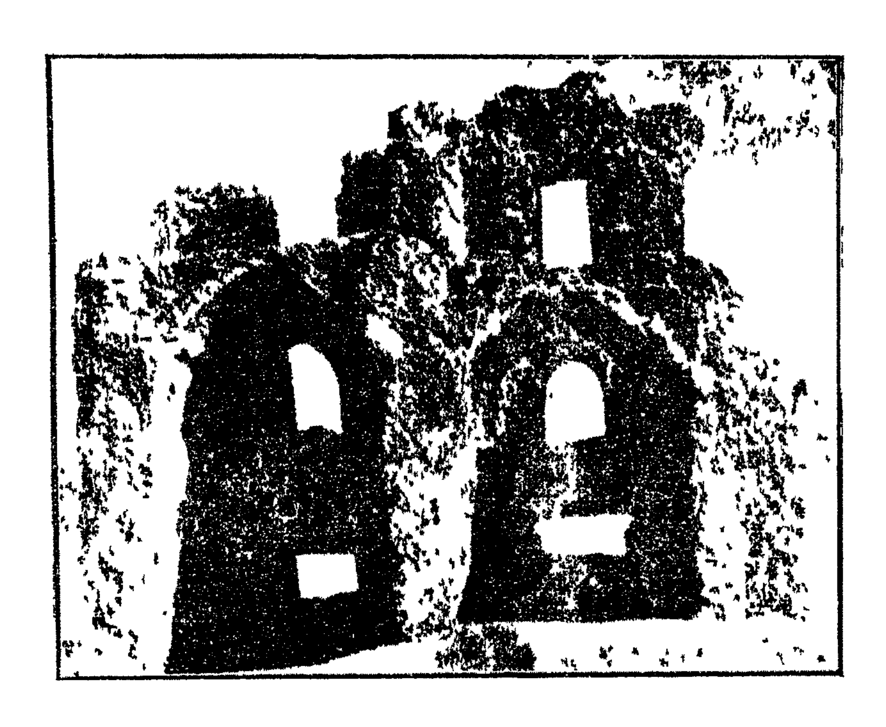
عهده القدح المعلى علماً وأدباً وطبق الآفاق ذكر مدارسها وعلومها حتى أمها في زمانه كثيرون من العلماء والادباء كالجغرافي الشهير ياقوت الحموي والتقى فيها بالشاعر البليغ عليّ بن المقرب الذي مدح السلطان لؤلؤ بقصيدة ضافية الابيات

واشتهر من علماء الموصل وادبائها في العصر اللؤلؤي العلامة ابن خلكان (في أواسط القرن الثالث عشر) والاديب ابن اردخل أبو عبد الله محمد (أواسط القرن الثالث عشر) وأبو الحسن عفيف الدين علي بن عدلان صاحب كتاب عقلة المجتاز في حل الالغاز وكتاب حل المترجم للملك الاشرف (أواسط القرن الثالث عشر) وابن الحلاوي أحمد بن محمد وكان شاعر البلاط السلطاني وصحب السلطان لؤلؤ في ذهابه الى هولاكو ملك التتر كما سنراهُ

وبلغت الموصل في حضارتها وعمرانها مبلغاً لم يكن أقل خطورة من بقية العواصم المشتهرة يومئذ بمدنيتها وعمرانها ، وكان أرباب الحرف والصناعات كثيرين على ما يظهر من عدد الحوانيت في الجدول المنشور في آخر هذا الفصل . واشتهرت الموصل خاصة بمنسوجاتها وعن اسمها شاعت في أوروبا (الموصليات *Mousselines*) من الانسجة القطنية الرقيقة الصنع مع متانتها وحسنها وكذا اشتهرت في بقية الصنائع فكان أهلها يصطنعون الحلي والمصاغات والاسلحة والطنافس وامتازوا في فن البناية والريازة . فان النزر الباقي من آثارهم ينم على حسن ذوقهم في الابنية الشاهقة المتينة ومنها بقايا قصر السلطان لؤلؤ (قره سراي) الواقع على دجلة في شمال شرقيِ المدينة وباقٍ منه جدار عظيم ضارب في الفضاء مع نوافذه الواسعة المطلة على النهر . ومن الاقوال المأثورة ان هذا القصر كان في وسط المدينة في عهد السلطان لؤلؤ والأصح أنه كان واقعاً في وسط العمران الذي كان يمتد يومئذ الى الاسوار وذلك في سائر انحاء المدينة واليوم هو في ظاهر المدينة يبعد عن العمران نحو كيلو متر

وأكثر . وترى الى اليوم على جدرانه كتابات متقنة الخط ناتئة الحروف منها هذان البيتان :

لو أنصفوا أُنصِفوا لكن بغوا فبغى
عليهم الدهر بالآفاتِ والمحن
وأصبحوا ولسان الحال ينشدهم
هـذا بذاك فلا عتب على الزمن



بقايا قصر السلطان لؤلؤ المعروف بقره سراى

محاسن الموصل

في عصر السلطان بدر الدين لؤلؤ سنة ٦٥٦ هـ

نقلا عن كتاب مرآة الزمان لابن الجوزي

جوامع (٣٥) مساجد (٣٠٠٠) مدارس (٢٨) دور الحديث (١٨٠) خانقاهات او (تكية درويش) (٢٧) كنائس المسيحيين (٥٨) معابد اليهود (١٦) حمامات « زوج » (٢٠٠) حمامات للرجال (١٠) خانات الحاكة (٩٠٨) مطاحن (مدارات) (٤٠٢٠) مزارات (١٢٠) معاصر للسمسم (٩٩) خوابئ ماء للخير (مزملات) (١٢٥) جوم الحاكة (٧٥٠٠٠) ابواب المدينة (٩) قناطر (١٦٠٠) قفافيز ؟ (٢٦٠٠٠) دور مثمنة (٣٦٠٠٠) حجر مربعة (١٠٠٠٠) بساتين في المدينة (٣٦٠) بساتين (خضروات) (٩٥) ارحاء (٦٨) نواعير « دواليب » (١٦) سفن على دجلة (٢٥٠) جسر (٢) درجيات (١٨) نصارى المدينة (٤٣٠٠٠) اليهود (٣٦٠٠) سراديب المنازل(١٦٠٠٠)قرى الشرق(٢٣٠٠) قرى الغرب(١٥٠٠) الاسواق(٣٦) حوانيت القيصرية (١٢٠) حوانيت الاسواق (٤/٥١٥) الدمغة اليومية (١٠٠٠٠ درهم) دور الضرب (١٠٠٠) عمارة القيصرية النورية (٦٩٩) قيصرية المسك (١٢) [1]

(١) منهل الاولياء

الباب الرابع

الدول التي حكمت الموصل أخيراً وهي الدولة الايلخانية والدولة الجلايرية والدولة التيمورية والدولة القويونلية والدولة الصوفية والدولة العثمانية.

الفصل الاول

المغول أو التتر ومنشأ الدولة الايلخانية

كانت الاقوام المغولية أو التركية تسكن الاقطار الشمالية من أسيا أي تركستان ومغولستان وما نجوريا وقسماً من سيبريا . والتتر اسم لاحدى هذه القبائل المغوليـة ثم تعمم لما ملك جنكيزخان فأصبح اسم التتر مرادفاً لاسم المغول حتى صار يطلق على عموم الاقوام التورانية وذلك منذ الاجيال الوسطى [١]

كان ترموجين أو جنكيزخان مغولياً وكان أبوه حاكماً على بعض القبائل التترية التي على شواطيء نهر سلنكا (*Selenga*) وبعد وفاة أبيه سـنة ١١٦٤ ميلادية ظهرت رعاياه بالعصيان عليه فنهض جنكيزخان لمحاربتهم وصار يرغمهم على الطاعة شيئاً فشيئاً حتى تغلب عليهم جميعاً وأحرز شهرةً عظيمة ثم نادى بنفسه ملكا (خاناً) على التتر قاطبة

ويلخص السمعاني [٢] : ان ترموجين ويسميـه تموجين كان منذ نعومة اظفاره في خدمة اونك خان وهو المسمى الملك يوحنا الذى كان مستولياً على قبائل الترك المشارقة . ولما بلغ تموجين أشده اشتهر بشجاعتـة وبسالته في الحروب وبلغ من التقدم مبلغاً عظيما فحسده الاقران وسعوا به الى أونك خان حتى اوغروا صدره عليه فعزم أونك خان على اعتقاله. ولما علم تموجين بالدسيسة

(١) سامي
(٢) المكتبة الشرقية جلد ٣ ج ٢ ص ١٠٢

جمع أصحابه وحمل عليه ثم استولى على ملكه وحينئذ سمى نفسه جنكيزخان. ومعناه خان الخانات . وبعد ما استقرت له البلاد التي كانت في حوزة اونك خان أخذ يراسل رؤساء بقية القبائل التترية ويدعوهم الى طاعته فمن لم يطعه سار اليه وقهره حتى خضعت له جميع هذه القبائل التترية . ثم لما كبر أولاده الاربعة وهم : توشي وجغاتاي واوكتاى وتولي ولاهم البلاد ونظم حدود مملكته وأقام الخفر على الطرق ليحموا المسافرين منهم واليهم تسهيلا لاسباب التجارة ثم انفذ جماعة من تجار التتر الى بخارى لعرض بضاعة بلادهم مع رسول الى السلطان محمد الثاني خوارزمشاه . فلما وصلوا الى بخارى نهبهم خوارزمشاه وقتلهم . وعلى ذلك سار جنكيزخان بجيوشه الى بخارى وافتتحها سنة ١٢١٩ (٦١٦ هـ) وقتل كثيراً من أهلها واحرقها حتى جعلها قاعاً صفصفاً ومن ثم سار جنكيزخان يدوخ البلاد فامتدت غزواته من ولايات العجم العربية الى شطوط نهر الفولكا واقصى سواحل بحر الخزر

ولما توفى جنكيزخان سنة ١٢٢٦ (٦٢٤ هـ) خلفه ابنه اوكتاي الذي دُعي قاآن خان . وسير قاآن خان جيوشه ليدوخوا البلاد فملكوا المدن الكثيرة وحازوا نصراً باهراً حتى ارتعدت فرائص الملوك فرقاً لسطوتهم . يقول الشيخ ابن الاثير ما معناه : قصد التتر بلاد تركستان وبلاد ما وراء النهر وخراسان والري وهمذان وبلد الجبل الى حد العراق واذربيجان وما يجاورها ثم افغانستان وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان فملكوها قاطبة بعد أن افسدوا فيها قتلا ونهباً ، واحرزوا ظفراً لم يطرق الاسماع مثله . فان الاسكندر المقدوني الذي اتفق عليه المؤرخون انه ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة انما ملكها في نحو عشرين سنة وهؤلاء ملكوا أكثر المعمور واحسنه في نحو سنة واحدة فلم يبق ملك من الملوك الا وهو غير آمن على نفسه من صولتهم . ومن عجيب أمرهم عيشتهم الشظفة التي تعودوها في الحروب فما كانوا يحتاجون الى ميرة ومؤن انما كانوا يكتفون بالبان خيلهم أو البانه

البقر ، أما خيامهم فكانت لا تعرف أكل الشعير بل كانت تحفر الارض بحوافرها وتأكل كل عروق النبات [١] وسار التتر الى آمد وارزن وميا فرقين سنة ١٢٣٠ (٦٢٨هـ) ونهبوا سوادها ثم قصدوا مدينة سعرد وبعد قتال عنيف دخل التتر وبذلوا في أهلها السيف حتى كادوا ان يأتوا على آخرهم . ومن هناك اقبلوا على اعمال اربل حيث فتكوا فيها فتكاً ذريعاً . وجاء في تواريخ مختصر الدول [٢] ان مسير التتر الى بلد اربل كان سنة ١٢٣٥ (٦٣٣هـ) فعبروا الى بلد نينوى ونزلوا ساقية قرية ترجلى أو ترجلة وكانت عند منبع ساقية كرمليس في شرقيها تبعد عنها نحو الساعة بجوار عينها الكبريتية وأتى منهم الى قرية كرمليس وكان أهلها قد اجتمعوا بالكنيسة ولها بابان فدخلها التتر وجلس منهم أميران كل واحد على باب وأذنوا للناس بالخروج من الكنيسة فمن خرج من أحد بابيها قتلوه ومن خرج من الباب الآخر أطلقه الأمير الآخر الواقف على ذلك الباب ، وابقاه . واقام التتر مدة في تلك البقعة العامرة بقراها الكثيرة فاخربوها واتلفوا منها خلقاً لا يحصى عددهم ثم عادوا عنها . والظاهر ان بدر الدين لؤلؤ خرج اليهم وهادنهم على تأدية الجزية كما يؤيده أبو الفرج ان كيوك خان الذي خلف أباه قاآن خان ولى سنة ١٢٤٧ على بلاد الروم والموصل والشام والكرج أميراً اسمه ايلجيكتاي ولم يكن ايلجيكتاي عاملاً عليها بل اقامه الخان لجمع الاتاوة [٣] . وذكر ابن الاثير ان مونككا خان لما ملك ولى الأمير ارغون على جمع الاتاوة من الموصل وغيرها . وكانت الاتاوة عندهم ان يزن المتمول في السنة عشرة دنانير والفقير ديناراً واحداً ومن مراعي ذوات الأربع الذي يسمونه قوبجور يؤخذ من كل مائة رأس من نوع واحد رأس واحد [٤] . وجاء في كتاب الفتوحات

(١) ج ١٢ ص ١٤٨

(٢) ابو الفرج ص ٤٣٦

(٣) ابو الفرج ص ٤٤٩

(٤) أبو الفرج ص ٤٥٩

الاسلامية ان هولاكو لما قصد بغداد أخذ معه عساكر الموصل[١] . فيتضح ان التتر ملكوا الموصل قبل فتحهم بغداد . ولما كانت سنة ١٢٣٦ (٦٣٤ هـ) جمع التتر قوتهم وحملوا على العراق حتى وصلوا الى زنكاباذ وسرّ من رأى فخرج عليهم الدويدار مجاهد الدين وشرف الدين الشرابي بالعساكر الكثيرة فحاربوهم ودفعوهم عن البلاد . ثم ان التتر عاودوا الكر على بغداد نهاية السنة فظفروا بجيوش بغداد الا انهم لم يتمكنوا من دخولها لمناعتها وقوة اسوارها .
ولما ملك مونككا خان سنة ١٢٥١ (٦٤٩ هـ) أرسل أخاه هولاكو بجيوش كثيرة الى فتح بغداد وأقبل هولاكو عازماً ان يفتحها عنوة ، فخرج اليه الخليفة المستعصم بالله الذي تولى أمر الخلافة بعد أبيه المستنصر بالله سنة ١٢٤٢ (٦٤٠هـ) وانتشب بينهما القتال ثم انتصر التتر علي جيوش الخليفة بخيانة وزيره ابن العلقمي ودخل هولاكو مظفراً الى بغداد سنة ١٢٥٧ (٦٥٥ هـ) وقيل (٦٥٦ هـ)[٢] وسار ليشاهد دار الخلافة ثم أمر باحضار الخليفة فحضر اليه واهداه جواهر نفيسة ولآلئ ودرراً معبأة في اطباق[٣] . لكن هولاكو غدر به وقتله مع اولاده وظلت الجيوش التترية تنهب وتقتل مدة سبعة أيام في بغداد وقيل مدة أربعين يوماً[٤] . وتلف في اثنائها خلق لايحصى عددهم

فانقرضت الدولة العباسية من بغداد وقد دامت خمسمائة واربعاً وعشرين سنة قام فيها سبعة وثلاثون خليفة . ومن ثم انتقل منصب الخلافة الى التتر وأسس هولاكو دولته في بغداد في عهد مونككا خان فسميت الدولة الايلخانية نسبة الى لقب هولاكو (ايلخان) المعطى له من الخان العظيم .
ولما استقر الملك لهولاكو سار الى فتح البلاد فامتدت مملكته حتى أصبحت تشتمل على ثمانية أقاليم وهي : اقليم خراسان وكرسيه نيسابور واقليم العراق

(١) دحلان ج ٢ ص ٢٨
(٢) دحلان ج ٢ ص ٢٨
(٣) أبو الفرج ص ٤٥٦
(٤) ك : ابن الشحنة ج ٩ ص ١١٣

العجمي ويعرف أيضاً ببلاد الجبل وكرسيه اصفهان واقليم العراق العربي وكرسيه بغداد واقليم اذربيجان وكرسيه تبريز واقليم خوزستان وكرسيه تستر واقليم فارس وكرسيه شيراز واقليم ديار بكر وكرسيه الموصل واقليم الروم وكرسيه قونية [١] وغيرها ليست مشتهرة مثل هذه الاقاليم العظيمة

ان هولاكو لم يكن له الاستقلال التام في البلاد التي كانت تحت ضبطه بل كان يخضع فيها للخان الأعظم لذلك لم يضرب اسمه على السكة بل اسم الخان الأعظم . ولم تستقل الدولة الايلخانية استقلالاً تاماً الا لما تملكها ارغون خان رابع ملوكها فانه أول من بدأ منهم ان يضرب في السكك اسمه مع اسم الخان الاعظم [٢] . اما مايتناقله المؤرخون من ان هولاكو كان الخان الأعظم وكبير الدولة المغولية فذاك لانه أول من ملك بلاد المسلمين بعد فتح بغداد وزوال الدولة العباسية

الفصل الثاني

ختام سلطنة بدر الدين لؤلؤ وما حصل من الاضطراب في الموصل

لما آل الملك الى الدولة الايلخانية التترية أنفذ بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ابنه الملك الصالح اسماعيل بالنيابة عنه الى ملك التتر لتقديم الطاعة فاظهر له هولاكو عبسة وقال « أنتم بعد في شك من أمرنا وماطلتم الى اليوم لتنظروا من الظافر بصاحبه ، فلو انتصر الخليفة وخذلنا لكان مجيئكم اليه لا الينا . قل لابيك : لقد عجبنا منك تعجباً كيف ذهب عنك الصواب وعدل بك ذهنك عن سواء السبيل واتخذت اليقين ظناً وقد لاح لك الصبح فلم تستصبح » . فلما عاد الصالح الى الموصل وبلغ اباه ما حمل من الرسالة الزاجرة ايقن بدر الدين ان المنية قد كشرت له عن انيابها فذلت نفسه وهلع قلبه هلعاً

---

(١) ك : ابن الشحنة ج ٩ ص ١٣٢

(2) Museum Cuficum Borgianum p : 75

شديداً وبادر الى خزائنه فاخرج ما فيها من الجواهر والاموال وصادر أيضاً ذوي الثروة من رعاياه وأخذ حتى حلي نسائه ودرر أولاده ثم سار الى طاعة هولاكو بجبال همذان . فأحسن هولاكو قبوله واحترمه لكبر سنه ورق له وجبر قلبه بالمواعيد الجميلة وقدمه حتى اصعده على سريره واذن له ان يضع بيده في اذنيه حلقتين كانتا معه فيهما درتان يتيمتان [1] وبعد ان أقام بدرالدين اياماً عنده عاد الى الموصل مذعوراً مما شاهده من عظمة المغول وهيبة هولاكو ودهائه

ثم توفي السلطان الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ بعد رجوعه بايام قلائل في العشرين من تموز سنة ١٢٥٨ (٦٥٧ هـ) وتولى ابنه الملك الصالح الموصل وابنه علاء الدين سنجار وابنه اسحق المجاهد الجزيرة وايدهم هولاكو مظهراً لهم الرعاية والمودة [2] ثم أرسل يطلب الملك الصالح ليسير معه في حروبه غير ان أولاد بدرالدين تغيرت قلوبهم على المغول وزادهم تغيراً ظهور الملك الظاهر بيبرس البندقدار رابع المماليك البحرية في مصر سنة ١٢٥٩ (٦٥٨ هـ) وكان قد استفحل أمره وسار يدوخ البلاد فذاع صيته واشتهرت شجاعته ولاذ به الملوك المسلمون يستنصرونه على المغول التتر . ولما كانت سنة ١٢٦٠ (٦٥٩هـ) هرب علاء الدين بن السلطان لؤلؤ صاحب سنجار الى الملك الظاهر بيبرس في مصر فجعله نائبا على حلب [3] وكتب علاء الدين الى اخيه الملك الصالح صاحب الموصل يصف له شوكة البندقدار وعظمته ويشير عليه بمغادرة الموصل والالتحاق بالبندقدار حتى اذا تمكن من قهر المغول وضبط البلاد منهم يصبح من المقدمين اليه فيوليه مع الموصل بلاداً اخرى

ولما بلغ الكتاب الى الملك الصالح ووقف على ما فيه وضعه تحت طراحته وكان عنده آنئذ شمس الدين محمد بن يونس الباعشيقي أحد امراء ابيه النواب

(١) ابو الفرج ص ٤٨٣
(٢) ابو الفرج ص ٤٨٦
(٣) شاكر ج ١ ص ٨٧

ببلد نينوى . فغافله وأخذ الكتاب من تحت الطراحة وخرج هاربا الى قريته باعشيقا . ولما طلب الملك الصالح الكتاب ولم يجده وقع عنده ان شمس الدين سرقه لسوء في نفسه فسير من ساعته جنداً في طلبه ووصل الجند مساء الى شمس الدين فاشغلهم بالاكل والشرب واوصى غلمانه ان يكثروا لهم من الخمر فاكثروا لهم منه حتى سكروا وناموا وعندئذ أخذ شمس الدين اولاده وما يعز عليه وركب أول الليل قاصداً اربل . ثم طفق يشيع في طريقه ان الملك الصالح عازم على نهب نينوى وقتل اهاليها فصدقوا كلامه لا سيما وكان قد بلغهم عن ذلك قبلا ومن ثم انتشر الخبر بين سكان نينوى وقراها ان الملك الصالح يريد قتلهم فاسرعوا في العبور الى اربل منهزمين . أما الرسل الذين انفذهم الملك الصالح في طلب ابن يونس الباعشيقي فلما أصبحوا وقد صحوا من سكرهم ولم يجدوه ظنوه قد سبقهم الى الموصل فأقبلوا الى الملك وعرفوه بما جرى لهم وحينئذ تحقق ظن الصالح بان ابن يونس قد هرب الى المغول ليطلعهم على الكتاب الوارد اليه من اخيه فاعتراه خوف شديد واسرع بجماعة من أمرائه وأولاده آخذاً من قصره ما خف حمله ورحل ذلك اليوم عينه متوجهاً الى الشام . ثم خالفه بعض أمرائه فتخلفوا عنه راجعين الى الموصل وكان زعيمهم أميراً اسمه علم الدين سنجر فلما بلغوا الموصل الفوها موصدة الابواب وذلك ان زوجة الملك الصالح تركان الخوارزمية اتفقت مع ياسان أحد رجال الشحنة وأغلقت أبوابها بوجه الأمراء الراجعين مستبدة بحكم الموصل . فنزل هؤلاء الأمراء خارج المدينة وأخذوا يغيرون على أبوابها الدفعة بعد الاخرى حتى يئسوا من فتحها . ثم اتفقت عصبة داخل المدينة بزعامة رجل اسمه محيي الدين بن زبلاق من الكتبة الماهرين الذين كانوا بخدمة بدر الدين لؤلؤ وأنكروا فعل تركان والشحني فهجموا على الابواب وافتتحوها وأدخلوا علم الدين بأصحابه . فهرب الشحني بتركان الى القلعة وتحصنوا فيها . فانتقض الامن الداخلي وانتشر أهل الفساد من الاوباش

والسفلة في المدينة ينهبون ويقتلون . قال أبو الفرج قتل في هذه الغائلة عدد لا يحصى من النصارى . ولم يفلت منهم الا من هرب أو أسلم . وفي اليوم الثاني وهو السبت نزل الاكراد من الجبال المجاورة على نينوى وقراها فنهبوها وقتلوا المتخلفين فيها من النصارى . وفيما كانت أحوال الموصل وما يجاورها في اسوأ الاحوال وقد عمتها الفوضى قدم عسكر المغول من صوب جزيرة ابن عمر . فخرج لقتالهم الامير علم الدين سنجر بعسكره . وقد انضم اليه أمراء الاكراد ، والتقى بجيش المغول بعيداً عن الموصل فتناوشوا القتال ثم احتال عليهم المغول واحتاطوا بهم من جميع الاطراف وأعملوا فيهم السيف حتى كادوا أن يأتوا على آخرهم . وفيهم قتل علم الدين سنجر مع بقية أمرائه فباتت الموصل في فوضى الحال يتغلب فيها القوي على الضعيف . حتى أواخر الصيف وحينئذ تواترت الاخبار بقرب وصول المغول ثانية ولم يدنه تشرين الثاني حتى كانت المدينة محاطة بجند المغول وعلى مقدمتهم أمير كبير يدعى سمدغو

الفصل الثالث

عودة الملك الصالح بدر الدين لؤلؤ الى الموصل وموته فيها ثم انتقال حكمها الى عمال التتر

بلغ الملك الصالح بن السلطان لؤلؤ الى مصر فاكرمه الملك الظاهر بيبرس البندقدار وأحسن اليه وكان في تلك الايام قد ظهر في مصر رجل ادعى نفسه من أولاد الخلفاء . فجهز له الملك الظاهر جيشاً وأرسله معه الى بغداد ليكشف التتر عنها ويستولي على ملك آبائه . ثم أنفذ معه الملك الصالح . فلما قربوا من بغداد خرج عليهم عليّ بهادور بجيش من التتر فقتل ابن الخليفة وفرق جموعه . أما الملك الصالح فانه أقبل الى الموصل وكان سمدغو القائد التتري على حصارها فأفرج له حتى دخلها مطمئناً (١) ثم أحاطت بها العساكر التترية من

(١) ابن العبري س ص ٥١٩

كل صوب وأقام سمدغو على حصارها الى الربيع وهو عاجز عن فتحها . ولما رأى جلد الأهالي وعزمهم في الدفاع مع ماهم عليه من قلة الارزاق . أنفذ الى الملك الصالح يعده بالمواعيد الكثيرة اذا فتح له المدينة . وفي تلك الاثناء أقبل عسكر من الشام مقدمتهم أمير اسمه برلوا نجدة للملك الصالح فالتقى بهم المغول عند سنجار وقتلوهم واغتنموا خيلهم وسلاحهم . وعند ذلك ارتأى الملك الصالح أن يطايب المغول ويصالحهم بفتح المدينة ففتحها لهم وخرج الى استقبالهم بآلات الطرب والاغاني غير ان سمدغو غدر به وأمر بالقبض عليه . وحينئذ دخل المغول الموصل فسبوا ونهبوا وأعملوا السيف ثمانية أيام قتلوا من أهلها خلقاً لا يعلم عددهم الا الله وحده [٢] . وسبب قدوم التتر الى الموصل كانت خيانة شمس الدين بن يونس الباعشيقي فانه لما سرق رسالة علاء الدين لاخيه الملك الصالح أخذها الى المغول وأطلعهم عليها فثار غضبهم على أولاد السلطان بدر الدين لؤلؤ وقصدوا مدينتهم وفعلوا فيها كما ذكرناه . ثم ان سمدغو كافأ شمس الدين فولاه الموصل وقبل أن يسير عنها أحضر عنده ابن الملك الصالح واسمه علاء الملك وهو صبي حدث فأسقاه خمراً كثيراً . ثم أمر أن يشد ويقطع أرباً . ثم رحل سمدغو عن الموصل وأصحب معه الملك الصالح الى هولاكو حيث قضي عليه صبراً . وتمّ الامر في الموصل لشمس الدين . غير أن أهل الغدر لايفلحون ففي السنة التالية من ولايته وهي سنة ١٢٦٢ (٦٦١ هـ) سعى به أحد الجنود واسمه الزكي الاربلي الى الاهالي وأثارهم عليه مدعياً انه جمع الاموال والجواهر من خزائن السلطان بدر الدين لؤلؤ وانه كان قد سقاه سماً وقتله . وأزاح الزكي الاربلي الحجاب عن غدر الباعشيقي وخيانته في قدوم المغول والخسائر الفادحة التي لحقت بالاهالي من سببه . فهاج الاهالي وهجموا على الباعشيقي وأوثقوه وبعد ان أوسعوه سباً وأشبعوه ضرباً قتلوه شر قتلة وهذا جزاء من غدر وظلم .

(٢) أبو الفرج ص ٤٩٥ و ٤٩٦

ثم تولى بعده على الموصل ومايجاورها الزكي الاربلي وأقام في ولايتها حتى توفي هولاكو سنة ١٢٦٤ (٦٦٣ هـ) [1] وخلفه ابنه اباقاخان وكان هذا قد بلغه عن الثورة الاهلية التي أثارها الزكي الاربلي على عاملهم فأنفذ الى الموصل أحد الأمراء وهو ناصرالدين فأفأ مصحوباً بالأوامر المشددة في قتل الاربلي فأقبل فأفأ الى الموصل سنة ١٢٦٦ (٦٦٥ هـ) وبعد أن نفذ أوامر أباقا في قتل الاربلي تولى مكانه الى سنة ١٢٧٦ (٦٧٥ هـ). ثم عزله أباقا وولى مكانه رجلاً نصراني المذهب اربلي المولد يدعى مسعود برقوطي [2] وكان أبوه أعلم الدين يعقوب التاجر من أخص ثقات أباقا وأعز المقربين اليه. وكان يعقوب في السنة المذكورة قد سار الى أباقا لتأدية الاحترام والسلام. وفي عودته وهو في الطريق أدركته المنية. ولما أخبر أباقا بوفاته اغتمّ عليه فولى مكافأة لاخلاصه ابنه الأكبر مسعود على الموصل واربل ثم مضى على ولاية مسعود مدة ليست يسيرة وكان فأفأ مقيماً في الموصل يتربص فرصة ليشيه الى ملك الملوك فلم يجد عليه أمراً كبيراً أوصغيراً فاتفق معه بعض ذوي الاغراض وأنفذوه الى ملك الملوك لينوب عنهم في رفع الشكوى على مسعود بسوء ادارته وكثرة مظالمه. فأوفد الملك نفراً من عظماء مملكته الى الموصل ليستقصوا أحوال مسعود ويطلعوا على حقيقة الشكوى. فلما قدموها أرشاهم فأفأ وأيد الشكاية زوراً. وعلى هذا عزل الرسل مسعوداً عن الولاية وجعلوا فأفأ مكانه غير أن مسعوداً لم يرض بهذا الحكم بل قصد أباقا ليرفع اليه ظلامته ويبرر نفسه مما اتهم به غدراً فأنفذ أباقا أخاه مع صهره الى الموصل ليحصا الشكوى. ولما أتيا اطلعا على بطلان الشكوى وارتشاء الحكام فأرسلا الى الملك يخبرانه بذلك ومن ثم صدر الأمر الملوكي بقتل الحكام واعدام فأفأ مع عدد غير يسير من مؤازريه قتلاً بالسيف فأعدموا في اليوم الثامن من

(١) ابو الفداج ٤ ص ٢
(٢) برقوطي او برقوطيا اسم قرية وربما كانت عند اربيل . ابن العبري س ص ٥٣٩

شهر آب سنة ١٢٨٠ (٦٧٩ هـ) وأعيدت ولاية الموصل واربل الى مسعود الاربلي[1] وقتل مع فأفأ رجل مثر فارسي الأصل يدعي جلال الدين وذلك لأنه كان مؤازراً لفأفأ . فلما أقبل مسعود الى اربل ثار أهل المقتولين عليه وأقسموا أن يثأروا منه فأنفذوا يشونه أنه دخل عنوة الى بيت جلال الدين الفارسي ونهب ما وجد فيه من ذهب وحجارة كريمة . فقبلت شكايتهم ووردت الأوامر بالقاء القبض على مسعود وارساله مقيداً الى الموصل حيث يغرم خمس ربوات من الدراهم . ولما جيء به الى الموصل أرشى الجنود المغولية وهرب ليلاً

الفصل الرابع

أخبار عمال التتر في الموصل

توفي أباقا في همذان سنة ١٢٨٢ (٦٨١ هـ) ثم خلفه على سرير الملك أخوه تاكودار ودعا نفسه أحمد . وأحسن أحمد السيرة في الرعية فاخرج من خزائنه الأموال الطائلة ووزعها على الجنود ورؤسائها . ثم أحسن الى الملل النصرانية فاصدر أمراً باستثناء الكنائس والاديرة والقسوس والرهبان من دفع الجزية والتكاليف الاميرية . وبعد ما فرغ من ترتيب الشؤون الداخلية أخذ يراسل اعداءه ويسالمهم فكتب الى صاحب مصر يدعوه الى الصلح ويلقي عليه التبعة والمسئولية قدام الله ان هو أصرّ على الحرب وسفك الدماء فلبى صاحب مصر الطلب وشرط عليه شروطاً منها ان تفوض الولاية في الموصل وبغداد وسنجار الى ابن بدر الدين لؤلؤ بعين الضمان السنوي الذي يقدمه عمالهم عليها فرضي أحمد بذلك لكنه عُزل قبل ان تتوثق عرى الصلح أي في سنة ١٢٨٤ (٦٨٣ هـ)

وملك بعده ارغون فأقطع اقطاعات كبيرة لابناء الملوك من العائلة التترية

---

(١) ابن العبري س ص ٥٤٣

الملوكية وأرسلهم بالجيوش الكثيرة على بابل ومازندران وآثور وخراسان وبلاد الروم . ثم أرسل في طلب مسعود برقوطي وقلده ولاية الموصل مع ملحقاتها . ثم حمل على القبائل المتمردة وفرقهم شذر مذر

وفي السنة التالية من ملكه لم الاكراد والتركمان والعرب شعثهم واجتمعوا حتى أصبحوا جيشاً يبلغ عددهم نحو أربعة آلاف فارس وانضم اليهم من العبيد المصريين نحو ثلاثمائة فارس فقصدوا الموصل وأخربوا القرى التي على طريقهم وكانت كلها عامرة . ثم حملوا على مدينة الموصل سنة ١٢٨٦ (٦٨٥ هـ) في الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول فخرج مسعود بما عنده من جنود المدينة لقتالهم . ولما رأى كثرتهم خاف منهم فعاد الى المدينة وعبر دجلة الى دير متى في جبل القاف تاركاً المدينة خالية من الحامية فدخلها هؤلاء اللصوص ونهبوا وقتلوا قتلاً ذريعاً وكان بعض النصارى قد لجأوا الى نقيب العلويين فامنهم على نفسهم وحماهم في داره غير ان هؤلاء الطواغيت لم يراعوا حرمة ذلك البيت فدخلوه ونهبوا ما وجدوا فيه وقتلوا الملتجئين [1] . ثم بلغهم ان الأهالي أخفوا أموالهم وكنوزهم في سوق البزازين فهجموا عليه ونهبوه وقتلوا كل من عارضهم في مأربهم وفي اليوم الثاني تركوا المدينة منهوبة مسلوبة في اشقى حال ورحلوا . وبعد ما رحلوا عاد مسعود برقوطى الى الموصل وقد ولى سعده وأقبل نحسه بتصحبه لأخوين مقدمين الى الملك المغولى وهما بوقا وآروق وكان الملك يرسلهما كل سنة الى بغداد والموصل ليجمعا له المال ثم شعر الملك منهما بخيانة وأمر بقتلهما فأمسك بوقا وقتل وأرسل الملك الى الموصل جنداً مع الأمير بيتمش في طلب آروق حيث كان مشتياً . ولما أقبل بيتمش الى الموصل لمح تصحباً من العمال لآروق فاستشاط منهم غضباً . وأمر بالقبض على آروق ومسعود وقتلهما مع أناس من ذويهما وأمسك أيضاً تاج

---

(١) ابن العبري س ص ٥٥٣ و ٥٥٨

الدين بن مختص وبعد ان أوسعه ضرباً اغرمه خمسين ألف دينار [١] . ثم أثار بيتمش اضطهاداً على النصارى الذين تظاهروا بالتصحب لمسعود وقتل منهم كثيراً في الموصل واربل وما يجاوها من القرى سنة ١٢٨٩ (٦٨٨ هـ)

ثم تولى بيتمش بلاد الموصل فسعي في توطيد الأمن وقطع دابر المتمردين لـكن سعيه ذهب ادراج الرياح لان في السنة الأولى من ولايته تجمع قطاع الطرق من سوريا وعددهم ألفا فارس وساروا الى سنجار فسلبوا الامن ثم وصلوا الى قرية بيشابور من قرى جزيرة ابن عمر فقطعوا دجلة الى قرية عامرة يسكنها الـكلدان وهي قرية واسطو واليوم تعرف بواسط فباغتوها على غرة ولما لم يستطع أهلها الدفاع عن نفسهم هربوا الى البساتين والـكروم الكثيرة التي لتلك القرية محتمين فيها اما اللصوص فدخلوا القرية ونهبوها وقتلوا فيها نحو الخمسمائة نفس وأسروا ألفاً وبعد ذلك تفرقوا في السبع القرى المجاورة حيث أفسدوا نهباً وقتلاً . وبينما كانوا في رجوعهم يقطعون نهر الخابور بالغنائم والأسرى أدركهم أمير الموصل وقتل منهم كثيراً واسترد بعض السبايا والغنائم

كان أرغون قد قتل عمه في أول ملـكه فأصبح خائفاً على حياته لا يثق باحد حتى صار يرتاب في رجال دولته موجساً منهم الغدر والخيانة فعزل منهم وقتل غياث الدين كيخسرو صاحب بلاد الروم وقبض على الوزير شمس الدين الجوني وكان متهماً بقتل عمـه وابيه وقتله . قال أبو الفرج : قتل شمس الدين سنة ١٢٨٥ ميلادية . هكذا كانت آخرة هذا الرجل العظيم الهيوب الحكيم الذي كانت الدولة باسرها معلقة بخنصره [٢] . ثم ان ارغون ولى على وزارته سعداً اليهودي وجعله صاحب ديوانه في بلاد العراق وسماه سعد الدولة واعتمد عليه في سائر أموره وكان لسعد الدولة اخوان جعل أحدهما حاكماً على بغداد والآخر حاكماً على الموصل وماردين وديار بكر مع تاج الدين بن مختص [٣].

(١) ابن العبري س ص ٥٦٥

(٢) أبو الفرج ص ٥٢٢

(٣) ابن العبري س ص ٥٦٩

ومن الأمر الأكيد ان اليهود لم يقلدوا الرتب والوظائف في الممالك التي نشأت في هذه البلاد فقد كان منهم الدباغون والصباغون والاساكفة والتجار والصرافون . ولم يكن منهم أولو المناصب والرتب الرفيعة الا في عهد المملكة المغولية . فان بعض ملوكها الخانات لم يريدوا ان يعهدوا بقيادة الجيوش أو بالمراتب الادارية لانجال الملوك والامراء من أهالي هذه البلاد . ولا لاصحاب الشرف وأولي الدراية من الوطنيين وذلك لمقصد سياسي بل كانوا يقلدونها لمن يضمنها بمال أكثر بصرف النظر عن أهليته وعدم أهليته وجل مرادهم هو جمع الدرهم من الأهالي وتهويلهم بالشوكة والقسوة ليكونوا لهم صاغرين . ولهذا تقدم افراد الأمة اليهودية لاسيا في سنوح هذه الفرصة الغير المنتظرة فقصد الكثيرون منهم باب الملك في العاصمة وهي تبريز وتقلدوا المراتب غير ان ذلك لم يدم طويلاً . فان الملك أرغون مات مسموماً سنة ١٢٩١ (٦٩٠ هـ) وسبب موته انه كان قد عدل عن دين الاسلام وأحب دين البراهمة من عبدة الاصنام فاستقدم بعض سحرة الهند وركبوا له دواء لحفظ الصحة واستدامتها فاصابه من ذلك الدواء مرض الصرع ومات فيه . وعزا بعض حاشيته قتله الى وزيره سعد الدولة . فصدرت الاوامر المشددة من الديوان بقتل اليهود في انحاء المملكة قاطبةً . وذكر ابن العبري في تاريخه السرياني انه قتل من اليهود في هذه الغائلة خلق كثير

وعقب أرغون على سرير المملكة أخوه كيخاتوخان ويسمي أيضاً ارناغين فسار كيخاتو سيرة ذميمة وتمادى في الجور وأسرف في تبذير الأموال الطائلة وما زال على ذلك لا يزعه وازع حتى باتت الدولة الايلخانية في الحاجة القصوى وأصبحت منذ تملك كيخاتو خان على شفا جرف هار لتقاعسه عن مهام الملك وانهماكه في الملاهي وجشعه المفرط في حشد الأموال لا ليتحوط بها في ثبات ملكه وتوطيد دعائمه بل ليصرفها في سبيل القصف واللهو . فكان يبيع الرتب ويعهد بولاية البلاد لمن بذل لهُ مالاً أوفر . فتلك الأموال الطائلة التي كانت

تجمع من بلاده الواسعة الارجاء لم تكن الا ملحاً ذائباً في غمر ملاذه . وغالى كيخاتو في الاسراف والتبذير حتى وقع وزيره صدر الدين الفارسي في ارتباك مالي أفضى به الى حط رواتب الجيش . ولما اطلع كيخاتو خان على حرج موقفه أصدر أمراً باتاً بالغاء السكك المعدنيـة تلافياً لذلك الخلل . ثم فرض في بلاده استعمال اوراق ماليـة سماها الشاو وهي قطعة من ورقة موسومة بعلامة حمراء ونوّع الشاو فجعلها ذات العشرة دنانير وذات الخمسة دنانير . ثم الدينار الواحد ثم الدرهم الواحد وضيق على الأهالي ان يسلموا ما عندهم من ذهب وفضة الى الخزينة ويستعيضوا عنها باوراق ماليـة وتهدد بحكم الموت من تجاوز على أوامره الملوكية . فهاج الناس وماجوا ونزح منهم كثيرون عن اوطانهم تخلصاً من هذا العسف (١) . ثم نهض بيدو أحد افراد العائلة الملوكية فقصد جبال همذان ليطلع ابناء الملوك على كيخاتو خان وسيرته الذميمة ويثيرهم عليه فاتفق جميعهم معه وأقبل بيدو بجيش من متطوعة التتر الى بغداد والموصل فقتل نواب كيخاتو واستولى على البلاد . ثم قصد ديار بكر وبعد ما ضبطها سار الى تبريز عاصمة المملـكة والتحم القتال بينهما فقتل كيخاتو واستولى بيدو خان على المملـكة سنة ١٢٩٤ (٦٩٤ هـ)

الفصل الخامس

حالة الموصل في زمن انقراض الدولة الايلخانية

لم يجلس بيدو خان على سرير الملك الا اياماً يسيرة فان قازان خان اغتصب منه العرش في السنة عينها واستمر له الملك الى سنة ١٣٠٣ (٧٠٣ هـ) ثم خلفه فيه محمد خدا بنده أو خربند بن أرغون وكان يسمى نيقولاوس فاستعمل هذا على الموصل فخر الدين عيسى بن ابراهيم . ثم توفي محمد خان سنة ١٣١٦ (٧١٦هـ) فخلفه ابنه أبو سعيد وعمره ثلاث عشرة سنة ولما استقرّ له الملك أمر بقتل

(١) ابن العبري س ص ٥٨٣

أبي الطيب رشيد الدولة فضل الله بن يحيى الهمذاني لانه اتهم بقتل خربندخان وذكر عنه ابن خلدون انه وضع تاريخاً جمع فيه شتات اخبار التتر وانسابهم وقبائلهم . ثم طمع الامراء في ملك أبي سعيد لصغر سـنة فاستعان عليهم أبو سعيد بجوبان عميده وقتل منهم نحو أربعين أميراً . ولما عاد الأمن الى نصابه انصرف هـذا الملك الى تنظيم احوال البلاد فنصب عليها العمال وجعل عاملاً على الموصل علاء الدين علي بن شمس الدين الملقب بجيدر . وجرت لأبي سعيد حروب كثيرة مع سلاطين مصر . وفي سنة ١٣٣٥ (٧٣٦ هـ) توفي ولم يخلف ولداً ليملك البلاد . فتنازعها امراؤه وجرت بينهم حروب دامت تسع سنوات

انقرضت الدولة الايلخانية وقد ملكت بلاد العراق نحو ثمان وسبعين سنة وقام فيها تسعة ملوك هذه اسماؤهم :

(١) هولاكو خان ١٢٥٧ــ١٢٦٤ ميلادية
(٢) أبا قاخان بن هولاكو ١٢٦٤ــ١٢٨٢
(٣) أحمد خان بن هولاكو ١٢٨٢ــ١٢٨٤
(٤) أرغون خان بن أباقا ١٢٨٤ــ١٢٩١
(٥) كيخاتوخان ابن أباقا ١٢٩١ــ١٢٩٤
(٦) بايدوخان بن طرقاي بن هولاكو ١٢٩٤ــ١٢٩٤
(٧) قازان خان بن أرغون ١٢٩٤ــ١٣٠٣
(٨) محمد خان خدابنده بن ارغون ١٣٠٣ــ١٣١٦
(٩) أبو سعيد بن خدابنده ١٣١٦ــ١٣٣٥

وكانت الموصل في هذه المدة تخضع مع اعمالها لهذه الدولة ويحكمها العمال والضامنون الذين كانوا يضمنونهـا من الملوك الايلخانيين بمبلغ من الذهب . وهذا هو الدستور الذي جرى عليـه بعض هؤلاء الملوك . وكان هولاكو أول من نشم به منهم فباع البلاد للملوك الذين خضعوا له بمبلغ معين الى أجل

مضروب من ذلك انه باع اربل لبدر الدين لؤلؤ بسبعين ألف دينار . ثم باعها لشرف الدين الجلالي [١] وعلى هذا جرى كيخاتو أيضاً . ومنهم من كان يجعل العمال على البلاد ويجمع الضرائب باسمه كما فعله أرغون فانه كان يرسل كل سنة معتمديه الى البلاد ليجبوا له الاموال [٢] واستمر الملوك الايلخانيون يحكمون هذه البلاد ولهم فيها الخطبة والسكة لم يشاركهم فيها أحد الا الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون الصالحي الذي ملك في مصر ٦٩٣ هـ — ٧٤١ هـ فانه كان قد حاربهم وانتصر عليهم فخطبوا له في الموصل وديار بكر وبغداد وضربوا الدينار والدرهم باسمه كما كان يضرب له في الشام ومصر [٣]

ان بني ماغوغ وهم التتر جاؤا ضربة قاضية على ترقي هذه البلاد فانهم دكوا معالمها وأزهقوا أرواح أبنائها حتى أقوت ديارها بعد ما كانت زاهية فقد قتل هولاكو في بغداد لما دخلها ألف ألف حتى خلت من السكان وتشتت من بقي منهم في البلاد [٤] وذهب غيرهم الى أن عدد القتلى بلغ في ذلك اليوم ألف ألف وستمائة ألف وقالوا بل أكثر من ألفي ألف [٥] وظل السيف يعمل أربعة وثلاثين يوماً [٦] ونهبت العساكر التترية من قصور الخلفاء وخزائنها أموالاً طائلة وألقوا جميع كتب العلم في دجلة فأنشد شعراء تلك الأزمنة السوداء مراثي تفتت الأكباد أسفاً على فقدان اخوانهم وأبنائهم وضياع مآثر أجدادهم . فهذه المراثي وان كان يرى فيها شيء من الغلو في ايراد الحقائق التاريخية كالعدد الفاحش من القتلى وخراب المدن وخلوها من السكان مع ذلك تفيد جلياً أن الخسائر كانت فادحة وأن التتر كانوا قد افحشوا نهباً وقتلاً . حيث أن هولاكو نفسه يشهد بذلك في كتاب أنفذه الى الملك

(١) ابن العبري س ص ٥٠٦
(٢) ابن العبري س ص ٥٦١
(٣) أبو الفدا ج ٤ ص ١٣٧
(٤) شاكر ج ٢ ص ٢٣٨
(٥) لك قرماني ج ٢ ص ١٣٢
(٦) دحلان ج ٢ ص ٢٩

الناصر يوسف صاحب حلب سنة ١٢٥٨ (٦٥٧هـ) منه قوله « اننا لا نرحم من شكا ولا نرق لمن بكا قد أخربنا البلاد وأفنينا العباد وتركنا في الارض الفساد »[1]
وقد انتاب الموصل ما انتاب غيرها من البلاد التي تسيطر عليها التتر من المظالم والمذابح فان السيف التتري استمر يرتشف من دماء أهاليها مدة ثمانية أيام كما أسلفنا ذكره وزادها ادباراً غارات التركمان والعرب والأكراد وقد ظلت الموصل مدة غير يسيرة محطاً لرحال العساكر التترية التي كانت تتوارد اليها تترى لقصد الديار الشامية والمصرية فكثر فيها الظلم وغلت الأسعار ومسها الجوع المدقع دفعات متوالية وهكذا سقطت من حالق عزها الاتابكي الى حضيض الفقر الأدبي والمادي فأقفرت مدارسها وخلت معاهدها ولم يبق من تلك العلوم الا أثرة نزرة

ان الملوك الايلخانيين لم يسيروا على وتيرة واحدة في ادارة الملك فقد قام منهم ملوك اتصفوا بالعدل وامتازوا بحسن السيرة وخدمة العلم فانه في زمن أباقاخان اشتهر نصير الدين الطوسي الفيلسوف وابتنى في مراغا مرصداً عظيماً وأهبه بالآلات العديدة واجتمع عليه الطلاب من البلاد الشاسعة . وشيد خزانة فسيحة جمع فيها من الكتب النفيسة ما ينيف على أربعمائة ألف مجلد[2] وكان نصير الدين مقلداً ادارة الأوقاف والمدارس في بغداد وبلاد الموصل فكان يصرف من هذه الأوقاف على المعلمين والمتعلمين[3] كذا جاء عن قازان خان. أنه أصدر مرسوماً الى سائر بلاد مملكته بأن تستأصل معابد الاوثان وتشيد مكانها مدارس لابناء العرب[4] واشتهر منهم في زمان هذا الملك رشيد الدين فضل الله بن أبي الخير الذى تقلد الوزارة وخدم العلم وألف أربعة كتب محفوظة في المكتبة الملية في باريس منها مفاتيح التفاسير ولطائف.

(١) ابو الفرج ص ٤٨٤
(٢) شاكر ج ٢ ص ١٤٩
(٣) ابن العبري س ص ٥٢٩
(٤) ابن العبري س ص ٥٩٥

الحقائق . وكذا محمد بن علي بن الطباطبة الذي قصد عامل الموصل فخر الدين عيسى بن ابراهيم سنة ١٣٠٣ (٧٠٣ هـ) وقدم له كتابه « الفخري » وهو كتاب يشتمل على تاريخ الدولة العربية الى آخر الخلفاء العباسيين . وطبع هذا الكتاب آخر مرة الموسيو . هـ . درنبرغ

ان الموصل بعد تلك النوائب التي انتابتها تحسنت أحوالها في أواخر الدولة الايلخانية سيما في زمن أبي سعيد وكان هذا الملك ديناً مشتهراً بالعدل واصابة الرأي [١] وكان قد استعمل على الموصل وما يليها علاء الدين علي بن شمس الدين محمد الملقب بحيدر فأحسن حيدر ادارتها وعدل في أهلها . وأعاد عمرانها وحضارتها كما كانت في عهد السلطان لؤلؤ . فان السائح الطنجي الذي زار الموصل في عهد ولايته ينوه بذكر نجاح ملك أبي سعيد ويصف عدل عامله على الموصل علاء الدين حيدر واحسانه ومبراته ثم يصف المدينة وعمرانها كما وصفها لنا ابن جبير في زمن الدولة الاتابكية فيثني على اتقان بنائها وحسن زخرفة جوامعها وشوارعها وأرباضها ومساجدها وحماماتها وفنادقها وأسواقها ودور سلطانها ويذكر أنه كان على البلدة سوران وثيقان أبراجهما كثيرة متقاربة وفي باطن السور بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره . ومن هذا يستدل أن عمران الموصل رجع في آخر الدولة الايلخانية كما كان قبلاً حيث أن البيوت كانت تمتد الى السورين وداخلهما أي انه كان بين السورين فتحة واسعة فيها البيوت الكثيرة [٢] لكن هذا العمران زال في المصيبة الدهماء التي داهمت الموصل بورود العساكر التيمورية

(١) أبو الفدا ج ٤ ص ١٢٢
(٢) ابن بطوطة ص ١٧٥

الفصل السادس

الدولة القانية أو الجلايريّة وانقراضها على يد تيمورلنك

ان الدولة القانية أو الجلايرية هي من أقسام الدولة الايلخانية . وكان مؤسسها في العراق وبلاد العجم الأمير الشيخ حسن الجلايري ويسمى أيضاً حسن بزرك وحسن الكبير . وورد نسبه في المكتبة الشرقية نقلاً عن أحمد بن عرب شاه صاحب تاريخ تيمورلنك : هو الشيخ حسن بن حسين ابن اقبوغا بن ايلكان سبط أرغون خان [١] وفي نخبة التواريخ ابن ايلكان ابن جلاير [٢]

كان الأمير الشيخ حسن والياً على اقاليم الأناضول من قبل أبي سعيد آخر ملوك الدولة الايلخانية . فلما توفي أبو سعيدوتنازع دولته أكابرالامراء سار الأمير حسن الى اذربيجان وحارب علي بادشاه وموسى خان والشيخ حسن الجوباني مؤسس الدولة الجوبانية في ديار بكر . ثم عاد عنهم قانعاً بملك العراق العربي فاتخذ بغداد مقر سلطنته [٣] وخضعت أيضاً لحكمه الموصل وكانت في عهد الدولة الايلخانية كرسي اقليم ديار بكر كما رأيناه . فلما ظهر الشيخ حسن أفرزها من ذلك الأقليم وضبطها وقد أورد السمعاني أن الدولة القانية ملكت بلاد اثور ومادي وجعلت عاصمتها بغداد . وملك الشيخ حسن سبع عشرة سنة ثم توفي سنة ١٣٥٦ (٧٥٧ هـ) ثم خلفه ابنه الامير الشيخ آويس فسار من بغداد سنة ١٣٥٧ (٧٥٩ هـ) الى اذربيجان وحارب صاحبها آخيجوق فظفر به وقتله ودخل توريز سنة ١٣٥٩ (٧٦١هـ) ثم توفي سنة ١٣٧٤ (٧٧٦ هـ) وقد حكم تسع عشرة سنة ومدحه من الشعراء الذين

(١) السمعاني مجلد ٣ ج ٢ ص ١٣٣
(٢) ص ٣٧
(٣) نخبة ص ٣٧

كانوا في زمانه سلمان الساوجي ومحمد عصار وعبيد الزكاني . جاء في نخبة الاخبار أنه بعد وفاة السلطان آويس استولى بيرام خوجه من آل قره قويونلي على الموصل وسنجار وحكمها الى حين وفاته سنة ١٣٨٠ (٧٨٢ هـ) . ثم خلف السلطان آويس على ملكه أي العراق واذربيجان ابنه السلطان حسين فملك نحو ثماني سنوات ثم خرج عليه أخوه السلطان أحمد فقتل سنة ١٣٨٢ (٧٨٤هـ) ودفن في توريز في المدرسة الدمشقية [١] وخلفه السلطان أحمد أخوه وكانت بداية دولته كثيرة الاضطرابات والحروب وقتل السلطان أحمد كثيراً من الأمراء والحاشية ثم انتقض عليه أهل دولته سنة ١٣٨٤ (٧٨٦ هـ) وسار بعضهم الى تيمورلنك يستصرخونه على السلطان أحمد . فأجابهم تيمورلنك وأقبل بعساكره . فلما قارب توريز أجفل عنها السلطان أحمد الى بغداد فضبط تيمورلنك توريز وتستر (شوشتر) والسلطانية [٢] . وفي سنة ١٣٩٢ (٧٩٥هـ) استولى تيمورلنك على اصبهان وعراق العجم والري وفارس وكرمان وضبطها من بني المظفر اليزدي بعد حرب طاحنة هلك فيها ملوكهم وبادت جموعهم . وكان احمد يشدد عزائمه في بغداد ويستجيش العساكر لمنازلة عدوه

أما تيمورلنك فعدل الى مصانعته ومهاداته وما زال يخادعه حتى فتر عزمه وافترقت جنده فنهض اليه على غرة حتى انتهى الى دجلة ففر أحمد ليلاً وحمل ما قدرت عليه الرواحل من أموال وذخائر وسار الى مصر ملتجئاً بسلاطينها الجراكسة . فلما وصل السلطان أحمد الجلايري الى مصر سنة ٧٩٥ هجرية خرج اليه السلطان الظاهر برقوق صاحب مصر وتلقاه وأمر الأمراء بالمشي في خدمته وأكرمه [٣]

(١) نخبة ص٣٧

(٢) مدينة قديمة في العجم في غربي شمالي قزبين على مسافة ١٥٠ كيلو مترا اتخذها خدا بندة الايلخاني مقر سلطنة فزخرفها ونظمها حتى جعلها أحسن المدن وفيها دفن ابنه أبو سعيد ثم دمرها تيمورلنك وأخرها

(٣) ك· ابن الشحنة ج ٩ ص٢٠٦

الفصل السابع

استيلاء تيمورلنك على الموصل

نشأ تيمورلنك الذائع الصيت والمشتهر بحروبه ومظالمه في قصبة « كش » وسميت قديماً « سبز » من مدن ما وراء النهر . وقيل ان تيمورلنك ينتمي نسباً الى العائلة الجنكيزية . وكان عمه سيف الدين والياً على كش في خدمة السلاطين التغلقيين الذين ملكوا في دلهي من اعمال الهند . ولما توفي عمه المذكور ناب في الولاية منابه ثم أصبح زعيم قبيلته فانضم اليه كثيرون رغبة في خدمته . واتفق مع أمير من أكابر تلك المملكة وهو الامير حسن فقوض اركان المملكة التغلقية واستولى على بلادها منادياً بنفسه ملكاً سنة ١٣٦٨ (٧٧٠ هـ) ومن ثم قصد خوارزم وضبط جميع بلاد ما وراء النهر . ثم حمل على شيراز واستولى عليها . فانقرضت دولة آل المظفر في زمن آخر ملوكهم الشاه منصور . وسار أيضاً الى بلاد فارس وملكها . ثم قدم الى بغداد حيث كان محاصراً السلطان أحمد الجلايري فهرب منه السلطان أحمد كما ذكرناه ودخل تيمورلنك الى بغداد واستولى على العراق العربي بأسره . فكان حيثما مرّ خرب ودمر وأتلف النفوس . وكان من عادته ان يطالب عسكره في نهاية كل معركة برؤوس القتلى من الاعداء ليقيم منها قبة لاكرامه [1] هكذا فعل في بغداد فانه صنع قبة من تسعين ألف رأس من رؤوس رجال بغداد . [2] وقال القرماني : بنى في حلب شكل المآذن من رؤوس الرجال مرتفعة البناء . دورها نيف وعشرون ذراعاً . وعلوها في الهواء نحو عشرة أذرع والوجوه بارزة تسفي عليها الرياح [3] وقتل امام اسوار مدينة دهلي (دلهي) مئة ألف

(١) ك . ابن الشحنة ج ٩ ص ٢٢٧
(٢) دحلان ج ٢ ص ٥٢
(٣) ك . قرماني ج ٢ ص ٢٠٤

أسير . ودمرها حتى جعلها خراباً

أما عن قدومه الى الموصل واطرافها فيقول السمعاني [1] : أقبل تيمورلنك أو تيمورخان الى بغداد وتكريت سنة ١٣٩٣ (٧٩٦ هـ) فضبطها عنوة ونهبها وملك اربل والموصل وجزيرة ابن عمر وحصن كيفا وأرزن وماردين صلحاً فان المتغلبين عليها بادروا اليه بتقديم الطاعة وبالهدايا والتحف النفيسة . وهم : علي رئيس اربل ويار علي التركماني الموصلي وعز الدين الكردي الجزري وسليمان الحصن كيفاوي وسارتاسيوكوس الارزني وطاهر الدين الماردين . ثم سار تيمورلنك بجيشه على بلاد فلسطين وخرب في طريقه ريشعينا وآمد والرها

ولما رحل تيمورلنك ترك ابنه جلال الدين ميرانشاه على هذه البلاد فولى ميرانشاه على الموصل رجلاً من خاصته يدعى حسين بك [2] وبث عماله في بقية البلاد . وكان ميرانشاه أظلم من أبيه صبغ أرض هذه البلاد بدماء أهليها وخرب معمورها زيادة على ما جناه أبوه على أهالي حصن كيفا والحديثة وآمد وطورعبدين . وعاد تيمورلنك الى هذه الديار دفعة ثانية سنة ١٤٠١ ميلادية فقتل ودمر في بابل واربل والموصل وجزيرة ابن عمر وماردين . فلم يسلم من سيفه الا قرية اربو . وكانت على ما يظن من قرى الجزيرة . وذلك ان تيمورلنك لما قرب من هذه القرية خرج اليه مطرانها واسمه بهنام شتى فتذلل بين يديه وطلب اليه أن يشفق على أبناء قريته . فأجاب طلبه واجتازهم الى ماردين [3] ولا بد ان يكون السبب في عودة تيمورلنك الى هذه الاقطار ناقماً على أهاليها ـ بعد ما صالحوه على الطاعة ـ انهم ظهروا في العصيان كما جاء في المكتبة الشرقية عن عز الدين صاحب جزيرة قردو . وهي جزيرة ابن عمر

(١) المكتبة الشرقية مجلد ٣ ج ٢ ص ١٣٤
(٢) منهل الاولياء
(٣) السمعاني مجلد٣ ج ٢ ص ١٣٤

حينما امتنع عن تقديم الاموال السنوية لتيمورلنك فحمل ابنه أميرانشاه عليها ودمرها سنة ١٣٩٥ (٧٩٨ هـ) . وربما ان السلطان احمد الايلكاني عاد الى بغداد قبل وفاة تيمورلنك كما يستفاد من كتاب الفتوحات الاسلامية إن السلطان احمد هرب من تيمورلنك ولاذ بالسلطان الظاهر برقوق صاحب مصر من الملوك الجراكسة واستنصره على عدو الانسانية وهذا نص العبارة : بلغ الخبر الى الملك الظاهر برقوق فنادى في عسكره بالتجهز الى الشام وأفاض العطاء واستوعب الحشد من سائر أصناف الجند . وارتحل الى الشام ومعه السلطان احمد بن آويس وكان العدو تيمور قد شغل بحصار ماردين فأقام عليها أشهراً وملكها . ثم مرّ بقلاع الاكراد وأغارت عساكره عليها واكتسحت نواحيها وفي هذه المدة جهز السلطان برقوق عساكر كثيرة وبعثها مع السلطان احمد الى بغداد فملكها . وضرب السكة باسم السلطان برقوق كما ذكره العلامة ابن الشحنة في تاريخه وبقي السلطان برقوق بالشام مع عساكره مترقباً لقتال تيمور والوثبة به متى استقبل جهته . فبلغ ذلك تيمور فلم يتجرأ على الاقدام بل رجع الى بلاد خراسان ولم يقدر على دخول الديار الشامية الا بعد وفاة السلطان برقوق [١] ولا بد ان اصحاب الاطراف أي الموصل والجزيرة وغيرها تغيروا على تيمورلنك وخلعوا طاعته وصاروا في طاعة السلطان احمد بعد عودته الى بغداد فنقم عليهم تيمورلنك وكرّ راجعاً الى بلادهم سنة ١٤٠١ (٨٠٤ هـ) فخرب ودمر وقتل كما نقله السمعاني

بينما كان تيمورلنك يستعد لقصد الصين وافته المنية وهو في مدينة اترار الواقعة قريباً من سيحون سنة ١٤٠٤ (٨٠٧ هـ) وعمره حينئذ ٧١ سنة . فنقل نعشه الى سمرقند ودفن فيها . وكانت مدة سلطنته ٣٦ سنة . وخلفه ابنه ميرانشاه على اذربيجان والعراق وديار بكر . وكان تيمورلنك مع كثرة مظالمه العديدة شديد الرغبة في العلوم فانه نقل الآثار القديمة من البلاد التي

(١) دحلان ج ٢ ص ٥٣

أخربها الى سمرقند. ويقال انه أسس مدارس كثيرة وخزانات كتب نفيسة[١]. وكتب بيده ترجمة حياته وفيها يعتذر عن غشمه وظلمه في هدر الدماء وتخريب البلاد موردا الاسباب التي حملته على ذلك فترجم كتابه الى اللغات الأوروبية لاهميته

الفصل الثامن

الدولتان القره قويونلية والآقويونلية

ان قره قوينلي وآق قويونلي طائفتان من التركمان الذين كانوا يقطنون قديماً بلاد تركستان وفي عهد ارغون خان التتري نزحوا الى اذربيجان باثقالهم ثم تحولوا عنها فسارت طائفة قره قويونلي الى نواحي ارزنجان وسيواس وأقبلت طائفه آق قويونلي الى اطراف الموصل وديار بكر

وكانت طائفة قره قويونلي قد امتدت وقويت شوكتها فعزم زعيمها قره يوسف على ضبط البلاد من يد ميرانشاه بن تيمورلنك فجمع أصحابه حتى أصبحوا جيشاً عظيماً. ثم سار على ميرانشاه والتقى الفريقان قريباً من توريز وبعد حروب دامية قتل ميرانشاه في احدى المعارك وتمزق أصحابه شذر مذر سنة ١٤٠٦ (٨٠٩ هـ) وكان السلطان احمد الايلكاني دائباً في استرجاع ملكه فأقبل بجموعه وأصحابه ولما نمى خبر قدومه الى قره يوسف خرج اليه قره يوسف والتحم بينهما القتال سنة ١٤١٠ (٨١٣ هـ)[٢] فقتل السلطان احمد الايلكاني وشتت شمل أصحابه ومن ثم استقر له الملك في اذربيجان والعراق العربي ثم حمل سنة ١٤١٢ (٨١٥ هـ) على بادشاه شروان الشيخ ابراهيم فقتله واستولى على ساوا وقزوين ونواحيهما[٣]

---

(١) سامي
(٢) السمعاني مجلد ٣ ج ٢ ص ١٣٨
(٣) نخبة ص ٤٤

وقام بعد قره يوسف في الدولة القره قويونلية ثلاثة ملوك ، وهذه أسماؤهم :

الامير اسكندر بن قره يوسف ١٤٢٠ (٨٢٣ هـ)
ميرزا جهانشاه ١٤٣٥ (٨٣٩ هـ)
حسن علي بن جهانشاه ١٤٦٧ (٨٧٢ هـ) الى ١٤٦٨ (٨٧٣هـ)

وفي زمان حسن على ظهر أوزون حسن فضبط منه البلاد . وانقرضت حينئذ الدولة القره قويونلية كما سنراه

الدولة الاقويونلية — وسميت بذلك لان ملوكها كانوا يرسمون على أعلامهم خروفاً أبيض . وهكذا سماها اليونان « آسبروبروباتيد » أي الخروف الابيض (١)

ذكرنا آنفاً ان طائفة آق قويونلي لما نزحت على تركستان انتشرت في نواحي ديار بكر والموصل وما زالت تكثر وتمتد حتى آن انخضاد شوكة آل تيمورلنك وتغلب أمر قره يوسف من آل قره قويونلي فاستفاد آل آق قويونلي من هذه الانقلابات ونادى زعيمهم طور علي بك الملقب بعلاء الدين التركماني بنفسه ملكاً مستقلاً في ديار بكر والموصل وما يليهما ودام له الملك من دون معارض حتى توفي فخلفه ابنه فخر الدين قطلي بك أو قتلغ بك وملك سنة واحدة ثم توفي . وخلفه ابنه قره ايلدك عثمان وفي سنة ١٤٢٠ (٨٢٣هـ) حارب اسكندر بن قره يوسف وانتصر عليه انتصاراً باهراً على ما ينقله السمعاني . وكان قره ايلدك شجاعاً جرت له مع الترك والعرب وقائع عظيمة . ثم قتل وولي الملك بعده ابنه حمزة بك . وكان سيء الاخلاق قبيح السيرة ظلم الرعية واحتجف أموالها . وما زال على ذلك الى أن مات سنة ١٤٤٤ (٨٤٨ هـ) فخلفه جهانكير ابن أخيه علي بك وسار هذا مقتفياً آثار عمه في الظلم والجور والاهمال حتى انتزع الامن وعم الخراب وانتشر الاختلال

(١) المكتبة الشرقية مجلد ٣ ج ٢ ص ١٣٨

من نهب وقتل في سائر بلاده . ثم زال هذا الاختلال عند ظهور الامير الكبير أبي النصر حسن بك المعروف باوزون حسن أو حسن الطويل وقدومه الى الموصل سنة ١٤٦٤ (٨٦٩ هـ) [١] . وأورد السمعاني ان ظهور حسن الطويل كان سنة ١٤٦٨ (٨٧٣ هـ) وبعد ما ضبط الموصل تجهز وسار الى ديار بكر وملكها فآلت اليه الدولة الاقفويونلية . وكان حسن الطويل بطلاً شجاعاً ذا خبرة في الحروب وبأس شديد . وكان قره يوسف قد أغار على ماردين وآمد ونهبها فحمل عليه حسن بك الطويل وقتله قريباً من آمد . ثم أعقبه في الدولة القره قويونلية ابنه حسن علي الذي كان مسجوناً مضيقاً عليه مدة ملك أبيه كلها . وقد أصابه من جراء ذلك خلل في عقله فلم يستطع الثبوت اراء مطامع حسن الطويل. وعلى هذا هرب ملتجئاً بأبي سعيد ميرزا سبط تيمورلنك وقتل هناك . فاستولى حسن الطويل على بلاد دولة آل قره قويونلي . ثم تجهز وسار الى محاربة أبي سعيد ميرزا بن محمد أميرانشاه ابن تيمورلنك الوريث الأخير للمملكة التيمورية في سمرقند فخرج اليه أبو سعيد بعسكره والتقيا قريباً من قره باغ حيث اشتد القتال فانكسرت جيوش أبي سعيد ثم أمسكه أوزون حسن وقتله سنة ١٤٦٨ (٨٧٣ هـ) فدان له العراقان وبلاد فارس وكرمان واتخذ مدينة توريز مقراً للسلطنة [٢] وأغار أيضاً بجيوشه على البلاد الشامية سنة ١٤٧٢ (٨٧٧ هـ) وقصد أيضاً تكريت وحاصرها ثم ساقته همته الى الاستيلاء على بلاد الكرج فسار اليها وافتتحها . ولما انتشبت الحرب بينه وبين السلطان محمد الثاني العثماني وانكسرت جيوشه تظاهر الكرجيون بالعصيان وخلعوا طاعته . فجمع أوزون حسن قوة عظيمة وحمل على بلادهم سنة ١٤٧٦ (٨٨١ هـ) وأجبرهم على الخضوع والطاعة له ثم توفي سنة ١٤٧٧ (٨٨٢ هـ) [٣] وخلفه في ملكه على ما يثبته السمعاني ابنه

(١) توفيق فكرت ص ٢٤٣
(٢) نخبة ص ٤٥
(٣) نخبة ص ٤٥

السلطان خليل ولم يبق في الملك الاستة أشهر فان ابن عمه مراد بك خلع طاعته في العراق فقصده السلطان خليل بعساكره وبينما كان منشغلاً في محاربته سار أخوه يعقوب بك حاكم دياربكر ليستولى على تبريز فعاد السلطان خليل عن مراد بك الى حرب أخيه يعقوب بك وقتل في احدى المواقعات عند حدود سلماس بين اذربيجان وأورمية وتبريز على مسافة ثلاثة أيام فملك أخوه يعقوب بك وكان حازماً نشيطاً أحسن الى الرعية ونظم أمور الملك الى سنة ١٤٩٠ (٨٩٦ هـ) وفيها توفي . ثم خلفه أخوه مسيح بك ووقع ثمة خلاف بين الأمراء في أمر توليته ولم ينحسم النزاع الا بخلعه وتولية علي بك بن خليل بك وهذا أيضاً خلعه الأمراء . وجلس مكانه على عرش السلطنة بايسنقر ميرزا ابن يعقوب بك بسعي خليل الصوفي سنة ٨٩٦ هجرية . وكان بايسنقر صبياً دون العشر سنين . ثم وقع بين الأمراء عدة حروب ومشاجرات لأن كل حزب منهم اختار له واحداً من العائلة الملوكية ومال اليه وكان خليل الصوفي قد قتل ولم يبق لبايسنقر من يحميه من الطامعين في ملكه فلاذ بالهزيمة الى جهة شروان متخفياً ولم يظهر الا في سنة ١٤٩٢ (٨٩٨ هـ) فأقبل الى توريز مدعياً بالسلطنة فحاربه رستم ابن عمه وقتله وقد ملك سنة وثمانية أشهر . ثم استقر الملك لرستم ميرزا بن مقصود بن حسن الطويل وبعد ما أبطل تلك المشاغب وتقررت له السلطنة انصرف عن مهام الملك الى اللهو والانهماك في اللذات وما زال على ذلك حتى اختل نظام الملك فثار عليه أمراؤه وأصحابه وأرسلوا في طلب أحمد ميرزا ابن أوغورلي محمد بن اوزون حسن . وكان احمد ميرزا قد هرب بعد قتل ابيه الى السلطان بايزيد الثاني العثماني خوفاً من عمه يعقوب فقبله بايزيد وأحسن مثواه وصاهره فلبث عنده أحمد ميرزا الى أن ولي رستم وأساء السيرة في الرعية فكاتبه الأمراء واستقدموه اليهم ليسلموه زمام الملك فأجابهم وأقبل باصحابه وحارب ابن عمه رستم فظفر به عند نهر آراس وقتله سنة ١٤٩٥ (٩٠١ هـ) . ثم دخل تبريز وتبوأ عرش المملكة

الاقفيلو نلية وحاول اصلاح شؤون المملكة واجراء قوانين سلاطين آل عثمان لرفع الاستبداد وابطال المظالم غير ان ذلك لم يوافق أمراءه فخلعوه بعد ملكه سنة واحدة وأقاموا مكانه ملكاً مراد بك بن يعقوب بك وهذا قتل أحمد ميرزا وبعد مدة يسيرة ثار عليه امراؤه وخلعوه ثم ملكوا مكانه آلوند ميرزا ابن يوسف بن أوزون حسن فأمسك آلوند ميرزا مراد بك وسجنه في تبريز وانصرف جهده في اصلاح خلل الملك وبينما هو على ذلك جاهر بالعصيان محمد ميرزا وأقبل عليه بالعساكر الكثيرة . وانتشبت الحرب بينهما فانكسر آلوند ميرزا . وآل أمر الملك لمحمد ثم جمع آلوند ميرزا قوته وحمل على العدو بقوة عظيمة وقتله وهزم جموعه . ثم لم يمض على ذلك الا زمن يسير حتى ثار الأمراء على آلوند فخلعوه وأخرجوا مراداً من السجن واجلسوه على سرير الملك دفعة ثانية فسار مراد بك بجيشه على ديار بكر وانتزعها من يد اعمامه الذين كانوا قد تغلبوا عليها وانقرضت هذه الدولة التركمانية سنة ١٥٠٨ م (٩١٤ هـ) على يد الشاه اسماعيل الصفوي كما نراه في الفصل الآتي

الفصل التاسع

الدولة الصوفية

ان جد السلاطين الصوفيين هو ابو اسحاق الشيخ صفي الدين الاردبلي بن جبرائيل العلوى الحسيني وقيل انه ينتسب الى علي بن أبي طالب بموسى الكاظم واشتهر صفي الدين وأحفاده بالزهد والتصوف . ولهذا سميت دولتهم بالصوفية . وسميت أيضاً الصفوية نسبة الى جدهم صفي الدين . وكان صفي الدين يسكن في زاوية من أربيل وقد ذاع خبر زهده وتقواه فأحبه أهل بلدته وكثر فيها اشياعه وأصحابه . واجلته الملوك انفسهم فصاروا يقصدون زيارته تيمناً حتى ان تيمورلنك نفسه لما اقبل على اردبيل أمه مستمداً دعاءه وقد توسط الشيخ الى تيمورلنك باطلاق الأسرى الذين معه فلبى تيمورلنك طلبه

وأطلقهم ولبث كثير منهم في خدمة الشيخ ثم بعد وفاته أحرز ابنه الشيخ جنيد شهرة أوسع من شهرة ابيه فكثرت اعوانه حتى خافه السلطان ميرزا جهانشاه ثالث سلاطين آل قرهقويونلي وخشي ان ينتزع منه الملك لتوارد الأعوان عليه فأبعده عن اذربيجان . ثم سار الشيخ جنيد بمن معه الى ديار بكر محتمياً بأوزون حسن فأكرمه اوزون واحله عنده على السعة والرحب وزوجه بأخته فازداد الشيخ جنيد حرمة وعظمة في عيون اصحابه . ولما استولى اوزون حسن على اذربيجان رحل الشيخ جنيد بأصحابه الى اردبيل حيث استجاش الجنود الكثيرة واغار على كرجستان في جنوبي سلسلة جبال القوقاس فغنم منها غنايم كثيرة من اموال ومواشي لا تحصى ثم سار الى محاربة السلطان خليل من السلاطين الدربندية في شروان من بتليس فقتل هناك في احدى المعارك سنة ١٣٥٨ (٧٦٠ هـ) وخلفه ابنه الشيخ حيدر وجمع ايضاً اصحابه وقصد السلاطين الدربندية فانكسر وحمل عليه صاحب شروان فرح يسار وبدل عسكره ثم قتله مع أولاده ولم يسلم منهم الا يارعلي وأخوه اسماعيل من امرأته عالمشاه ابنة خاله أوزون حسن وهذا اسماعيل هو مؤسس الدولة الصوفية أو الصفوية . وكان حازماً هرب بأخيه الى نواحي لاهجان فاجتمع اليهما قوم من أصحاب أبيهما . فلما بلغ يعقوب بك صاحب توريز من آل اق قويونلي قبض عليهما وحبسهما في قلعة اصطخر فكانا بها مدة حياة يعقوب بك . ولما استولى رستم ميرزا عفا عنهما وأطلقهما وأوصاهما أن يكونا من زمرة الفقراء فبقيا على ذلك حتى توفي رستم ميرزا وتولى مكانه أحمد بك بن أوغورلي نخاف يارعلي واسماعيل صولته وشدة بأسه وهربا الى كيلان ملتجئين الى صاحبها الشريف حسن خان . فلما سمع أحمد بك بفرارهما الى صاحب كيلان أنفذ يطلبهما منه فأنكر انهما عنده فعين أحمد بك جماعة من العلماء ليستحلفوه بالكلام المنزل انهما ليسا في أرضه فعمد حسن خان الى الحيلة ونصب لهما عريشاً من الأخشاب في محل خفي وأصعدهما عليه

وحلف بالله العظيم والكلام المنزل القديم أنهما ليسا في أرضه . ثم استمر اسماعيل وأخوه هناك حتى قتل أحمد بك وتولى مكانه آلوند ميرزا وعند ذلك خرج اسماعيل وأتى لاهجان وكان فيها شيعة من اصحاب ابيه فاجتمعوا عليه ودلوه على أصحاب أبيه الذين في بلاد الروم فقصدهم ولم شعثهم وعاد بهم الى لاهجان وانضم اليه الذين بها وفي سنة ١٤٩٩ (٩٠٥ هـ) توجه بطائفة من جنده قاصداً اذربيجان وغلب على مراد بك آخر ملوك الدولة الاقفويونلية واستولى على بلاد اذربيجان وسمي بالشاه وخطب له على منابرها ، ثم قصد صاحب شروان سنة ١٥٠٠ (٩٠٦ هـ) وقتله وضبط بلاده ثم أقبل الى ديار بكر سنة ١٥٠٧ (٩١٣ هـ) واستولى عليها وفي سنة ١٥٠٨ (٩١٤ هـ) افتتح بغداد [1] وعدا ايضاً على شيبك خان صاحب خراسان وما وراء النهر من الدولة الازبكية فكسره وقتله واتخذ جمجمته قدحاً كان يشرب به الخمر مدة حياته وهكذا دانت له بلاد العجم والعراقين وكردستان اما مراد بك فانه لما هرب من الشاه اسماعيل كان قد لاذ بسلاطين آل عثمان ثم بعلاء الدين ابن ذي الغادر وطلب نصرته على الشاه اسماعيل فأمده بالجند والمال وكان قد اقبل مراد بك الى بغداد واسترد ملكه بينما كان الشاه اسماعيل منشغلاً في حروب خراسان ولما فرغ من افتتاح البلاد عاد الشاه اسماعيل الى بغداد بجيش كثيف فطرد مراد بك وعماله عن البلاد وهكذا انقرضت الدولة الاقفويونلية من الموصل وغيرها من بلاد الجزيرة وكردستان والعراق والعجم وصارت الى يد الشاه اسماعيل . ثم تداخل في شؤون الدين فنصر المذهب الشيعي واهله وأعلنه رسماً في اطراف مملكته ونكل بأصحاب المذهب السني وقتل منهم خلقاً كثيراً . ولما كانت سنة ١٥١٤ (٩٢٠ هـ) قصده ياوز السلطان سليم خان العثماني بن السلطان بايزيد ودارت بينهما حرب داحسة اسفرت عن انهزام اسماعيل شاه بعد ان جرح جرحاً بليغاً فاستولى سليم خان على ديار بكر وبعض

---

(١) نخبة ص ٤٦

جهات كردستان وكان بين الشاه اسماعيل والملك الأشرف قانصوه الغوري مودة وطيدة فاستنجده الملك اسماعيل وأتت العساكر من مصر وسار اليه السلطان سليم بعساكره وكان الشاه اسماعيل قد احرق كل ما يوجد في طريق الترك من المؤن . ثم التقى السلطان بقانصوه الغوري وكانت بينهما الموقعة الشهيرة بمرج دابق في نواحي حلب انكسرت فيها العساكر المصرية وقتل قانصوه . وعاش الشاه اسماعيل بعد هذا عشر سنوات وتوفي سنة ١٥٢٣ (٩٣٠هـ) عن ٣٨ سنة واربعة اشهر من العمر. فنقل نعشه الى اردبيل ودفن مع اجداده . ثم خلفه فى الملك ثم ابنه طهماسب الاول وقاتل هذا الازابكة في خراسان ثم ثارت الحرب بينه وبين السلطان القانونى سليمان الأول فكانت الدائرة على طهماسب وضبط السلطان سليمان خان وان وشروان . ثم بغداد والموصل سنة ١٥٣٤ (٩٤١ هـ) [1] وتوفي طهماسب الأول في قزوين سنة ١٥٧٥ (٩٨٣ هـ) وعمره ٦٥ سنة فنقل نعشه الى المشهد

ورد في تاريخ منهل الاولياء انه جرى في الموصل ثلاث حوادث غريبة في سنة ٩٨٠ هجرية وهي زلزلة قوية حدثت في الموصل هدمت بيوتاً وابنية غير يسيرة وفي السنة عينها انكسفت الشمس كسوفاً تاماً حتى ظهرت النجوم والكواكب ودام هذا الكسوف من وقت الظهر حتى العصر . وفيها أيضاً انقطعت الامطار فامحلت الارض وعم الضيق سكان الموصل قاطبةً فخرج أهلوها على اختلاف اديانهم وطبقاتهم الى خارج المدينة يقتادون الماشية والاغنام وهم يبكون ويتضرعون الى الله . وبينما هم يستمطرون المراحم الالهية اذا بسحابة ظهرت وبعد قليل صبت ميازيبها فاروت الارض

وقام بعد طهماسب ابنه اسماعيل الثاني سنة ١٥٧٥ (٩٨٣ هـ) وكان اسماعيل في حياة أبيه محبوساً في قلعة آلموت . فلما توفي أبوه ساعدته أخته يري خان على قتل أخيه حيدر وسهلت له الجلوس على سرير الملك فنصر المذهب

(١) توفيق فكرت ص ٥٤٤

السني واشياعه وخذل المذهب الشيعي وكان غشوماً ظالماً قتل أخوته الثمانية وأخته يري خان ليؤمن الملك لنفسه وقتل ثلاثين ألف رجل من المتشيعين لاخوته . وقتل اسماعيل أكثر الرافضة وكان متجبراً تحجب عن الناس على خلاف قاعدة اسلافه وفوّض الأمر الى وكيله وهو الوزير الأعظم عندهم فعجز عن ضبط البلاد وذلت في عهده الدولة الصوفية . ثم مات مسموماً . قيل سمته أخته ولعلها غير يري خان وقيل دُس اليه السم في الترياق . وقد كان يكثر من شربه حذراً من السم وقيل هجم عليه خواصه متزيين بزي النساء وقتلوه لانهم كانوا حاقدين عليه لسوء سيرته . وكان يقول اذا تجدد رأس الخيمة ينبغي ان تجدد الاطناب أيضاً فابغضوه وقتلوه سنة ١٥٧٧ (٩٨٥ هـ)

وكان لاسماعيل أخ بخراسان اسمه خدابنده قد عصاه وانضم اليه أكثر القبائل هناك فأتى سنة ٩٨٥ هجرية وجلس على عرش المملكة الصفوية لكنه عجز عن ادارة الملك لامراض شتى اعترته فعهد به الى ابنه الأكبر حمزة ميرزا وأقبل في زمانه السلطان مراد خان الثالث العثماني الى بلاد العجم بالعساكر الكثيرة وانتشبت الحروب بينه وبين عساكر الدولة الصفوية وكانت معارك دامية مهولة قتل فيها حمزة ميرزا سنة ١٥٨٢ (٩٩٠ هـ) فتضعضعت الجيوش الصفوية وتفرقت تطلب لها ملجأ من الجيوش العثمانية واستولى السلطان مراد الثالث على تبريز وروان وتفليس وجميع نواحيها . فضعفت احوال الدولة وكثرت فيها المشاغب والقلاقل . ثم ان الامراء خلعوا خدابنده وأرسلوا في طلب ابنه الثاني الشاه عباس الأول وكان في خراسان فاقبل الشاه عباس واستلم أزمة الملك سنة ١٥٨٦ (٩٩٥ هـ) وكان حازماً شجاعاً طرد الاغيار الذين دخلوا بلاده عنوةً وأصلح احوال المملكة . ثم وسع اصفهان واتخذها مقر المملكة وعقد اتفاقاً مع الانكليز فحمل على البرتغال وضبط منهم جزيرة هرمز وغيرها ثم طرد الولاة العثمانيين وضبط منهم بغداد والموصل لمدة قصيرة كما سنراه وتوفي سنة ١٦٢٦ (١٠٣٦ هـ) . نخلفه في الملك حفيده الشاه صفيّ ويدعى

سام ميرزا وملك خمس عشرة سنة. ثم توفي ودفن في قم سنة ١٦٤١ (١٠٥١ هـ). وخلفه ابنه الشاه عباس الثاني وملك خمساً وعشرين سنة وتوفي وله من العمر ٣٤ سنة ١٦٦٦ (١٠٧٧ هـ). فخلفه ابنه الشاه سليمان وكان يسمى صفي ميرزا شاه ملك تسعاً وعشرين سنة ثم توفي سنة ١٦٩٤ (١١٠٦ هـ). ثم خلفه ابنه الشاه حسين وكان هذا جباناً واهي العزيمة متراخياً. وكانت الدولة الصفوية في عهده على انحطاط متواصل. واجتمع على قتاله الاكراد والخوارزميون وعرب مسقط والافغانيون. ثم وصل الافغانيون الى العاصمة وهي اصفهان فاقاموا على حصارها الى سنة ١٧٢٢ (١١٣٥ هـ) وافتتحوها تحت قيادة محمود الافغاني ودخلوها. فتسلم محمود الافغاني أزمة الملك من الشاه حسين وسجنه في قصره مدة سبع سنوات. ثم قتله سنة ١٧٢٩ (١١٤٢ هـ). واستقر الملك لمحمود الافغاني حتى ظهر نادرشاه من اتباع الصوفيين. وقد اشتهر بحزمه وبسالته فلم شعث الجنود الصوفية مستنهضاً همم رجالها وحمل على الافغانيين فطردهم عن حدود البلاد الفارسية وأجلس على سرير الملك طهماسب الثاني بن الشاه حسين وكان صبياً حدثاً ليس له من السلطنة الا اسم عار. اما ادارة الملك فكانت لنادرشاه ودعى نادرشاه نفسه طهماسب قولي خان انتماء الى السلطان طهماسب. ثم لما توفي طهماسب الثاني سنة ١٧٣٨ (١١٥١ هـ) خلفه ابنه عباس الثالث وقضى على سرير الملك ثمانية أشهر. ثم خلع وعفي أثره فانقرضت الدولة الصوفية أو الصفوية واستأثر نادرشاه بخزائن السلطان وآل اليه النقض والابرام فاعلن نفسه ملكاً على الدولة الصوفية. ولما استقر له الملك استجاش العساكر وسار الى البلاد الهندية فدوخها. ثم سار بجيوشه الى بلاد بني عثمان وسنذكر قدومه على الموصل في عهد الوزراء الجليليين

اننا لم نتوصل الى اخبار الموصل ومعرفة احوالها مفصلا في عهد هذه الحكومات الأخيرة أي منذ تملك التركمانيين القويونليين على هذه الديار سنة ١٤١٠ (٨١٣ هـ) الى حين استيلاء الدولة العثمانية عليها سنة ١٥٣٤ (٩٤١ هـ)

ولهذا فقد اقتصرنا على ايراد حوادث التركمانيين بالاجمال لقلة الموارد الى ذلك . ومما لا ريب فيه ان الموصل أصبحت في عهد تغلب تيمورلنك عليها هدفاً لنبال المظالم وعرضة للآفات يتناوب على حكمها المتغلبون من التركمانيين والاعجام وفي زمانهم زالت حضارتها وقل عمرانها وأصبحت علومها على شفا جرف هار إذ لم تكن هذه الحكومات المتسيطرة لتسعى في توطيد الأمن بل كان دأبها غزو البلاد واختزان الاموال من الرعايا بالعسف والجور منصرفة عن منافع البلاد الى خدمة صوالحها واضرام نيران الحروب لتوطيد ملكها . وكان أهل هذه البلاد يئنون تحت نير العبودية الثقيل ويحتسون كاس المرائر بالصبر الجميل . ومن الأقوال المأثورة : ان العساكر التركمانية كانت ترتكب في الموصل انواع المظالم من اغتصاب وخطف وابتزاز وعنف الى غير ذلك حتى انها كانت تتخذ الجوامع والكنائس والمعابد والمدارس اسطبلات وكثيراً ماكانوا يدخلون البيوت ويطردون أهلها ليسكنوها أو ليجعلوا فيها خيلهم . ومن هناك جرت العادة ان يبني الاهلون دورهم واطئة بشكل سراديب ويجعلون ابوابها ضيقة كيلا يستطيع هؤلاء الغشومون دخولها بخيلهم والى اليوم يشاهد في الموصل آثار ذلك الظلم في بعض الابنية القديمة من جوامع وكنائس واديرة على هذا الشكل

الفصل العاشر

قدوم السادة والعمرية الى الموصل في عهد الدولة العثمانية

بعد ما استولى السلطان سليمان خان القانوني الأول على بلاد العراق وطرد عنها الاعجام سنة ١٥٣٤ (٩٤١ هـ) [1] أقيم الوزير مجرلي سليمان باشا والياً على بغداد وهو أول وال تركي حكم في العراق والحق ببغداد سائر البلاد العراقية

(١) منهل الاولياء

التي ضبطها من الاعجام وجعلها أي بغداد مركز المشيرية أو الوزارة . وكانت المشيرية تنقسم الى باشاوية (باشالق) والباشوية الى اقضية . وكانت الموصل يومئذ من أشهر وأهم باشاويات بغداد وكان لهؤلاء الوزراء نوع من الاستقلال الاداري لا يراجعون الباب العالي الا فيما همّ من الأمور وكذا نيط بارادتهم أمر تعيين الباشوات والولاة على سائر البلاد المتعلقة ببغداد . وكانت ثمة هذه البلاد في حالة سيئـة واضطراب دائم لاسباب أخصها غارات العجم المتوالية وعصيان اكراد الجبـل وجور الاغوات فان الجبل الذي تحده جنوباً وغرباً دجلة وشرقاً بلاد العجم وشمالاً أرمينية وبحيرة وان كان عاصياً لتمرد اغواته الذين كانوا يتنعمون باستقلال تام . فكان هؤلاء الاكراد ينزلون من الجبل كالسيل الجارف ويغيرون على القرى فيقتلون وينهبون حتى أخربوا من هذه القرى عدداً عظيما ما زال خراباً الى اليوم

ودام حكم هؤلاء الوزراء المستقلين الى سـنة ١٨٣١ (١٢٤٧ هـ) حينما عصى داود باشا آخر هؤلاء الوزراء على أوامر السلطان محمود خان غازي ابن عبد الحميد خان وسترى كيفية ذلك في محله

لبثت الموصل بعد التحاقها بالبلاد العثمانيـة مدة غير يسيرة في ادارة مضطربة وغـير مطردة لفوضى الحال وسوء اخلاق بعض أهاليها يومئذ . فرأت الحـكومة العثمانية خير وسيلة كافلة لتقويم أود الاهالي واصلاح هذا الخلل الفاشي ان تسير معهم على مبادي الرفق واللين من غير سفك دماء وقتل رجال ولا استعمال عنف وشدة بل بالتشبث بوسائط الانذار والارهاب. ومن ثم ارتأت ان تسكن في الموصل بعضاً من اهل الشرف والتقوى كما رأيناه في اوراق تتضمن تاريخ العائلة العمرية لكاتبها الفاضل حسن افندي بن محمود افندي العمري . وها نحن نورد الحادث نقلا عن الـكاتب: صدرت الارادة السلطانية بجلب ذاتين محترمين من اشراف السادة والعمرية القاطنين في الحرمين الشريفين لانذار الأهالي . فدعي السيد عبد الله الاعرجي الحسيني من المدينة المنورة

ودُعي الحاج قاسم العمري من مكة المشرفة . فسكن السيد عبد الله في المحلة الواقعة في شمالي الموصل وتعرف اليوم بمحلة السادة . وسكن الحاج قاسم العمري في المحلة المسماة باب العراق في جنوبي الموصل وتعرف ايضاً بمحلة الشيخ محمد. يقول الكاتب انه لم يقع على زمن قدومهما معيناً وانما استدل عليه استدلالاً من عهد تشييد الجامع العمري الذي اقامه على نفقته جد الطائفة العمرية في الموصل الحاج قاسم سنة ١٥٦٣ (٩٧١ هـ) في محلة باب العراق وضريحه فيه كما يؤيده الكاتب: ان الحاج قاسم العمرى احد كبار الفضلاء وخيار الفصحاء قد دفن في الجامع العمري الذي انشأه في محلة الشيخ محمد

وافاد يومئذ افراد هاتين العائلتين الكريمتين مدينة الموصل فوائد جمة حيث انهم أصلحوا خللها ورتقوا خرقها . ووعظوا الناس بالصلاح . ودلوهم الى أبواب الخير والفلاح. وقام منهم الخطباء الفصحاء والعلماء الفضلاء والزعماء النوابغ والكبراء الجهابذ الذين سعوا في تحسين الاخلاق ونشر العلوم . وسنذكر ان شاء الله مشاهيرهم في كتابنا الثاني وحتى اليوم ما زالت الموصل تباهي برجال هاتين العائلتين الشريفتين وهم من خيرة رجالها

يقول صاحب منهل الاولياء : لم أقف على تراجم الامراء الذين تواردوا على الموصل بعد ما ملك آل عثمان ولا على أسمائهم الا علي أسماء الذين كانوا عليها بعد الالف . ومنهم من نعرف احوالهم . ومنهم من لم نطلع على تراجمهم فذكرنا مختصراً ما وقفنا عليه ففي سنة ١٥٩١ (١٠٠٠ هـ) ربيع الاول كان الامير عليها من قبل الدولة العلية حسين باشا وعقبه پياله باشا ولا يذكر تاريخ منهل الاولياء شيئاً عنهما وفي سنة ١٥٩٥ (١٠٠٤ هـ) احيلت الولاية للامير الشهير سنان باشا وكان وزيراً عادلاً شجاعاً ولي مصر في زمان السلطان سليم. ثم أرسل الى الاصقاع اليمانية لاصلاح الاختلال الذي كان فاشياً فيها ثم عقبه في الولاية أحد الاشراف من الاهالي وهو بكر باشا بن اسماعيل بن يونس الموصلي سنة ١٦٢٠ (١٠٣٠ هـ) وكان بكر باشا معروفاً باصابة الرأي . وتولى

الموصل سنة واحدة . ثم نُقل الى ولاية خرت برت . ثم أعيد الى ولاية الموصل فعمر اسوار المدينة ومكافأة له ضُمت على ولايته خرت برت . وفي سنة ١٦٣٠ (١٠٤٠ هـ) صارت ولاية الموصل لوالي ديار بكر محمد باشا. ثم في سنة ١٦٣٦ (١٠٤٦ هـ) وجهت لمحمد باشا بن بكر باشا

الفصل الحادي عشر

استيلاء العجم على بغداد والموصل

وقدوم السلطان مراد خان الرابع العثماني اليهما

كانت بغداد في كفالة الوزير يوسف باشا واتفق انه وقع اختلاف بينه وبين أحد كبار عسكره يقال له بكر الصوباشي فهجم الصوباشي باثني عشر الفاً من رجاله على يوسف باشا وقتله وتغلب على بغداد وكانت الدولة العثمانية يومئذ في اضطراب واختلال فانتهز الصوباشي الفرصة من فوضى الحال . وأظهر العصيان والاستبداد . وأمر بالخطبة له وضرب السكة باسمه فوردت الاوامر من الباب العالي الى حافظ احمد باشا والي ديار بكر ان يسير بعسا كره لتأديب العاصي . فلما أحس الصوباشي بقدوم حافظ احمد باشا واطلع على كثرة عدده وعدته داخله الخوف فانفذ من ساعته رسولاً الى عباس الاول من الملوك الصفويين في اصفهان يوقفه على الاحوال ويعده ببغداد اذا أقبل الى الاخذ بناصره فارسل الملك عباس يشدد عزمه ويعده بالمدد العاجل . أما حافظ باشا فوصل بغداد ووجدها محصنة قد أوصدت أبوابها وأقيمت الحامية ورجال الدفاع على الاسوار فاحتاط بها وشدد الحصار . وكانت بغداد يومئذ عرضة للآفات الطبيعية قد فشت فيها الامراض السارية وزاد على ذلك القحط وغلاء الاسعار فخشي عباس الصفوي ان يقدمها خوفاً من سريان الامراض الى جنده واكتفى ان يرسل للصوباشي نحو ثلاثمائة نفس ليستلموا

منه مفاتيح المدينة[1] ولما آيس الصوباشي من وصول عساكر عباس الصفوي عمد الى ابرام الصلح مع حافظ باشا فشرط عليه ان تكون له بغداد وملحقاتها فاجابه حافظ باشا الى ذلك وعقد معه الصلح ثم عاد عنه . ففرح الصوباشي بذلك ورأى انه بلغ مرامه فقتل جماعة الاعجام وعلق رؤوسهم على شرفات السور . أما الشاه عباس فلما بلغه ما فعله الصوباشي من الانتقاض والخيانة قصده بنفسه . وأنفذ الى الصوباشي يطالبه ان يبرّ بوعوده في تسليم بغداد . فأبى الصوباشي تسليمها وأجابه اني أخذتها صلحاً بعد اعراضك عنها ونكولك بي . فاستشاط الشاه غضباً ومن ثم شدد الحصار على المدينة ومنع عنها الارزاق وكانت حينئذ المؤن قد نفذت فاشتد الجوع فيها حتى أكل الآدميون بعضهم . وكان للصوباشي ولد يقال له محمد وكان هو المتسلم محافظة قلعة بغداد فأرسل له الشاه يعده ويمنيه بان يجعله حاكم بغداد عوض أبيه فاغترّ بوعد الشاه . وفي الليلة التالية فتح أبواب القلعة للاعجام فدخلوها بضجة عظيمة سنة ١٦٢٢ (١٠٣٢ هـ) وقبض الاعجام على الصوباشي وأحضروه أمام الشاه وكان ابنه محمد جالساً الى جانب الشاه فأخذ يوبخ أباه على خيانته . وأمر الشاه ان يوضع الصوباشي بقفص من حديد وان يجعلوا القفص في قارب مشحون زفتاً وكبريتاً ويضرموا فيه النار ليلتهب في دجلة امام الناس وأمر أيضاً بقتل أخيه علي أغا والقاضي والنائب ومعهم قتل نحو أربعة آلاف نفس وأحرق ما وجده في المدينة من مخازن الكتب وأخرب مرقد الامام الاعظم عبد القادر الكيلاني وارتكب فظائع كثيرة

ثم أرسل الشاه عباس وزيره قاسم خان بالعساكر العديدة الى الموصل ليفتتحها فسار قاسم خان الى كركوك وضبطها ثم أقبل الى الموصل وكان واليها يومئذ حسين باشا الجركسي فدافع عن المدينة مدة طويلة وأخيراً فشل وسلمها الى قاسم خان فتولى أمرها [2] وكان قاسم خان فظاً قاسياً خافته

(١) دحلان ج ٢ ص ١٣١
(٢) توفيق فكرت ص ٢٤٨

الاهالي فنزع منهم كثيرون لما قاسوه من جوره وظلمه وفيهم هاجر الى جزيرة ابن عمر من آل العمري موسى وهو الذي شيد الجامع الشريف في الموصل وهاجر أخوه مراد خان الى العمادية

ولما كانت سنة ١٦٣٨ (١٠٤٨ هـ) أقبل السلطان مراد خان الرابع من استامبول بخمسين الف فارس وخمسين الف راجل قاصداً بغداد . فقصد الموصل وأقام بجوارها وحضر اليه من العمادية أميرها قباد بك مع عدد عظيم من الاكراد بالطبول والاغاني احتفاء بالسلطان . وبعد ان استأمنوه على نفسهم التحقوا بجيشه فاحسن اليهم السلطان وأعطى لقباد بك ولاية العمادية ما دام في قيد الحياة . ثم تقدم السلطان الى الجانب الشرقي من دجلة فلما رأى قاسم خان كثرة الجنود لاذ بالهزيمة فاستولى جند السلطان على المدينة . وبعد ذلك ساروا يطلبون بغداد وقد التحق بجند السلطان كثير من أهالي الموصل واربيل وكركوك وسليمانية . وبلغ خبرهم الى الشاه وكان الشاه عباس قد توفي وجلس مكانه الشاه الصفي سام ميرزا فاقبل سام ميرزا من توريز بعساكره فحصن قلعة بغداد ووضع عليها الامراء الخبيرين وأقام ينتظر ورود السلطان العثماني . ثم قدم السلطان وخيم قريباً من سامرا ولبث هناك بضعة أيام حتى تسنى لهُ جمع ما يلزمه من الذخيرة والاسلحة الكاملة وتقدم على بغداد وحاصرها نحو الاربعين يوماً . ثم حفر الالغام تحت قلعتها فافتتحها ودخلها والى اليوم يُرى مدفع في بغداد يُدعى (طوب الفتح) تركه هناك السلطان مراد ومن ثم استقرت الموصل وبغداد لبني عثمان

وممن تولى الموصل بعد ما فتحها السلطان مراد كان علي باشا الربيعي سنة ١٦٨٣ (١٠٩٥ هـ) ويعرف أيضاً بعرب علي باشا وروم علي باشا . وعلي قدومي باشا وشيد له قصراً منيفاً على تل صغير في جنوبي الموصل قريباً من مزار الشيخ محمد الغزلاني والى اليوم ترى اطلاله وآثاره ويعرف بتل علي قدومي باشا

وكان علي باشا عادلاً حازماً أصلح أحوال الولاية وتلافى الخلل الذي أحدثته في المدينة تلك التبدلات الفجائية ثم قطع دابر اللصوص الذين كانوا قد انتشروا في المدينة وخارجها فاستتب الامن داخلاً وخارجاً . واليوم له سلالته النجيبة الطيبة في بغداد وهم من خيرة اعيانها يعرفون بآل الربيعي

وتولى الموصل أيضاً سنة ١٦٩١ (١١٠٣ هـ) مصطفى باشا ويعرف بمصطفى باشا الاسير . ثم سنة ١٦٩٧ (١١٠٩ هـ) تولى الموصل علي باشا وتولاها بعده سنة ١٧٠٧ (١١١٩ هـ) السيد شريف محمد باشا بن الشاهوار وفي سنة ١٧١١ (١١٢٣ هـ) اشتد الجوع والغلاء في الموصل ونواحيها حتى جلا اكثر الاهلين تاركين دورهم ونزحوا الى البلاد طلباً للرزق ويعرف هذا الغلاء بغلاء ابراهيم باشا لان والي الموصل كان يومئذ ابراهيم باشا وكان هذا ذميم السيرة عاتياً ومن مظالمه قتله احمد افندي العمري الشهير بفضله وحسن سيرته وذلك حسداً . فان احمد افندي كان قد شيد له قصراً منيفاً على شاطيء دجلة وحوّط فيه جنينة غناء وصار يجتمع اليه أعيان البلدة وعلماؤها يتجاذبون اطراف الحديث بين مباحثات دينية وعلمية فتنغص ابراهيم باشا من اجتماعاتهم هذه وأخذ يحتال في قتل احمد افندي فكتب الى القسطنطينية يستحصل أمراً باعدامه ناسباً اليه أموراً لم تكن فيه . ثم سجنه وأعدمه ضمن السجن. وكان ثمّ ابنه أبو بكر قد رحل قبل اعدامه الى القسطنطينية للمدافعة عن أبيه واثبات براءته ونزاهته مما اتهم به فتوفق ان ينال العفو بارادة سنية ثم اسرع راجعاً الى الموصل ودخلها بعد قتل أبيه بيوم واحد . فلما رأى ما جرى لابيه اقفل راجعاً الى عاصمة العثمانيين ليشكو الى السلطان ظلامة أبيه وهناك استحصل أمراً من الباب العالي في اعدام ابراهيم باشا فأعدم [1]

وفي تلك الايام ظهر خليل باشا من آل الرشوان وجمع له عصابة من المتمردين ونادى بالعصيان على الحكومة العثمانية . ولما بلغ خبر عصيانه الى القسطنطينية

(١) او . خط

وردت الاوامر الى يوسف باشا والي الرقة بالمسير على العصاة فأقبل يوسف باشا الى الموصل وحاربه وما زال يراوغ في القبض عليه حتى امسكه وقطع رأسه وأرسله الى القسطنطينية . ولم تنقطع القلاقل والمشاغب من مدينة الموصل . فانه في سنة ١٧٢٥ (١١٣٨ هـ) ثارت فيها فتنة عرفت (بفتنة علي المفتي) وهو علي افندي المعروف بابي الفضائل بن مراد آل العمري وانما سميت باسمه لانها جرت في زمانه وكانت عائلة عظيمة انقسم فيها الاهلون الى حزبين معاديين دام القتال بينهما نحو ستة أشهر استنزفت قواهم وأوبقت خيرهم وأتلفت رجالهم وكثر فيهم النهب والقتل حتى ان الحكومة نفسها لم تستطع ان تقف بوجه هذه النار المندلعة

وكان لعلي أفندي المفتي جنينة خارج الاسوار تعرف الى اليوم بالناعور يقضي فيها يومه ثم يعود مساء الى داره داخل المدينة . ولما ثارت هذه الفتنة أمرت الحكومة بان تغلق أبواب المدينة يومياً عند غروب الشمس وان يمنع الخروج والدخول منها واليها الا من باب السراي الذي كان موقع الحكومة واليكجرية . وكان علي أفندي يقاسي مشقة في عودته مساءً الى داره داخل المدينة فاستدعى الى الحكومة بفتح باب جديد ازاء جنينته ليسهل عليه الدخول والخروج . ولما أجابت الى طلبه فتح باباً مقابل الجنينة والدار الواقعتين بين باب الابيض (باب البيض) وبين باب الجيش [1] (باب لكش) وسمي الباب الجديد الى اليوم [2]

وبعد ما انطفأت نيران هذه الفتنة فشت بالمدينة حمى محرقة مع امراض متنوعة أفنت من العباد خلقاً كثيراً . ثم عقب ذلك آفة الجراد التي اتلفت مزروعات تلك السنة فزاد الغلاء في الطين بلة وعلى اوتار الشجون عويلا ورنة

(١) سمي باب الجيش لان الجيوش كانت تجتمع عنده للسفر الى بغداد
(٢) او . خطأ

الفصل الثاني عشر

تولي العائلة الجليلية حكم الموصل ثم قدوم طهماسب نادرشاه الى الموصل . في ولاية الوزير الحاج حسين باشا

كانت الموصل قد تضعضعت أحوالها منذ عهد التتر ومن بعدهم في تملك الدول التركمانية وزادت على ذلك الآفات الطبيعية والفتن الداخلية التي تطاير شررها واندلعت السنتها النارية فاتلفت من أهلها خلقاً كثيراً وعطلت مدارسها وقوضت من عمرانها قسماً مهماً فقيض الله لها رجالاً نبتوا في ربوعها الخضراء من أرومة شريفة وأصل كريم أخمدوا فتنها وأقاموا أسوارها وهم الوزراء الجليليون الذين تولوا حكمها قرناً ونيف فشادوا جوامعها وكنائسها ومدارسها وأقطعوا لها الاوقاف . وأجروا عليها النعم . وهي باقية الى اليوم تقر بفضلهم وخدمهم الجليلة المشكورة وتنبي بافصح اللسان عن هممهم الباذخة . وحسن تدبيرهم وسمو مداركهم ورفعة قدرهم . فتحسنت أحوال الولاية في أيامهم واستتب الامن الوارف في أقاصي الموصل وأدانيها . وهاك كلمة في العائلة الجليلية

ان العائلة الجليلية من البيوتات العريقة في الشرف ظهرت في أوائل الجيل الثامن عشر وتولت الحكم في الموصل وفي بعض بلاد ما بين النهرين . وكان جدهم الاكبر عبد الجليل بن عبد الملك قد أقبل من ديار بكر واستوطن الموصل وصار له فيها خمسة أولاد اسماعيل وابراهيم وصالح ويونس وخليل امتازوا بالنجابة والبسالة وباركهم الله فنموا وكثروا ونالوا بحذقهم الثروة الطائلة والعز الباذخ والمجد المؤثل

ونشأ منهم الحكام والولاة والوزراء الذين اشتهروا بالنجابة والشجاعة والهمة العالية والعدل في الناس

كانت الحرب تدور رحاها سنة ١٧٢٦ (١١٣٩ هـ) بين الاعجام وبين الدولة العثمانية فقدم الجليليون المساعدات الكثيرة لتجهيز العساكر في الموصل بما تحتاج اليه من الذخائر وأمدوها بالسيف والمال. ومن ذلك الحين قدرتهم الحكومة العثمانية حق قدرهم وكافأت اخلاصهم ومعروفهم فاقامت أحدهم وهو اسماعيل باشا بن عبد الجليل والياً على الموصل سنة ١١٣٩ هجرية. ثم تناقل الجليليون حكمها الواحد تلو الآخر وساعدوا أرباب الخير وبذلوا المساعدات الجمة للرسالة الكبوشية. ولما انتقل الكبوشيون من الموصل سنة ١٧٢٤ (١١٣٧ هـ) استقبل الجليليون المرسلين الدومنكيين الذين فتحوا رسالتهم في الموصل سنة ١٧٥٠ (١١٦٣ هـ) فافسح لهم الجليليون مجالاً واسعاً للعمل ودافعوا عنهم حباً بالخير الذي كان ينشأ عن يدهم الى جميع الاهالي على اختلاف نحلهم واديانهم

وسعى اسماعيل باشا مدة ولايته بتحسين شؤون الولاية وعمر الجامع المعروف بجامع الاغوات الشهير بمساعدة اخوته ابراهيم أغا وخليل أغا. ثم توفي سنة ١٧٣٣ (١١٤٦ هـ) ودفن في المقبرة القديمة بجوار الباب الجديد. وفي حياته عهدت ولاية الموصل لحسين باشا الدرندي. ثم للحاج حسين باشا ابن اسماعيل باشا سنة ١٧٣٠ (١١٤٣ هـ) وتداول أمرها سبع مرات لشهرته الذائعة. ثم خوّل الرتب السامية ولقب الوزير الكبير سنة ١٧٣٤ (١١٤٧هـ) مكافأة له على خدمه الجليلة فوقفت على بابه الشعراء وهنأته بقصائدها نخص بالذكر منهم الشاعر الاديب «الشيخ محمد الغلامى» الموصلي وقد قرّظ الوزير بقصيدة ضافية الابيات مطلعها:

أورقَ الحمى لِمَ أنت خاضبة كفا ... وسحبَ الندى لِمَ أنتِ وا كفة وكفا

واشتهر الوزير الحاج حسين باشا في الحروب التي ثارت بينه وبين الاعجام حتى طبقت شجاعته الخافقين وغدا علماً يشار اليه بالبنان

رأينا ان محمود الافغاني لما استولى على الدولة الصفوية عنوة وضبط

بلادها انتشرت فيها الفتن والمشاغب وأصبح أمرهم فوضى فاغتنمت الدولة العثمانية من ذلك فرصة وشنت الغارة على البلاد العجمية وضبطت منها قسماً عظيماً . ثم لما قام في الدولة الصفوية طهماسب الثالث وهو المعروف بكولي خان أو بنادرشاه كما مر عنه الكلام وتمكن من طرد الافغاني عن البلاد الفارسية وقهر اعداءه وأخذهم بحد السيف خضعت له بلاد الدولة الصفوية . وكان طهماسب عنيداً غشوماً كثير الحروب سفاكاً للدماء فانه بعد ما قمع شوكة الثائرين أرسل يطلب من السلطان محمود بن السلطان مصطفى الثاني اعادة البلاد التي ضبطها اختلاساً . ولما لم يلتفت اليه السلطان العثماني حمل بالاعجام على تبريز فاستولى عليها وعلى جهاتها . ثم أقبل نادرشاه بعساكره الجرارة على بلاد كردستان ووصل كركوك فحاصرها وافتتحها مع ما يليها . وكانت عساكره حيثما مرت خربت ودمرت وقتلت الرجال وسبت النساء حتى ارتعدت فرائص أهالي هذه البلاد لشدة ما أصابهم من الهلع والويلات . ثم قدم الى بغداد سنة ١٧٣٢ (١١٤٥ هـ) وبعد حصار قصير افتتحها ونهبها وقتل من أهلها . وكان واليها احمد بك قد سهل فتحها له لاغتياظه من السلطان محمود وبعد فتحه بغداد واطرافها سير وزيره نركس خان بجيش يبلغ عدده ثمانية آلاف جندي الى الموصل فأقبل نركس خان الى الموصل بعساكره وأخرب بطريقه قرى عامرة كثيرة وهدم ما وجده في طريقه من العمران والآثار منها دير مارايليا ويسمى دير سعيد الواقع جنوبي الموصل على مسافة خمس كيلو مترات

ان الحموي يصف حسن بناء هذا الدير وانتظامه واتساعه وما يحتاط به من القلالي العديدة ورهبانه الكثيرين . اما عن سبب تسميته بدير سعيد فيورد ان سعيد بن عبد الملك بن مروان الاموي الذي كان يتقلد يومئذ امارة الموصل في ايام ابيه اعترضه مرض عضال فعالجه طبيب نصراني اسمه سعيد ولما عوفي الأمير من مرضه فوض طبيبه ان يطلب ما شاء من المكافاة فطلب

منه ان يبتني ديراً بظاهر الموصل وان يهب ارضه فابتنى الدير وسماه باسمه دير سعيد

قال صاحب وفيات الاعيان [١] : كنت اظن ان دير سعيد منسوب الى سعيد بن حمدان من ملوك الموصل الحمدانيين حتى رأيتـه في كتاب الديرة منسوباً الى سعيد بن عبد الملك الاموي . اه . والصواب ان هذا الدير سمي بتشييده مارايليا الحيري العربي جنساً والنصراني مذهباً في اواخر القرن السادس للميلاد [٢] كما شهد بذلك توما المرجي ويشوعدناح البصري مؤرخ الاديرة وايد الحموي هذا الرأي بما نقله عن الخالدي ان ثلاثة من رهبان النصارى (وهم مارايليا ويسميه الحموي سعيداً وربانوراهام وربان برعدتا) اجتازوا بأرض الموصل قبل الاسلام بنحو مائة سنة تقريباً وابتنى كل واحد منهم ديراً دُعيَ باسمه

اما ما قيل عن سعيد بن عبد الملك الاموي الذي تولى امارة الموصل في خلافة أبيه سنة ٦٨٤ (٦٥ هـ) وتعميره هذا الدير فقد يكون صحيحاً وذلك استناداً على ما رأيناه في قصيدة كلدانية خطية لا يشوعيات الاربلي المعروف بابن المقدم (أواسط القرن الخامس عشر للميلاد) ان مارايليا ابرأ سعيداً أمير الموصل من مرض عضال اعتراه فبنى له الأمير ديراً بجوار الموصل . وليس في ذلك أمر ممتنع حيث قد تحقق ان مارايليا عاش أكثر من مائة سنة كما يؤيده يشوعدناح البصري [٣] ولا بد انه عاصر في آخر حياته الامير سعيد الذي في فرصة شفائه أكمل له بنيان ديره ووهبه شيئاً من الأراضي المجاورة فسمي لذلك دير سعيد . وبقي هذا الدير عامراً آهلاً بالرهبان الكثيرين حتى قدم نركس خان وزير نادرشاه بجيوشـه فقتل رهبانه وخرب عمرانه وتركه قاعاً صفصفاً لا يسكنه أحـد واليوم ليس في هـذا الدير الاهيكله القديم وبعض

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٤٦٣
(٢) الطيرهاني ص ٤٩
(٣) كتاب العفة طبعة بيجان ص ٤٥١

الغرف الحديثة البناء وحولها الانقاض القديمة

تقدمت الجيوش النادرشاهية الى الموصل وظهرت بغتـةً صباح اليوم الخامس والعشرين من شهر شوال سنة ١٧٣٢ (١١٤٥ هـ) قبالة الموصل على مسافة نصف ساعة عند قصر علي قدوي باشا في أرض الغزلاني . فقام الحاج حسين باشا بهمته المفطور عليها وغيرته الشديدة واستحث همم الاهالي مستنهضاً غيرتهم وحميتهم الوطنية بأقوال حماسية حتى ثار جميعهم وهبوا بسلاحهم الى حومة القتال يقودهم أسد الحروب الجليليون فالتحمت الحرب بين الفريقين ودامت من الصباح حتى العصر فابلى الموصليون في تلك الحرب بلاءً حسناً وأظهروا فيها من الحماسة وضروب الشجاعة وفنون الحرب ما يتيـه له العقل ويدل على شديد وطنيتهم وغيرتهم . وكان قاضي الموصل يومئذ يحسن اطلاق المدافع فاطلق قنبلةً واصاب زعيم جيوش العدو ومن ثم اندحرت جيوش نادرشاه ولاذت بالهزيمة منكصة على الاعقاب بصفقة خاسر . ولما ولى العدو دخل الاهلون الى المدينـة واعلام النصر تخفق فوق رؤوسهم بين تحيات الشيوخ والاولاد وتهاليل النساء [1] . واشتهر من الجليليين في هذه الحرب الضروس مراد باشا ومحمد أمين باشا وعبد الفتاح باشا أخو الحاج حسين باشا واولاد عمه عبدي أغا ومصطفى أغا وعبيد أغا والحاج قاسم المغازي

فانشدت شعراء الموصل تصف هـذه الحرب وتنوه بالذكر الطيب على أسودها الجليليين . فقال الكاتب الاديب والشاعر اللبيب المرحوم حسن عبد الباقي مقرظاً :

قفا نصطبح ما بالاناء المجدد ... فاحياء اموات الغبوق على يدي

وان حلف الساقي وانكر فضلةً ... تبقت من الصهباء ذخراً الى غد

فأي يمين والبنان خضيبة ... وفضلتها شمس ولست بارمد

ولما بلغ نادرشاه خبر انكسار عساكره ورجوعهم عن الموصل بخيبة

---

(١) او . خطية

المسمى شق عليه ذلك اذ كان قد اشتهر بغزواته وفتوحاته الكثيرة في بلاد الهند والعجم والاتراك فعقد النية على ان يقصد الموصل بنفسه ويفتتحها عنوة ويقتل رجالها ويسبي نساءها ، لكنه انصرف عن ذلك لحاجة دعته ان يرحل الى بلاده . ولما كانت سنة ١٧٤٣ (١١٥٦ هـ) عبى جيوشه المديدة وجهزها بالعدد الوافرة والمؤن الكثيرة وأقبل الى الموصل

الفصل الثالث عشر

قدوم طهماسب نادرشاه ثانية الى حصار الموصل

كان الحاج حسين باشا قد اهتم سنة ١٧٤٢ (١١٥٥ هـ) بترميم اسوار الموصل وتقوية مستحكماتها وحفر أيضاً خندقاً حولها ثم بلغته حركة نادرشاه فاسرع الى تجييش العساكر وتدارك المهمات الحربية وكان نادرشاه قد قدم بغداد أولاً وطفق يتهددها برمي القنابل . فعمد أحمد باشا واليها الى الحيلة وأنفذ يقول لهُ ان يسير أولاً الى فتح الموصل وفي عودته يجد بغداد مفتوحة امامه . فنجحت حيلته « والحرب خدعة » ثم رفع نادرشاه الحصار عن بغداد وسار بجيشه الى الموصل وهو يرجي نفسه ان يكون أمر الموصل كالبصرة والحلة والقرنة وغيرها من البلاد الكثيرة التي افتتحها واستولى عليها . فانتشرت جيوش نادرشاه في اطراف الموصل واستولى على قراها واقضيتها المجاورة من ذلك كرمليس وبرطلي وقره قوش وتدعى أيضاً خوديدا أو باكزيره وتلكيف وباطنايا وتلسقف والقوش وكان يقتل النصارى ويسبي النساء والصبيان وأخرب عسكره مدناً كثيرة وقرى عامرة من النصارى واليزيدية من ذلك تلا ، وكانت عامرة كثيرة السكان . ثم وضع يده على الأديرة ونهبها وقتل رهبانها منها دير مار اوراهام الواقع قريباً من قرية باطنايا وهو الى اليوم باق لا يسكنه أحد (وقد شيد هذا الدير مار ابراهيم في أواخر الجيل السادس على مايذكره عمر الطيرهاني بجوار قرية بامادا وربما بيث مادي من بلد نينوى

ويظن انها باطنية) [١] وكان الرجال والنساء يفرون من وجههم فالتجأ كثير من أهالي البلاد والقرى المجاورة الى الموصل وتألبوا فيها فاستقبلهم الحاج حسين باشا وجبر صدع قلوبهم من هذا الطاغية وقوى عزمهم وشجعهم على قتاله وجهزهم بالمؤن والاسلحة . وكان نادرشاه قد قارب من الموصل وأنفذ



طهماسب كولي خان المعروف بنادرشاه

رسالة الى المفتي السيد يحيى يخاطب بها الحاج حسين باشا فجمع الحاج حسين باشا أهالي الموصل ليستحث هممهم فاجتمعوا اليه بسلاحهم في الجامع الاحمر الذي

(١) الطيرهاني ص ٤٩ و ١٢٩

على ضفاف دجلة وقرئت عليهم رسالة نادرشاه وهذا بعضها :

باسم الله العلي الأعلى . الموصل الى مدارج العلى . هذا كتاب منا الى العالم النبيل والنحرير الجليل المفتي يحيى أحياه الله كما يشتهيه ويتمناه وصانه من كل طارق وبلوى والى قاطبة قاطني الموصل حفظهم الله من المصيب والويل كي يوقظهم من رقدة الغفلة وسنة العثرة ويزيل عنهم الدهشة والوحشة فيستمعوا له وينصتوا استماع قبول واذعان وايقان واتقان . عسى أن تنجوا وتفرحوا ولا تلقوا وراء ظهوركم لقاء تعنت وطغيان تحزنوا وتندموا . واعلموا ياخواني المؤمنين . انا جند خلقنا من رحمة الله وغضبه . فالبشرى ثم البشرى لمن اتبعنا وهدانا . والنذرى ثم النذرى على من خالفنا وعصانا . أو ليس لكم من آثار الماضين تبصرة ومعتبر الا فتذكروا خيار الهند والسند والترك في انموذج وصل اليكم من وقائعهم وملاحمهم . ووقائع جيرانكم من أهل كركوك وما ولاها كيف تعنتوا فتندموا . ثم أطاعوا فنجوا . ذا خط في جلباب أمن وأمان وشفقة ودعة وامتنان فلا تلقوا بأنفسكم الى التهلكة واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ولا تقدرون الدفاع فلا تعرضوا أعماركم للانقطاع . قال الله عز وجل من قائل « تعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » وورد في الحديث « ان من فرج عن أخيه المؤمن فرج الله عنه سبعين كربة يوم القيامة . ومن رأى أخاه في حفيرة فأنجاه انجاه الله من النار » . وأرسلت اليكم كتابي وصحيفتي مع السيدين النجيبين الفخيمين قاضي كركوك حسن افندي ومصطفى أغا يوصلانه اليكم ويرشدانكم الى الصواب ويحذرانكم من العقاب فعليكم أن تنظروا اليه بعين الانصاف مجتنبين التعنت والاعتساف . واستقبلوا السلطان العادل الكامل الرؤوف والخاقان الأعظم العطوف أدام الله عزه وجلاله على مفارق العالمين تفرحوا وتسروا فان همته العالية معروفة بالشفقة والاستعطاف فلا تعرضوا أنفسكم لنزول نيران غضبه وشدة بطشه وسخطه . انما علينا البلاغ وعليكم الحساب

علينا اتمام الحجة الغراء وعليكم سلوك المحجة البيضاء وليبلغ الشاهد منكم المستمع لكتابنا الغائب والسلام على كل من اتبع الهدى . اه

ومن منطوق هذه الرسالة يستدل القاريء على ثقة نادرشاه من نفسه لقوة جيوشه الكثيرة وعدده الوفيرة

وبعد ماقرئت الرسالة على مسامع الخاصة والعامة التفت الحاج حسين باشا الى الأهالي وسألهم عن رأيهم فأجابه جميعهم بصوت واحد انهم مستعدون لما يأمرهم به وموافقون رأيه في اقتحام غمائر الحرب ولو كلفتهم اراقة دمائهم جميعاً . فأوعز الحاج حسين باشا الى المفتي باعطاء جواب ملائم . وهذا ملخصه :

باسم الله وما اعتصامنا الا بالله ومن لاذ بكهف كفايته كفاه وحماه . هذا كتاب فصلت آياته وتحدثت معجزاته . وظهرت شواهد دعوته وبيناته ظهور نار القرى ليلاً على علم بل هو أشهر كجلمود صخر حطه السيل من عل الى ملاباشي (علي أكبر) أجرى الله بذباب صمصام قهره من أذن رعونته قطرات الشرور المتصاعدة الى صماخ دماغه من ابخرة النخوة والغرور وأخمدت شرارات تلك النية الفاسدة بصرصر الدمدمة الالهية كما أهلكت عاداً بالدبور وصل كتابكم المرسول الى العامة المشتمل بزعمكم على الطاعة فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولايغرنكم بالله الغرور مفتخرين به بأنكم جند الله مخلوقون من الغضب أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم . وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون . فالعياذ بالله أمن بعد ايماننا وطاعتنا لسلطاننا والمقاتلة دون أموالنا والمكافحة عن أولادنا وعيالنا يهولنا منكم شقايق اللسان . ويروعنا سحر البيان ووسوسة الشيطان وكثرة الهذيان

قام الحمام على البازي يهدده   واستصرخت بأسود الغاب أضبعه
يا من يسد فم الأفعي بأصبعه   يكفيه ما قد يلاقي منه اصبعه

فما وعيدكم عندنا الا كصرير باب . وكما طنّ لوح الهجير ذباب . أفرأيتم أن القصاب تهولهُ كثرة الغنم . أو الأسد الغشمشم يدركه تراكم النعم . تذكروننا بما فعلتم بالسند والهند . وبما فعلتم مع أولئك العلوج . وتدهشوننا بما فتحتم من قلعتي كركوك وأربيل وترعبوننا بأمثال تلك الأباطيل . كلا ستعلمون ثم ستعلمون . أترتاع بالقراع ونحن الأسود الضارية ، والسباع الكواسر العادية . أسيافنا صقيلة . وسطوتنا ثقيلة وحلومنا رزينة وقلوبنا كالحديد متينة . وبلدتنا بحمد الله حصينة

لنا جبل يحتله من يجيره منيع يرد الطرف وهو كليل

ستر العرش مسبول علينا . وعين الله ناظرة الينا . . . . وسيعلم الظالمون أي منقلب ينقلبون . . . . ورثنا عن آباء صدق . ونورثها اذا متنا للبنين فلا سمعاً لكم ولا طاعة . وأهلاً بالسعادة والشهادة هذه الساعة

ردى حياض الردى يا نفس واتركي حياض غير الردى للشاء والنعم

فما بيننا الا ما صنع الحداد من سيوف حداد ورماح مداد ويقبل الله في شأنه ما أراد

حرر عن لسان الحاج حسين باشا الوزير الجليل والى مدينة الموصل المحروسة وحسين باشا والى حلب وكافة وجوه البلد وأعوامها والسلام

وبعد أن ختم الكتاب سلم الى يد الرسول ونهض أهالي البلدة نهضة واحدة للذود عن الأوطان . وجمع الحاج حسين عموم الاهالي الذين كانوا في القرى والجبال . ثم أمر باحضار أرباب الحرف والصناع وأوعز اليهم بالانكماش في اعداد اللوازم الحربية . أما بقية الاهالي فساروا الى خارج المدينة يشتغلون على الأسوار في نقل الحجارة والتراب فاشترك في هذا العمل جميع الأهالي من هاشمهم الى مخزومهم حتى أن بعض أفراد العائلة الجليلية شوهدوا ينقلون التراب تشويقاً للناس وتحريكاً لعواطفهم الجنسية . ثم سير الحاج حسين باشا الكتائب المنظمة خارج المدينة وعليها القواد والأمراء .

وخرج هو نفسه نخيم بنقطة مناسبة . ثم تقدم نادرشاه بعد وصول المكتوب اليه بعساكره الى جهة النهر الشرقية بجوار قرية يارمجه . وتقدم أيضاً أهالي الموصل يقودهم الأمراء الجليليون الابطال ومعهم حسين باشا والي حلب بعساكره . وقوج باشا حاكم سنجاق بعساكره وكتيبة من خيالة العرب البواسل وعددهم يبلغ نحو الخمسمائة راكب . فانتشرت عساكر نادرشاه كالجراد في تلك البقاع الواسعة وقد اصطفت للحرب . ثم حمل عليهم عبد الفتاح بك الجليلي أخو الحاج حسين باشا بفرقته وعمره حينئذ أربع وعشرون سنة فعبر النهر الى الضفة الشرقيـة . ودارت بين الفريقين حرب طاحنة فحاول عبثاً نادرشاه ان يقطع عن العساكر الموصليه خط الرجعة . وكان الفضل في ذلك للباقة ومهارة قائدها البطل الهميم عبد الفتاح بك . وبعـد ضرب وطعن انسحبت العساكر الموصلية فقطعت النهر ودخلت المدينة وقد قتل وجرح منهم نفر يسير . أما خسائر العدو فكانت فادحة وقتل منهم في هذه المعركة قائد فرسانهم واسمه جيلوخان ودفن بقرية تسمى الى اليوم باسمـه « قرية جيلوخان » وهي على طريق الخذر تبعد عن الموصل ساعتين تقريباً . ولما كان اليوم الثاني أغلقت أبواب المدينة وصعدت العساكر الموصلية على القلعة وأقام بعضها على الاسوار . ثم تقـدم العدو وعدده ثلاثمائة الف محارب ونيف واحتاطوا بالقلعة والاسوار وأنفذوا الى الحـاج حسين باشا رسولاً آخر يتهددون به الاهالي ويقولون لقد تقرّر عندنا ضبط مدينتكم فعلى مَ سفك الدماء والعصيان على أوامر الشاه . ولماذا تطوحون بأنفسكم وأموالكم في مواضع الهلكة والتلف . انما عليكم ان تسلموا فتسلموا . فأجابهم الحاج حسين باشا مخيباً آمالهم قائلاً : اننا لواثقون بالله ان يمدنا بالنصر المبين . فما بيننا وبينكم الا السيف والسنان فلا تعاودونا بالرسل والتهديدات وان أتانا منكم رسول آخر لاعيدنه اليكم جثـة بلا راس فتقدموا ولا تبطئوا « لا يفلح الساحر حيث أتى » ثم عاد الرسول متعجباً من بسالة الاهالي وثباتهم . فأبلغ نادرشاه

ما سمعه ووعاه ومضى على ذلك أربعة أيام . ولما كان اليوم السادس من عودة البعثة الاخيرة أحاطت عساكر العدو بالمدينة . ثم قطع نادرشاه دجلة ودار حول المدينـة ليفتقد المواقع ويطلع على مناعة الاسوار وقوتها وعاد الى خيمته . وفي اليوم الاول من شعبان اجتمعت العساكر النادرية الى الجامع الاحمر فنقلوا الحجارة والتراب وبنوا ازاء السور والقلعة اثني عشر استحكاماً ووضعوا عليها المدافع . وكان الحاج حسين باشا أيضاً قد وضع المدافع على ابراج الاسوار وصوّبها الى جهة العدو . وفي اليوم السادس من شهر شعبان بدأ نادرشاه باطـلاق القنابل التي كانت نهاراً تتساقط على الاسوار كالمطر . وليلاً تتناثر كنجوم من أديم السماء . وقد ملأ رعيد صوتها تلك الآفاق . وأقام نادرشاه ثلاثة أيام بلياليها يطلق قنابل مدافعه حتى قيـل انه ألقى على المدينة والاسوار في تلك المدة ما ينيف على خمسين الف قنبلة . والى اليوم يرى من هذه القنابل في دار الحكومة وامام بعض البيوت حيث كان الاهالي يجمعونها لـكثرتها ويجعلونها في أرض دورهم . ومع هذا فان التضييق الشديد مازاد الاهالي الا اقداماً وثباتاً على مناوأة عدوهم والذب عن حياض أوطانهم

ثم ان نادرشاه طفق يحاول هدم الاسوار التي قاومت بمتانتها قنابل العدو ولم تتزعزع . وكان على الباشطابية الواقعة في شمالي الموصل بجوار جامع الامام يحيى أبي القاسم العساكر العديدة يصلون العدو حرباً حامية باطلاق قنابلهم . وكان محافظ هذا البرج ليلاً الحاج حسين باشا نفسه وفي النهار كان يطوف هو وأولاده حول المدينة لافتقاد المواقع والجند فيشجعونهم ويوزعون عليهم اللوازم الحربية ويجندون شجعانهم بالهدايا والذهب . وأقام نادرشاه في هـذا الموقع ازاء جامع الامام يحيى أبي القاسم خمسة عشر يوما بلياليها أطلق فيها من القنابل نحو مائة الف[1] ثم تحول بفرقة الجند من يارمجة الى قرية قاضيكند الواقعة قبالة باشطابية وجمع قوته ازاء هذا البرج الباقي الى

(١) أو . خط

اليوم يشرف على دجلة وهو خير أثر عن الاسلاف . ثم أمر باطلاق القنابل الشديدة على هـذا البرج العظيم وكانت جنود الموصـل تقابلهم من أعلاه بشجاعة لا نظير لها • لكن تلك المرميات العديدة المتوالية التي كان العـدو يلقيها هدمت جانباً من البرج نخارت عزائم الاهالي واستحوذ عليهم الفشل والقنوط . ولما رأى الحاج حسين باشا سوء المصير وان المدينة أوشكت أن تقع بيد العـدو صالح الجند وشرع يستحثهم ويحرك فيهم روح الوطنية ويذكرهم ما سيحلّ بهم اذا دخل العدو الى الاوطان ثم أوعز حالاً باحضار العملة والبنائين والصناع فباشروا بلحم الصدع وستر الثلمة ولم يمضِ على ذلك ساعات حتى غدا البرج سالما لا شعب فيه

ولما لم يفلح نادر شاه بهذه عمد الى اخرى فأمر بحفر ثلاثة الغام في السور وقدأحدثت تلك الالغام اضراراً جسيمة غيرأن الاهالى بغيرتهم ونشاطهم كانوا يتلافون هـذه الاضرار بحيث لم يهجعوا ليلاً ونهاراً فكانوا ليلاً يصلحون الخلل ويرممون الثلمات الطارئة على الاسوار ونهاراً يحاربون العـدو بجلد وثبات عجيبين

ودامت الحرب أياماً كثيرة حتى آيس نادر شـاه وأعياه فتح الموصل فعمد الى اغفال اهاليها بالمسير عنهم أياماً حتى يركنوا ويأووا الى بيوتهم مطمئنين ثم يباغتهم على غرة

فكفّ عن الحصار وسار بجيوشه الى جزيرة ابن عمر حيث وضع السيف وقتل ونهب وسبى النساء . ثم دخل بيعة النصارى من الكلدان وكانوا قد التجأوا اليها يوم الاحد للصلاة خوفاً من ذلك الطاغوت . فرّغ ذلك المصلى بدم الابرياء وصنع مذبحةً مهولة . ولما فرغ منها فاجأ الموصل فالفاها أمنع من عقاب الجو . اذ كان أهلها مدة غيابه قد زادوا في تحصينها وحكموا أسوارها واستحضروا المؤن والعـدة . فمدّ الجسور على الخنادق وعبرت جنوده كالجراد عدداً والسيوف بأيديهم مصلتة والقنابل من خارج تلقى على

على المدينة تترى . أما جند الموصل فلم يحفلوا بهم بل حملوا عليهم وقتلوا منهم عدداً عظيماً حتى كسروهم ودفعوهم على الاعقاب مفشولين . ثم جمع العدو قوته واستأنف الهجوم ودامت هذه المعركة نحو ثماني ساعات في آخرها تبدّدت العساكر النادرشاهية وولوا منهزمين . وحاول نادرشاه ان يقوي عزم المنهزمين فلم يصغوا اليه بل ما زالوا هاربين لا يلوون على شيء حتّى قطعوا دجلة الى معسكرهم . وقد قتل منهم الى هذه المعركة الاخيرة نحو ٥٤٠٠ قتيل وأما من العساكر الموصلية فلم يقتـل الا مائة نفر لا غير وبعض الجرحى . ولما أيقن نادرشاه بعجزه عن فتح المدينة وتأكد انه لا ينال منها قلامة ظفر وتذكر قول أهاليها انهم لا يسلمون المدينة وفيهم عرق ينبض . ثم لاحظ العار الذي يلحقه برجوعه خائباً عنهم عول على ابرام الصلح فأرسل الى الحاج حسين باشا رسولاً يدعوه الى الصلح وأبى الحاج حسين باشا مصالحته وأجابه مع الرسول اننا مستعدون للمدافعة عن مدينتنا وان كذبت احلامكم فليس لكم الا ان تعودوا الى بلادكم والسلام . ولما رجع الرسول الى نادرشاه سأله عن المدينة وعن الاخربة التي أحدثتها قنابلهم فأجابه الرسول كنا نظن ان قنابلنا لم تترك فيها شيئاً من العمران لكنني ألفيتها لا أثر فيها لتلك القنابل الكثيرة . ووجدت خلقها شديدي البأس ثابتي العزيمة مصرين على محاربتنا[1] فكتب نادرشاه ثانيةً مكتوباً الى الحاج حسين باشا يلتمسه ارسال اثنين من قبله لوضع قاعدة يستقر عليها الصلح . فاستدعى الحاج حسين باشا القاضي ومفتي الشافعية الغلامي وقره مصطفى بك وأرسلهم الى قرية قاضيكند حيث كان نادرشاه مخيماً برجال بطانته فلما بلغ الرسل الى فسطاط نادرشاه استقبلهم بحفاوة وبش بهم وأسدى جزيل الثناء على عزم الاهلين وثباتهم وقال ليس مقصدي من الموصل الا تصحيح مذهب أهل السنة والشيعة . وبعد المراجعة تقررت قواعد الصلح بين الطرفين وخلع نادرشاه على الرسل . ثم ان الحاج

(١) منهل الاولياء

حسين باشا أهدى ثمانية رؤوس من جياد الخيل وأحسنها وأنفذها مع ابن عمه الحاج قاسم أغا . فخلع نادرشاه على الحاج قاسم أغا الخلع الثمينة ثم أطلق المريقان الأسرى . ولم ترسل شمس اليوم الرابع من رمضان أشعتها القرمزية على قمة البرج العالي (باشطابية) أثر البطلية والاقدام الا وكانت العساكر



صورة البرج الأعلى (باشطابية) وجامع الامام ابي القاسم يحى

النادرشاهية تسير متجهة نحو الشرق بقلب هالع وقدم مرتجف وهي تلقي نظرة وداع أخيرة ملؤها الهيبة على مدينة كللتها أشعة الشمس الذهبية بأكاليل الظفر والانتصار

ففتحت الموصل أبوابها . وكان ذلك اليوم يوماً حافلا تغنى فيه الشعراء مقرظين منقذ الموصل وواليها الحاج حسين باشا . ولأحدهم قصيدة منها :

هـذا الحسين المحتشم   صـدر النوال في النـدى
مولى المـكارم والأمم   سـيف الجلال في العلى
نور الهـداية والهـدى   عين السماحة والـكرم
سيف العليّ مهندا   ماحي المـكاره والظلم

ولقد لخص هذا الحادث الشهير الأب لانزا الدومنيكي [1] وهو معاصره تقريباً « خيم طهماسب نادرشاه ازاء الموصل على الضفة اليسرى من دجلة على قمة تل مجاور لنبي الله يونس وصوب على المدينة ١٦٠ مدفعاً و ٢٣٠ مرمية (هاون) وكان أهالي الموصل شديدي العزم قد حلفوا على الدفاع الى آخر رمق من الحياة واقسموا على ان يقتلوا النساء شهامة اذا تمكن الفرس من المدينة . اما الاعجام فانهم حاصروا المدينة حصاراً شديداً اثنين وأربعين يوماً القوا في مدتها ما ينيف على أربعين ألف مرمية وهجموا خمس هجمات شديدة على الاسوار فدفعهم جند الموصل بشجاعة عظيمة وقتلوا منهم خلقاً كثيراً . وبعد ان اقام الاعجام كل هذه المدة ولم يفلحوا بشيء رجعوا عن المدينة خائبين وقد فقدوا رجالهم ومؤنهم . وعجيب انه لم يقتل من أهالي البلدة الا نفر يسير جداً وقد نسب هذا الظفر المدهش الى اعجوبة باهرة من العذراء مريم البتول فبنيت كنيستها وجعل لها وقف من أربعة اطرافها ٤٠ متراً عرضاً حولها » اه

وبالحقيقة ان هذا الانتصار كان عجيباً نظراً الى يأس الأهالي وضعفهم ونقص معداتهم بالنسبة الى قوة العدو العظيمة بالرجال الكثيرة والعدد الوفيرة ولهذا فقد نسب الحاج حسين باشا نفسه وقاطبة أهالي الموصل على اختلاف اديانهم انتصارهم الجليل الى شفاعة العذراء والقديسين الذين هدم هذا الطاغية هياكلهم ومعابدهم [2] وعليه فيروي سكان الموصل الى اليوم عن الاقاويل المأثورة انه شوهد من سطح كنيسة العذراء الطاهرة اشخاص يحمون المدينة ويردون عنها القنابل مصوبينها الى جهة العدو ويؤيد ذلك الحس العام . هذا ما رأيناه منقولا عن تاريخ الموصل لياسين افندي العمري [3] حيث يذكر عن سبب سعي الحاج حسين باشا بتجديد كنيسة العذراء التي

(1) Couronne de rose N° 12 - 1907

(٢) مختصر تواريخ الكنيسة للمعلم لوهوف انديل من الخوري يوسف داود ص ٦٢٥

(٣) أو ٠ خطية

تهدمت خلال تلك الحرب . ويقرأ في هذا التاريخ انه قد تجددت وترممت في تلك الآونة ثماني كنائس في الموصل على نفقة الحاج حسين باشا نذكر منها كنيستي العذراء الملقبتين بالطاهرة الواقعتين الى الجهة الشمالية من المدينة قريباً من السور فالواقعة قريباً من النهر تدعى « التحتانية » وهي للكلدان والأخرى « الفوقانية » وهي للسريان القديم

وقد تجددت كنيسة الطاهرة للكلدان بهمة الحاج حسين باشا سنة ١٧٤٣ (١١٥٦ هـ) بوكالة زكريا الصايغ وكان هذا يومئذ صرافاً في الحكومة عند الباشا المذكور . وقد وقفنا على القصيدة التي نظمها حسن عبد الباقي افندي الأديب البارع حين جولانه مع حسين باشا على سطح الكنيسة المذكورة بعد الفراغ من عمارتها وهذه هي :

عرّج بنا يا أخا الاسرار معتسفاً ... لبيعة ملئت عزاً وتقديسا
واقصد بنا قاعةً للطاهره بنيت ... حتى بها نذهب الاتراح والبوسا
فيها أناجيل لا تحصى فضائلها ... كم عبدت كل مطران وقسيسا
وتيمت كم وكم رهبان بهجتها ... وفي الاوائل كم دقوا نواقيسا
قم واستمع سحراً الحان نغمتهم ... تخالهم في ظلام الليل فانوسا
في هيكل الدير قم وانظر تر عجباً ... من الاشعة كالمصباح مقبوسا
فذ قدمنا سألنا من أخ ثقة ... من شاد اركان شيء كان مدروسا
فقيل لي زكريا بالبنا سبب ... بعزم ليثٍ همام قامع الروسا
عالي الجناب وزير ضيغم بطلٍ ... حسين قام لها للضد دبوسا
لا زال سعده بالاقبال مبتدراً ... واعداؤه لم تزل بالذل والبؤسا
امواله صح في التاريخ جاد بها ... جوزيت يا زكريا الاجر من عيسى

يستفاد من مضمون هذه الابيات ان كنيسة الطاهرة كانت كنيسة الدير الاعلى وهو ديرمار جبرائيل حيث ينوه بالذكر الطيب عن رهبانها ونواقيسها قديماً كما يستفاد أيضاً ان كنيسة الطاهرة في زمن الشاعر كانت آهلة بالرهبان

الذين يشبههم بالنباريس ويدعو قارءه ان يصغي الى اصواتهم الشجية في صلواتهم السحرية ، فاما ان هؤلاء الرهبان الذين يذكرهم الشاعر كانوا يسكنون يومئذ الدير الاعلى بعد خرابه فيما بقي لهم من الغرف أو القلالي أو انهم بعد خراب الدير المذكور انتقلوا وسكنوا في كنيسة الطاهرة نفسها أو في ما يجاورها في الابنية

الفصل الرابع عشر

في آخر ايام الحاج حسين باشا وفيمن خلفه من الوزراء الجليليين

في آخر حياة هذا الوزير الجليلي أي سنة ١٧٥٦ (١١٧٠ هـ) حدث في بلاد ما بين النهرين برد قارص لم يسبق لهُ مثيل حتى جمد النهر فاشغلت الناس هذه المصيبة واوقفت اشغالهم واعمالهم وسدت بوجههم ابواب الارزاق وسبل المتاجر وعقب ذلك جوع مدقع فان القحط كان قد ضرب اطنابه في ديار بكر وشملت هذه الكارثة بلاد الموصل أيضاً . وكان ذلك من أكبر الشدائد والضيقات فان البرد القارص اتلف المزروعات والمواشي وزاد على ذلك انقطاع وارد الغلة لعدم وجودها في البلاد المجاورة وقلة وسائط النقل لجلبها من البلاد البعيدة . ولما كانت السنة التالية وهي سنة ١٧٥٧ امل الناس الخير والبركة لجودة المزروعات التي كانت تبشر بخصب وخير . وقبل ان يضع الحصادون يدهم على العمل اذا بجراد هائل هجم على الزروع بغتةً فاتلف خضراءها وغضراءها ولم يدع منها حبة واحدة فاحتار الناس لهذه الأزمة الشديدة وضاق بهم المخلص فهلكت الدواب والبهائم وتشتت الناس الى البلاد البعيدة طلباً للرزق وهلك منهم كثيرون في الطرق . وقد افاضت العائلة الجليلية خيراتها على الفقراء وفتحت لهم اهراءها وأخذت توزع عليهم الاقوات بسخاء حاتمي

توفي الحاج حسين باشا اثناء هذه الكارثة أي سنة ١٧٥٧ (١١٧١ هـ)

وعمره ٦٣ عاماً [١] وقد أدى للاوطان خدماً جليلة فتقلد الحكم في فارس والبصرة وشيد في الموصل جامعه المعروف باسمه أي جامع الباشا وفيه دُفن . وخلف من الاولاد أربعة يذكرهم منهل الاولياء وهم الغازي محمد أمين باشا وسعد الله بك وأسعد بك وحسن بك [٢] ، واشتهر بوقته وزيره الحاج سليمان أغا . وبعد وفاة الحاج حسين باشا وردت الاوامر من الباب العالي بتقليد منصب الولاية الى ابنه محمد أمين باشا . وكان محمد أمين خبيراً بشؤون الادارة شجاعاً ذا فكر ثاقب ورأي صائب تغنت الشعراء بمديح حسن اخلاقه وكرم طباعه فقال فيه بعضهم :

كالبدر من حيث التفت رأيته ... يهدي الى عينيك نوراً ثاقبا

وكان في حياة أبيه قد تقلد المناصب الرفيعة وشام برق الأمور وخبر غثها وسمينها فانه خول رتبة ميرميران سنة ١١٥٦ وكان عمره آنئذ ثلاثاً وعشرين سنة وفي سنة ١٧٥٢ (١١٦٦هـ) أقيم على اصلاح الخلل والفساد الذي كان عاثياً في سنجار واطرافها فأحسن القيام بهذه المهمة وابرز شجاعة حببته الى اولياء الأمر . ثم انه سافر الى كوتاهيه مع ابيه واقام فيها مدة غير يسيرة في الاشغال والمهمات والمناصب التي كان والده يتقلدها . وتولى ايضاً حكم بغداد ثم حكم الموصل ثلاث دفعات وكان وزيره في اثنائها صلتان اغا ابن الحاج سليمان اغا . وخول امين باشا رتبة الوزارة السامية سنة ١٧٦٦ (١١٨٠ هـ) . ثم انتقل الى ديار بكر لاصلاح شؤونها سنة ١١٨١ هـ وبعد مضي ستة اشهر انتشبت الحرب بين تركيا وروسيا وحينئذ تبلغه الأمر بالمسير الى ميدان الحرب فسار برجاله الى ساحة القتال حيث ابرز شجاعة ودربة احرز بها شهرة عظيمة . ثم اعتقل اسيراً في احدى المعارك وبقي في الاسر خمس سنوات . ولما ابرم الصلح بين الدولتين رجع الغازي محمد امين باشا الى القسطنطينية فجرى له

(١) طومار

(٢) توفيق فكرت ص ٢٩٠

استقبال شائق وخصه بالاكرام السلطان عبد الحميد خان الأول واثنى عليه مقدراً شجاعته . وعاد الى الموصل سنة ١٧٧٥ (١١٨٩ هـ) وبعد وصوله اليها بشهرين اعتراه مرض عضال فتوفي وعمره سبع وخمسون سنة عن نجلين كريمين هما سليمان ومحمد وسيرد ذكرهما في محله

وتقلد ايضاً حكم الموصل عبد الفتاح باشا بن اسماعيل باشا الجليلي سنة ١٧٦٩ (١١٨٣ هـ) وكان عبد الفتاح باشا قبل هذا التاريخ قد رحل الى بغداد لنزاع جرى بينه وبين بعض الاهالي ثم خول وهو في بغداد رتبة ميرميران وولي حكم الموصل بارادة سلطانية . فلما قدم الموصل خشيه اعداؤه وخصومه وخافوا ان يقابلهم بالسوء لكن سهمهم طاش فان عبد الفتاح باشا عاملهم بما فطر عليه من اباءة النفس وشرفها وقابلهم باللطف والبشاشة واحسن اليهم اذ لم يتنازل الى الاستئثار منهم شأن النفوس الخسيسة . ثم خول عبد الفتاح باشا رتبة الوزارة السامية وقلد منصب ولاية طرابلس فرحل الى الولاية المذكورة سنة ١٧٧٢ (١١٨٦ هـ) ليصلح فيها بعض الشؤون واناب عنه على الموصل ابن عمه احمد أغا وفي مدة غيابه شغب بعض اهالي الموصل على احمد اغا وطلبوا قتله وعلى هذا انقسمت الاهالي الى فرقتين فرقة عاصية وفرقة موالية لاحمد اغا وافضى بهم النزاع الى سل السيوف وسفك الدماء وزاد في الطين بلة فشيان الطاعون في الموصل ونواحيها فمات فيه خلق كثير . قال صاحب منهل الاولياء : كنا نصلي على الجنائز عند الباب الجديد فعددنا الموتى الذين اخرجوا من ذلك الباب فجاوز عددهم مائة وعشرين واجتمعت الجنائز يوماً في المصلى وكنا كلما فرغنا من واحدة جاؤا بأخرى فسقط بعض الحاضرين في المصلى فرفعناه وادخلناه المسجد فلم يكن ساعة الامات واحصينا يوماً عدد الذين دفنوا خارج المدينة فبلغ الفاً ونيفاً . اه

وقد احصي عدد الذين اخرجوا من ابواب المدينة ليدفنوا في المقابر التي خارج البلدة فبلغ مجموع ذلك مائة الف هذا عدا الذين دفنوا من المسلمين

والمسيحيين في المساجد والكنائس . وقد عرف من احصاآت الجنود المقلدين حراسة ابواب المدينة بأنه لم يبق بعد انتهاء الطاعون الا نحو الخمس من سكانها في قيد الحياة [1] ومن ذلك يستفاد ان عدد اهالي الموصل يومئذ كان ماينيف على ١٢٥٠٠٠ . وفر الكثيرون من الأهالي هاربين من وجه هذه البلية السوداء وتركوا اموالهم ودورهم فقراء ومنهم الذين ماتوا في بيوتهم ولم يشعر احد بهم فاضحت مخادعهم قبوراً لهم

وردت الأوامر بتقليد منصب الولاية للوزير سليمان باشا بن محمد امين باشا وكان عبد الفتاح باشا قد توفي اثناء سفرته في الشام ودفن فيها في القدم فأعاد سليمان باشا الامن الى نصابه واصلح احوال المدينة . ثم عهدت اليه ولاية بغداد ايضاً سنة ١٧٧٩ (١١٩٣ هـ) وولي ايضاً سيواس وبعده قارص وكان حينئذ على ولاية الموصل عبد الباقي باشا احد خواص والي بغداد . وكان عبد الباقي باشا عاتياً ظلم الاهالي واستنزف اموالهم ثم شن بعسكره الغارة على اهالي العمادية فنهب اموالهم واستاق دوابهم والحق باهالي تلك النواحي اضراراً جسيمة وبينما كان عائداً بالغنائم الى الموصل قطع طريقه أهالي العمادية وحملوا عليه حملة واحدة فناوشهم القتال وفي اثنائه اصابته ضربة قاضية فخر صريعاً وتشتت عسكره فأخذ اهالي العمادية اموالهم ورجعوا الى اماكنهم [2] ولما وصل خبر مقتله الى عاصمة العثمانيين وردت الأوامر بتولية سليمان باشا الجليلي على الموصل [3] وذلك سنة ١٧٨٥ (١٢٠٠ هـ) . ثم عينه السلطان العثماني على كبح جماح عشاير الرشوال فجعل تحت امره اثني عشر والياً ليساعدوه في هذه المهمة . ولما عصى عمر باشا والي بغداد على السلطان أرسل سليمان باشا بارادة سنية الى بغداد لمحاربة العاصي فسار اليه وظفر به . وكان الوزير سليمان باشا متصفاً بجليل الاخلاق مع الحزم واصالة الرأي . وقد تداول ولاية الموصل

(١) او . خطية
(٢) جودت ج ٢ ص ٢٩٠
(٣) طومار

دفعات جدّد في خلالها اسوار الموصل فارّخه الشاعر المجيد عثمان بكتاش الموصلي بهذه الابيات :

شاد هـذا السور سلطان المدى صاحب الشوكة في هذا الاوان
قائم ذو المجـد في اتقانه حاكم الوقت سليمان الزمان
ربّ فاجعـله اماناً للورى وبالطافك محروساً مصـان
وبباب الحـكم عدلاً ارخوا فادخـلوه دار عزٍ بامان

ذكر صاحب منهل الاولياء عن الحاج عبد الباقي باشا بن عبيد أغا الجليلي انه تولى ولاية الموصل سنة ١٧٨٤ (١١٩٩ هـ) وتوفي اثناء حملته على اليزيدية العصاة فخلفه فيها محمد باشا بن أمين باشا سـنة ١٧٨٩ (١٢٠٤ هـ) واستوزر بكر افندي بن يونس افندي وعمر جامع باب الابيض أو باب البيض وجامع المحمودين مع مدارسهما ومدحته الشعراء فقال فيه بعضهم :

ولقد رويت عن الثقاة روايةً عن ذلك الملك العظيم السؤدد
ان المحـامد والمحاسن كلها جمعت وصارت للوزير محمد

ثم خلفه في الولاية نعمان باشا بن سليمان باشا سـنة ١٨٠٧ (١٢٢٢ هـ) وعمر الجامع الشهير المعروف بجامع النعمانية مع مدرسته . ولم يحكم نعمان باشا الا سنة واحدة وفي عهد ولايته جاهر اليزيدية بالعصيان وانتشروا في الاطراف سلباً ونهباً حتى قطعوا الطرق عن المسافرين ثم تجمعوا من النواحي البعيدة واشهروا الحرب على الحـكومة المحلية فسار اليهم نعمان باشا بعساكره وقاتلهم واخضعهم . وكان قبل ولايته بنحو أربع سنوات أي سـنة ١٢١٨ هجرية أقبل علي باشا والي بغداد لتأديب بعض قبائل اليزيدية الذين كانوا قد قطعوا السبل فحمل على سـنجار وخرب ودمر القرى واتلف المزروعات والبساتين وأجبر العصاة على الطاعة [1]

(١) جودت ج ٧ ص ٣٥٤

الفصل الخامس عشر

كلمة استطرادية في الشيعة اليزيدية

لما كان معظم اتباع هذه الشيعة يقطنون القرى المجاورة للموصل وفيها أكبر رجالهم وأعظم معابدهم رأينا ان نلخص كلاماً عنهم . اننا لم نقف على حقيقة تسمية اشياع هذا المذهب باليزيدية فقد ذهب البعض الى ان تسميتهم باليزيدية تنسب الى يزيد بن سلمى . والقول الاصوب والاصحّ ان ينسب تعليل تسميتهم بذلك الى اله كانوا يعبدونه اسمه يزد أو يزدان . فقد اتى في تاريخ كلدو [1] نقلاً عن توما المرجي (القرن التاسع للميلاد) الذي يذكر في كتاب الرؤساء ٥ فصل ١١) عن أهالي مدينة موغان انهم كانوا يعبدون صنما اسمه يزد . فيقول المؤلف قد يكون فيما ذكره توما المرجي اصل تسمية هذه الشيعة باليزيدية على ان كلمة يزدان تعني « اله » باللغة الفارسية

واورد المستر لايارد السائح الانكليزي الشهير عن تيوفانيس المؤرخ اليوناني الذي كان عائشاً في القرن السابع للميلاد العبارة الآتية « ان الامبرطور هرقليوس خيّم بجنوده قريباً من مدينة يزدم » . وظن الماجور روليندن ان « يزدم » كانت من مدن حدياب فيقول الاب مارتان : قد تكون هذه المدينة أول مكان انتشرت فيها الشيعة اليزيدية . وكتب الموسيو (F. Nau) ان تسمية هذه الشيعة باليزيدية تنسب الى الخليفة يزيد الاموي وقد أعطيت لهم من كتبة الاسلام في القرن الثالث عشر [2] . اه . فرمى الكاتب كلامه على عواهنه ولم يدعم رأيه هذا ببينة ولا قدم لنا سبباً في ذلك لنرى ماهو وجه العلاقة بينهم وبين يزيد بن معاوية (٦٧٩ ميلادية) أو يزيد ابن عبد الملك (٧١٩) أو يزيد بن الوليد (٧٤٣)

---

(1) L'Abbé Martin ص٤٣

(2) Recueil de textes et de documents sur les Yezidis p. 7

ان اصحاب هذه الشيعة يسكنون بجوار حلب ووان وارضروم ويكثرون في نواحي الموصل على يمين دجلة في سنجار وعلى يساره في الشيخان عند معبدهم الشيخ عدي ويبلغ عددهم ما ينيف على ٣٠٠٠٠٠ قال الأب مارتال ومنهم اي اليزيدية في جبال قوقاس وعلى سواحل بحر قزبين وفي جبال الطاي الى كمجتكا ومنهم في بلاد الصين ولكن باسم آخر

اما ديانتهم فهي مانوية المبدأ وقد ذهب بعض المؤرخين الى انها تتصل بمذهب زردشت القائل بوجود الهين . وتفرض هذه الديانة على اصحابها تقديم العبادة للشمس وللشيطان لأنه مبدأ الشر كما يعلم المذهب الزردشتي بوجود الهين هما هرمزد اله الخير واهيرمان اله الشر فيعتقدون بوجود اله الخير الذي لا حد لصلاحه ورحمته وهو فوق جميع المخلوقات كما يعتقدون ايضاً بالشيطان وهو ملاك ساقط محجوب يقدمون له العبادة تخلصاً من شره لا لاستحقاقه الذاتي . ويبرهنون ـ مبرئين انفسهم من الخطأ في ذلك ـ ان الله الذي لا حد لصلاحه وجوده ومحبته للخلائق لا يفعل بهم شراً لأنه صالح اما الشيطان فهو منقاد طبعاً الى عمل الشر لانه مصدر الشر ومبدأه . وعليه فالفطنة تقضي على من يريد سعادة الحياة أن يهمل عبادة الله الصالح بطبيعته الذي لا يشاء عمل الشر ويطلب ولاء الشيطان وحمايته تخلصاً من اذاه . اذ للشيطان وحده ان يسلط الشرور وان يدفعها . فيعبدون الشيطان باسم الملك العظيم أو ملك القوة المقهور من مبدا الخير . اما مبدأ الخير فيملك مدة الف سنة وهي اجل غير محدود وعند نهايتها تستعر نيران حرب عوان بين اله الصلاح واله الشر وفيها يتهيأ لاله الشر اما أن يحرز الغلبة او يبرم صلحاً مع اله الخير وكلتا الحالتين ستعودان بالنفع العظيم على اتباعه واشياعه

يرأس الامة اليزيدية جمعاء أمير من شيعتهم يسمونه أمير الشيخان . ويقيم في الشيخان الواقعة في شمال شرقي الموصل على مسافة ٤٥ كيلو متراً . واهم قرى الشيخان قرية بيث عذري الشهيرة في تاريخ الكلدان حيث يقيم

أميرهم . ولهذا الامير سلطة مطلقة على اليزيدية وتحت أمره أمراء ثانويون يخضعون له ويبلغون أوامره الى جميع النواحي . ورئيسهم الديني الاعلى هو الشيخ الاكبر ويدعونه « بابا شيخ » وتحت يده جملة من الشيوخ يتلقون أوامره في متعلقات الدين ينفذونها في الشعب كل في مركزه وناحيته وللشيخ الاكبر فقط حق التشريع في الامور الدينية كتحديد الصوم والصلوات والتحريم الى غير ذلك . ومن يتعدى على أوامر الامير الاكبر أو الشيخ الاكبر يعرض نفسه الى اشد القصاصات وهو استباحة بيته وأمواله. وهاتان الرتبتان الامارة والمشيخة محصورتان في عائلتين يتقلدها السلف عن الخلف . ولليزيدية عوائد وتقاليد غريبة كنفرتهم من اللون الازرق وكراهيتهم العظيمة للخس وعدم تلفظهم بحرفي الطاء والشين ولهذا يسميهم الاوربيون (*Shamanistes*) وعندهم لا يجوز استخدام الفرس والحصان في حمل الاثقال ومن يتعدى على ذلك يقع تحت طائلة الحرم الشديد ولا يحل منه الا بعد تقديمه التوبة الصارمة والغرامة النقدية

ولهم أيضاً مواسم شتى في بحر السنة منها ان يزوروا كل أول أربعاء من نيسان رومي قبور أمواتهم بالدفوف والمزمار . ثم يأكلون ويشربون عليها ويطعمون الفقراء . ويوم الخميس الثاني يجتمعون في بعشيقا في محل يدعى الشيخ محمد . ويوم الجمعة يجتمعون للرقص أيضاً في بعشيقا . والجمعة التي تلى يجتمعون للرقص في قرية دراويش عند قبر حسن فردوش . والجمعة الثالثة يزورون بالطبول والمزمار قبر الشيخ أبي بكر الواقع قريباً من باحزاني أي مشهد الالعاب أو ميادين الطراد . ولليزيدية أيضاً ثلاثة ايام صوم في السنة

يسجد اليزيدية لصنم بشكل طائر يسمونه طاووس ملك وهو عندهم الاله السامي الذي كان قبل جميع الخلائق وهو موجود في كل مكان ويرسل خدامه الى العالم ليفرزوا بين الضلالة والايمان [1] . ويعتقدون بتناسخ الارواح وبناء

(١) قال نو فى كتابه عن اليزيدية *Recueil de documents sur les Yesidis*

على ذلك يعتقدون بان رؤساءهم عاشوا في جميع العصور . ويجعلون الشيخ عدي واحداً مع الاله طاووس ملك . ولا يقولون بوجود جهنم أو الشياطين وعندهم ليست الارواح الشريرة الا الآفات الطبيعية كالامراض والطاعون والقحط والموت وغير ذلك . أما كتبهم الدينية فهي (كتاب الجلوة) المنسوب الى الشيخ عدي ويشتمل على التعاليم القديمة اليزيدية . ثم (الكتاب الاسود) الذي كتب سنة ١٣٤٢ وهو يبحث عن عوائد الأمة اليزيدية في ذلك العصر. وقد نشر الموسيو (نو) هذين الكتابين مترجمين الى اللغة الفرنسية في كتابه الذي ذكرناه [١]

ان الابحاث التي نشرت في تاريخ اليزيديين وديانتهم وعوائدهم واخلاقهم هي كثيرة وأشهر الذين بحثوا فيها هم المستر هنري لايارد الرحالة الانكليزي . والموسيو سيوفي وكيل دولة فرنسا في الموصل قديماً في ابحاثه التي نشرها في المجلة الاسياوية (*Journal Asiatique*) ثم المونسينور سموئيل جميل في كتاب اخبار الدسناوية [٢] مترجماً الى اللغة الايطالية

وبحثوا ابحاثاً مطولة في مقام الشيخ عدي وهو معبد اليزيدية الذي يحجون اليه . قال الاب مارتان : ان معبد الشيخ عدي كان قديماً ديراً على اسم مار ادي احد الاثنين والسبعين تلميذاً [٣] ولا صحة لقوله انه كان على اسم مار ادي . أما ما ثبت عندنا فهو انه كان ديراً أسسه الراهبان يوحنا ويشوعسبران في القرن السابع للميلاد . وذلك استناداً على ما أثبتته منظومة يشوعياب بن المقدم (القرن الخامس عشر) ورسالة خطية باللغة الكلدانية

ان كلمة طاووس هي محرفة عن أصلها اليوناني (تيئوس) أي الله ، وكان المسيحيون قد أخذوا هذه الكلمة عن الاروام واستعملوها في كتاباتهم وصلواتهم حتى شاعت تاووس الله فتعلمها منهم اليزيدية وأطلقوها على الصنم الذي كانوا يعبدونه

(١) ترجم كتاب الجلوة الى اللغة الانكليزية وذيله وطبعه *O. H. Parry* *London 1895* ثم طبع الاصل العربي مع ترجمته الانكليزية (*Isa Joseph*)

(٢) وهم اليزيدية الذين يسكنون الشيخان

(٣) كلدو ص ٣٨

قديمة العهد كتبها راهب نسطوري اسمه راميشوع سنة ١٧٩٣ يونانية الموافقة ١٤٥٢ ميلادية وتبحث هذه الرسالة عن هذا المقام انه كان ديراً أسسه الراهبان المذكوران في القرن السابع . ثم احتله الشيخ عدي وكان مسافر أبوه الكردي النحلة التيرهي المذهب [1] راعياً لاغنام الدير المذكور . وبعد وفاته خلفه ابنه عدي في رعاية الاغنام . ثم تغلب على الرهبان سنة ١٢١٩ فطردهم واغتصب الدير مع املاكه . وكان رئيس الدير حينئذ غائباً يسيح في الاراضي المقدسة . فلما عاد ورأى ما حل برهبانه رفع ظلامته الى باطو امير المغول فالقى القبض على عدي سنة ١٢٢٣ وقتل . وبعد قتله بسنين يسيرة عاد أولاده فاستولوا على الدير المذكور ثانية

مقام الشيخ عدي

(١) التيراهية هي الوثنية القديمة أي ديانة زرادشت (طالع Chronicon Syriacum Ed) . وذكرهم ابن الاثير (ج ١٢ ص ٨٧) قال : التيراهية كفار لادين لهم يرجعون اليه ولا مذهب يعتمدون عليه وكانوا من الخارجين المفسدين على شهاب الدين فاوقع بهم اتابك تاج الدين الوز مملوك شهاب الدين وقتل منهم خلقاً كثيراً . ويورد ابن الاثير شيئاً من اخلاقهم وعوائدهم

ان هذه المخطوطة حلت من نفس المسيو (نو) محل الثقة التامة لجعل الشيخ عدي كردياً في جنسه تيراهياً في مذهبه . واذ لم يمكنه انكار وجود الشيخ عدي بن مسافر الاموي المسلم الذي أقبل من قرية فار من أعمال بعلبك الى الجبال الهكارية حيث اتخذ زاوية وتبعه خلق كثير وفيها توفي سنة ١١٦٠ (٥٥٥ ه) [1] افتكر أن الاول هو غير الثاني . والعقبة التي اعترضت هذا البحاثة في طريق ابحاثه خاصة هو الفرق في تاريخ وفاتهما اذ أن عدي الاموي توفي سنة ١١٦٠ او ١١٦١ وعدي الكردي قتل سنة ١٢٢٣ ولعل عدي الذى احتل الدير المسمى اليوم باسمه هو غير عدي الذى اقبل بنفسه من بعلبك الى الجبال الهكارية . جاء في قلائد الجواهر للشيخ محمد الحنبلي انه بعد وفاة الشيخ عدي بن مسافر الاموي خلفه ابن اخيه الشيخ ابو البركات بن صخر بن مسافر الاموي وكان هذا الرجل ايضاً من المشايخ الكمل العظام وصحب عمه واستفاد من يمن انفاسه وخلفه بعده ولده ابو المفاخر عدي بن ابي البركات بن صخر ابن مسافر الاموي الشامي الاصل الهكارى المولد والدار وكان له اعتبار فائق وقدر زائد . اه . فلعلّ عدي الذي احتل دير يوحنا ويشوعسبران هو عدي أبو البركات لقربه من التاريخ الذي يعينه صاحب المخطوطة اذا سلمنا بصحة روايتها على أن الناقد يجد فيها صعوبات جمة اذ كيف يصح أن عدي صاحب الاعتبار الذائع والصيت الزائد الذي احترمه الناس الى حد العبادة كما يرويه ابن خلكان يكون راعياً لأغنام الدير . وكيف يمكن أن يكون الشيخ الزاهد والعبد الصالح مجوسياً تيرهياً وكيف يصح التسليم بوجود شيخين وكل منهما يدعى عدي باتباعهما في وقت واحد ومكان واحد مع ما هما عليه من البون الشاسع فى الدين والمبدأ اذ من الاكيد ان عدى الاموى المسلم اتخذ زاويته في موقع مقام الشيخ عدى قال الحموي : لياش قرية في الجبل من بلد الموصل حيث كان يعيش الشيخ عدى بن مسافر الشافعي . وكذا قال بقية المؤرخين أن

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٩٧

الشيخ عدى سكن ليلش أو لالش من الجبال الهكارية والحال أن معبد الشيخ عدى هو اليوم في الجبل المسمى عند الاكراد واليزيدية حتى الآن بمضيق لالش . واذا سلمنا بان معبد الشيخ عدى حيث يحج اليزيدية اليوم هو لمدى الكردى التيرهي فاين يا ترى زاوية الشيخ عدى العربي الشافعي وقد ثبت عندنا أنها في مضيق لالش . زد على ذلك ما أورده ابن المقدم في منظومته عن الشيخ عدي الذي احتل الدير المذكور انه كان مسلماً خلافاً لما رواه صاحب المخطوط . وجاء في الكتاب الاسود ان عدي شيخ اليزيدية كان سورياً (١) . وذكر ابن خلكان نسبه قال : الشيخ عدي بن مسافر بن اسماعيل بن موسى بن مروان بن الحسن بن مروان كذا أملى علي نسبه بعض ذوي قرابته الهكاري مسكناً العبد الصالح الذي تنسب اليه الطائفة العدوية . ونقل الموسيو سيوفي نسبه عن ياسين افندي الخطيب العمرى الموصلي قال : عدى بن مسافر بن اسماعيل بن موسى بن مروان بن الحسن بن مروان بن الحكم ابن أمية كان عريفاً في علم الشريعة وابلاه الله بمصيبة اذ زعم اليزيدية انه اله واتخذوا قبره مقاماً يحجون اليه (٢) .

فالأكيد عندنا ان مقام الشيخ عدي أي معبد اليزيدية كان قديماً ديراً والأدلة على ذلك كثيرة منها النصوص التاريخية كمنظومة يشوعياب بن المقدم ورسالة راميشوع ثم التقليد الجاري عند النساطرة وموقع هذا المقام في محل منعزل عن العمران في وسط الجبال ثم بنايته على نسق الاديرة الباقية الى اليوم وغرفه المقورة في الصخور كما نراه في دير ربان هرمز الفارسي ثم الخطوط الكلدانية بالقلم الاسطرنجيلي التي ترى اليوم على بعض جدران المعبد (٣) . قال الموسيو مناذ (*Menant*) يرى الباحث المدقق في هذا المقام آثار دير قديم في هندامه على شكل الاديرة القديمة ثم بقايا كنيسة وهي في شمال جهته الشرقية

(١) M. Siouffi loc.cit. p. 81

(٢) F. Nau. p. 19. 23

(٣) طالع سياحتنا في مجلة المشرق ١٩٢٢ — ٨٢٢

من الشرق الى الغرب الا اننا لا نعلم كيف أصبح هذا الدير زاوية للشيخ عدي الاموي ولا كيف آل أمره الى يد ابناء الأمة اليزيدية

الفصل السادس عشر

تتمة اخبار الوزراء الجليليين

استقال نعمان باشا بعد سنة من ولايته لمرض اعتراه فأقيم مكانه أحمد باشا بن بكر أفندي وفي مدة حكمه ثارت بين الاهالى فتنة حالت دون مرامه من الاصلاح واشتدت حتى آلت الى اشهار السلاح وايقاد نار حرب أهلية ، وفي تلك الغوائل قتل أحمد باشا . فوردت الاوامر من الباب العالى بتعيين الوزير محمود باشا الجليلى وبولايته تم الصلح بين الاهالي وهدأت تلك الزوبعة . وكان الاكراد في الجبال قد شقوا عصا الطاعة فاكثروا الغارات على قرى المسيحيين حتى أجلوا أهلها ودام عصيانهم وظلمهم الى سنة ١٨٠٨ (١٢٢٣هـ) وكان السلطان محمود خان الثاني ذا رغبة شديدة في الاصلاح وهو يعد من أعدل واشفق سلاطين آل عثمان . فأرسل جيوشاً جرارة تحت قيادة الصدر الأعظم كورجي محمد رشيد باشا فاقبل هذا الى كردستان لقهر اغواتها المتطاولين الساكنين في الجبال واستنجد الوزراء الجليليين فامدوه برجالهم واموالهم . ثم سار الوزير المشار اليه الى اقليم بهدينان والعمادية وافتتح كل المراكز والقلاع المحصنة المستقوى بها أولئك الاغوات المتمردين ونكل باعوانهم وقتل منهم ونفى . اما الذين أذعنوا فسلموا وحازوا التأييد بالتصرف في ولاياتهم التي كانوا يديرون دفة شؤونها ،ومنهم كان درويش بك أمير أرزن [1] . وتوفي محمود باشا في بغداد سنة ١٨٠٩ (١٢٢٤ هـ) . وفوضت الولاية الى سعد الله باشا نجل الحاج حسين باشا وكان عالماً فقيهاً يجل العلم وارباته فسعى مدة ولايته في نشر الوية العلم بين ظهراني قومه غير ان المنية اختطفته قبيل

(١) أو . خطبة

أو انه سنة ١٨١٢ (١٢٢٧ هـ) ودُفن في جامع الرابعية وهو الجامع الذي شيدته رابعة خاتون أخت الحاج حسين باشا . ثم تقلد الولاية بعده الوزير أحمد باشا بن سليمان باشا سنة ١٢٢٧ هجرية ، وعمر جامع نبي الله شيث ومدرسته وأوقف لها الأوقاف الكثيرة . ثم نقل الى ولاية مرعش حيث توفي سنة ١٨٢٣ (١٢٣٩ هـ) وكان رضي الاخلاق ذا حزم وعقل ثاقب فقال فيه الشاعر :

منه الوزارة نالت　　مجداً أثيلا مؤبد

لو تستطيع لقالت　　لازلت أحمد احمد

وتولى بعده حكم الموصل الوزير حسن باشا نجل الحاج حسين باشا سنة ١٨١٧ (١٢٣٣) وكان هذا عالماً نحريراً عمر المدرسة الحسنية التي اشتهرت بوقته وسعى بتنشيطها بكل الوسائل الممكنة . وفيه يقول السيد شهاب :

كالحسن الوزير ما ابصرت　　عين المعالي من وزير حسن

خيراته الحسان ما تنتهي　　أو تنتهي أعمار أهل الزمن

ثم ولي الولاية عبد الرحمن بك بن عبد الله بك سنة ١٨٢١ (١٢٣٧ هـ)، وتوفي بعد تقليده منصب الولاية بأيام يسيرة فخلفه الوزير يحيى بن نعمان باشا سنة ١٨٢٢ (١٢٣٨ هـ) وخول رتبة كبير الوزراء ، وكان له مدرسة شهيرة تعرف بمدرسة يحيى باشا . وفي مدة ولايته حدث غلاء ومجاعة عظيمة في الموصل فعمل فرنه وخفف وطأة الجوع وكان كريما محباً للخير . صنف له عبد الباقي أفندى ديواناً سماه (نزهة الدنيا في مدح الوزير يحيى) وتوفي فى القسطنطينية سنة ١٨٦٧ (١٢٨٤ هـ) ورثاه الشاعر بقوله :

ان الوزارة ماتت　　من بعد ما مات يحيى

وممن تولى أيضاً حكم الموصل عبد الرحمن باشا بن محمود باشا سنة ١٨٢٦ (١٢٤٢ هـ) وفي آخر أيامه فشى في الموصل الطاعون فأهلك من أهلها خلقا

كثيراً . وبعده أى سنة ١٨٢٨ (١٢٤٤ هـ) تولى الحكم أمين باشا بن الحاج عثمان بك بن سليمان باشا وهو آخر من تولى حكم الموصل من العائلة الجليلية وتوفي سنة ١٨٤٦ (١٢٦٣ هـ)

تناوب الجليليون على ولاية الموصل وحكمها مدة مائة وعشرين حولاً عرفوا فيها بالدعة وضعة النفس مع رفعة الشان والسؤدد الذى احرزوه بالرتب السامية . وكان حكمهم بالموصل أشبه بحكم مستقل ، لهم الوزراء والكتاب من الاهالي . واشتهروا في الخصال الحميدة والعدل وفعل الخير . فانشد الشعراء مدحهم وغالوا سيما في الثناء على عدلهم والأمن الشامل في بلادهم فلا يسمع من الناقلين عن الأولين الا المدحة عنهم والشكر على الخيرات التي كانوا يبذلونها للاهلين بيد فائضه عند ورود الآفات التي كانت تنتاب الموصل وقد أفاد هؤلاء الوزراء الاجلاء أهالي الموصل فوائد جمة بالجوامع والكنائس والمدارس الكثيرة التى شادوها والاوقاف العديدة التي أوقفوها لها

وترك الجليليون لاولادهم املاكا واسعة اقتنوها بثروتهم . وهي باقية خير دليل على حدة ذهنهم وشدة ذكائهم . اذ انهم ربطوا تلك الاوقاف وجعلوها وقفاً للذرية لاتباع ولا تشرى كي لا يفقدها أولادهم من بعدهم كيفما تلونت الاحوال في مستقبل الازمان . وفي ذلك مبلغ الحزم واصالة الرأي

ولا يزال الى اليوم اخلاف الجليليين الكرماء يسيرون على تلك الاخلاق الحميدة والمكارم العديدة التي ورثوها من اجدادهم النبيلين ، فقد جمعوا بين سعة اليسار وحب الخير وضعة النفس . ولهم في قلوب أهالى الموصل منزلة رفيعة لسابق خدم عائلتهم الجليلية بحيث يجلهم الكبير والصغير ويحترمهم الشريف والوضيع . وتحف بمجالسهم الهيبة والوقار ، فيقصدها الناس على اختلاف طبقاتهم ونحلهم من علماء واشراف . وناهيك بخيراتهم الجزيلة لبائسي الحدباء وفقرائها جهاراً وسراً . أما مساعداتهم للفقراء في اثناء مجاعة الحرب الكونية التي اشتدت في هذه المدينة فهي اكثر مما سمعنا ورأينا

الفصل السابع عشر

ولاية قاسم باشا آل العمري ومقتله في بغداد

ثم قدوم أمير راوندوز الى اطراف الموصل

استقال أمين باشا من ولاية الموصل فتولاها بعده قاسم باشا بن حسن ابن احمد بن علي المفتي المعروف بأبي الفضائل آل العمري . وكان قاسم باشا ذا راي صائب وحزم ثاقب شهيراً بكرمه وحسن اخلاقه . ولما استلم مقاليد الحكم وتقلد زمام التدبير ازداد قدراً وشاناً وطبق عدله الآفاق . ونشأت خصومة بينه وبين داود باشا والي بغداد لم نقف على حقيقة اسبابها وتمكنت الخصومة بينهما حتى آلت الى العداوة فأخذ داود باشا يتحين فرصة للانتقام منه . ثم تهيأ له ان يستحصل أمراً من الباب العالي بقتله . وكان ثم تعيين ولاة الموصل وعزلهم منوطاً بانهاء ولاة بغداد

فقدم أغا التتر يحمل براءة الحكم بقتل قاسم باشا . ولما بلغ الموصل نزل ضيفاً عنده . فوقع في نفس قاسم باشا ريبة من مجيء أغا التتر الى بغداد . وأوجس خيفة من ذلك وعرف ان قدومه لا يكون الا لامر هام . ولا أهم مما كان بينه وبين داود باشا من الحزازات . فلما جنّ الليل وقد استغرق أغا التتر في سبات عميق أرسل قاسم باشا فاستدعى اليه رئيس العلماء عبد الله افندي وقال له أستريب بقدوم أغا التتر . ونفسي تحدثني ان في محفظته أمراً هاماً يتعلق بحياتي وأريد أن أزيح عني هذا الارتياب . ثم عمد الى محفظة أغا التتر وفتحها فوجد فيها البراءة التي تنطق بأمر قتله بناء على انهاء داود باشا . فأخذ قاسم باشا أمر قتله وأخفاه . فلما كان الصباح سار أغا التتر قاصداً بغداد وهو لا يعلم ما جرى . وعند وصوله اليها طلب البراءة في محفظته فلم يجدها فاطلع داود باشا على ضياعها . وأخبره أيضاً بنزوله ضيفاً عند قاسم

باشا ، فتحقق لديهما ان قاسم باشا أخذها ليلاً وأنقذ نفسه من القتل بحذقه ودهائه

كان داود باشا كرجي الاصل نال الوزارة . وحكم في بغداد بعد قتل سعيد باشا وكان ذا علم غزير وشان خطير . فان حسن افندى بن محمود افندى يذكر في اخبار العمرية ان وجوه بغداد ما كانوا يستطيعون مقابلة داود باشا الا يوم الجمعة . ولا يجسرون على التدخين وشرب القهوة بحضوره لما يجدون من هيبته . فبعد خيبة مسعاه في قتل قاسم باشا باعوام نفر من أولي الامر في عاصمة بني عثمان واشتدت هذه النفرة والوحشة حتى شق داود باشا عصا الطاعة على السلطان محمود خان الثاني. فوردت الاوامر الى قاسم باشا والي الموصل ان يشخص بجيوشه الى بغداد ويفتتحها . ثم يلقي القبض على داود باشا وأعوانه . فسار قاسم باشا الى بغداد وبصحبته أديب العراق عبد الباقي افندي الفاروقي . ولما انتهى اليها أنفذ رسولاً الى أصحاب داود باشا ان يسلموه ويطيعوا للاوامر السلطانية . فاجابوه لو جئتنا فرداً لسلمناه لك لكننا نحاذر جند الموصل ونخشى غدرهم . فاذا كنت تؤثر السلم وحقن الدماء اقبل الينا بنفسك ونحن نسلمه لك .ثم أقسموا له علي ذلك . فقصدهم قاسم باشا بنفر يسير وعند وصوله اليهم . حمل عليه بعضهم من أهل الغدر وقتلوه غيلةً . ومن ثم أرسل من القسطنطينية علي رضا باشا سنة ١٨٣٠ (١٢٤٦ هـ) مصحوباً بالاوامر المشددة في فتح بغداد والقبض على واليها . فقدمها علي باشا وافتتحها. ثم القى القبض على داود باشا وأرسله مقيداً الى القسطنطينية . وخلف قاسم باشا في ولاية الموصل محمد سعيد باشا بن ياسين افندى سنة ١٨٣١ (١٢٤٧ هـ) وفي اثناء ولايته قدم الى اطراف الموصل محمد باشا أمير راوندوز المعروف بميركور أى الامير الاعور . وكان السبب في قدومه على ما نقله لنا أحد الافاضل أنّ أمير اليزيدية كانْ قد قتل غدراً علي أغا البالطي (من بالطة بجوار بريفكان على مسافة بضع دقائق) وكان علي أغا زعيم عشاير

الالكوشية . فرفع ابن أخيه ملا يحيي أفندى المزورى العالم الفاضل ظلامته الى ميركور واستعداه على اليزيدية قتلة عمه . فأقبل ميركور وعبر الزاب الكبير بجنود كالجراد . وهاجم اليزيدية فقتل منهم خلقاً كثيراً ولاذ منهم بالهزيمة الى جبل جودى فطور عابدين فجبل سنجار . ومنهم اعتصموا في الجبال واختفوا في الغابات والاحراش ومنهم عدد عظيم فروا هاربين الى الموصل الا انهم لم يجدوا فيها ملجأ فان الجسر كان قد أزيح عن دجلة خوفاً من غائلة جنود راوندوز . فلحق الامير بالهاربين من اليزيدية وكانوا قد تحصنوا في تل قوينجق . فحاصرهم أياماً حتى استولى عليهم فأعمل فيهم السيف وقتلهم عن بكرة أبيهم . ووجدنا في تاريخ دير ربان هرمزد (وهو تاريخ خطي يتعلق بحوادث الدير المذكور) كلاماً مسهباً عن قدوم ميركور الى هذه النواحي وعن مظالمه فيها من نهب وتخريب وقتل الى غير ذلك ويذكر ان قدومه كان أولاً الى جزيرة ابن عمر سنة ١٨٣٢ (١٢٤٨ هـ) فنهبها وقتل من اهلها خلقاً كثيراً . ثم تحول عنها الى ازخ فوجد اهلها متهيئين الى حربه . وبعد قتال عنيف دام أياماً عاد عنهم بصفقة خائب الى مجاورات الموصل ونزل في قرية حطارا فاخذ اهلها اليزيدية بحد السيف ، ثم اقبل بعساكره الى انورا حيث اطلع على وهن الموصل وقلة جندها في تلك الآونة . فتقدم الى قرية القوش وبعد مانهبها وقتل من اهلها عدداً كثيراً بحيث لم يسلم من يده الا من هرب الى الجبال سار الى دير الرهبان هرمزد المجاور للقرية المذكورة فنهبه وقتل قسماً من رهبانه فاختضبت تلك الاراضي بدم الابرياء . وللقس دميانوس الالقوشي قصيدة ضافية الابيات في اللغة الكلدانية يصف ويلات تلك الكارثة ومظالم ميركور

وهنا جدير بنا ان نقف لنلقي نظرة على هذا الاثر الجليل الذي يصف لنا حسن موقعه الاب مارتان بقوله : وموقع هذا الدير من أجمل المواقع الطبيعية بل انه يعد من الآثار الفريدة اذ لا نجد له نظيراً شرقاً ولا غرباً ،

وقد يسوغ لنا ان نشبهه بدير القديس سابا الواقع قريباً من أورشليم . اه

ان هذا الدير الشهير يجاور القوش قرية ناحوم النبي الواقعة في شمالي الموصل عن مسافة عشر ساعات ، وهو مبني في صدر جبل من سلسلة جبال قردو المعروف بجبل بيت عذري اسمه ربّان هرمزد في حياته . وقد أورد ابن المقدم في مقالته عن الاديرة : ان عقبة (والاصح عتبة) ملك الموصل شيد للربان هرمزد ديراً بقرب صومعته في الجبل وأوقف له أملاكاً وأراضي وارحاء . ويؤيد عامة المؤرخين العرب قدوم عتبة الى الموصل ونينوى فيذكر ابن خلدون في تاريخه ان فاتح الموصل هو عتبة بن فرقد سنة ٦٤٠ (٢٠ هـ) أي في العهد الذي به عمر ربان هرمزد ديره في جبل بيت عذري وسكنه كما يؤكد عمر بن متى الطيرهاني [1] وما زال هذا الأثر الجليل باقياً الى اليوم بغرفه وقلاليه العجيبة المنقورة كلها في صخور عظيمة وعددها يتجاوز المئات معلقة في ذلك الجبل الشاهق فتلوح للناظرين كأوكار للاطيار التي تملأ بتغريداتها فضاء تلك الآكام والوديان . وبين تلك الغرف الصخرية مراق عجيبه تصلها ببعضها ثم تنفذ الى الكنيسة . وأعجب ما يرى هناك مائدة الرهبان وهي حجرة واسعة فسيحة مربعة الشكل تبلغ مساحتها نحو خمسين متراً مربعاً منقورة في صخرة عظيمه وفي وسطها ثلاثة عواميد عظيمة من الصخرة عينها . ومنها أيضاً المقاعد والرفوف والكوى . وفي هذا الجبل عدة صهاريج منقورة أيضاً في الصخر بصناعة محكمة . ثم الكنيسة وهي مبنية من الكلس على صخرة عظيمة ناتئة في الجبل تشرف على واد عميق فيراها الناس من فرجته كانها موطن الراحة ومربع الامن تدعوهم اليها ليذوقوا عذوبة الراحة

لسوء الحظ قد أصبح هذا الأثر الفريد لطول العهد هدفاً للخراب واليوم يسكنه النزر من رهبان دير السيدة لطائفة الكلدان . ولرهبان هذا الدير غسل

(١) كتاب المجدل ص ٥٥

عظيم لا ينكر في تهذيب نصارى الجبل المجاور (١)

والآن نعود الى ما كنا في صدده من غزوة ميركور ، فانه بعد ما أثخن نهباً وقتلاً في نواحي الموصل رحل عنها ثم عاد اليها في السنة الثانية وهي سنة ١٨٣٣ وكانت ولاية الموصل قد عُهدت ثانية ليحيى باشا الجليلي ووصل ميركور الى جهات العقر فخرج عليه الزيباريون وقاتلوه قتالاً شديداً ثم تغلب عليهم فطرد أميرهم محمد سعيد باشا عن ولاية العمادية وجعل مكانه موسى باشا وكان موسى باشا قد نازع محمد سعيد باشا على الولاية ، ولما آيس من بلوغ امنيته التجأ بميركور واستنصره على أخذ الولاية لنفسه فقدم ميركور ونصره على خصمه وقلده الولاية ، ثم اقفل ميركور راجعاً الى راوندوز فاعتصب اهالي العمادية وطردوا موسى باشا وأعادوا محمد سعيد باشا على الولاية . ولما نمى الخبر الى ميركور حاكم راوندوز اقبل الى أطراف الموصل بجيش كثيف هلعت منه قلوب الاهالي لكنه لم يجسر على التقدم الى الموصل بل رحل بعساكره الى العمادية وأقام على حصارها ثلاثة اشهر حتى نفدت مؤن الاهالي وخارت قواهم ولم يعد لهم صبر على تحمل هذا الضيق والخوف من جوره اذا ظفر بهم . فصالحوه وسلموه سعيد باشا . ولما دخل ميركور القلعة غدر باهلها فنهبهم وقتل من رؤسائهم. ثم أقام عليهم والياً أخاه رسول بك فالتحقت العمادية براوندوز . أو بالاحرى أصبحت ادارة مستقلة حتى تولى الموصل اينجه محمد البيرقداري

(١) طالع مقالنا في دير ربان هرمزد (المشرق ١٩٢٢ : ٨٣٥)

الفصل الثامن عشر

اينجه بيرقدار محمد باشا . واجرا آته في الموصل

بعد ما ضبطت الحكومة التركية الموصل ونواحيها وطردت عنها المتغلبين من التركمان والاعاجم فوضت ادارتها الى ولاة أهليين . وذلك لاسباب أخصها رغبة الاهالي في حاكمية عربية كما تعودوه منذ القرون الطويلة ولم يخضعوا للحكومات التترية والتركمانية الا كرهاً . فانهم ما زالوا يتشوقون الى خلع نير عبوديتهم الثقيل حتى أقبلت جيوش الاتراك الى هذه البلاد وضبطتها كما أسلفناه . فقلدت ولايتها الى رجال من نفس الاهالي اتثقت باخلاصهم وصدقهم ، كثقتها بالرجال الجليليين وغيرهم . ورأت ذلك أسلم عاقبة وأقرب محجة لتضمن البلاد لنفسها . اذ بذلك تكسب ثقة الاهالي فتأمن عصيانهم وثوراتهم مع ما هي عليه من بعد الشقة وقلة وسائط النقل فاكتفت منهم ان يستعرفوا سلطانها خليفة المسلمين وأن يخضعوا لها كحكومتهم بصرف النظر بادىء بدء عن استجباء المال منهم بالخراج وغيره . وظلت ولاية الموصل يتناوب حكمها الولاة الاهليون غالباً . ثم لما امنت الحكومة التركية من غوائل الاهالي أرسلت ولاتها من الاتراك وامتنعت من نصب الولاة الاهليين فعينت على الموصل بانهاء والي بغداد اينجه بيرقدار زاده

كان محمد باشا تركي الاصل من مدينة بارطين في قسطموني . وكان قد خدم السلك العسكري في مصر وغيرها . ثم رحل الى الشام حيث مكث مدة طويلة ريثما جمع له أصحاباً ومريدين وشخص بهم الى ديار بكر ثم الى الموصل ونزل بظاهرها قريباً من باب سنجار فخرج عليه الاهالي وطردوه عن الحدود. ولما انتهى خبره الى والي بغداد أرسل فاستقدمه اليه سنة ١٨٣٣ (١٢٤٩هـ) وولاه متصرفية كركوك حيث بقي زهاء سنتين وشيد فيها قصراً منيفاً لدار الحكومة على نهر شاطرلي

ولما عُزل محمد سعيد باشا آل ياسين افندي عن الموصل سنة ١٨٣٥ (١٢٥١ هـ) [١] فوضت ولايتها الى محمد باشا البيرقداري . فأقبل محمد باشا الى الموصل بثلاث كتائب من الجند النظامي وثلاثمائة من الخيالة . وكانت الولاية يومئذ مسلوبة الأمن كثيرة المشاغب الداخلية لعصيان اغوات الجبال . فاصدر محمد باشا أمراً بجمع النفير العام من الموصل ونواحيها فلبى الاهلون أمره كرهاً وسار بالجند الى اسماعيل باشا الذي عقب رسول بك على امارة العمادية وقد شق عصا الطاعة على الحكومة واستقلّ بادارتها مع ما يجاورها . فأقام محمد باشا على حصارها حتى افتتحها فهرب اسماعيل باشا بجنده الى ناحية نيروا شمال شرقي العمادية ، وكان قد عمر قلعتها فامتنع فيها [٢] ودخل محمد باشا الى العمادية . وبعد ما أصلح احوالها أناب عنه أحد اخصائه فيها ثم عاد وفي طريقه نزل على قرية « كر محمد عرب » وأرسل فأحضر اليه أمراء وأغوات الشيخان وقتلهم عن آخرهم . ثم رحل بجنده الى راوندوز لالقاء القبض على أميرها العاصي وهو رشيد بك فحاربه وشتت شمل أصحابه لكنه لم يتمكن من القبض عليه . لان رشيد بك لما رأى قوة محمد باشا لاذ بالهزيمة ومن ثم عاد محمد باشا الى الموصل وكان اسماعيل باشا قد جمع أصحابه ورجاله وأقبل بهم من جهة كردستان الى الموصل فأرسل يبذل الطاعة لاينجه محمد ويطلب ان يقلده ولاية العمادية كما كان قبلاً فلم يجب محمد باشا الى طلبه . واذ لم ينل مأربه تحوّل برجاله الى جزيرة ابن عمر حيث أقام مدة يراسل اكابر العمادية ويلاينهم باذلاً لهم المواعيد حتى انقادوا له وسلموه القلعة سنة ١٨٤٢ (١٢٥٨ هـ) فدخلها واستقل بها . ولما بلغ خبره الى محمد باشا جهز عسكراً وسيره الى اسماعيل باشا فانتشب بينهما قتال شديد بجوار قرية عينتوثا دارت

(١) توفيق فكرت ص ٢٩٨

(٢) عن تاريخ العمادية وهو كتاب خطي في اللغة العربية محفوظ عند احد اشراف قرية زيروا من قرى العمادية نقل لنا شيئاً منه حضرة صدّيق افندي الدملوجي

دوائره على اسماعيل باشا فانكسرت عساكر العمادية وولوا منهزمين الى الجبال بعد ما أضرموا النار في القرية المذكورة . وكانت عساكر الموصل قد عادت على أعقابها فلمّ اسماعيل باشا شعث رجاله وأقبل بهم عن طريق الجبل قاصداً الموصل وفي طريقه مرّ على قرية القوش فنهبها وقتل من أهلها خلقاً كثيراً وأرسل من رجاله الى دير الربان هرمزد فنهبوه ثم أحضروا رهبانه وكانوا قد اختفوا لشدة خوفهم وأوجعوهم ضرباً وأذاقوهم من تباريح العذابات الفادحة شيئاً كثيراً . وكان خبر قدومه قد نمى الى محمد باشا فأرسل عليه فرقةً من الجيش . ولما أحس بهم اسماعيل باشا هرب برجاله واستاق معه رئيس الدير المذكور الأبا حنا ورهبانه وأرسلهم مقيدين بالاغلال الى العمادية وهم حفاة عراة . ثم ان العساكر الموصلية سارت تقفو أثره حتى أدركته بجوار الشيخكان فناوشوه القتال ثم احتاطوا به من كل صوب غير انه تخلص منهم برجاله الى العمادية حيث تحصن

وكانت هذه الاضطرابات الجارية في داخلية ولاية الموصل قد تبلغت الباب العالي وقد أشغل الحكومة العثمانية خاصة خروج ميركور الراوندوزي وتسيطره على اطراف الموصل ومظالمه الدموية فيها . فأرسل الباب العالي الوزير الشهير مصطفى رشيد باشا الديبلومات لقطع دابر العصاة وحسم المشاغب السارية في الموصل ، فأقبل هذا الداهية السياسي بالجنود الكثيرة والعدد الوفيرة الى الموصل واصطحب معه محمد باشا والي الموصل وعلي باشا والي بغداد وسار بهم يريد القاء القبض على ميركور نخيمت عساكرهم في صحراء حرير (دشت حرير) وهي ناحية ما بين اربيل وراوندوز . وهناك أدركوا عجزهم عن القاء القبض على الامير العاصي لمناعة حصونه وكثرة جنوده . فعمد ذلك السياسي الخطير رشيد باشا الى اعمال الحيلة ورأى خير ذريعة للقبض عليه استئمانه بالحيلة فراسله وأمنه حتى وثقه من نفسه فأقبل اليه ميركور صاغراً . كذا روته سالنامة الموصل نقلاً عن وثائق رسمية . ونقل

أحد احفاد ميركور ان مصطفى رشيد باشا سار بالامير المذكور الى عاصمة العثمانيين حيث نال العفو السلطاني والاذن بالعودة الى وطنه . وبينما كان في الطريق عند سيواس فاجأه التتر (حامل البريد السلطاني) يحمل البراءة في قتله الى والي سيواس فقتل في سيواس ودفن فيها

ولما تمّ القبض على ميركور انقلبت العساكر العثمانية الى العمادية وشددوا عليها الحصار واقاموا عليها اياماً حتى افتتحوها وامسكوا اسماعيل باشا وساقوه الى الموصل مكبلاً بالاغلال ومن هناك أرسل الى بغداد ففك عقال الرهبان وكان الابا حنا قد توفي في السجن لشيخوخته ولشدة ما اصابه من الضرب

اشتهر محمد باشا بهمته الباذخة وسعيه في تعمير دور الحكومة وهي باقية الى اليوم فانه جمع اليه تجار المدينة واغنياءها والزمهم باعطاء المصاريف المطلوبة لوجه ذلك فشيد الثكنة العسكرية والمستشفى وجامع سوق الحنطة وجدد مزار دانيال النبي واقام ابنية كثيرة في المراكز المربوطة بولايته ثم نظم احوال الجند وانشأ لهم الافران العديدة واهتم أيضاً ببناية معمل لصنع المدافع والقنابل والبارود وغيرها من الاسلحة وجلب لذلك الصناع الحذق فعمل ما ينيف على الثمانين مدفعاً واليوم يرى منها مدفعان عظيمان امام الثكنة العسكرية يقرأ على أحدها ابيات من الشعر في اللغة التركية منها :

ناشا طوپهاي وزير دلير امرى ايله وجوده كلدى بوطوب
أول محمد مشير با تدبير كه أوله فاتح وغا وحروب
همتيله ديدم بو تاريخى طوب آتش فشان اعداى كوب

١٢٥٩

وكان محمد باشا شديداً فيما يرومه قاسياً على العصاة فظاً شرساً مع الأهلين. من ذلك انه لما ثارت أهالي الموصل وأبوا قبول القانون العسكري وتنفيذه أرسل اليهم أحد اعوانه يدعى قاسم افندي ليدعوهم الى الطاعة ويقنعهم في الاذعان الى القانون العسكري. فلما أقبل رسوله الى الاهالي ثاروا عليه وقتلوه.

فاحضر محمد باشا عشرين مدفعاً صوبها على المدينة ثم أرسل عليها بعض الكتائب النظامية فدخلوها ونهبوا اسواقها وسفكوا دماء أبرياء كثيرين . ثم أمسك بعضاً من وجوهها وأرسلهم نفياً الى البصرة . ومن ثم انقاد الاهلون الى الاذعان . وصار محمد باشا يجند الاهالي من غير مراعاة السن والحال فكان يبث عسكراً في شوارع المدينة ليأتوه بمن يصادفونه ايا كان . وقصده من هذا التجنيد اجراء التعقيبات الشديدة لقطع دابر العصاة واللصوص الذين كانوا قد كثروا في الموصل واطرافها . فنجح مسعاه وقصد العصاة من أهالي تلعفر وسنجار فقتل من كبارهم وأوساطهم ثم حمل على عشاير شمر وضعضعهم وأسر من شيوخهم الشيخ هجر وأتى به الى الموصل حيث أقام مدة ثم هرب . وباتت الولاية بعد تدميره العصاة من الاكراد والاعراب في أمن شامل . وضيق أيضاً على الذين يشربون المسكرات ويتعاطون المحرمات فكان يقاصص بالصلب والقتل من يشكى اليه بذلك . أما مالية الحكومة فكانت في وقته تجمع من المكس والخراج أي الاعشار ومن المسقفات وهي خمسة وعشرون غرشاً كانت تدفع عن كل بيت . وغرش واحد عن كل رأس غنم . وكان محمد باشا يسد مصاريف الولاية من هذا الاستجباء كدفع مرتبات الجيش والعلماء والخطباء ومساعدة الفقراء والمحتاجين الى غيرها . وتوفي محمد باشا سنة ١٨٤٣ (١٢٥٩ هـ) فدُفن في جامع نبي الله شيث

ثم تعاقبت الولاة الاتراك على الموصل . وكانت الولاية في أول ايامهم في اضطراب من جرّاء الاختلال الدائم وتوارد النوائب ومن أشهرها الغلاء المعروف عند أهالي الموصل بغلاء الليرة سنة ١٨٧٨ (١٢٩٥ هـ) . وكانت الامطار في تلك السنة قد هطلت بغزارة . والموسم يبشر برخص وخصب وخير شامل وقبيل ان يضع الحصادون يدهم على المنجل هبت ريح سموم لافحة أحرقت الزروع وجعلت سنابلها عصافة لا حبّ فيها . وعمت هذه الآفة ديار بكر وبغداد مع كافة نواحيها . وزاد على ذلك البرد الشديد حتى جمد

النهر وامتنع وارد الحنطة من ديار بكر وبغداد . فاشتد الضيق واستحكمت حلقاته لصعود أثمان الغلة صعوداً فاحشاً اعتباراً الى ذلك الوقت . ثم لندورها وقلتها . فأكل الناس لحوم الحيوانات المائتة وتلف منهم خلق كثير جوعاً ووجعاً لا كلهم الجيف . ومن أشد ما حكي عن حوادث تلك السنة المفجعة ان امرأةً فقيرة باعت مصاغاً ذهبياً لم يبق لها غيره بمبلغ مائة غرش وفي اليوم عينه تبلغ الامر من الحكومة المحلية بحط الدراهم أي تنزيلها فأصبح ذلك المبلغ بيدها ستين غرشاً . ولما قصدت السوق لتتزود ما يقيتها ويقيت ابنتها الصغيرة صادفها نشال فسرق منها دراهمها وعادت تلك المسكينة تندب نكد طالعها لعلمها انها أصبحت مع ابنتها فريسة بين انياب الجوع المدقع

الفصل التاسع عشر

مظالم الفريق عمر وهبي باشا في الموصل

أنفذ السلطان عبد الحميد خان بن عبد المجيد الى نواحي الموصل الفريق عمر وهبي باشا لثلاثة مقاصد اصلاحية : أولها تحسين أحوال الجند وتحصيل ما بقي من الخراج في ذمة الاهالي . ثانيها اخضاع عشاير شمر العاصية واسكانهم في بعض أراضي ما بين النهرين للزراعة . ثالثها تهذيب القبائل اليزيدية واقناعهم بالنصح وارشادهم الى اعتناق الدين الاسلامي . فدخل الفريق المذكور مدينة الموصل في ٥ حزيران سنة ١٨٩٠ (١٣٠٨ هـ) في ولاية عثمان باشا . وبدأ في انجاز هذه المهمة . وأول ما فعله انه اتهم اعضاء مجلس الادارة باختلاس أموال أميرية فسجنهم مع بعض الاعيان في حبس العامة في ذلك الفصل الشديد القيظ وأبقاهم في السجن مدة ستة أيام ، ثم أمر باخراجهم فعزلهم من وظائفهم . وانما بدأ في معاملة وجوه المدينة وكبارها بسوء المعاملة كي يخافه سواد الشعب فينقادون له انقياداً اعمى . وبعد هذا شكل لجنة تحصيلية تنظر في جميع ما تبقى على الاهالي من الديون الاميرية وأخذ يستعمل

العنف والشدة حتى أجبر الكثيرون من الفقراء على بيع ثيابهم وبيوتهم لدفع المال تخلصاً من ذلك الغشوم الجائر . ومن تأخر عن دفع المال يأمر بان يسوّد وجهه وتغلل يداه ورجلاه بالحديد ويطاف به في الاسواق والشوارع كي يزيد الخوف في القلوب الهالعة . فجمع في مدة قصيرة عن ثماني سنوات سالفة أموالاً طائلة بلغت ٥٢٠٠٠ ليرة ونيفاً من باقي التزام وضمان وبدل عسكري وخراج وتعداد غنم الى غير ذلك . فزاد في تعيينات العسكرية وشيد داراً للحكومة على طرز جديد . ثم أحضر كبار المدينة واغنياءها وحملهم الاعانات الجبرية فجمع منهم الفاً ومايتي ليرة وصرف هذه الاموال في وجوه لم تغن كثيرا

وبعد فراغه من جمع الاموال عمد الى اخضاع العشاير العاصية من عرب وشبك وأخذ يبدل لهم الورق والعين في سبيل اسكانهم وتدريبهم على زراعة الاراضي . ثم أحضر شيوخ القبائل والزعماء وأمرهم بتسليم ما عندهم من أسلحة فلبوا طلبه رغبة بما وعدهم من المال فجمعوا له ٢٥٠٠ قطعة من انواع البنادق غير ان سعيه في اخضاعهم لم يكن الا ضرباً على حديد بارد فان أولئك الاعراب ما زالوا جارين على ما كانوا عليه من العصيان وقطع الطرق . ومن اعماله انه أطلق جميع المسجونين من أصحاب الجنايات وكان عددهم ثمانين . وذلك من دون الاستئذان من الباب العالي ثم حط اثمان المسكوكات وهي الليرة والمجيدي . وبعد مضي ثمانية أشهر على ذلك وقد رأى التجار ما أصابهم من الاضرار الجسيمة والخساير الفادحة رفعوا ظلامتهم الى المراكز العليا وأعطيت البرقيات من الوالي ومجلس البداية وتجار المدينة واعيانها وكل فريق منهم يتشكى من اغتصاب امواله وحقوقه المهتضمة . ولما اطلع الفريق على ذلك شدد المنع على ادارة البرق من ارسال البرقيات قبل اطلاعه عليها هو نفسه

الفصل العشرون

الحملات على اليزيدية

توالت غارات العساكر على اليزيدية . وقد ذكرنا عن حملة محمد باشا أمير راوندوز وعن غارته الشعواء على الشيخان ومذابحه فيها . ثم كانت بعدها حملة محمد شريف باشا على سنجار سنة ١٨٤٤ (١٢٦٠ هـ) وعقبتها في السنة عينها تقريباً حملة حافظ باشا [1] وفي كلتا الحملتين جرت مذابح دموية قتل فيها على ما يؤكده الرحالة المستر لايارد نحو ما يناهز ثلاثة ارباع سكان الجبل فمنهم قتلوا رمياً بالرصاص وبقنابل الجسد ، ومنهم لجأوا الى المغاور والكهوف فحاصرهم الجند وأضرموا النار فيها فماتوا حريقاً أو خنقاً بالدخان ثم استاقوا الاولاد الى المدن حيث عرضوا للبيع لتزيد أثمانهم في ثروة الذين غمسوا يدهم في دم هؤلاء المساكين

قال الرحالة لايارد : فاضطر اليزيدية ان يهجروا قراهم ويشكلوا عصابات للدفاع عن حياتهم فقطعوا الطرق وأخذوا ينهبون السابلة ويغيرون على القرى المجاورة . ثم حمل عليهم كريدلي محمد باشا سنة ١٨٤٥ (١٢٦١ هـ) فاثخن فيهم قتلاً وألقى القبض على زعيمهم الشيخ ناصر ولم يطلقه حتى شفع فيه المستر رسام وكيل الدولة البريطانية في الموصل فاطلق سراحه على شرط ان يفديه اليزيدية ففدوه بمبلغ عظيم من الدراهم

وكان كريدلي محمد باشا من أشد الولاة وأقساهم على أهالي الموصل فانه قبض على بعض منهم وزجهم في السجون العميقة وأوسعهم اهانة . وشدد في جمع الاموال الاميرية التي كان يسميها « ديش پاره سى » درهم السن . وذكر الرحالة لايارد ـ وكان في الموصل اثناء ولايته ـ انه تمارض ذات يوم وتحدث

(١) جاء عنه في قاموس الاعلام أنه كان والياً على كردستان فى حياة السلطان عبد المجيد (١٨١٩ ـ ١٨٦٠)

اعوانه باحتضاره ففرح الاهلون بهـذا النبأ ، وكان هو قد بث العيون والجواسيس ليستطلع نيات القوم فامسك من الاشراف بداعي أنهم يتجاوزون على حدود سلطته وأغرمهم أموالاً طائلة . وكانت عساكره قد انتشرت في القرى وبين القبائل وأخذت تنهب وتسلب حتى اضطر الاهالي ان يهجروا قراهم ويتركوا مزروعاتهم تخلصاً من هذا الظلم ، فعمدوا الى قطع الطرق تلافياً لمعيشتهم

وفي سنة ١٨٤٥ (١٢٦٢ هـ) زحف الوالي طيار باشا بعساكره على سنجار . وفي اليوم الثامن من تشرين الاول بلغ بهم عند قرية ميكران وهي من أهم قرى الجبل وقد دمرت أهلها النكبات العديدة من غزوة كريدلي محمد باشا فخافوا ان يصيبهم من طيار باشا ما أصابهم ممن سلفه . ولهذا أصروا على المدافعة ما أمكنهم . فأنفذ اليهم الباشا واحداً من خاصته مع شرذمة من الجند ليسكن روعهم ويدعوهم الى الاذعان والطاعة . فلما رآه الاهالي قادماً مع الجند خافوا دسيستهم فأطلقوا عليهم النار وأصابوا منهم فارسين وفرّ البقية . فاغتاظ طيار باشا من ذلك وحمل على القرية . وكان أهلها قد تحصنوا في الجبل بين الكهوف والصخور فقتل الجند من وجدوا فيها من الشيوخ والاطفال والنساء [1] ودام الجبل في اضطراب حال واختلال والحكومة العثمانية ترسل السرايا الواحدة تلو الاخرى حتى كانت حملات الفريق عمر وهبي باشا وهي آخر نكبات اليزيدية وأشدها هولاً

شرع الفريق بانجاز مهمته الثالثة وهي ارشاد اليزيديين الى اعتناق الدين الاسلامي فأنفذ يطلب زعماءهم فامتثلوا أمره كرهاً لما وقع من هيبته وخوفه في قلوب عموم أهالي الموصل ونواحيها . فحضر اليه من قرى الشيخان خلق كثير من اليزيدية مع أربعة من كبار زعمائهم وهم يجهلون سبب دعوتهم . ولما قاربوا المدينة خرج لاستقبالهم هو نفسه مع العلماء والأعيان يتقدمهم

(1) Nineveh and its remains. 21.

الامراء العسكرية مع كتيبتين من الجند والموسيقي العسكرية فدهش أولئك لهذا الاكرام الغريب والاحتفاء العجيب وما زالوا يسيرون بهم والموسيقى تعزف احتفاءً بهم حتى وصلوا دار الحكومة فاوقفوهم صفوفاً ثلاثة مع أميرهم ميرزا بك في صحن الدار ووقف الفريق مع الوالي والاعيان على درج المرقى ثم عرض على اليزيدية أمر الفريق بأن يلعنوا الشيطان فسكت جميعهم وكرر الأمر ثلاث مرات واليزيدية ساكتون كأن الطير على رؤوسهم . فأمر الفريق بضربهم فاشبعهم الجند ضرباً عنيفاً حتى مات منهم ثلاثة وألقى الجرحى في المستشفيات ليعالجوا والذين سلموا من الاذى جعلهم عنده وأكرمهم وأحسن مثواهم علهم يهتدون . ثم أبرق الى الاستانة يخبر باهتداء عشرين ألفاً من ابناء الأمة اليزيدية وعلى ذلك طلب أوسمة للأمير ميرزا بك واخوته فارسلت له الاوسمة وكان ميرزا بك مقيماً عنده اما بقية اليزيدية فانهم رجعوا الى قراهم رويداً رويدا . ولما رأى عمر باشا ان مسعاه لم ينجح في طريق العنف والشدة أرسل معلمين ليعلموهم القراءة وأصول الدين فطردهم اليزيدية وتهددوهم بالقتل اذا عادوا . ولما بلغ ذلك الى عمر باشا أنفذ ابنه مع كتيبة من الجند الى قرى الشيخان فحملوا عليها ونهبوها واستاقوا مواشيها وسبوا نساءها واولادها وذبحوا من رجالها خلقاً كثيراً واضرموا النار في أربع قرى من الدنادية (وهي في غربي باعدرا تشتمل على ثماني قرى يزيدية اشهرها بيبان وطوغات) فاحترقت باهاليها ومواشيها . ثم سار الفريق عمر باشا على سنجار فاقام عليها مدة طويلة يحاول فتحها وفي مدة غيابه أخبر وكلاء الدول الأجنبية سفراءهم في الاستانة فاطلع الباب العالي على هذه المظالم وعلى أثر ذلك أقبلت الى الموصل لجنة تفتيشية متنكره بزي جبليين لاستقصاء الاحوال وبعد وقوفهم على حقيقة مظالمه العديدة وصحة الشكايات ابرقوا الى الاستانة فتبلغت الاوامر بعزله وسافر الفريق الى الاستانة بصحبة اللجنة التفتيشية في شهر نيسان سنة ١٨٩١ (١٣٠٩ هـ)

ان اليزيديين مازالوا الى اليوم يذكرون هذه النكبات باناشيد رثائية على طريق الحكاية يسمونها « ستران » ومنها يستفاد أهم حوادث تلك الوقائع

﴿ الولاة الاتراك ﴾

« الذين عقبوا اينجه بيرقدار محمد باشا في ولاية الموصل »

محمد شريف باشا	١٢٦٠
كريدلي محمد باشا	١٢٦١
طيار باشا	١٢٦٢
اسعد باشا	١٢٦٣
وجيهي باشا	١٢٦٤
علي أشقر باشا	١٢٦٥
محمد كامل باشا	١٢٦٦
مصطفى مظهر باشا	١٢٦٧
متصرف حلمي باشا	١٢٦٧
مصطفى باشا	١٢٧٤
ويسي باشا	١٢٧٥
عبد الله باشا	١٢٧٦
حاجي يوسف باشا	١٢٧٧
قائم مقام عطاء الله بك	١٢٧٨
كنعان باشا	١٢٧٨
متصرف آصف أفندي	١٢٨٤
ضياء باشا	١٢٨٥
آصف أفندي دفعة ثانية	١٢٨٦
شبلي باشا	١٢٨٨
حاجي علي باشا	١٢٨٩
شبلي باشا دفعة ثانية	١٢٨٩
عبدي باشا	١٢٨٩
ويسي باشا	١٢٩٠
وكيل الفريق نافذ باشا	١٢٩٢
مصطفى نجيب باشا	١٢٩٢
أحمد ناظم باشا	١٢٩٤
فيضي باشا	١٢٩٥
عبد النافع أفندي	١٢٩٥
وكيل الفريق محمد منير باشا	١٢٩٦
تحسين باشا	١٢٩٨
فائق باشا	١٣٠٣
رشيد باشا	١٣٠٤
الوكيل طاهر باشا	١٣٠٥
عبد القادر كمالي باشا	١٣٠٧
عثمان باشا	١٣٠٨
الوزير عزيز باشا	١٣٠٩
صالح باشا	١٣١١
الفريق عبد الله باشا	١٣١٢

رفيق باشا	١٣١٢	فريق زكي باشا الحلبي	١٣٢٤
زهدي بك	١٣١٢	رشيد بك	١٣٢٤
عبد الوهاب باشا	١٣١٣	فاضل باشا الداغستاني	١٣٢٥
عارف باشا المشير	١٣١٤	طاهر باشا	١٣٢٦
وكيل الوالي حمدي بك	١٣١٤	حسن محرم بك	
حازم بك	١٣١٥	رشيد بك دوقتور	
ناظم بك	١٣١٧		وكانا من أعدل الولاة
فائق باشا	١٣١٧	سليمان نظيف بك	الاتراك واشفقهم
حاج رشيد باشا	١٣١٧	حيدر بك	وأكثرهم فضلاً على
نوري باشا	١٣١٨		أم الربيعين
مصطفى يمني بك	١٣٢١	ممدوح بك	
		الوكيل نوري بك	

الى حين الاحتلال البريطاني في ٣ تشرين الثاني سنة ١٩١٨ (١٣٣٧ هـ)

الفصل الواحد والعشرون

مدارس الموصل في عهد الحكومة العثمانية

رأينا في خلال الفصول السابقة ما كان من أمر العلوم وانحطاطها في عامة هذه البلاد سيما في عهد الدولة الايلخانية والدول التركمانية ثم في زمن تسيطر الاعجام. ولما استولت الدولة العثمانية على الموصل وفوضت حكمها غالباً للوزراء الجليليين أحدث هؤلاء الوزراء النجباء نهضة علمية بما بذلوه من المساعي الحثيثة في انجاح العلوم ونشرها بالمدارس التي شادوها كما رأيناه في اخبارهم. وقد تقدمت تلك المدارس تقدماً باهراً في مدة وجيزة وبلغت من العلم مبلغاً راقياً شهد به العلماء والادباء العديدون الذين نبغوا آنئذٍ في الموصل وبرزوا في العلوم وفي الآداب اللغوية ونخص بالذكر منهم: عبد الله افندي

الدملوجي رئيس العلماء صاحب كتاب « شرح العصام في علم الوضع » عارض به معارضه صالح افندي السعدي كاتب الديوان . وعبد الله افندي العمري رئيس العلماء . ومحمد أمين افندي الخطيب الذي ترك خمسة عشر مؤلفاً مع رسائل وشروحات كثيرة . وعبد الباقي الفوري العمري صاحب كتاب « نزهة الدنيا » . والحاج محمد سعيد الجوادي . والأديب البارع محمد افندي الغلامي . والسيد محمد افندي الحسيني صاحب « تخميس القصيدة الهمزية » . والشيخ علي الفهمي . والحاج عبد الرحيم الفائز صاحب « الرحلة الى الاراضي المقدسة » . وأمين الجزية ملا مصطفى وله « تخميس بانت سعاد » وهو تخميس نفيس . وأحمد عزت باشا العمري صاحب كتاب « العقود الجوهرية »

واشتهر من المعلمين في هذه المدارس الوطنية الشيخ يوسف العمري . والشيخ قاسم المعروف بابن الخباز . والشيخ علي محضر باشي . والعالم المفتي عبد الرحمن افندي الكلاك . والملا محمد أمين افندي ابن ملا عبيدة وغيرهم كثيرون سيرد ذكرهم وذكر مؤلفاتهم في الكتاب الثاني ان شاء الله

وأشهر هذه المدارس الوطنية هي مدرسة الباشا ومدرسة الرابعية ومدرسة النعمانية ومدرسة يحيى باشا . اما مواد دروسها فكانت الاصول الفقهية وعلم المنطق والفلسفة والعلوم الرياضية وتشريح الافلاك والآداب اللغوية من بديع ومعاني وبيان وعلم العروض كما استفدناه من بعض اوراق خطية تعاصر تلك الازمنة وتذكر سير بعض العلماء والادباء الموصليين

ثم لما آل أمر الولاية لولاة اتراك اصابت المدارس فترة لانشغال الحكومة آنئذ في كبح جماح العصاة من بدو واكراد سيما في زمن ولاية اينجه بير قدار كما رأيناه . ولما استتب الأمن في ربوع الموصل سعت الحكومة العثمانية في انشاء المكاتب عدا مدارس الجوامع وتشيد أول مكتب بسعي الحاج فهمي أفندي بن مصطفى أفندي العمري بجوار باب الجيش (باب لكش) ويقرأ على بابه تاريخ بنيانه من نظم الحاج فهمي أفندي .

ثم افتتحوا فيه اصنافاً رشدية في عهد ولاية كنعان باشا سنة ١٨٦١ (١٢٧٨ هـ) فكان في الموصل الى حوالي سنة ١٨٩٠ (١٣٠٨ هـ) مكتب واحد رشدي ومكتب آخر ابتدائي . ثم اتسع نطاق المعارف تدريجياً حتى تعددت هذه المكاتب الابتدائية في الموصل وفي قراها المجاورة مع بقية المدارس الوطنية الاسلامية والمسيحية . ثم انشأت الحكومة العثمانية مكاتب رسمية أرقى درجة من الابتدائية فكان في الموصل حوالي سنة ١٣٣٠ هجرية مكتب اعدادي وهو يقابل بدروسه الصفوف الثانوية. وست مدارس أولية رسمية عدا مدارس الجوامع ومدارس الطوائف للذكور والاناث .ثم انشأت الحكومة العثمانية دار المعلمين ومكتباً للصنائع وقد أحدثت هذه المدارس حركة علمية بين الاهالي الا ان هذه الحركة كانت دون ما تستحقه الموصل بالنظر الى مركزها التاريخي والاقتصادي . وكان المرسلون الدومنكيون ممن ساعدوا على النهضة العلمية في الموصل ، فقد أقبل هؤلاء المرسلون الى الحدباء سنة ١٧٥٠ (١١٦٤ هـ) باجازة البابا بندكتس الرابع عشر بعد مبارحة الرسالة الكبوشية وقد قبلهم الأهالي رغبة في الخير الذي املوه منهم ففتحوا مدارسهم للطلاب من كل ملة ونحلة ولما رأوا مايعانيه المعلمون والمتعلمون من المشقات لنقص الكتب اللازمة أسسوا مطبعتهم سنة ١٨٦٠ (١٢٧٧ هـ) سداً لهذه الحاجة وتسهيلاً للمعلمين والطلبة فطبعوا الكتب العديدة في اللغات الثلاث العربية والكلدانية والفرنسية على أصول حديثة لتعليم الناشئة الجديدة ونشروها في الموصل وقراها

وكان الشماس روفائيل مازحجي الآمدي وطناً والكلداني جنساً من العاملين يومئذ في تنشيط العلوم في الحدباء فانه أسس من امواله الخاصة مطبعة مجهزة بكل لوازم الطبع سنة ١٨٦٣ (١٢٨٠ هـ) وأصدرت هذه المطبعة عدداً يسيراً من الكتب العربية والكلدانية والفرنسية ثم هجرت الى اليوم . وانشأ أيضاً مدرسة داخلية للشبان وجهزها بجميع اللوازم غير ان هذه

المشاريع الجليلة ماتت بموت هذا الرجل المحسن وبعد موته بزمن يسير افتتحت هذه المدرسة الداخلية ثانية ثم استكمل بناءها ووسعها غبطة السيد عما نوئيل توما بطريرك الكلدان الكلي الطوبى ، واليوم بهم غبطته العالية تضم هذه المدرسة بين جدرانها ماينيف على الاربعين طالباً يتلقون الدروس الدينية مع سائر العلوم النظرية والأدبية

ثم أسست الحكومة العثمانية مطبعة أخرى في دار الحكومة سنة ١٨٨٥ (١٣٠٣ هـ) فاصدرت جريدة رسمية أسبوعية اخلاقيـة اخبارية في اللسان التركي وبتلك المشاريع تسهلت سبل النجاح وتوفرت اسبابه ونشطت الشبيبة للعلوم وامتاز منهم كثيرون بذكائهم فاحرزوا الفوز في الرهان . ومنهم كثيرون سمقت بهم همتهم ان يقصدوا المدارس العالية في البلاد الراقية حيث تسنى لهم ان يأخذوا العلوم والفنون بحذافيرها واليوم تعد الحدباء من هؤلاء الشبان عدداً وافراً

أما تهذيب البنات وتثقيف مداركهن علماً وأدباً فقد كان مهملا قديماً . ولا نعني قديماً بالاعصر العباسية وقبلها حيث نلقى ديوان الخنساء التي تعد من أشعر زمانها ، وفصاحة الزرقاء الكوفية ، وبلاغة الست زبيدة زوجة الرشيد وعلو آرائها في المهام السياسية ، وأم الخير البغدادية ، وزينب بنت أبي البركات ، وجوهر الدوامي وغيرهن كثيرات . فان نساء الشرق قد أثبتن فطرتهن الشعرية وذكاءهن في العلوم واستعدادهن لتلقي التهذيب الاخلاقي . فقد وصف أبو الحسن محمد الاندلسي حفلة شائقة حضرها في الموصل وذكر ما رآه من تهذب نساء الموصل وآدابهن وانتظام حياتهن الاجتماعية [1] . انما نقصد بكلامنا الاعصر التي تلت الحكومات العربية حيث انحطت العلوم وقضي على حياة التهذيب فأصبحت المرأة الشرقية في العائلة مهتضمة الحقوق الاجتماعية لا تأثير لها في السلطة العائلية ولا مشاطرة لها مع رجلها في أموره

(١) ان جبير ص ٢١٦

ومهامه . ولو سلمنا لها بهذا الحق فمن أين لها التهذيب الشخصي ليقتبس من نوره اعضاء تلك العائلة

على انه كان يمنع على المرأة تعلم القراءة ، بل كان يعتبر تعلمها القراءة والكتابة ضرباً من الطيش. واليوم حالة أغلب قرى الموصل هي باقية على ذلك تنبيك عما كانت عليه الموصل نفسها قبلاً . حتى كانت التربية العائلية في أقصى حاجاتها . والحياة البيتية ليس لها شيء من التوازن العائلي . ولم تزل الموصل محرومة من مدارس الاناث حتى أقبلت الراهبات المعروفات باخوات المحبة وكان مجيئهن الى الموصل في شهر تشرين الثاني سنة ١٨٧٣ (١٢٩٠ هـ) ففتحن مدارسهن للبنات المسلمات والمسيحيات وسعين كل السعي في تثقيف اخلاقهن وتعليمهن القراءة والكتابة وتدريبهن على الاشغال البيتية كالخياطة والتطريز والنقش وغير ذلك . ثم افتتحت الحكومة العثمانية مدرستين للبنات . فأتت تلك المدارس بأثمار صالحة وفوائد جمة حيث نرى اليوم ان أغلب النساء الموصليات يتقن القراءة والكتابة في اللغة العربية . ويحسن الاشغال البيتية كالخياطة والتطريز الخ . ونؤمل اننا بتنشيط هذه المدارس وتكثير عددها للذكور وللاناث نتعلم من أوروبا التوازن الاجتماعي ليعرف كل حقه من الحياة وواجبه فيها وتعرف الأم المهذبة تأثيرها في الهيئة الاجتماعية



الفصل الثاني والعشرون

استقلال العراق

باتت الموصل مع سائر بلاد العراق تحت حكم تركيا نحو ٣٨٤ سنة أي منذ استيلاء السلطان سليمان خان القانوني عليها الى أن احتلها الجيش البريطاني بعد انعقاد هدنة الحرب الكونية . وكانت الموصل في أوائل هذه السنين عرضةً لحروب سجال بين الاعجام والعثمانيين الذين كانوا يتنازعونها ثم هدفاً لنبال الاضطرابات والانقلابات . ولما انحسمت تلك القلاقل وكف الاعجام عن منازعة الاتراك ، وتمكنت الحكومة العثمانية من القبض على ناصية البلاد ، وأمنت الغوائل الداخلية والخارجية باخضاع الاهالي وكسر شوكة المتنفذين ، ابت تقليد الوظائف المهمة الا لرجالها من الاتراك كما رأينا سيما بعد حكم الجليليين . ورأت ان خير ذريعة تتوصل بها الى ضبط البلاد العربية هي تضعيف عصبيتهم شأن سائر الحكومات الفاتحة كما فعله اليونانيون والرومانيون في بلاد ما بين النهرين ، والتتر في بلاد العراق حينما أضعفوا اللغة العربية فيه . فقال ابن خلدون [1] : وبقيت اللغة العربية المضرية بمصر والشام والاندلس أما في العراق فلم يبق لها فيه أثر ولا عين وصارت الكتب العلمية تكتب باللسان العجمي وكذا تدريسه . اه

وما زال بعض المتنفذين من الاتراك يسعون في تحقيق هذه الامنية كجعل اللغة التركية لغة رسمية والحط من قدر المدارس الوطنية الاهلية الى غير ذلك حتى تشكل الحزب التركي الشهير المعروف بجمعية الاتحاد والترقي بعد اعلان المشروطية في تركيا سنة ١٩٠٨ فكشفت هذه الجمعية القناع عن مخبآت افكارها في تضعيف القومية العربية بتتريك عنصرها ودثر لغتها . فلما استشعر ابناء العرب بمآرب هذه الجمعية المباينة لهم ورأوا مصير أموال بلادهم

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٣٢

ونقمها الى بلاد تركية أو مستتركة واهمال عمران بلادهم اهمالاً ظاهراً لذعتهم غيرة النزعة العربية فعقدوا الخناصر على صيانة حقوقهم العصبية بنوال استقلال قومي ، وقامت بعض البلاد بالمطالبة بهذه الحقوق وأخص هذه الحقوق جعل اللغة العربية لساناً رسمياً لحكومات البلاد المتكلمة بها ، وتقليد الوظائف الكبيرة والصغيرة لمأمورين أهليين . وقصدهم من ذلك تشكيل حكومات محلية حائزة علي بعض الاستقلال القومي . ثم نزح كثيرون من خيرة شبان الحجاز والشام والعراق الى العواصم الكبيرة في أوروبا سعياً وراء هذه الغاية . ووجدوا في تلك العواصم من شد أزرهم وأخذ بناصرهم . وتلك العوامل التي ثارت في ابناء العرب أحدثت في الايام الاخيرة من حكم تركيا مظالم عظيمة على البلاد العربية ذهب فيها كثيرون من خيرة ابناء العرب ضحية لمطامع بعض المغرضين من كبار المأمورين الاتراك

كان النفوذ والنصر في الشرق للعوامل الأدبية والمعنوية على العوامل المادية . ثم لما خضع لامم غريبة سامته ذلاً فوهنت قواه المعنوية وضعفت فيه عواطف الحرية وحب الاستقلال . وباتت كوميض نار خلال الرماد تتحين هبوب الرياح ليكون لها اضطرام

ثم ان العوامل الفكرية التي امتاز بها الغربيون على الشرقيين في الاعصر الاخيرة سرت كهربائيتها الى جسم الشرق فأعطته حركة قوية . وذلك ان الانقلابات الفكرية التي ظهرت في الغرب حوالي القرن التاسع عشر ليس فقط بين افراد الناس بل بين الحكومات والامبراطوريات العظيمة ولدت في الشرقيين الخاضعين لامم غريبة انقلابات فكرية وثورات معنوية في سبيل التخلص من ربقة التسيطر . وهذا الانعكاس الفكري من الغرب الى الشرق سرى الى ابناء العرب وأخذ ينمو وينتشر حتى عمت هذه الفكرة داخلية البلاد العراقية كالبصرة وبغداد والموصل سيما في خلال سنة ١٩١٣ الى ١٩١٤ وكان من الاسباب القوية التي استنهضت العرب الى المطالبة باستقلالهم القومي

الانقلاب الفكري عند الاتراك وقيامهم على حكوماتهم العثمانية المطلقة ونوالهم الدستور . وكان هـذا الانقلاب العظيم الذي دهش له العالم قد حرك شبان العرب الذين كانوا في عاصمة العثمانيين وفي غيرها من عواصم أوروبا الى القيام للمطالبة بحقوق أوطانهم فعقدوا مؤتمراً في باريس وشكلوا الجمعيات ومنها كانت جمعيـة العهد العراقي فأصبحت عامة الافكار في سائر الاقطار العربية ثائرة ثورة معنوية ضد الحكومة العثمانية . وقام كبار الصحافة ورجال السياسة في أوروبا يعضدون الفكرة العربية ويمهدون السبل امامها . وبينما كانت هذه الجمعيات العربية تضرب على وتيرة واحدة مطالبـة باستقلالها على أوراق الصحف كان جوّ السياسة في أوروبا قد اكفهر بغيوم متكهربة لم تنكشف حتى أوقدت نيران الحرب بين صربيا والنمسا وروسيا والمانيا وفرنسا وانكلترا . ثم اندلعت ألسنتها النارية على تركيا . وذلك ان تركيا كانت معلقة آمالها على المانيا وبين هاتين الدولتين روابط شديدة توثقت عراها سيما سنة ١٨٩٧ ميلادية في زيارة امبراطور المانيا اصقاع فلسطين وتقوت هذه الروابط الولائية في اعطاء تركيا لحليفتها خط طريق حديد بغداد . ثم زاد هذه الروابط توثيقاً احتياج تركيا الى المانيا في أزمة حربها مع الحكومات البلقانية سـنة ١٩١٣ ـ ١٩١٤ حينما كانت حكومات أوروبا على وشك الاصطدام الهائل الذي علقت منه نيران الحرب الكونية

وكانت تركيا حينئذ واثقة كل الوثوق من ظفر المانيا فرضيت ان تتحمل معها اعباء هذه الحرب الشعواء أملاً ان تنال منها تعويضاً عن خسائرها الفادحة في الحروب البلقانية باسترجاع مصر وغيرها فاستقر رأي جمعية الاتحاد والترقي على الاتفاق مع المانيا ـ رغماً عن خوفهم التقليدي من روسيا ـ ليكون لهم النصيب من الغلبة

وعلى هذا اضطرت حكومة بريطانيا الى اعلان الحرب على تركيا وأرسلت من ثم الى الاقوام العربية التي على سواحل شط العرب لتوقفهم على مجرى

السياسة وتوثقهم من نفسها مؤيدة لهم ولاءها القديم بما معناه : ليتضح لكم ان الحكومة البريطانية هي مضطرة مع الاسف الى معاداة تركيا المدفوعة الى محاربتنا باغراء المانيا ، خدمة لمقاصدها ومآربها . ولهذا قدمت الحكومة البريطانية جيشاً الى شط العرب لحماية تجارتها ورجالها دفعاً لمظاهرات تركيا العدائية. وليتثق الجميع ان الجيوش البريطانية لم تقاتل ولن تقاتل ابناء العرب اذ تعتبرهم من الموالين لها ، ولا تعاملهم كاعداء ما داموا على الحياد ، وجل مرامها هو تحرير الاقوام العربية وتنشيطهم الى التقدم علماً واقتصاداً . اه

وما دارت رحى الحرب على سواحل شط العرب حتى احتلت الجيوش البريطانية مدينة البصرة في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٤ (١٣٣٣ هـ) وبذلك قبضت على مفتاح العراق بيد من حديد

فانسحب جاويد باشا بعساكره وما زال القواد الاتراك يرجعون القهقرى بعساكر تركيا حتى افتتح البريطانيون مدينة بغداد في اليوم الحادي عشر من شهر آذار سنة ١٩١٧ (١٣٣٦ هـ) . ثم أقبلوا الى الموصل وأقامت جيوشهم بين بغداد وشرقات سنة وبضعة أشهر. ثم تقدمت الى الموصل وكانت العساكر قد انسحبت عنها وتركتها خالية من المأمورين الملكيين والعسكريين . فاعتنت البلدية المحلية بتشكيل حكومة موقتة لصون الأمن الداخلي . ودام هذا الحال مدة يومين . وبينما كانت العساكر البريطانية تحاول الدخول الى الموصل عقدت الهدنة بين الدول المتحاربة فدخلها البريطانيون وصادف دخولهم اليوم الثالث من شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٨ (١٣٣٧ هـ)

ولما صار أمر البلاد العراقية الى يد الحكومة البريطانية تقوى عزم المدعين بالاستقلال القومي من ابناء العرب اذ كان رجال هذه الحكومة قد عضدوا النهضة العربية في مطالبتهم بالاستقلال وأمل العرب من ناصريهم وعاضديهم تحقيق أمانيهم في الاستقلال . سيما وان الفكرة الغالبة في أوروبا كانت منح هذا الاستقلال للاقوام الصغيرة . ومن نتائج ذلك ان المعاهدات.

الصلحية الاخيرة بنيت على مبدأ المحافظة على استقلال الجنسيات ورعاية مصالح الامم الصغيرة . واكثر الشعوب التي نصرت هذه الفكرة وأفسحت لها المجال هم البريطانيون . ثم نشأ في أوروبا حزب مخالف لهذه الفكرة فثارت عليها الاعتراضات حتى اتهم الموالون لحركة الاستقلال القومي بالخيانة . ثم لم يمض زمن طويل على هذه الثورة حتى تغلب دعاة هذا الاستقلال بعد نضال عنيف فأيدها الحلفاء وأذاعوا في جميع المحافل الرسمية ان سياسة الحلفاء ستكون مبنية على مبدأ المحافظة على استقلال الأمم الصغيرة استقلالاً قومياً . وظلت بذور هذا الاستقلال تنبت وتتقوى في العقول حتى تمكن رجال الحكومة البريطانية من تطبيق سياستهم القاضية باستقلال الولايات المنسلخة عن المملكة العثمانية التي معظم سكانها أو كلهم من العناصر الغير التركية

الفصل الثالث والعشرون

جلوس جلالة الملك الهاشمي « فيصل الاول » على عرش العراق

ان الحركة العربية ما زالت عاملة في نشاط وثبات حتى بعد خمود نيران الحرب الكونية . وكان جلالة الملك حسين ملك الحجاز وهو العامل الاكبر في لم شعث الأمة العربية وتوحيد كلمتها يواصل سعيه في مراجعة دول الحلفاء ويستميل قلوبهم الى المتكلمين بالضاد مطالباً بحقوق أمته النجيبة . بينما كان انجاله اعلام الهدى وآيات الاخلاص الذين خاضوا غمار الحروب الداحسة يبذلون قصاراهم في الذب عن حقوق الاوطان فان العراقيل لم تزل الى ذلك الحين جمة في سبيل استقلال الاقطار العراقية والسورية . وكانت القلوب قد التفت حول سمو الامير فيصل فاتح الاقطار السورية وقد أصبح قطباً لرحى سياستهم فذهب الى أوروبا ليحضر مؤتمر السلم المنعقد في باريس مندوباً عن والده صاحب الجلالة الهاشمية للمطالبة باستقلال العرب . فقر رأي المؤتمر على المناداة بالامير فيصل ملكا على سورية . الا ان تلك الحركة خالفت مساعي

فرنسا وأوغرت صدرها على الحكومة العربية السورية فاحتلت فرنسا البلاد احتلالاً عسكرياً وقوضت دعائم تلك الحكومة الوطنية الحديثة البناء

أما في العراق فكانت حركة جمعية العهد العراقي قد دخلت في طور جديد وظهرت بمظهر سياسي خطير فتجلت روح الاستقلال بشكل عملي عام. وقد بدت منها طلائع الثورة فان رجال جمعية العهد قد عقدوا في ٩ آذار سنة ١٩٢٠ اجتماعاً في دمشق ونادوا فيه بسمو الامير عبد الله نجل جلالة الملك حسين ملكاً على العراق على ان ينوب عنه أخوه سمو الامير زيد. واستند رجال الجمعية في عملهم هذا على وثائق رسمية من الشعب العراقي تخولهم حق النيابة في المناداة بسمو الامير ملكاً على العراق. وقد أثر هذا الحادث تأثيراً عظيماً في العراقيين فقوى آمالهم وشدد عزائمهم

وكانت الادارة العسكرية البريطانية في العراق تسير سيراً حثيثاً في ازالة الاحن والصعوبات الناشئة في سبيل انجاز مهمتهم واجابة طلب الاهالي من تشكيل حكومة وطنية مستقلة. فوزع الكولونل ا. ث. ويلسن الذي كان وقتئذ وكيل القوميسير الملكي بياناً على الحكام السياسيين في المدن والاقضية خلاصته استفتاء الاهالي. وقد طبعت نتيجة الاستفتاء في كتاب خاص وحمل الكولونل ويلسن هذه المجموعة الى باريس فلندن. وعلى أثر ذلك عهد للحكومة البريطانية بالانتداب على البلاد العراقية الممتدة من الحدود الشمالية لولاية الموصل الى خليج العجم وتقرر تأليف حكومة وطنية. فقدم الى العراق للقيام بهذه المهمة فخامة السر پرسي كوكس المعتمد السامي لجلالة ملك بريطانية العظمى وكان وصوله الى عاصمة العراقيين في شهر تشرين الاول سنة ١٩٢٠ لانجاز السياسة المؤيدة والمنوي اتباعها في القطر العراقي تحت مراقبة حكومة جلالة ملك بريطانية العظمى ومساعدتها في تشكيل حكومة وطنية يتخير الاهلون شكلها. وعلى هذا أمر المعتمد السامي بتشكيل وزارة أو مجلس موقت برئاسة صاحب السماحة السيد عبد الرحمن أفندي الكيلاني نقيب

اشراف بغداد يعمل مع الادارة السياسية ريثما يتقرر شكل الحكومة الوطنية في هذه البلاد . وبعد مضي عشرة أشهر على افتتاح المجلس المذكور حينما انحسمت القلاقل وتمهدت الامور تقرر حينئذ بانتخاب عامة الشعب العراقي ان تكون الحكومة العراقية ملوكية دستورية ديموقراطية . وجرى التصويت العام فبويع لسمو الامير فيصل نجل الملك حسين سليل الدوحة الهاشمية ملكا دستوريًا ديموقراطيًا على القطر العراقي وذلك بعد عودته من أوروبا حيث كان يشتغل في القضية العربية . وجرى تتويجه في بغداد في اليوم الثالث والعشرين من شهر آب سنة ١٩٢١ وكان يوم تتويجه باهرًا استعاد فيه العراق مجده العباسي بملكه الهاشمي فدوت ارجاؤه بالابتهال وأدعية النصر بأخلص عواطف الشعب لمليكه المفدى صاحب الجلالة فيصل الاول المالك سعيدًا. وقد عقدت آمال الأمة على جلالته . أيد الله ملكه بالنصر والسعد

الفصل الرابع والعشرون

نظرة اجمالية في الموصل الحالية

ان مدينة الموصل واقعة في سهل جميل فسيح يحيط بها سور بشكل مثلث غير منتظم يبلغ محيطه عشرة آلاف متر على التقريب . وفيه للمدينة عشرة ابواب وهي : باب الجيش المعروف بباب لكش وباب العراق المسمى أيضًا الباب الجديد وباب الابيض أو باب البيض وباب سنجار وباب العمادي وباب الشط وباب القلعة المسمى أيضًا باب السور أو السر وباب الجسر وباب السراي وباب الطوب . اما اليوم فالقسم الأعظم من هذا السور قد تهدم بحيث انه أصبح ردمًا مع بعض آثاره أي جدرانه وقلاعه . ويدور بهذا السور خندق واسع كانت تحول اليه مياه دجلة عند ورود العدو

بناية الموصل — لم يبق عمران الموصل منحصرًا ضمن الاسوار بل قد

شيدت في ظاهرها بعض البيوت والقصور والانزال على الأساليب الحديثة ؛ ومعظم هذه الابنيه هو في شمالي المدينة وجنوبيها . اما ابنية جهتها الغربية فأكثرها ابنية قروية في غاية الحطة والبساطة ، لا سيا قسمها الذي يلاصق الاسوار اذ يسكنها غالباً اعراب لا اجادة لهم في البناء وهم ما زالوا الى اليوم جارين على بساطة عيشهم وسذاجة عوائدهم القديمة ملبساً وماكلاً

وترى البيوت في الموصل ملاصقة لبعضها وأغلب أزقتها حرجة ضيقة بحيث ان المارين في بعضها لا يستطيعون المرور الا فرادى . وقد نشطت الحكومة التركية قبل الحرب الكونية لتوسيع الازقة والشوارع وانشاء الجواد ففتحت جادتين واسعتين احداهما تقطع المدينة من جنوبيها الى شماليها وهي جادة النبي جرجيس والاخرى تشق المدينة في وسطها من الشرق الى الغرب وهي جادة نينوى ، وقبل نجازهما دخلت الموصل جيوش الاحتلال فاستكمل الانكليز هاتين الجادتين ، وشيد الاهلون على جانبيهما الابنية الشائقة المزخرفة

اما بناية الموصل فهي على العموم بالكلس « الجص » والرخام والمرمر الابيض الضارب الى الزرقة ويستخرج هذا المرمر من أراضٍ مجاورة يكتشفها أهل الخبرة وارباب الصناعة . وليس في هذه الابنية شيء من المواد الخشبية ولهذا فبيوت الموصل هي في مأمن من الحريق الذي يحدث في غيرها من البلاد وبهذا الاعتبار تعد من الابنية النفيسة غير انها ذات تأثير شديد في مناخ المدينة اذ ان موادها الانشائية أي الكلس والمرمر تقتبس بسرعة حر القيظ وقر الشتاء فتكسب المناخ حراً وبرودة بل قد تزيده اضعافاً

ان تقويم الموصل [1] يورد لنا عمران الموصل وهذا هو : (١٣٠) جامعاً (١٧) كنيسة (٨) أديرة (٩١٢٦) بيتاً (٣٠٦٢) دكاناً (٤٠) نزلاً أوخان (١٧) حماماً (٦٥) قهوة (٢٠) بستاناً (٢٥) قصراً . ويلاحظ ان

(١) توفيق فكرت

الجوامع والكنائس والاديرة وغيرها من الابنية العمومية لم تزل باقية على عددها كما وردت في التقويم اما الابنية الخصوصية من بساتين وانزال وقصور على الانساق الحديثة المزركشة فقد زادت عدداً عما كانت عليه في ذلك العهد. وبعد الاحتلال البريطاني مدّ الانكليز على (دجلة) جسراً آخر عدا الجسر الاصلي على الطرز الجديد . وأنشأوا التنويرات الكهربائية في الجواد ووسعوا الطرق . وجعلوا المستشفيات على الطراز الصحي الجديد . وتسعى الآن بلدية الموصل بمد أنابيب الماء الى البيوت . وبهـذه الاصلاحات الفنية والصحية تحسنت أحوال المدينة . وتسعى الحكومة أيضاً في انشاء معاهد العلم وتعديد المدارس للبنين وللبنات

سكان الموصل ـ ينتمي سكان الموصل الى أصول ثلاثة أقدمها الاصـل النبطي وهم بعض سكان قرى الموصل وما زالوا يحافظون على لغتهم الآرامية. ثم القبائل العربية التي سكنت الموصل بعد الفتوحات الاسلامية كما أسلفناه . وبعضهم لا يزالون على لغتهم وملابسهم البدوية وعوائدهم القديمة حيث انهم على خلاف ما يتعاطاه قاطنو المدن من الترف والبذخ كالتأنق في الملابس واستجادة المطابخ واتخاذ القصور . وهم يقطنون بالاكثر غربي المدينة . ومنهم القسم الاعظم قد امتزجوا بالاتراك واتخذوا عوائدهم بحكم القاعدة ان المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب . فتزيوا بازيائهم واتخذوا شعارهم واقتبسوا عوائدهم في سائر احوالهم أي في الملبس والمأكل والمشرب

وأهالي الموصل ذوو قامة متوسطة حسنة سمر اللون مع انتظام في ملامحهم متوقدو الذكاء حادّو الأذهان سريعو الحركة تتدفق حياتهم همة ونشاطا للعمل فلا تراهم يتوانون في الاشغال وفيهم المنافسـة على وجه المباراة في طلب الثروة والاقبال على الوظائف والمراتب الى حد الحسد . ولهذا قلما يحفلون بالقصف والملاهي . فيرون غالباً مطرقين يهتمون للمستقبل . حتى أن الرجل منهم ليدخر قوت سـنتين من حبوب الحنطة وغيرها من ضروريات

المعيشة ويباكر الأسواق لشراء قوته اليومي مخافة أن يرزأ شيئاً من مدخره . وهم شديدو التمسك بعرى الأديان محافظون على مبادىء الأخلاق القويمة أتم المحافظة . على أن شهرتهم الصالحة في الاخلاق قديمة يتوارثها الاخلاف عن الاسلاف فقد شهد لهم بذلك السياح العرب كأبي الحسن الأندلسي (النصف الثاني من القرن السادس الهجري) فانه ينوه بالذكر الطيب عن أهالي الموصل ويمدح مبراتهم وحسن أخلاقهم بقوله : وأهالي الموصل على طريقة حسنة يستعملون أعمال البر . فلا تلقى منهم الا ذا وجه طلق وكلمة لينة . ولهم كرامة للغرباء واقبال عليهم . وعندهم اعتدال في جميع معاملاتهم [١]. وكذا أورد عنهم أبو عبد الله الطنجي (مبادىء الجيل الثامن الهجري) : أن لاهل الموصل مكارم أخلاق ولين كلام . وفضيلة ومحبة الغريب [٢] اه . وما زال أهالي الموصل مثابرين على تلك الأخلاق الكريمة التي كانت القبائل العربية تتنافس بها كاكرام الصالحين والغرباء وأهل الاحساب . وانزال الناس منازلهم والأخذ بناصر المظلوم مع شجاعة ومروءة ومحبة لبعضهم لا تميز ملة ولا نحلة

وقد ثبت توادهم في ظروف كثيرة نضرب صفحاً عن ايرادها حذراً من الاسهاب

أعمالها الزراعية ــ ان الموصل مدينة زراعية أكثر منها تجارية لحسن هوائها . وزكاء منابتها . وخصوبة أراضيها . وجهتها الشرقية جبلية كثيرة الاثمار ، كالعنب والتين والزيتون والمشمش والرمان والدراقن والآجاص والتوت الاسود والابيض والجوز واللوز والتفاح . وسائر أنواع الفواكه . وتمتد خلال جبالها ورباها سهول واسعة ترويها دجلة والزاب الاعلى ونهر غادر ونهر الخازر ونهير الخوصر وبعض العيون الكبيرة النابعة من الجبال . وأشهر هذا القسم زراعة أراضي الشيخان والعشائر السبعة وتزرع فيها

(١) ابن جبير ص ٢١٥
(٢) ابن بطوطة ١ ص ١٧٦

المزروعات الشتوية والصيفية كالحنطة والشعير والرز والعدس والحمص والذرة والبطاطة والسمسم والتتن والقطن والقنب وغيرها من أنواع الحبوب . ويقطع فيها الواحد نيفاً وخمسين

أما جهتها الغربية فهي سهول واسعة عظيمة تشتمل على قرى ناحيتي شرقات وزمار المشتهرة بخصب مرافقها وحسن تربتها حتى قيل انه في السنين الممطرة يقطع فيها الواحد مئة . اذ أن هذا القسم مفتقر الى الري أشد الافتقار لقلة المياه فيه . ولهذا فلا يزرع فيها الا المزروعات الشتوية اتكالاً على الامطار .

ان مقدار المغلّ السنوي في قضاء الموصل يبلغ على التقريب ٢٠،٠٠٠،٠٠٠ كيلو من الحنطة و ٢٥،٠٠٠،٠٠٠ كيلو من الشعير وبهذه النسبة أيضاً بقية الحبوب . فلو تحسنت أحوال الزراعة لأتت الموصل بأضعاف ذلك

على ان الزراعة في بلادنا لا تزال ترجع القهقرى رغماً عن خصب أراضيها واعتدال مناخها . وذلك لابطاء أربابها في اتخاذ الآلات والادوات العصرية واهمال أسباب ريها . فانه مع كوننا نرى أهمية الزراعة وأهمية اعمالها في البلاد الراقية نشاهد ان حياتها الى اليوم منوطة بانهمال الامطار حتى اذا ما انقطعت قضي على حياة الاهاين كما نراه في اخبار الاولين فانه لم تمض سنتان أو ثلاث على الموصل ونواحيها الا ويداهمها القحط والجوع لانقطاع الامطار فيتلف من الاهالي الوف والوف جوعاً وينزح الباقون الى البلاد الشاسعة طلباً للرزق وهذا كان من اكبر العوامل القاضية على تقدم هذه البلاد . فلو جلبت الادوات العصرية ونشطت الزراعة بمد القنوات والمساريب لري الاراضي لعادت الموصل ونواحيها الى ما كانت عليه قديماً حيث وصفها المؤرخون بالجنان الغناء ، وأصبحت بزمن قصير من أشهر البلاد زراعة

علاقاتها التجارية ــ ان للموصل شأناً خطيراً في المتجر لا يقل خطورة

عن أهميتها في الزراعة سيما فيما تصدره الى البلاد مما يرد عليها من اطرافها كالاغنام والمواشي والاصواف والجلود وانواع الحاصلات النباتية التي تخرجها الى أوروبا. وها اننا نذكر مقدار ذلك بالايجاز نقلا عن التقويم السنوي [1] حيث بلغت اخراجاتها التجارية الى أوروبا (٢٫٠٠٠٫٠٠٠) أقة من الصوف و(١٫٥٠٠٫٠٠٠) أقة من العفص وكذا من الكثيراء والقطن وجلود المعز. وأصدرت الى بلاد الاناضول(٤٠٠٠) جمل و(١٥٠٠) جاموس. والى ديار بكر وبتليس وارضروم (٢٠٠٠) بغل مع منسوجات قطنية وصوفية وانواع الحبوب. واخرجت الى الاصقاع السورية (٢٥١٫٥٠٠) رأس غنم مع سختيان أصفر وأحمر ومعمولات دباغية ومنسوجات قطنية. وشحنت الى بغداد والبصرة (١٠٫٠٠٠) طغار من الحنطة و (٦٠٠٠) طغار من الشعير مع غيرها من الحبوب والدهن والجبن والتتن والزيت والزبيب وجلود الثعلب والفنك (الصنصار). وأرسلت الى الهند (١٠٠٠) رأس من الخيل المطهمة. والى بلاد العجم شيئاً كثيراً من العفص والكثيراء والتبغ والجلود. اما ادخالاتها من أوروبا فهي الاجواخ والاقمشة القطنية والسكر والغاز والكبريت والادوات الحديدية والآنية النحاسية والزجاجية والوارد اليها من بومباي عن طريق بغداد الاقمشة النفيسة والشاي والاتيان وانواع الحلويات. ومن الهند وبلاد العجم انواع الشال والطنافس والبسط والاقمشة الحريرية. ومن بغداد وديار بكر انواع التمر والحلويات وقد جاء في قاموس الاعلام (ش سامي) ان مبلغ صادرات الموصل كان يربو على مبلغ الوارد اليها، اذ تقدر اخراجاتها بمبلغ ٤٠٠،٠٠٠ ليرة وادخالاتها بمبلغ ١١٠،٠٠٠ وهذا لا نحمله الا على محمل الحدس والتخمين ولكننا لا نرتاب با كثرية مبلغ صادراتها على مبلغ الوارد اليها ويؤمل تقدم تجارتها تقدماً باهراً لاسيما اذا تسهلت طرق المواصلات كمدّ طرق الحديد واصلاح نهرها لسير السفن فيه

(١) توفيق فكرت

صنائعها ـ كانت الموصل قديماً على جانب عظيم من الترقي في الصناعات كبقية البلاد العراقية وقد اشار المؤرخون الى ذلك سيما فيما أوردوه من عظمة ملوكها وترفهم في الالبسة الحريرية المطرزة والمقصبة والحلي الذهبية والفضية والاسلحة المتنوعة وانتظام أبنيتهم وقصورهم المزينة والمزركشة بأنواع النقوش على انه بقدر عمران البلد تكون جودة الصناعات للتانق فيها واستجادة ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعي الترف . وقد ذكر ابن خلدون [١] عن مبلغ حضارة البلاد العراقية والشامية والمصرية لطول آماد دولها واستحكام الصنائع فيها حتى كملت جميع اصنافها على مبدأ الاستجادة والتنميق ، وبقيت تلك الصبغة ثابتة في ذلك العمران حتى انتقض أمر دولها . واننا لنجد آثاراً باقية من ذلك فهي وان كانت اليوم خراباً ففيهااللنا قد البصير دليل كاف على مبلغ حضارة هذه البلاد ورقيها في الصناعات

اما اليوم فالصناعة في الموصل منحطة من ذلك الانحطاط اذ لا يرى فيها الا بعض الصناعات الوطنيـة التي يتسلمها الاهلون تراثاً عن الاولين وأخصها نسج الاقمشة القطنية والتطريز بالحرير وخيوط الفضة المطلاة بالذهب ورقشة الآنية الفخارية وطليها بالدهان الاخضر أوالملون . ويسعى بعض أهل الصناعة في تقليد الاقمشة الحريرية والصوفيـة الأوروبية باقمشة قطنية وطنيـة الا ان سوقها كاسد لغلاء اسعارها حيث انها تكلف الصانع وقتاً طويلا وتعباً جزيلاً فيؤثر الاهلون ابتياع الاقمشة الأوروبية وهكذا أمست الموصل تستمد سائر مقتضياتها من الدول الأجنبية حيث توجد المصانع المظيمة والآلات السريعة في العمل . وهذه هي الضربة القاضية على اقتصاديات بلادنا

ومن الصناعات الدارجة هي النجارة والبناء والصباغة والدباغة ومعالجة النحاس وطرقه أوعية ومراجل وعمل الأحذية الحديثة الطرز وكلها لا تعد في الصناعة الكبيرة ، حيث لا نرى معملاً يقبل الألوف من الصناع كما

(١) مقدمة ص ٣٥٢

في المصانع الأوروبية . على ان جميع الآلات والادوات المتخذة في هذه الصنائع يدوية قديمة العهد والاسلوب . وغاية ما تحتاج اليه بلادنا لترقية الصناعة هو جعل نقابات تهتم بترقية الصنائع الوطنية والاستعاضة عن آلاتها الحاضرة بآلات عصرية وتوسيع نطاقها لتكون في غنى عن أوروبا

تم الكتاب الاول * ولله الحمد



فهرس

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

تصحيح الخطأ

لم نصحح في هذا الجدول سائر الاغلاط المطبعية

بل اكتفينا بتصحيح الاغلاط التي تغير في المعنى . ثم الاغلاط الحاصلة في اسماء الاعلام والامكنة

سطر	صحيفة	خطأ	صواب
١٢	١١	اثور بانابال	اسور بانابال
١٩	١٦	انطيوخوس ثأوس	انطيوخوس الثاني
٢٣	١٨	سيخار	سنجار
٦ الخ	٢٠	جبل القاف	جبل الفاف
١	٢٢	تللسق	تللسقف
١٦	٢٢	تقلا ثيلاسر	تقلاثفلسر
٢٠	٢٤	بسم	بسهم
٢٠	٣٦	من مخزن	في مخزن
٢٠	٣٦	لا علا	لما علا
١	٣٩	علاء الدين بن السلطان لولؤ	الملك الصالح بن السلطان لؤلؤ
٦	٦٠	هرثمة بن عرفجة	عرفجة بن هرثمة
٩	٦٧	الى شهر زور وهى من توابع الموصل	الى شهر زور وعليها عثمان بن سفيان تحت أمرة عبد الله بن مروان فنزل أبو عون وعسكره على فرسخين من شهر زور وهي من توابع الموصل وناوشوا عثمان
١٣	٧٣	السردي	السروي
٢٠	٧٣	عبد الملك بن صالح	عبد الملك بن صالح الهاشمي
١٦	٨١	وزجروهم على	وزجروهم عن
١٦	٨٦	محمود	محمد

سطر	صحيفة	خطأ	صواب
١١	٨٧	بني كنداج	ابن كنداجق
٣	٩١	العقيلتين	العقيليين
٥ الخ	٩٤	ثعلب	تغلب
٢١	١٠٠	ارستان	ارمنستان
١٢ الخ	١٠٥	يحكم	بجكم
١٤	١٠٧	ابن منصور	أبو المنصور
١	١١٤	بكتوزين	بكتوزون
٤	١١٧	أبو حمدان	أبو احمد
١٣	١٣٠	عبد الله	أبا عبد الله
١١	١٣٧	آلة سبكتكين	آل سبكتكين
١٥	١٥١	تكش	تتش
١٥	١٧٧	المقتفي بالله	المقتفي لامر الله
٣	٢٩٦	مارتال	مارتان
٢١	٣٠٦	محمد باشا	محمد رشيد باشا
١٣.١٤	٣١١	رشيد بك	محمد رشيد باشا

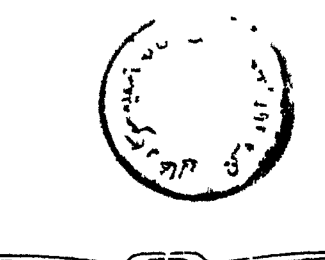


فهرس

أسماء الاعلام الواردة في هذا الجزء

ب

ت



4698/517